

تاريخ أوروبا الشرقية



تأليف: فلاديمير تيسمانيانو
ترجمة: أميل رواش



تاريخ أذربايجان الشرقية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

علياء أبو شادي

نارنج أوروبّا الشرقية

تأليف

فلاديمير تيسمانيانو

ترجمة

أميرك رواس

الهيئة العامة - الإسكندرية	
947-084	رقم الكتاب
٢٧	رقم المجلد



الهيئة المصرية العامة

١٩٩٦

الفهرس

مقدمة ٧

الفصل الأول

الضحايا والخارجون على التاريخ ١٩

الفصل الثاني

من الديمقراطية الشعبية الى الاشتراكية المتطورة ٦٦

الفصل الثالث

الاشتراكية الحقيقية تحكم أوروبا الشرقية ١٢٢

الفصل الرابع

صعود المجتمع المدني ١٥١

الفصل الخامس

روح المجتمع المدني ١٩٧

الفصل السادس

أصول وديناميات الاحتياج الشرق أوروبا ٢٢٤

الفصل السابع

مخاض الديمقراطية ٣٠٤

مقدمة

« ان الشر جزء من تجربتنا • وقد شهد منه جيلا ما يكفى لنفهم الرسالة وناخذها على محمل الجد التام »

لتسيك كولاكوفسكى

Lezek Kolakowski

ان هذا الكتاب محاولة لشرح اصول وآليات أحد أهم أحداث هذا القرن وهو سقوط الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية (١) ، وتناول هذا الحدث سيتجاوز مجرد التوصيف التاريخي ، ذلك لأن هذا الكتاب تم والأحداث لا تزال في بدايتها ولم تتكشف للعيان بعد ، ومن ثم أصبح المؤلف كما أسماه ريمون آرون Raymon Aron شاهد عيان عليها .

ان المرء عندما يتناول ظاهرة التوتاليتارية (٢) Totalitarianism لا يستطيع - كما تعلمنا عن البير كامى Albert Camus وهانا آرنديت Hannah Arendet ، أو فاتيسلاف هافيل Vaclave Havel - أن يتعامل معها متجردا من مشاعره ، فإذا اعتبرنا المواقب الضخمة التي يقيمها شارشيسكو تعدد دليلا عن استقرار نظامه ، فإذ ذلك يعد بعدا عن الموضوعية ، إذ أن هذه المواقب لم تكن سوى مناورات لتجنب الانزلاق في الصراعات ، بل لقد كانت نوعا من التدريبات على القيادة العسكرية ومن ثم ، فإن البعد عن الموضوعية لن يفيد ما طرحه من بحث وتحليل ، بل على العكس قد يفقد البحث مصداقيته .

والشيوعية لا تعد مجرد مجموعة من الأنظمة السياسية أو شكل من الأشكال المتعددة للأنظمة الديكتاتورية التي عاشتها البشرية منذ الأزمان الغابرة وإلى الآن ، بل إنها فريدة في محاولتها لقولبة العقول البشرية ، بل وفريدة في مسعاها لاختضاع الشعب لنظام صارم واجباره على التصرف وفقا لوصفات السعادة البافلوفية (٣) Pavlovian • وبالمقارنة بكتاى السابق « فى رثاء الماركسية فى أوربا الشرقية » (٤) فقد قصدت هنا أن أكون أقل ذاتية . وقد علمتنى

سنوات الدراسة الأكاديمية في أمريكا أن أنقل الرسالة على نحو أقرب ما يكون الى الحقائق والظروف الواقعة بالفعل ، وقد وضع ذلك حداً للعبء النفسى الذى وقع على كما جعلنى أتحرك من مشاعرى الذاتية الى حد كبير ، ومن ثم فأننى آمل أن يضى ذلك على كتابى منطقاً وقوة .

وقد استعنت كى أتم هذا الكتاب بالعديد من المصادر الأساسية عن الحركات الديمقراطية الأوروبية الشرقية . وهنا أعتننى الخاص للمركز الصحفى لشرق أوروبا فى لندن *East European Reporter* وكذلك لمركز التحرر الفكرى فى نيويورك *uncaptive Minds* لما بذل من جهد حتى يتمكن القراء الغربيون من متابعة التغيرات التى اجتاحت الاتحاد السوفيتى السابق . وقد ترددت على المنطقة فى تلك الآونة سنة ١٩٨٩ واستطعت مقابلة العديد من الذين لعبوا أدواراً رئيسية فى تلك الأحداث الدراماتيكية التى أخذت فى التفاقم . وكذلك ناقشت مع زملائى معظم الفروض التى طرحتها كتفسير للأحداث ، وخلال السنوات الأخيرة أصبحت هذه الفروض موضوعات لمحاضراتى فى جامعتى بنسلفانيا وميرلاند (كلية بارك) - وقد شاركنى الطلاب فى محاولة تفسير هذه الأحداث مستخدمين منهجاً علمياً مما جعل تحليلاتهم أقرب ما يكون الى الإعجاز .

ولابد أن أعترف هنا أن معالجتى لهذا الحدث تختلف فى بعض الوجوه عن الاتجاه السائد فى الأعمال التى تناولت الشيوعية بالدراسة والتحليل ، إذ أننى ظللت سنوات طويلة على اقتناع - وآمل أن أكون محقاً - بأن دراسة التكتلات الشيوعية هى فى واقع الأمر مجرد ندفة فى مجال الدراسات الشيوعية المقارنة ، بل إن ما تتم دراسته من تلك التكتلات ربما لا يكون بالضرورة أكثرها مغزى ودلالة . وقد بدا لى أن التركيز على المبادرة الثقافية والاجتماعية التلقائية التى قامت بها الجماهير والتى تعد - بلغة السلطة - النواة الأقل ظهوراً وتأثيراً ، هى الأهم إذا ما رغبتنا فى دراسة وفهم هذه المجتمعات . وأذكر جيداً أننى عندما تناولت المشكلات التى تواجه الشيوعية فى المجتمع المدنى الناشئ فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فإن أكثر من زميل تشكك فى أهمية ما أقوم به ، إذ كيف يتأتى للنويات المدنية الصغيرة المستقلة أن تؤثر فى واقع سياسى خاضع لسيطرة حكومة مطلقة السلطة مثلما هو الحال فى ظل نظام أريك هونكر ؟

وبالنسبة للمجر ، فإن كثيرين اعتقدوا بأن الكادارية Kadarism التي بشرت برؤية مستنيرة لمسألة السلطة المطلقة للدولة (الفاشية) والتي عرفت « بإشتراكية النجاس gulash socialism » يمكن أن تصمد لوقت طويل . وفي هذا الصدد كان أنصار مدرسة بودابست Budapest school استثناء . بل إن بعض المنشقين أنفسهم مثل ميكلوس هراتس Miklos Harszti في كتابه «السجن المخملي The Velvet Prison» وصف الحركات المنشقة على السلطة الشيوعية بأنها نماذج رومانتيكية للسذاجة السياسية .

وما زلت اذكر بوضوح النقد الودى الذى وجهه لى أحد الأساتذة البريطانيين المتميزين فى مجال الدراسات الكلاسيكية حول الشيوعية الرومانية اذ سألتنى مرة اذا كنت أعتقد حقيقة بأن أفكار المنشقين أمثال ميهائ بوتتس Mihai Botez وبول جوما Paul Goma ودان بيترتشيسكو Dan petrescu ودورين تيودوران Dorin Tudoran تستحق هذا الاهتمام الكبير . وهل كنا نتصور فى ظل حكومة شوشيسكو أن يستطيع هؤلاء شيئا أكثر من أن يجسدوا فشل ذلك النظام الذى يعتبر من أكثر الأنظمة السياسية التى عرفت أوربا الشرقية دكتاتورية وجمودا منذ نظام ستالين ؟ ولا ادعى أن تحليلى هو التحليل الوحيد المناسب أو الصحيح . وعلى أية حال فإن تكتلات الشيوعيين قد أخلت الساحة الآن لتترك المسرح السياسى فى هذه البلدان لتلك الرموز التى ظلت تناوىء النظام لفترة طويلة . فمن كان يتوقع بأن مكان كادار سوف يأخذه مؤرخ نكرة متخصص فى تاريخ الطب يدعى جوزيف انتال Jozef Antal ؟ من كان يظن أن الحزب الحاكم فى جمهورية المانيا الديمقراطية سوف يتخلى بارادته عن السلطة لمعارضيه من الرسامين والفيزيائيين والقساوسة البروتستانت الذين رفضوا هذه النظم الدموية وتحولوا لحركات تدعو للسلام ومعاداة التسليح ؟ .

ومن كان يتصور أن جاروزلسكى Joruzelski الجنرال الصارم المعروف والذى حكم البلاد بالقوانين العسكرية (٥) فى ديسمبر سنة ١٩٨١ واعتقل النخبة الحداثية من المعارضين البولنديين سيصافح خصمه اللدود ليخ فاوانسا Lechwansa مؤكدا على الانتقال التدريجى للديمقراطية .

أما دور ميخائيل جورباتشوف فى تشجيعه لما يحدث من تغير ثورى فى البلدان التى سميت — بحق — الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتى فيظل هو التحدى الحقيقى لكل الشروح والتفسيرات المتضاربة حول هذا الموضوع .

وقد خلق هذا التبدل الاستراتيجي الذي طرأ على علاقات الحكومة السوفيتية بجيرانها واقعا سياسيا جديدا . وبإستثناء البانيا Albania ورومانيا Romania ، وصربيا Serbia ، فان دول أوروبا الشرقية لم تعد تركّز لاهثة وراء بريق البيروقراطيات الحكومية الشيوعية بشكلها التقليدي وبدلا من ذلك بزغت أشكال سياسية جديدة وجدت في المعالجات الفلسفية التي تخص أوروبا الشرقية مصادر الهام لايجاد حلول لقضايا مثل المجتمع أو الحياة العامة والحقوق المدنية . وكان حل حلف وارسو (٦) أثناء قمة براغ يوليو ١٩٩١ يعد بمثابة اعلان لنهاية الحلفاء المحافظين وبداية عهد جديد للعلاقات السوفيتية الشرق اوروبية ، وكذلك للعلاقات التي بين دول أوروبا الشرقية بعضها البعض . واختفى ظل الأخ الأكبر Big Brother وبات لزاما على الدول الصغيرة والمتوسطة في المنطقة أن تتأقلم مع واقعها الجديد .

وبدا أن التهديد السوفيتي بالتدخل لسحق كل الحركات الديمقراطية المحلية في أوروبا الشرقية قد أصبح مع مرور الوقت عديم القيمة بل لا وجود له . وفي الوقت الحاضر فان هذه البلدان تواجه ما لا يعد ولا يحصى من النزاعات الداخلية والمآزق التي يتعذر حلها ، وفي بعض هذه البلدان قامت الأقليات العرقية بشجب الاضطهاد الذي تتعرض له على أيدي الغالبية السكانية (٧) .

ففي كوسوفو Kosovo المقاطعة المستقلة في الجمهورية الصربية بيوجسلافيا ، تعاني الغالبية الألبانية من سياسة التمييز العنصري التي تأخذ بها الحكومة الصربية . وفي رومانيا لم تسع الحكومة الى تأمين الحماية للأقلية المجرية بل شجعت وبقوة الحركة القومية التي تدعى فاترا رومنياسكا (٨) Vatra Romaneasca .

ومازال جراح الماضي بكل تلك البلدان تدمى ولم تمدّها الديمقراطيات الجديدة التي أخذت في التشكل حديثا الا بمجرد وصايا ونصائح أخلاقية لا أكثر .

وهذا ليس تقييما مفرطا في التشاؤم ولكنه مجرد وصف موضوعي للموقف .

ولأن النظم الاقتصادية لهذه الدول استمرت في التدهور واستمر تجمع سحب التذمر في الأفق فان صيحات الزند على الطريقة الأبوية الموروثة للأنظمة الشيوعية بدأت تسمع هنا وهناك . نعم كانت هذه

الدول تعاني من الفقر تحت وطأة الحلم الشيوعي إلا أن البعض كان يقول انه يكفي أن كل واحد منا لديه وظيفة ، وليست هناك فوضوية في الطبقات الوسطى للمجتمع . وقد حاول بعض الديماجوجيين بما فيهم الشيوعيين السابقين أن يثيروا البلبلة بين الجماهير ، وقد يحاولون ذلك ثانية .

ويبدو أن تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا قد بدءوا بعد عام ١٩٨٩ يخطون بقوة وثبات على طريق 'المجتمع المفتوح' . وفي هذه الدول تعمل البرلمانات بشكل أو بآخر كهيئات شرعية مسئولة . وقد ظهرت خلافات سياسية كبيرة ، كما ظهرت أحزاب متعددة تعبر عن اهتمامات جماعات شتى . ويفضل الخصخصة التي أخذت في الانتشار بسرعة فان الطبقة الوسطى من التكنوقراط والمقاولين أخذت في التشكل . والآن يقع على النخبة السياسية الملتزمة بالتعددية والسوق الحرة عبء التطوير المنظم لهذا التحول . وبصرف النظر عن احتمال الانتكاس فان هذه البلدان على الأرجح سوف تلحق — ان أجلا أو عاجلا — بالاندماج الأوربي الغربي بما في ذلك الوحدة الاقتصادية الأوربية ويصعب قول نفس الشيء عن البانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، إذ أن كل ما يمكن أن يراه المرء هو التجزؤ والتفتت المستمرين للجسد السياسى وكذلك الصراع اللانهائى ، والأمل مازال ضعيفا في احراز اتفاق قومى . وتقف بلغاريا — الى حد ما — في منتصف الطريق إذ أن قواها الديمقراطية مازالت مبعثرة إلا أن شمس حزبيها الشيوعي السابق أخذت في الأفول حيث فقد رغبته في استرداد نفوذه وجماهيريته ، كما يشير التوازن الجديد في المنطقة الى الفجوة التي ما فتئت تتسع بين دول قلب أوروبا الشرقية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وبلغاريا ، والبقية الأخرى من دول أوروبا الشرقية والتي يمكن أن تؤدي على المدى البعيد الى عزلة بقية دول « البلقان » عن أوروبا واقتصادها وعلاج هذا هو التعجيل بالتحول الديمقراطى فى أوروبا الشرقية وتطوير الحركات الشعبية القوية ، التي يمكن فى المقابل أن تساعد فى بزوغ أحزاب ديمقراطية قوية ، ومن ناحية أخرى فان المستقبل ربما يبشر بأوربتين : واحدة مزدهرة وديمقراطية وغير متعصبة ضد الأقليات السياسية والعرقية أما الأخرى فستكون فقيرة ، خائفة ، يصيبها وباء الشوفينية (٩) والصراعات الأهلية العرقية ومهددة بأنواع جديدة من الديكتاتوريات .

وعلى الغرب الا يتجاهل هذا الخطر القادم . ولا يمكن لسدول
البلقان - ولا يجب - أن تعزل كمنطقة مريضة أو كمنطقة لا يمكن
القيام فيها بشيء من أجل تسهيل الانتقال الى الديمقراطية . وفي كل
هذه الدول قامت حركات جريئة تؤيد ويقوة الحركات الديمقراطية ،
ويجب أن يشعروا بأن الغرب موطن العزم على مساندتهم وتقديم
كل عون لهم .

ويستخدم هذا الكتاب منهج المقارنة لتحديد أسباب تفكك الأنظمة
الشيوعية في أوروبا الشرقية (البانيا ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا ،
المانيا الشرقية ، المجر ، بولندا ، رومانيا ، يوجوسلافيا) ، وما آل
اليه الوضع الراهن من صحوة سياسية سادت هذه المنطقة ، وتوقعات
التطور الديمقراطي في المستقبل المنظور . واعتقد أن القوى الديمقراطية
تستطيع أن تكسب الساحة السياسية عما قريب ، رغم العقبات
الكثيرة التي تقف في طريق التعددية الحقيقية .

وآمل أن يمد كتابي هذا الدارسين لأوروبا الشرقية بقدر مفصل
عن التغيرات المذهلة في السنوات القادمة وامدادهم بآطار تحليلي
للتحولات السياسية المنظورة . وتعد هذه محاولة رائدة لكتابة واحد
من أكثر فصول التاريخ الحديث فتنة وإثارة وهو سقوط الأنظمة
الشيوعية في الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتي وحل
مؤسساتها السياسية والاقتصادية التي كانت تضمن بقاء البنى
الشيوعية ، وكذلك إعادة اكتشاف أنظمة سياسية جديدة في الدول
التي داست تحت أقدامها الفكرة الخاصة بمنح مواطنيها جميعا مطلق
الحرية ، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار الندرة الملفتة للنظر لمثل هذه
المعالجات الجامعة تاريخيا وسوسيولوجيا وسياسيا . وكان لهذه
التطورات أكثر من مغزى واضح ، إذ اقتضت استدعاء مفاهيم مغايرة
جديدة والبحث عن أفكار ونظريات ستقر الشكل النهائي لمثل هذه
التغيرات ، وسوف تكتسب مصطلحات مثل السلطة ، الشرعية ،
الهيمنة ، القيادة ، القوة ، المجتمع دلالات تختلف عن تلك التي كانت
لها في العقود الماضية .

هل ستتطابق الديمقراطية الشيوعية القادمة مع النماذج الغربية
الخاصة بالتعددية ؟ وما هو الإرث الذي خلفته أكثر من أربعة عقود

من اللينينية على العقل الأوربي الشرقى ؟ وكيف يمكن للسياسات الوليدة في أوروبا الشرقية أن تؤثر على بقية أوروبا والعالم ؟ هل سيكون للأزمات المحتملة في المنطقة مضامين ودلالات دولية ؟ ما هو حجم الاستقرار الذى سيتوفر لهذه البلدان اذا ما تلقت هذه السياسات الدعم والمساندة من الغرب ؟ هذه كلها أسئلة سنجتهد فى ايجاد اجابات لها .

والفرض الرئيسى الذى يطرحه هذا الكتاب هو أن أسباب الاجتياح الثورى لأوروبا الشرقية ترجع فى المقام الأول لأسباب داخلية . والسبب الأساسى هو تفاقم ونضج المجتمعات المدنية فى بلاد طالت سيطرة الأحزاب اللينينية المستبدة عليها ، فالمجتمع المدنى يشكل الجماعات غير الحكومية المستقلة ، والاتحادات ، والمؤسسات التى قامت فى أوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة خاصة فى عام ١٩٨٠ وهذا يرجع فى المقام الأول لوجود مثل هذه البنى التى أسماها الفيلسوف التشيكى فايتسلاف بندا Vaclav Benda ذات مسرة ، الدولة المدنية المتوازنة « تلك البنى التى يمكن أن يثمر اختراقها عن تفسير بطيء بعيداً عن العنف ، ولبعض هذه الأحزاب أنشطة سياسية وبعضها الآخر بعيد عن السياسة ، على أنهم جميعاً يمثلون تحدياً ضمنيّاً للطموح الاستبدادى لليد التى تقبض على المجتمع كله وسيبقى مثال واحد بالغرض : وفى النظم السياسية المفرطة فى المركزية تتركز السلطة فى يد الحزب الشيوعى (إذ أن احتكار السلطة مكفول له دستورياً) ، ولا يصبح المجال مفتوحاً أمام المبادرات المستقلة ، لذلك كان قيام المجتمع المدنى الخطوة الأولى للتخلص من هذه السترة الحديدية أى مناهضة نظام الحزب الشيوعى ، ويفضل تلك المعالجة لهذا التغيير السياسى اقترت استراتيجية لبناء مؤسسات مثل النقابات والاتحادات والجامعات المفتوحة والأندية فى مواجهة مؤسسات الدولة ، أو حتى لبناء ثقافات مضادة لبلدان مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا .

وتصاعد مثل هذه الحركات الجديدة لا يمكن أن ينفصل عن المؤثرات الدولية الأخرى ومنها ثورة الاتصالات ، والتدفق المستمر والحر للمعلومات اثر عملية (١٠) هلسنكى Helsinki وتنامى الضغط من الغرب من أجل ديمقراطية حرة ، وتزايد الترابط بين الجماعات المستقلة فى أوروبا الشرقية بنظيراتها فى أوروبا الغربية [جماعات السلم والبيئة] .

واضافة للحركات التي يصعد نجمها ، فان الانتقال الى ما بعد الشيوعية يتسارع تدريجيا وبوضوح مع الانهيار الواضح للأنظمة الاقتصادية المهيمنة . واتاحت ثورة المعلومات الفرصة للشعوب بشرق أوروبا كي يكونوا على دراية بالهوة الشاسعة بين مستويات معيشتهم ومثيلاتها في النصف الآخر من القارة الأوروبية . ولم تستطع الحكومات بدورها أن تقدم لشعوبها سوى معالجات تجميلية لا أكثر مع مشاركة محدودة لعامة الشعب في الحكم . وكثيراً ما سافر البيروقراطيون أنفسهم للغرب وهناك يدركون أن القضية ليست مجرد الالتزام باقتصاد مخطط بل القضية هي التخلص من آليات هذا الاقتصاد المقيد . ولم تكن الرغبة في التحرر من وهم اللينينية يتفشى بين المحكومين فقط ، بل والحكام ايضاً . وما استتبع ذلك هو تبخر تام للاحماسة الايديولوجية وظهور طبقة ادارية كان شاغلها الوحيد هو البقاء في السلطة . وساهمت نهاية اسطورة الشيوعية في سقوط المبدأ الخاص بمسألة الشرعية . ووفقاً للايديولوجيا اللينينية فان الشيوعيين يمثلون مصالح العمال : ولم يعد هذا الزيف قادراً على الحشد والتعبئة خاصة بعد ظهور منظمة نضامن Solidarity في بولندا ، وفي بعض هذه البلدان كان لهؤلاء المصلحين الأغلبية داخل الأحزاب الشيوعية فغيروا برامجها ، وطالبوا بدمج ما هو موجود في المجتمعات الغربية من مبادئ ديمقراطية . وفي رومانيا أدى انفجار السخط الاجتماعي الى التخلص من حكم شوشيسكو ، الا أن ذلك لم يؤد بالضرورة الى سقوط الشيوعية . ويركز هذا الكتاب على الصراعات الثقافية داخل التكتلات الشيوعية ، وكيفية احكام الائتلافات قبضتها على المجتمع كله . ولأن هذه الأحزاب الشيوعية استمدت شرعيتها — الى حد كبير — من علاقتها الخاصة بموسكو ، فانه من المهم التركيز على أثر دور جورباتشوف ولفت الانتباه الى التفاعل الحادث بين التغير في الاتحاد السوفيتي والتجديد الديمقراطي في أوروبا الشرقية .

ويركز الكتاب على خمس اطروحات رئيسية ليست بالجامعة أو الشاملة ، ولكنها على أية حال تعطى فكرة عن الفروض الرئيسية لهذه المعالجة التي تهدف الى تجنب مزالق السرد القصصي أو الوصف المقالي .

والاطروحة الأولى « الشيوعية في أوروبا الشرقية » وهي مقال تاريخي في المقام الأول .

وتبحث في تنوع التقاليد في أوروبا الشرقية قبل الشيوعية ونشأة

الأنظمة الشيوعية عقب الحرب العالمية الثانية ، والآلية الخاصة بالكتلة السوفيتية ثم ستالينية نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev التى أجهضت ، ثم الكوارث الرئيسية فى تاريخ الكتلة الشرقية فى [يوجوسلافيا فى عام ١٩٤٨ ، والمجر ١٩٥١ ، تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ ، وبولندا فى ١٩٨٠] . كما يتضمن هذا الفصل أيضا ثورة العلاقات السوفيتية / الشرق أوروبية وأثر الانتقال السوفيتى من مرحلة برجنيف التى اتسمت « بالجمود » الى بروترويك / جورباتشوف ، و « التفكير الجديد » بصدد العلاقات الدولية .

وهنا كانت المحاولة لتبصر القارئ بالنقاط التى لها دلالة ومغزى فى تاريخ أوروبا الشرقية فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

الاطروحة الثانية « المجتمع المدنى الصاعد » تمدنا برؤية مقارنة للاستراتيجيات والسبل التى انتهجتها الحركات المستقلة [تضامن بولندا ، ميثاق ٧٧ التشيكي اليوجوسلافى ، المعارضة الديمقراطية المجرية] وكذلك يمدنا بتحليل لكيفية ظهور هذه الجماعات فى ظروف قمعية سادت الفترة التى تلت النظام الستالينى السلطوى .

كما سيتم مناقشة برامج مستنيرة ووثائق سياسية أخرى لتساعد فى تحديد الخيارات النظرية والمحتملة لقوى المعارضة . وللهلوسة الأولى سيكون من المستحيل بالنسبة للدارسين لأوروبا الشرقية أن يفهموا أصول وتوجهات حركات التغيير الجارية دون الرجوع الى مقال فيسلاف هافيل المدوى « قوة المتهورين » . ومع ذلك فان الثورة فى أوروبا الشرقية اظهرت ما للمتهورين من مقدرة على التغيير والخلق وشارك الحدث فى جعل العقول الناقدة أمثال هافيل ويانوس كيس Janos Kis وجيورج كونرد Gyorg Konard ، وميلوفان جيلاس (١١) Milovain Djilas وليتسك كولاكفسكى Leszek Kolakowski وآدام متشسك Adam Michnik تعمل وتبدع .

والاطروحة الثالثة « انتصار المتهورين » ، تتعرض لآليات الثورة فى أوروبا الشرقية اثناء الاجتياح الثورى سنة ١٩٨٩ وتشرح التفاصيل الواقعية والملموسة التى تفسر أسباب انهيار وانقسام الأنظمة الشيوعية . ونجد فى الأحداث التاريخية الخاصة بكل دولة والخاصة بالمنطقة ككل أهمية كبرى فى فهم وتفسير هذه التغيرات . كما يركز هذا المقال على انتصار منظمة تضامن فى الانتخابات ، وتكوين أول حكومة غير شيوعية فى تاريخ أوروبا بعد معاهدة يالطا (١٢) ،

ونهاية الأوهام الاصلاحية المعتدلة وانتقال المجر الى التعددية ، والأبعاد الدولية والمحلية لكل من « الثورة المعتدلة » بالمانيا الشرقية و « الثورة الناعمة » فى تشيكوسلوفاكيا وانتصار المنبر المدنى Civic forum وصحوة بلغاريا والاطاحة بالديكتاتور تيودور جيفكوف Todor zhivkov والثورة الخاطفة برومانيا — وجبهة الخلاص الوطنى National Salvation Front كرمز جديد للحزب الشيوعى ، وانهيار كل اثر لتيتو فى يوجوسلافيا وذلك فى تفاقم الصراعات العرقية وظهور الأحزاب والحركات المنشقة الجديدة .

والأطروحة الرابعة « مخاض الديمقراطية » تناقش فرص الديمقراطية ببلدان اوربا الشرقية . ومرة أخرى فان المعالجة من طريق المقارنة تمد القارئ بدراسة عميقة للايديولوجيات السياسية وظهور الأحزاب الجديدة بالمنطقة ، وهنا نناقش العقبات الجديدة فى طريق التطور الديمقراطى بما فى ذلك جمود البيروقراطية الحكومية والحلول التى تطرحها السلطة الجديدة ووجود الطموحات الشعبية ، وانبعاث المشاعر العرقية التى طال تجاهلها . وقد عبر كينيث جوت Kenneth Javitt عن ذلك قائلا بأن المستقبل بأوربا الشرقية ليس للأحزاب الديمقراطية المعتدلة ولا الأحزاب الديمقراطية الحرة ، بل من المحتمل أن تمر المنطقة بتجربة قلائل واضطرابات غير مسبوقه يكمن وراءها « حركات الغضب » الأصولية الحديثة والتى تمت وتأصلت فى جو من اليأس السياسى والاحباطات الاقتصادية .

والأطروحة الخامسة « ديمقراطية أم عرقية ؟ » تبحث فى أسباب تزايد التوتر بين الأحزاب المستقلة والتى تتخذ موقفا معاديا للغرب ومعاديا للحركات العرقية المتشددة والتجمعات الديمقراطية والأحزاب ذات التوجه الليبرالى . وأود أن أؤكد مرة أخرى اقتناعى بأن مستقبل أوربا الشرقية ليس بمستعص على الفهم وأن سقوط الشيوعية فتح أبوابا عديدة جديدة للأمم التى طال خداعها والاحتيال عليها ، وعلى أية حال ، فأننا لا نستطيع أن نتجاهل التغيرات التى تحدث على نحو دراماتيكى فى البلدان التى سلب منها قوتها وخبراتها وما لهذه التغيرات من أثر معنوى على الجماهير الجريحة . ووفقا لما أسماه رالف دورين Ralph Dohren وداع الدموع التساريخى فإنها لم تكن تجربة مبهجة تلك التى تكشف المأساة الواقعة فى العديد من البلدان فى المنطقة وذلك مع التقدم البطيء فى عمليتى الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وبدلا من الانتعاشة الاقتصادية المتوقعة فقد طلب من شعوب تلك

البلدان أن يشدوا الحزام على بطونهم أكثر مما سبق . وهذا بدوره خلق فرصا لانتشار الاشاعات ، والدجل ، والتنبؤات الكاذبة بين الجماهير .

وأود أخيرا أن اعبر عن شكرى وامتنانى التام لكل هؤلاء الذين قدموا لى يد العون كى يخرج هذا الكتاب الى النور .

فلاديمير تسمانيانو

Vladimir Tismaneanu

واشنطن

١٨ يوليو ١٩٩١

التوامش

(١) أوروبا الشرقية :

تضم بلدان ألمانيا الشرقية والمجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا وأطلق عليها « الشرقية » تميزا لها عن أوروبا الغربية الرأسمالية .
(المترجمة) .

(٢) تعنى التوتاليتارية الشمولية وهى عقيدة سياسية تقضى بأن المواطن لابد أن يكون خاضعا تماما لسلطة الدولة المطلقة (المترجمة) .

(٣) البافلوفية :

ترجع هذه التسمية الى الفسيولوجى الروسى ايفان بتروفتش بافلوف (١٨٤٦ - ١٩٣٦) وتشير هنا الى نظرية الارتباط الشرطى التى تقول انه اذا ارتبط مؤثران مختلفان بفعل واحد ، فان وقوع احدهما كفيل باحداث هذا الفعل حتى وان لم يكن المؤثر الاصلى - (المترجمة) .

(٤) On the fate of Marxism in Eastern Europe (Published by Routledge in 1988).

(٥) قانون عسكرى يطبق على أرض محتلة من قبل القوى العسكرية التى تطلبها الحكومة فى حالة الطوارئ اذا ما قُتل القانون المدنى فى الحفاظ على الأمن والنظام وقد أقره ياروزلسكى للسيطرة على المعارضين فى بولندا - (المترجمة) .

(٦) حلف وارسو :

هو كتل سياسى اقتصادى بقيادة الاتحاد السوفيتى ، ويضم كل دول أوروبا الشرقية الشيوعية - (المترجمة) .

(٧) الديمغرافية : هى علم دراسة السكان وله ثلاثة فروع رئيسية وهى الديمغرافيه الكمية - الديمغرافية الاقتصادية والاجتماعية - دراسة القوانين الديمغرافية - (المترجمة) .

(٨) فترارومنيشكا وتعنى الموقد الرومانى .

(٩) الشوفينية : تعنى الافراط فى الوطنية وترجع هذه التسمية الى بيكولاشيرين Nicola Shavin (فرنسى الذى عرف بوطنيته المفرطة وانتمائه الشديد لنابليون) .
(المترجمة) .

(١٠) عملية هلسنكى :

هى المؤتمر الأوروبى للأمن والتعاون الذى أعلن ميثاقا شهيرا صدر فى باريس عام ١٩٩٠ وفيه أعلنت نهاية الحرب الباردة بين القوتين العظميين أمريكا والاتحاد السوفيتى -
(المترجمة) .

(١١) جيلاسى ييلوفان

سياسى ومناضل شيوعى ماركسى ومن أبرز المفكرين السياسيين فى يوجسلافيا -
(المترجمة) .

(١٢) معاهدة يالطا (فبراير ١٩٤٥)

تم بموجبها تقسيم ألمانيا الى ثلاثة أجزاء ، جزء لأمريكا ، وجزء لبريطانيا والثالث لروسيا . وبموجب هذه المعاهدة تدعى فرنسا الى الاشراف على منطقة رابعة (المترجمة) .

الفصل الأول

الضحايا والخارجون على التاريخ أوروبا الشرقية قبل الشيوعية

« ان دول أوروبا الشرقية كمائلة مكونة من قوميات صغيرة لها رؤيتها الخاصة عن العالم تلك الرؤية التي تركز على ارتياب عميق في التاريخ . التاريخ الذي كان معبود هيجل وماركس والذي يجسد العقل والمنطق ، ذلك التاريخ هو الذي يحكمنا ويتحكم في مصائرنا ، انه تاريخ الفاتحين ، ولكن شعوب دول قلب أوروبا ليسوا بفاتحين . وهم لا يستطيعون ان ينفصلوا عن تاريخ أوروبا او ان يخرجوا عليه ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ . انهم ضحايا والخارجون عليه » .

ميلان كنديرا

Milan Kundera

ان الاجتياح الثوري عام ١٩٨٩ الذي ادى الى انهيار الأنظمة الشيوعية المنيعه يعد واحداً من اهم الأحداث التي شكلت العالم الجديد ، فقد قامت على نحو مفاجيء الانفجارات الاجتماعية والسياسية في المنطقة ، تلك الانفجارات التي أثبتت عدم استقرار الأوضاع الشيوعية التي طالت سيطرتها على المنطقة . ويعد التحطيم المذهل لسور برلين والذي يعد الرمز الوحيد والأكثر جلاء لعملية الفصل بين الشرق والغرب هو الذي ساهم في هذا التغير الدراماتيكي لأوروبا السياسية والجغرافية . ونحن لا نبالغ في مغزى هذا الاجتياح ، اذ تبم هذه الأحداث تغير وجه أوروبا . ان تحرر الطاقات الاجتماعية والسياسية بأوروبا الشرقية من اغلالها ، وكذلك اندلاع نيران التعصب العرقي التي طال تجاهلها وانكارها هي ما بهم كل المعنيين ببناء نظام دولي يسوده السلام والرخاء . واذا نجحت هذه الأمم في الانتقال الى اقتصاد السوق ونظام التعددية السياسية ، فان ذلك سيكون هو الفائدة المجدبة التي ستعود على العالم من مثل هذا التطهر . واذا لم يحدث فان صراعات من نوع آخر ستبطل برأسها في المنطقة التي سبدها القوتر

عبر تاريخها الطويل ، بل ان اوروبا الشرقية ومستقبل القارة سوف يصبحان
نهب الصراعات ، والتوترات ، والنزاعات ، ولا بد أن نذكر هنا أن حربين
عالميتين قد اندلعتا من هذه المنطقة ، ولم تستطع الشيوعية خلال
أربعة عقود من الاشتراكية ان تزيل ما خلفته هذه الصراعات من آثار
على المنطقة بل على العكس فان هذه الصراعات استمرت في الوجود
بحت القشرة الخارجية الزائفة التي خلقتها آلة الدعاية الماركسية
اللينينية . أما الدولة البروليتارية (١) والمجتمع الاشتراكي ، فهي أشياء
لم يكن لها وجود الا في عقول الشيوعيين الدكتاتوريين فقط . وحقيقة ،
ان الماضي بتقاليده وفكرياته مازال يثير كلا من الجهود الفردية والجماعية
للتخلص من الانظمة النوناليتارية . ويفيد التمييز بين دول مركز اوروبا
الشرقية وباقي دولها المحيطة في توضيح مستويات المعارضة التي
واجهتها الشيوعية . فبلدان مركز اوروبا الشرقية هي تشيكوسلوفاكيا ،
المجر ، بولندا ، وجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، أما باقي دولها فهي
البانيا ، وبلغاريا ورومانيا ويوجوسلافيا ويعيننا تاريخ هذه الدول بما
فيه من عادات دينية وسباسبية على فهم آلياتها المختلفة سواء وهي
نختم للحكم الشيوعي أو في وضعها الراهن ، ولا يمكن للشهيرة
أن تمحو أثر التمايزات التي تعمقت في بلدان تختلف عن بعضها البعض
في تطورها السياسي والاقتصادي والثقافي . وترجع هذه التمايزات
الى ان بعض هذه البلدان تنتمي الى هابسبورج (٢) Habsburg
— الامبراطورية الألمانية — والبعض الآخر يخضع لهيمنة الدولة
العثمانية (٣) وروسيا ، أما الجزء البلقاني (٤) فان التطورات السياسية
التي وقعت فيه خلال القرن العشرين جاءت مقصرة ومتأخرة . وقد
أقيمت في مركز اوروبا الشرقية مؤسسات تم انشاؤها وفقا للمنهج
الشرق اوروبي للقانون ومفهوم الحقوق الفردية . وقد كانت مجتمعات
شمال اوروبا الشرقية متخلفة وهشة تماما ، ولم تكن للتعددية أسس
راسخة اذ كانت تمنى من القلاقل كما كانت عرضة للتعديلات
والانتهاكات الدكتاتورية ، ويعد التاريخ أداة لا غنى عنها لفهم أبعاد
المعوقات التي تقف في طريق البحث الجارى من أجل إعادة بناء هذه
المنطقة من اوروبا على أساس ديمقراطي . وتعد كل البلدان في هذه
المنطقة بمثابة بنى حكومية جديدة كما تعد نتاجا لصحوات قومية عظيمة
تميز بها القرن العشرون . وجميعهم يدينون بشكلهم الحالي للترتيبات
الدولية التي نلت تحولين هائلين في هذا القرن . وفي نفس الوقت فان
مصطلح « اوروبا الشرقية » بمعناها المطلق سيبدو لبلدان هذا الجزء
من القارة كما لو كان نوعا من التعصب . وقد ردت ثورات ١٩٨٩

من بين عوامل ومؤثرات أخرى — الهويات الأوربية لهذه الأمم من جديد . وعندما لجأ الناس في براغ لبيتزج وتيمشوارا Timiswara وصوفيا Sofia الى الشوارع للاعراب عن احتجاجهم ، فقد فعلوا ذلك ليس لأسباب اقتصادية فقط بل ربما كانت هناك أسباب أكثر أهمية من مجرد أزمة الاقتصاد الاشتراكي منها الاستياء العام ، وانحسار عالم السياسة والاقتصاد داخل ديكتاتوريات بيروقراطية خنقت الناس وسببت لهم التعاسة والاحباط . وكان واضحا ان ما حدث عقب الحركة النشطة في الشهور التي سبقت الثورة هو عودة للمشاكل القديمة مثل احتجاج الكرواتيين على سيطرة دولة الصرب عليهم . وشجب الصرب للحركة الانفصالية التي يقوم بها الكروات والسلوفانيون والاضطهاد العرقي للمجريرين في رومانيا وشجب انتهاك حقوقهم كأقليات ، وكذلك الاضطهاد العرقي للأتراك في بلغاريا والقاء المسؤولية على المطالبين بدولة بلغاريا تقتصر على البلغاريين ، وكذا سخرية السوفاك من الرئيس فتسلاف هافيل كبطل يرمز للتفوق التشيكي ، وشجب التشيكيين لقومية السلاف الانفصالية ، وبدأت الديمقراطية في هذه البلدان نموذجا مثاليا بالنسبة لما هو حادث في الواقع . ونسببت الأحزاب الشيوعية السابقة في أوربا الشرقية في احياء الشرارة الثورية الأولى ، أما في قلب أوربا الشرقية فلم يقوموا بتغيير الأسماء فقط بل والعادات أيضا وبدأ أنهم ينقلون الى قيم الديمقراطية الاجتماعية . وحدث انقسام داخل المنطقة بين البلدان التي تحطم فيها النظام الشيوعي تماما وبين هؤلاء الذين وقفوا في مكان ما في منتصف الطريق مثل حالة رومانيا ، وصربيا وبلغاريا . وباستثناء تشيكوسلوفاكيا فإنه لم يكن لدى أي من تلك البلدان تراث ديمقراطي ، وفي نفس الوقت لا يجب أن ننسى أن التغيرات الجارية كانت ضد فكرة الوحدة الأوربية وأن ثمن التورط في أشكال جديدة من السياسات السلطوية تسبب في عزلة دولية وفي ارتكاب جريمة في حق الدول التي مازالت تقع تحت خط الفقر والتي شهدت نهاية الشيوعية ، والمنافسة بين الاتجاهين — الطموح العرقي في مواجهة الطموح الديمقراطي — هو أهم التطورات التي حدثت ابان هزيمة الشيوعية . وفي كلمات الصحفي البولندي آدم متشك الذي يتبنى مبدأ استخدام القوة لتحقيق الأغراض السياسية حيث يقول :

« الى جانب الصدام القائم بين اختلاف الرؤى الثقافية واختلاف المفاهيم الحضارية تبرز مشكلات ملموسة تطرح العديد من الأسئلة ، مثل : ما هي الطريقة المثلى التي يجب أن تدار بها دفعة السياسات ؟

بالمطرق الثورية دون اللجوء الى العنف ام بالتباعد منطق الاجتياح الثورى والتطهير ؟ . ايجب ان تكون المجتمعات مفتوحة ام بالعكس يجب ان تكون مغلقة داخل نظم محددة خاصة بها ؟ ايجب على الأنظمة السياسية أن تبقى على كل الآليات التى تعتمد على الديمقراطية ام على الحفاظ على مبدأ الانتقام من ممثلى النظام السابق ؟ وبمعنى آخر هل يجب ان يتخذ الطريق الذى اتخذه اسبانيا بعد ان تخلصت من حكم فرانكو Franco ام الطريق الذى اتخذه ايران حال تخلصها من الديكتاتور شاه الى آيات الله ؟ (٥) .

ولأن دول شرق أوروبا لعبت أدوارا مهمة على الساحة الدولية فان مستقبلها غير مؤكد ومشكوك فيه ، وسيدافع المتفائلون عن أن الخيار الوحيد لهذه الدول هو الديمقراطية . بينما يرى المتشائمون : أن الخيارات المنطقية نادرة فى التاريخ وأن التقاليد السياسية والثقافية وكذلك الأساطير الثابتة يمكن أن تؤدي الى بزوغ أنظمة سلطوية جديدة تعتمد على ما يحدث من مأس واضطرابات جماعية . الشيء الوحيد المؤكد هو أن الثورة التى قامت ضد التوتاليتارية عام ١٩٨٩ فتحت العديد من السبل والأبواب وسيظل السؤال « هل ستصبح هذه الدول ديمقراطية ام عريقة ؟ » دون جواب .

ان احتلال المانيا لبولندا أدى الى اندلاع حرب طريفة بين دول المحور (المانيا واطاليا واليابان) ودول الحلفاء (بريطانيا العظمى ، فرنسا ثم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية بعد عام ١٩٤١) . وتركت الحرب العالمية الثانية كل أوروبا فى دمار شامل سياسيا واقتصاديا مما خلق بيئة مناسبة تماما لتوسعات ستالين السريعة التى انطلقت من الاتحاد السوفيتى . وما ساعد على انتشار الشيوعية عبر النصف الشرقى من أوروبا الخوف والفرع الذى أصاب صانعى السياسات والمواطنين فى أوروبا الشرقية وهو ما ساعد أيضا على التعجيل بنشوب الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى . وأدت الحرب الباردة بدورها الى تكاثر وتزايد وتطوير الأسلحة النووية على المستوى العالمى ، كما أدت الى ظهور المكارثية (٦) فى الولايات المتحدة الامريكية والتى كانت أحد توابع تلك الحرب .

وبناء عليه ، فإن قهر أوروبا الشرقية يرتبط بفهم الأمن العالمى وقضايا الأيديولوجيا القومية . وما يحدث لدول أوروبا الشرقية يذكرنا بأحدى الحواديت التى كانت تروى لأطفالنا . ونقول القصة : « ان مسمارا

سقط من حدوده حصان ، فانخلعت الحدود وكبا الحصان فسقط راكبه الذى كان يحمل رسالة مهمة الى أحد القواد فهزم القائد لأنه لم ينلق الرسالة ، وخسرت المعركة بسبب مسمار صغير . ولخمسین عاما تقدم العالم رويداً دون مشاركة كاملة من جانب دول أوربا الشرقية وان استقرت أوضاعها فى ظل الأنظمة الشيوعية المتحالفة مع موسكو ، وكان من السهل آنذاك تبين الخط الذى تسير فيه سياساتها ، ولكن انهيار تلك النظم ترك صانعى السياسات ورجال الأعمال والمواطنين العاديين فى شتى أرجاء العالم يبحثون عن مناهج جديدة لفهم هذه المنطقة ، وهو ما يسعى اليه هذا الكتاب .

ان فهم السياسات والشعوب فى أوربا الشرقية وفهم الكيفية التى ترتبط بها ديناميكيات هذه المنطقة بالاستقرار العالمى يتطلب معرفة بتاريخها أو على الأقل تاريخها الذى يعود لبداية هذا القرن . وتعد صحوۃ عام ١٩٨٩ فى دول قلب أوربا وأحياء الحنين الوطنى لامبراطورية هابسبرج عام ١٩٨٩ أكثر من مجرد ظاهرة ثقافية ، ان كان هناك اتجاه لجعل عصور هذه الامبراطورية الغابرة تبدو وكأنها عصور مثالية ، كما كان هناك اتجاه للاقرار بأن الامبراطورية النمساوية المجرية فيما قبل الحرب العالمية الأولى هى النموذج الكنفدرالى الممكن لدول قلب أوربا . وعلى عكس هذا الاتجاه الأممى ، يبدو لنا أن مشاعر التعصب القومى (الشوفينية) التى سادت عصر ما قبل الشيوعية لم تندثر بعد .

ومن ناحية أخرى اجتاحت هذه الشعوب رغبة عارمة للعودة للعصور الذهبية التى كانت فيها براغ وبودابست وبوخارست ووارسو تعد حقيقة عواصم لأوربا ومهدا لتجارب ثقافية جريئة ، أخذت موقعا طليعيا فى الحركة الابداعية فى الأدب المعاصر ، حيث ظهر فرانز كافكا Franz Kafka فى براغ وقدم للأدب رواياته الرائعة ، كما ظهر جورج لوكاس George Lukas وأرثر كوستلر Arthur Kostler وبيلا بارتوك (٨) Bela Bartok فى بودابست . كما قدم أوجين لونشيسكو Eugene Lonesco ، وميرشيسا الياد Mircea Eliade وإميل كيوران Emil Cioran انتاجهم الأدبى لأول مرة فى بوخارست وكى نتمكن من فهم حقيقة وباء التوائرات العرقية السياسية والثقافية ومدلولاتها بالنسبة للمستقبل لابد أن نستدعى مرة أخرى تجربة بلدان أوربا الشرقية التاريخية التى مرت بها بين عامى ١٩١٨ و ١٩٤٥ قبل مجىء النظم الشيوعية نتيجة لكارثة الحرب العالمية الثانية . وربما تبدو تلك كفكرة مكررة ولكن بالنسبة لدول شرق أوربا فان ماضيها السابق على الشيوعية مقدمة لها . وسيكون من الأفضل لمواطنى هذه

البلدان الذين عاشوا في ظل الشيوعية ولم يخبروا الا القليل من المبادئ الديمقراطية مثل حرية الرأي أن يتمكنوا من اقرار أنظمة سياسية متسامحة وغير سلطوية . وفى نفس الوقت فإن إعادة بناء الديمقراطية فى هذه الدول ، تعتمد على مدى قدرتها على التغلب على المشكلات والمصاعب الناجمة عن ميراثها من التمايزات العرقية ، والاجتماعية ، والسياسية العديدة والمعقدة .

ولكن وكما أشار الفيلسوف السياسى الفرنسى جين فرانسوا رافيل Jean-Francois Ravel ان المشكلات القديمة هى فى نفس المشكلات الجديدة ولكنها تحمل سمات بداية القرن الواحد والعشرين وهو يعنى هنا أن تلك المشكلات ستظل مستعصية على الحل طالما أن الديمقراطية والبرلمان غائبان (٩) .

عالم مفتت ، ١٩١٨ - ١٩٤٥

كانت أوروبا الشرقية خلال القرن التاسع عشر مجرد جزء من قارة أوروبا ، وكان الغرب يعلم - بلا ريب - بوجود المجرين والرومانيين والبولنديين ولكن الغرب جنح دائما الى اهمال ذلك الوجود باعتباره لا يمثل خطرا حقيقيا عليه ، ومعظم البلدان التى تدور حولها المناقشة فى هذا الكتاب انبثقت كدول مستقلة متعددة القوميات وهو ما استتبع انهيار الامبراطوريات الأوربية العظمى فى ١٩١٧ - ١٩١٨ .

وقبل الحرب العالمية الأولى فإن وجود الهيمنة الامبراطورية النمساوية المجرية أبقى على العديد من الصراعات الدينية والثقافية ، والعرقية التى اكتنفت أوروبا الشرقية منذ ١٩١٨ وتعرضت هذه المشاعر الى كبت طويل ومع التوترات المستعصية بأوروبا الشرقية فإن العالم الذى بنى فوق أشلاء الامبراطورية الزائلة والأحلام الولسونية Wilsonian (١٠) عن العالم الديمقراطى شهد انفجارا دموبا لزوح التعصب والنقاء العرقى (١١) ووضعت هذه الأمن متعددة القوميات الأسس الخاصة بهذه المبادئ النبيلة كأساس لحق تقرير المحر ولكن هذه الأسس جاءت خلوا من ضمانات حماية الأقليات .

وأقيمت حدود فاصلة جديدة لتسوية الخلافات القائمة بين الفازين ومن وقعوا تحت حمايتهم ، وغالبا ما تجاهلوا مشكلات الأقليات الكبيرة ، واعتبرت الجماعات الحاكمة صيحات هذه الأقليات من أجل

الاستقلال الثقافى تحريضا على الفتنة والعصيان . وكان الالمان والبولنديون فى تشيكوسلوفاكيا ، والأوكرانيون واليهود ببولندا ، والمجريون واليهود والأوكرانيون فى رومانيا من بين هؤلاء الذين مروا بتجربة الانتهاكات والاضطهاد العرقية وما ترتب عليهما .

وكانت رومانيا البلد الذى لحق بركب الحلف الدولى Entente (الذى تكون بشكل اساسى من روسيا وبريطانيا وفرنسا) قد كوفئت بموجب معاهدتى فرساي تريانون Trianon (١٢) فتوسعت بأراضيها الاقليمية فضمت ترانسلفانيا وبكوفينيا الشمالية Northern Bukovina من الامبراطورية النمساوية المجرية وبساربيا Bessarabia من روسيا . وكنتيجة من نتائج الترتيبات الدولية الجديدة والتي أقرتها معاهدات فرساي ظهرت يوجوسلافيا لأول مرة ككيان سياسى جديد متكامل تحكمه أسرة صربية ارثوذكسية ويضم هذا البلد الصرب الكرواتيين والكاثوليك والسلافيين ومسلمى البوسنة والهرسك .

وكنتيجة لهزيمة الامبراطورية النمساوية المجرية وكنتيجة لوجود منطقة تناحر للأطماع والطموحات الغربية ، فان اراضى المجر الاقليمية نقلت الى ثلث الأراضى التى كانت موجودة قبل عام ١٩١٤ (١٣) . ونالت المجر نفسها كجزء سابق من الامبراطورية المتعددة القوميات التى تسيطر عليها النمسا استقلالها ، الا أن الأقليات المجرية الكبيرة قدر لها أن تعيش فى ولايات أنشئت حديثا أو كانت موجودة من قبل .

وكانت تشيكوسلوفاكيا واحدة من هذه الكيانات السباسبية الجديدة التى ضمت المقاطعات التى وقعت فى الامبراطورية السابقة ومنها بوهيميا Bohemia ومورافيا Moravia وسلوفاكيا Slovakia . ومن بين بلدان تلك المنطقة بدت تشيكوسلوفاكيا — رغم أنها تخلو من صراعات عرقية جوهرية على أنها التجربة الديمقراطية الوحيدة التى حققت نجاحا ، كما كانت تمتلك نظاما برلمانيا فعالا يقوم على التوجيه الجيد للقوى النيابية وهو الشئ الذى استلهم من مثيله الأمريكى . وعند تأسيسها فى عام ١٩١٨ فان جمهورية تشيكوسلوفاكيا اظهرت تسامحا مع المعارضة السياسية بما فهم الشيوعيين ولكنها فشلت فى ارضاء مشاعر السلوفاك Slovaks القومية القوية . وكان الأب المؤسس لأول جمهورية تشيكوسلوفاكية هو توماس ج. مزاريك Tomas G. Masaryk مقتنعا بأن النمو الاقتصادى والاجتماعى سيكون كافيا لحو الخلافات القائمة بين التشيكيين Czecks والسلوفاكيين Slovak ، وقد اتهم المجريون بأنهم أول من ح فكرة القومية السلافية (١٤) . ومن ناحية أخرى

يدت تشيكوسلوفاكيا بما تملكه من تقدم تكنولوجي مثالا جيدا اذا ما قورنت
بالمستوى الاقتصادي لدول أوروبا الشرقية الأخرى .

وكانت بلغاريا ورومانيا حكومات ملكية منذ القرن العشرين ،
وظهرت يوجوسلافيا بعد عام ١٩١٨ كمملكة . أما المجر فقد حكمها في
عام ١٩١٩ بعد ثورة شيوعية قصيرة الأجل ميكلوس هورثي Miklos Horthy
وكان اميرالا بلا أسطول ولعب دور الوصي على
ملك لا وجود له .

وكان لرومانيا بتبنيها دستور ١٩٢٣ (الذي انبثق الى حد كبير
عن نموذج بلجيكي) نظام متعدد الأحزاب في اطار ملكية دستورية .
ورغم التصفية المستمرة لحركات اليمين المتطرف واليسار المتطرف ،
فان النظام البرلماني أدى وظيفته بشكل صحيح حتى عام ١٩٣٨ عندما
نادى الملك كارول الثاني King Carol II بالدكتاتورية الملكية وحل
الأحزاب والبرلمان . ولذا فان الفترة ما بين عامي ١٩٢٣ ، ١٩٣٨ تعد
هي المرحلة الديمقراطية الوحيدة في تاريخ هذا القطر . أما بولندا فقد
ولدت كأمة حرة في عام ١٩١٧ بانفصالها عن امبراطورية القيصرية
الروسية ، وظلت معظم الفترة التي وقعت بين الحربين جهورية
خاضعة لنظام حكم متسلط استمد قاداته شرعيتهم من مقاومتهم
للجهود السوفيتية التي كانت تهدف لاعادة بولندا الى حظيرة
الامبراطورية السوفيتية .

ورغم ان البانيا كانت رسميا مملكة مستقلة الا أنها في الواقع
كانت تابعة اقتصاديا ودبلوماسيا لاطاليا (١٥) .

وفي ظل هذه البلدان كان الاتجاه نحو الثورة البلشفية والموقف
السوفيتي يحظى بأهمية بالغة . وبعد قرون من العيش تحت السيطرة
السياسية والثقافية للامبراطورية النمساوية المجرية ، والمانيا
الامبريالية وروسيا القيصرية ، وتركيا العثمانية فان معظم مواطني
أوروبا الشرقية أصبحوا شديدي الرغبة في التأكيد على هويتهم العرقية .
وبذا بزغ فجر القومية . ولكن الدولة السوفيتية بادعائها تمثيل
مصالح العمال بصرف النظر عن قومياتهم بدت وكأنها التهديد الأبدى
للوجود المطلق ، للقوميات الجديدة .

غير أن اسطورة الدولية التي روجت لها الشيوعية الدولية
(الكومنترن Comintern) التي أسسها لينين في موسكو عام ١٩١٩
لم نستطع سوى اجتذاب جماعات صغيرة من غلاة المتحمسين .

وحاول السوفيت تصدير ثورتهم ولم يترددوا في استخدام الجيش الأحمر الذى زحف الى وارسو فى عام ١٩٢٠ ؛ لكى يجعلها جمهورية سوفيتية ، ولو كان قد نجح فى ذلك لاستطاع القضاء على هويتها العرقية لعقود طويلة .

وبعد أكثر من خمسة وخمسين عاما من هزيمة الجيش الأحمر فى بولندا قال آدم متشنك وهو يبرز أهمية ذلك الانتصار فى كتابه معجزة على نهر فشتول (١٧) :

« اننا ندين لنصر ١٩٢٠ على البلاشفة بالحفاظ على استقلال بولندا الفكرى الذى الهم وما زال يلهم الأجيال . وان قدرتنا على مقاومة التحول الى النظام السوفيتى ترجع الى حد كبير الى الذخيرة التى توافرت خلال فترة ما بين الحربين . ولو كان الجيش الأحمر قد انتصر فى معركة وارسو ، ولو كانت لجنة مؤقتة قد بدأت فى حكم بولندا ، فلربما كنت الآن أعيش فى كزيانا أو بريدجان واريمما ما كنت لأتكام البولندية ولربما كان الدب الروسى قد فتك بالانتلجنتسيا البولندية ، كما فتك بالانتلجنتسيا الروسية فى عهد ستالين (١٨) » .

وهنا يشرح متشنك لماذا كانت سياسة انشاء «الحجر الصحى» ضد التوسع البلشفى فى أوربا الشرقية أمراً شائعاً بين شرائح اجتماعية كبيرة بما فيهم المضطهدين ، وادى الوعى بالتهديد السوفيتى الى توحيد جهود الحلفاء البولنديين والتشييكوسلوفاكيين والرومانيين للتعاون من أجل القيام بمبادرات دولية . ولكن استمرار العداوات القومية بين الدول وقف عقبة فى طريق الحاجة الملحة لسياسة شرق أوربية خارجية موحدة وشاملة .

وداخل كل واحدة من تلك البلدان كان هناك حلم اجتماعى ، كما قلل التوزيع الجديد للأراضى فى مستهل العشرينات من المستوى المعيشى للفلاحين . وفيما عدا تشيكوسلوفاكيا ، فإن البطالة وخاصة بطالة المتعلمين التى سببها وجود تضخم فى أعداد المحامين والمدرسين والصحافيين ، قد كانت لها دلالة تشير الى تضاعد تيار التطرف السياسى بما فيه الإرهاب والعنف .

وادى الاستياء الاجتماعى الى تفجير الكراهية والغضب والعداوات . وكانت المؤسسات الديمقراطية الجديدة والتى تتضمن البرلمانات والسلطات القضائية المستقلة نهضة للغاية حتى انها غجزت عن احتواء تلك المذابح المتطرفة . وكانت الحركة الفاشية فى رومانيا

قد تكونت فى بداية العشرينيات واتخذت اسم «فيلق الملك ميخائيل» ثم عرفت فيما بعد « الحرس الحديدى » وقد تسببت فى تقاسم الاحباطات الاجتماعية والفوبيا العرقية ، وتلاعبت بالرموز الدينية واعدة بالتطهير الروحى للفساد الذى ساد الحياة السياسية بالبلاد ، وحاولت أن تعبىء الرومانيين ضد الأقليات العرقية وعلى رأسها الأقلية اليهودية . ووجدت منظمة الحرس الحديدى بين التيارات الرومانتيكية المعادية للرأسمالية مع التيارات الشوفينية المعادية للسامية ، كما نظرت المنظمة للديمقراطية البرلمانية باعتبارها عنصرا غريبا على رومانيا ويجب أن تستبدل بالدكتاتورية (١٩) .

وفى الثلاثينيات أخذت السلطة اليمينية تجمع زخمها فى هذه البلدان، وهنا نستثنى تشيكوسلوفاكيا ثانية ، رغم أن آثار الحركة المؤيدة للنازية كانت تتزايد بين الأقلية الألمانية هناك . واهتمت القوى الغربية بعد فشلها فى اعطاء ضمانات مؤكدة ضد القوى الرجعية باعادة رسم الحدود التى أقرت فى معاهدة عام ١٩٢٠ (تريانون) مما ساعد الحركات الغوغائية على تجنيد المزيد والمزيد من الموالين . وقد أخذوا عن النازية بألمانيا والفاشية بإيطاليا احتقارهم للنظام البرلمانى واطفروا استيائهم من الديمقراطية الليبرالية . وبدلا من ذلك فقد رغبوا فى ارساء قواعد الديكتاتوريات التى تقوم على ناليه الزعيم والقيسم التى تعادى الأجانب وتنادى بنقاء الأصل العرقى . وظهرت مثل هذه الحركات فى رومانيا تحت اسم الحرس الحديدى - بقيادة كورنيلو زىلا كودرينو Corneliuzelea Codreanu ، وظهرت فى المجر تحت اسم « الصليبان السهمية Arrow Cross » وكذلك فى سلوفاكيا حيث ظهر حزب متطرف ينادى بالحفاظ على نقاء السلالة وكان مؤسسه أندرى هلنكا Andrej Hlinka . وكانت هذه الأحزاب المتعصبة دعامة لخطط هتلر التوسعية وبرقا دعائيا لها .

وشهدت أوربا الشرقية على نحو متزايد ومتزامن مع نضاعى التوترات السياسية ازدهارا ثقافيا فريدا من نوعه . وأصبحت بودابست وبوخارست وبراغ وبلجراد وكراكوا وزغرب مراكز ثقافية مفعمة بالحركة حيث ولد المبدعون الشبان ، على نحو محموم اتجاهات فلسفية وفنية جديدة . وكان السرياليون والاعلاميون على سبيل المثال منتشرين فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على نحو مفرط مثلما وجدت الاتجاهات الفلسفية العصرية مثل الوجودية وفلسفة الفينومينولوجى « علم الظواهر » . وكانت المنطقة [التى اعتبرت نفسها حينذاك جزءا من قلب أوربا وتقع كما كانت فى وسط الطريق بين الأورال والشواطىء

الغربية للقارة) هى موطن طليعة الرواد كما كانت مهداً لمعظم الاتجاهات الثقافية المعاصرة وأكثرها حداثة ، بما فى ذلك ظهور المسرح الهزلى ، وفلسفة التحليل النفسى ، وفلسفة اللغويات (البنيوية وفلسفة التحليل المنطقى) . وأدرك الشعب فى هذا الجزء من العالم أهمية الحفاظ على ذاكرته كما حاولوا دائماً أن يهربوا من الماضى المؤلم . وقد كان التاريخ بالنسبة لهم مقترنا بالمذابح والتعنت والجور والهزائم المتلاحقة . . وكانت الذاكرة تحفظ كلا من الأحلام الديمقراطية التى لم تتحقق بعد والآمال فى اقامة مجتمع من المخلصين . وكان الألمان والأوروبيون والفرنسيون على دراية تامة بما جرى ، وهم فى ذلك لا يشبهون الروس — بمدى ما يتسم به نظامهم وأوضاعهم السياسية من هشاشة . ويقول ميلان كنديرا القصاص التشيكى فى كلماته الآتية :

« ان دول قلب أوروبا كعائلة مكونة من قوميات صغيرة لها رؤيتها الخاصة عن العالم . تلك الرؤية التى تتركز على ارتياب عميق فى التاريخ . التاريخ الذى كان معبود هيجل وماركس والذى يجسد العقل والمنطق ، وهو الذى يحكمنا ويتحكم فى مصائرنا ، انه تاريخ الفاتحين . ولكن تسعوي دول قلب أوروبا ليسوا بفاتحين ولا يستطيعون أن يذخروا عن تاريخ أوروبا أو أن يخرجوا عليه ، ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ ، انهم ضحاياهم والخارجون عليه . تلك هى الرؤية المتحررة من الخطأ الوهم والتى تعد مصدراً لثقافتهم وحكمتهم ومصدرها لما لهم من « روح ساخرة — تسخر من عظمتهم وعزتهم » (٢٠) .

وتتمثل الحتمية التاريخية فى التقاربية المبهمة للامبراطورية الروسية والامبراطورية الألمانية التى جعلت المبدعين بقلب أوروبا ينظرون للوعود العاطفية للايدولوجيات الراديكالية مثل الشيوعية والفاشية بازدياء . وعلى اية حال فان بعض المبدعين المثقفين أمثال الفيلسوف المجرى جورج لوكاس والكاتب الرومانى بانيت سستراتى Panait Strati والشاعر البولندى الكسندر وات Alexander Wat اعتنقوا الشيوعية : لأنهم شعروا بالاغتراب فى بيئاتهم البرجوازية الأصلية وحاولوا الارتقاء عليها بمنصرة العقيدة اللينينية التبشيرية الا انهم أدركوا فيما بعد أنهم قد خدعوا وأولى الكثير منهم ظهورهم للعقيدة الشمولية وأصبحوا أكثر ناقدية ضراوة وقسوة . وانتهى الأمر بالعديد منهم الى المرارة والتشاؤم واحتقروا النفاق الزائف وعلنوا بأنفسهم من وجود فرص حقيقية للديمقراطية كى تصعد أمام أعدائها ، وفضلوا أن يعيشوا حياتهم الخاصة . ونجد فى حالة الكاتب المجرى المولد آرثر كوستلر (٢١) ، مؤلف رواية « ظلام فى عز النهار » وهى

الرواية الكلاسيكية التي تهاجم الستالينية ونشرت في إنجلترا في مايو ١٩٤١ ، رمزا لما آلت اليه مصائر معظم مبدعى دول قلب أوروبا في قرن الأوهام الراديكالية والوله المدمر بها . أما دانييلوكس Danilo Kis الروائي اليوجوسلافي فقد كتب مقالا مشهورا عن أوروبا المركزية بعد عدة أعوام من انتحار كوستلر في بداية الثمانينيات قال فيه :

« ان المفامر المبدع كوستلر ومن خلال عمله « الخيار المطبق Ultimate Choice يبعد حتى على مستوى أوروبا كلها فريدا من نوعه . ان سيرته الذاتية في تحقيقها الراديكالي يمكن أن نرى فيها سيرة كل مبدع يعيش في قلب أوروبا » (٢٢) .

ولعب المبدعون في أوروبا المركزية دورا حاسما في شرح أهمية المبادئ والقيم وفي الدفاع عن الذاكرة الثقافية لتلك الأمم التي حرمت طويلا من وجودها كدول مستقلة . واعتبر المبدعون في بولندا والجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا على نحو واسع هم حاملو الموية الأخلاق والفضائل . واثناء القرن العشرين كانت الانتلجنتسيا (وهي المصطلح الروسي الذي يشير اخلاقيا واجتماعيا الى شرائح معينة من طبقة المبدعين) هي رأس الحربة التي تقدمت الصراع من أجل الحرية السياسية القومية وهي المجموعة التي استمرت تمارس دورها التبشيري حتى بعد تقسيم الدول حسب القوميات . وناصر المبدعون البارزون الاتجاهات السياسية التي كان لها تأثير فوري على شرائح اجتماعية عريضة والتي وضعت نفسها تحت امرة هؤلاء الذين وضعت فيهم ثقفتها ، بل وأكثر من ذلك فان المبدعين في بلدان قلب أوروبا أضحوا رموزا للقضايا الاجتماعية والقومية .

لقد رصد الكسندر وات الأحلام والأوهام اليوقوبية التي تنشبت بين أوساط المثقفين في الفترة التي توسطت الحرب وذلك حين قال الكسندر — الكاتب البولندي — في حديث له مع تشسلاف ميلوش Czeslaw Miloz ان الشيوعية لاقت قبولا لبدى المبدعين لأن الشيوعية قد اشبعت التعطش الانساني الى القيم النبيلة ونادت بالتضامن والأخوة :

« انه دفع الاخوة — الاخوة ٠٠٠ لقد بدأ الأمر بها ، ولكن بدأ واضحا انه لم يكن هناك من يدعمها سواء اكان حزبا أم كنيسة . لقد عجزت الكنيسة عن ذلك لانها كانت ضخمة وباردة وشنعائية ومزخرفة . . . ان الكنيسة الشيوعية مثلها مثل المجتمعات المسيحية الأولى قد بقيت نفسها حول خلية يعرف فيها أفراد المجتمع بعضهم بعضا

ويتعايشون في حب . وهكذا فإن الدفاع والحب المتبادل قد وجد في مثل هذه الخلية الصغيرة التي يحيط بها عالم عدواني آثم » (٢٣) .

لقد استطاعت الحركة التوناليترية أن تطا تلك البلدان ، وذلك تصديدا لأن التوترات الاجتماعية بلغت ذروتها ولأن المنظمات الديمقراطية كانت عاجزة عن خلق ثقافة سياسية تعددية . وقد تم تدشين الدولية التالية (الكمنترن) والتي تضمنت اخضاع كل الأحزاب الشيوعية المحلية لرغبات وأوامر ونوجيهات موسكو — ووفقا « لشروط الالتحاق بالدولية الشيوعية » والتي أعلنها مؤتمر الكمنترن الثاني في ١٩٢٠ فإن قرارات المقرات المركزية في موسكو سوف تفرض على كل الأحزاب التابعة وكل من يعارض تلك القرارات والتوجيهات سوف يكون عرضة لتوجيه تهمة الخيانة وعرضة للطرد من حرم الشيوعية (٢٤) .

لقد وجد العالم الشيوعي ضالته فبعد موت لينين عام ١٩٢٤ استخدم ستالين الكمنترن كأداة لتنفيذ مخططاته التوسعية .

وأصبحت الأحزاب القومية احصنة طروادية ، وأصبحت الجماعات الشيوعية في كل انحاء العالم أدوات في يد موسكو . واستطاع الشيوعيون أن يستندوا بتأييد بعض العمال الراديكاليين في أوروبا الغربية وكذلك المبدعين الذين اغمضوا أعينهم عن الأوضاع الحقيقية القائمة في روسيا السوفيتية . ان تهديد الاتحاد السوفيتي الدائم بالاغارة على الدول المجاورة جعل من الصعب على الأحزاب الشيوعية ان تستقل بذواتها ، وقد كان الموقف أكثر دراماتيكية في حزبي رومانيا وبولندا اذ رفضتا الادعاءات السوفيتية في اراضيها الاقليمية . ومن ثم نظر اليهما لاتحاد السوفيتي باعتبارهما معاديتين للقومية . وقد وجدت الأحزاب التي تشكلت في العشرينيات الاستراتيجية السوفيتية لفهم أواصر الهيئات الديمقراطية التي تشكلت حديثا . وفي الحقيقة فإن الأحزاب الشيوعية في كل بلدان أوروبا الشرقية فيما عدا الحزب التشيكوسلوفاكي كانت غير شرعية . لقد اختير الجيل الأول من الزعماء الشيوعيين الشرق أوروبيين من هؤلاء الذين شاركوا بفاعلية في أعمال الكمنترن في العام الآخر من حكم لينين ، وبعض هؤلاء كان مغاديرين لستالين والبعض الآخر كانوا ستالينيين مؤمنين به ، بل لقد شاركوا في التدبير للمذابح التي أقيمت لأحزابهم . وقد أصر ستالين على أهمية « بلشفة » هذه الأحزاب وذلك بالتخلص من الجيل الأول واستبداله بجيل أكثر طاعة وأسهل انقيادا .

وقى الثلاثينيات تم تصفية الائتلاف الذى يشمل كل الأحزاب الشيوعية الشرق اوروبية فى مذابح النضهير الكبير بالاتحاد السوفيتى . ولان ستالين شعر بنفور تجاه الشيوعيين البولنديين واتهمهم بارتكاب اخطاء التروتسكيين (٢٥) Trotskyists والكسمبرجيين Luxemburgists (٢٦) ، التى لا تغتفر فتولى فى عام ١٩٣٨ مهمة تصفية الحزب الشيوعى البولندى . وشنق فيرا كوسترتسفا Werakostzewa ، ويوليان لنسكى لينشنسكى Julian Lenskiteszcenski والفرد فارسكى Alfred Warski القادة التاريخيين للحزب الشيوعى البولندى ، كما تعرضت كل فئات الشيوعيين البولنديين للنفى والذبح فى السجون السوفيتية ، ومر آخرون فى دول أخرى بتجارب مشابهة منهم ميلان جوركيك Milan Gorkic السكرتير العام للحزب الشيوعى اليوجوسلافى الذى تم تصفيته فى الاتحاد السوفيتى وكذلك الآباء المؤسسون للشيوعية الملهمه وسنهم الكسندر دوبر جينو جريا Alexander Dobrogeanu-Gherea (٢٧) وامرى الدار Imre Aldar وديفيد فابين David Fabian وادى التبدله فى أوهاى « الدولية » الى اقتناع الشيوعيين بأنهم اذا ما قدموا خدماتهم للثورة البلشفية فانهم بذلك يخدمون قضية الثورة العالمية وتحرر البروليتاريا ولذا ، قبل الشيوعيون المخلصون حكم ستالين الدموى دون أدنى اعتراض . ومع استبدال النواة الاولى للقادة الشيوعيين بجيل أكثر خنوعا من الأعضاء الشيوعيين الذين تلقوا تدريبهم بموسكو تمت التصفية الكاملة لكل الاتجاهات الناقدة داخل هذه الأحزاب .

ورغم الطاعة العمياء التى أبدتها هذه الأحزاب لموسكو فسان بعضها وجدت علاقتها بموسكو على هذا النحو الخانع تضعها فى موقف محرج ، وكانت موسكو دائما تعامل الحزب الشيوعى الرومانى بازدياء ان علاقتها به كانت هزيلة وذلك بالتحديد لأنه لم يكن قادرا على التخلص من وضعه الهامشى (٢٨) . ومن ناحية أخرى فان الكرملين فرض عليهم حدودا كان عليهم الا يتجاوزوها مما منعهم من التحول الى حزب جماهيرى بينما تمتع الحزب البلغارى بمعاملة كريمة من جانب الكرملين وذلك يرجع فى الأساس الى لزعمائه من مكانة دولية أمثال جورجى ديمتروف Georgi Dimitrov الذى أصبح بعد تبرئة ساحته بموجب معاهدة ليبزج (٢٩) Léipzig فى ديسمبر ١٩٣٣ الرمز المعبود لكل اليساريين الدوليين . وقد اتهم النازيون ديمتروف اللاجئ السياسى بألمانيا بأنه العقل المدبر لحريق البرلمان الألمانى Reichstag ، بعد تولى هتلر للسلطة فى يناير

١٩٣٣ . وقد حاول ديمتروف شجب القادة النازيين باعتبارهم الجناة
الفعليين لهذا الاستفزاز السياسى . وقد تم السماح لديمتروف بمغادرة
المانيا والذهاب الى موسكو حيث أصبح الرئيس التنفيذى للكمنترن (٣٠) .
أما فى المجر فتتمت الاطاحة بالنظام الثورى اللينينى برئاسة بيلاكسون
Bela Kun بدعم من الجيش الرومانى ، ثم شُنق كون فى الاتحاد
السوفيتى فيما بعد باعتباره « عدو الشعب » واختفى اسمه لعقدين
كاملين من سائر المنشورات الشيوعية التى تناولت كميونة بودابست
التي حالفها سوء الحظ فى ١٩١٩ .

وبعد ١٩٣٨ عهدت قيادة الخبز الشيوعى اليوجوسلافى السرى
الى مناضل شيوعى كرواتى هو جوسيب بروز الذى عرف باسمه
الحركى الشهير « تيتو » . وكان من الشيوعيين اليوجوسلافيين الذين
سطع نجمهم ميلوفان جيلاس طالب الفلسفة الذى سيصبح فيما بعد
نائب رئيس الجمهورية الذى واصل تحرره من وهم الشيوعية كما
أصبح أحد الاصوات الناقدة للديكتاتورية الشيوعية ولسلوك تيتو
الأوتوقراطى .

ومن ناحية أخرى ظهرت حركات يمينية لاقت قبولا فى بادئ
الأمر من الاصلاحيين ثم الجماعات المدنية الاجتماعية فيما بعد ، وذلك
من خلال استخدام قيم ورموز شوفينية استيطورية . وعلى عكس
الشيوعيين الذين انتقدوا الأوضاع القائمة باسم الالتزام التام بالدفاع
عن الاتحاد السوفيتى « والأرض الأم لبروليتارية العالم » المزعومة
فقد انتقد اليمين المتطرف الديمقراطية والراسمالية لفشلها فى خلق
« جسد دستورى قومى » . وفى رومانيا ضم اليمين المتطرف العديد من
الأحزاب والجماعات الصغيرة العدد بالاضافة الى « الفيلق legion »
(أو الحرس الحديدى فى الثلاثينات وكان قوامها الجموع المحبطة
من المتبعين الشباب والطلاب والقساوسة والعمال غير المهرة ، الا انها
جميعا وبشكل عام حملت اتجاهات معادية للغرب والسامية والابداع .
ووجهت هذه الأحزاب اللوم للشيوعية باعتبارها بدعة يهودية
ماسونية (٣١) ووعدت بتطهير الحياة السياسية الفاسدة وذلك ببناء
نظام ديكتاتورى يقوده رجال أقوياء حباهم الله بمواهب خاصة منهم
رئيس منظمة الحرس الحديدى كورنيلو زىلا كودرينو وكان نموذجهم
المثالى هو انشاء نظام سياسى قائم على المبادئ الرومانية
والارثوذكسية . وبمعنى آخر فقد نادوا باستبدال النظام « القومى
العسكرى » بأخر برلمانى مدنى .

واستخدم أعضاء الحرس الحديدي الارهاب السياسى لتحقيق أهدافهم السياسية ، ففي ديسمبر ١٩٣٣ اغتال أحد الفدائيين من الحرس الحديدي رئيس الوزراء الليبرالى ايون ج . دوكا Ion G. Duca الذى عرف بوجهات نظره المؤيدة للغرب والمعادية للفاشية . وأجبر منطق اليمين المتطرف - خاصة بعد تولى الحزب النازى فى ألمانيا الحكم - طبقه السياسيين الرومانيين على التورط فى أعمال قمعية ضد زعماء الحركة الفاشية . وقبض بوليس كارول الثانى على كودرينو نفسه وقتلوه عام ١٩٣٨ . وتم شجب الديكتاتورية الملكية وقمع النظام البرلمانى قمعاً . وبدأ أن تصاعد العنف فى هذا البلد حتى .

وتلقت تشيكوسلوفاكيا والمواطنون المنحدرون من أصل مجرى ونمساوى لطمة مميته فى مارس ١٩٣٨ عند توقيع اتفاقية ميونخ والتي اعترفت بحقوق ألمانيا الذى تدعيه فى إقليم الشنوديت (٣٢) Sudetenland . وفى سبتمبر من نفس العام احتل الجيش الألمانى براغ وأعلن مثلاً تعيينه لحكومة تشرف على بوهيميا ومورافيا ، وقفزت سلوفاكيا مطالبة بحقها فى الاستقلال وتأسيس نظام موال للنازى بزعامة مونستور تيسو Monsignor Tiso الذى كان من أقطاب الدعوة للملكية . وفى أغسطس ١٩٣٩ وضعت المعاهدة النازية السوفيتية نهاية لآي أوهايم خاصة بإمكانية منع وقوع الحرب .

وتعاونت القوات السوفيتية والألمانية فى تمزيق أوصل بولندا وشغل وزير الخارجية السوفيتى فيتسلاف مولوتوف ، لاختفاء بولندا من على الخريطة الأوربية . فلم يكن السوفيت مثلهم مثل النازيين يتقبلون وجود الجمهورية البولندية التى أسماها مولوتوف مستخفاً « الابن غير الشرعى » لمعاهدة فرساي « (٣٣) . وفى اللحظة التى أحكم فيها الدب الروسى والنسر الألمانى قبضتيهما الحديديتين على تلك البلدان لم يعد لما عرف بقلب أوروبا أى وجود .

ويرى تشيسلاف ميلوف أن جميع البلدان التى عانت من عواقب الحلف السوفيتى النازى استمرت فى الوجود ككيان لا وجود له الا فى نطاق ذاكرة ثقافية معذبة ، حيث يقول :

ربما كان الفارق الأساسى بين شطرى أوروبا مائلاً فى الاختلاف بين الذاكرة وعدمها ، فشعوب غرب أوروبا لا ترى فى حلف مولوتوف روبنتروب (٣٤) أكثر من شبح فكرى لماض غارق فى الضباب . أما نحن وأعنى نحن الذين اکتوينا بهذه الاتفاقية التى أبرمتها القوتان العظيمان ، فاننا نراه حقيقة واقعة يلمسها كل من ولدوا فى بلداننا

بعد الحرب . ولذا فسوف أخاطر بتقديم تعريف بسيط جداً لوسط أوروبا ، فأقول انها تلك البلدان التي كانت موضع مقايضة حقيقية او محتملة بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في اغسطس ١٩٣٩ انها عقود من الألم والمهانة التي تميز بلدان أوروبا الشرقية عن شقيقاتها الغربية (٣٥) .

وفي يونيو ١٩٤٠ وجه السوفيت انذارا لرومانيا لتتسحب من اقليم روسيا البيضاء وشمال بوكوفينا .

وكان رد الملك كارول الثاني ، الذي كان معزولا دوليا والذي اطاح بالنظام الديمقراطي في ١٩٣٩ الاستسلام التام والخضوع للانذار السوفيتي شديد اللهجة .

وفرض الألمان والايطاليون في اغسطس على رومانيا اتفاقية فيينا Vienna Award التي نالت بموجبها المجر ترانسلفانيا .

وتأسست بعد عدة ايام من قرار الملك من رومانيا دكتاتورية جديدة بقيادة الجنرال ايون انتونسكو Ion Antonescu وقائد منظمة الحرس الحديدي هوريا سيما Horia Sima وحاولت منظمة الحرس الحديدي في يناير ١٩٤١ التخلص من انتونسكو ولكن محاولتها باءت بالفشل . ولما انشئت الدكتاتورية العسكرية غادر هوريا سيما رومانيا متوجها الى ألمانيا وأعلن انتونسكو حاكما على دولة رومانيا .

ولما هاجمت ألمانيا يوجوسلافيا عام ١٩٤١ نظمت في الحال حركات مقاومة عديدة كان اكثرها قوة الحركات الصربية الدولية بقيادة الجنرال درازا ميهاجلوفيك Draza Mihajlovic المعروف باسم تشيتنيك Chetniks .

أما حركة المقاومة الشيوعية فقد قادها تيتو وقد عرفت باسم حركة « الأنصار » Partisans .

وإثناء هذه الفترة حافظت المجر على علاقات جيدة مع الألمان رغم ان حركة « الصليبان السهمية » . المغالية في الشوفينية قد نجحت في تطويق الأدميرال هورتي Admiral Horthy ومحاصرته . أما النظام العسكري ببلغاريا فكان مقاربا لمثيله الألماني حيث ناضل من أجل ابقاء بلده بعيدا عن الصراعات التي أخذت تطل برأسها فوق المنطقة .

ولدة سنتين تقريبا - بين سبتمبر ١٩٣٩ ويونيو ١٩٤١ عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى - اتخذت الأحزاب الشيوعية المحلية فى بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا ورومانيا موقفا غير مناوئ للنازية بل انها وجهت اللوم لبريطانيا وفرنسا اللتين اخذتا تعمدان العدة للحرب وتجريان المناورات العسكرية . (وكانت يوجوسلافيا استثناء) . ويفسر رفض الأحزاب الشيوعية الشرق اوروبية التورط فى معارك مقاومة النازى ، وذلك بين أغسطس ١٩٣٩ ويناير ١٩٤١ ، أنها كانت تابعة للكومنترن الذى يهيمن عليه الاتحاد السوفيتى .

وكانت توجيهات الكومنترن فى أغسطس ١٩٤٠ الى هذه الأحزاب هى أن تقاوم بكل ما اوتيت من قوة مساعى الدوائر المؤيدة لبريطانيا والمؤيدة لفرنسا - تجار الحرب الامبرياليين - وذلك لأن الدعاية الستالينية نددت فى شهور العسل مع هتلر بالديمقراطيات الغربية . بل ان الشيوعيين الفرنسيين تعهدوا بمد جسور التعاون الوثيق مع النازيين كما أن الأحزاب الشيوعية بأوروبا الشرقية قامت بالمثل باعانة جهود المقاومة ضد الالمان الا انهم اخفوا هذه الأعمال المشينة فيما بعد واختلقوا أسطورة الدور الحاسم للشيوعية فى مقاومة الغزاة الالمان فى بلدان شرق أوروبا .

وعندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى فان الاتصالات بين موسكو والأحزاب الشيوعية فى أوروبا جمدت وأصبحت هذه الأحزاب فى احدى الفترات حرة التصرف ، وهذا يفسر الاستراتيجيات - التى غلب عليها طابع الاستقلالية والجرأة - التى اتبعتها القيادات المحلية بما فيها الجهود التى بذلها الشيوعيون اليوجوسلافيون لاصلاح المؤسسات التى كانت ذات طابع سوفيتى دون علم ستالين أو موافقته ، وعلى نفس الشاكلة انخرط الشيوعيون البولنديون المحليون بقيادة فلاديسلاف جوميلكا Wladislaw Gomulka فى اعادة بناء الحزب الشيوعى واخذوا بيد حركة « الانصار » دون انتظار مباركة الاتحاد السوفيتى .

وفى سنوات الحرب كانت السمة المميزة للعلاقة بين الكرملين والأحزاب الشيوعية بأوروبا الشرقية هى انقطاع المعلومات والدعم بين المركز وتوابعه ومن ثم ، انبثق داخل كل حزب شيوعى نواة محلية (وطنية) كما برزت قيادات محلية موازية تماما وبديلة لهؤلاء الدخلاء الذين تم اعدادهم فى موسكو . وفى يوجوسلافيا ، فان نزعات تيتو الراديكالية وميله للخروج عن سيطرة ستالين جعلت الأخير يدفع

تيتو نحو القيام بمبادرات لم يجن منها القادة الشيوعيون الا تدهسو-
علاقاتهم مع الائتلافات الغربية . ولابد ان نذكر هنا ان ستالين قرر في
عام ١٩٤٣ ان يحل الدولية الشيوعية كدليل على حسن نواياه تجاه
تشرشل Churchill وروزفلت Roosevelt .

واصبح واضحا في آخر الامر ان الانفصال الذي تم تبريره في وقت
ما على انه وعى الأحزاب المحلية الناضجة بأن حاجتها لتوجيهات
موسكو قد تضاءلت ، استفاد منه ستالين لتحقيق طموحه الدعائي كي
ينخف من حدة كره الأحلاف ومقتها للارث الذي خلفته الثورة البلشفية .

وحال تغلغل السوفيت في الأراضي الإقليمية لأوربا الشرقية قاموا
بفرض سيطرتهم على الأحزاب الشيوعية وتولى « المسكوفيون
Muscovities » (الشيوعيين الذين قضوا سنوات الحرب في
منفاهم بموسكو) مناصب القمة وانضم كل من أنابوكر Anapauker
وفاسيل لوكا Vasile luca الى جورج جورجيو — دج Gheorghe
Gheorghiu-Dej كسكرتيرين للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني .
وفي بولندا أصبح بوليسلو بيرت Boleslaw Bierut — رئيس حكومة
لوبلين Lublin التي تدعمها موسكو — السكرتير العام للحزب
الشيوعي البولندي الذي بادر بتصفية الشيوعيين المحليين وعلى
رأسهم جوميلكا .

وفي تشيكوسلوفاكيا وغيرها استعاد السوفيت هيمنتهم السابقة
التي كانت قد توقفت فعينوا المهاجرين السوفيت السابقين وهم على
التوالي كليمنت جوتفالد Klement Gottwald ورودولف سلاتسكي
Rudolf-Slansky كرئيس ، وسكرتير عام الحزب الشيوعي في
يوجوسلافيا . وفي بلغاريا فان الحزب الذي تم تأسيسه محليا بقيادة
ترتشيو كوستوف Tracho Kostov كان يجب عليه ان يشترك
في السلطة مع هؤلاء المسكوفيين جورجي ديمتروف ، وفاسيل
كولاروف Vasil Kolarov — ، وفلكو تشرتيكوف Vulko Chernekov
واستولى الموسكوفيون في المجر على السلطة تحت قيادة الحزب
الشيوعي وأسسوا دكتاتورية متمثلة في الرباعي المكون من ماتياس
راكوسي Matyas Rakos السكرتير العام وتابعيه المخلصين ايرنو
Erno و « جيرو Gero » (الموظف السابق في مفوضية الشعب
للشئون الداخلية NKVD (٣٦) الذي تولى مهمة تصفية الثورات
التي قامت ضد ستالين في برشلونة Barcelona (وذلك أثناء
الحرب الأسبانية) وميهالي فاركاس Mihaly Farkas وجوتسيف ريفيا

Jozzef Revia والتابع السابق والمفكر الماركسي الشهير جورج
لوكاسي الذي تبني الستالينية المتشددة .

واستطاعت يوجوسلافيا أن تخلق نموذجا خاصا بها فنجح تيتو
في خلق قاعدة جماهيرية فاعلة لنفسه ولرفاقه ومنهم إيفارد كارديلي
Edvard Kardelj والكسندر رانكوفيك Alexander Rankovic
وميلوفان جيلاس . ورغم الأحداث الدموية في الحرب العالمية الثانية
شرح الشيوعيون اليوجوسلافيون رغم دعمهم الذي لم يضعف لستالين
والاستراتيجية الدولية السوفيتية في تحويل حركتهم إلى حركة قومية .
وكانت مشكلة الكرملين الحقيقية مع تيتو في أنه كان يكن الحب والاعجاب
التامين والواضحين لستالين ورغم ذلك كان طموحه الأول أن يصبح
نظير ستالين في البلقان ، وادى هذا التصميم الواضح من جانب تيتو
على تحقيق طموحه إلى دخوله في صراع مع الديكتاتور السوفيتي
وهو الصراع الذي بدا خفيا أول الأمر إلا أنه سرعان ما أصبح علنيا .

وقام الشيوعيون اليوجوسلافيون بأعمال إرهابية ضد أعدائهم -
النازي وغيره - وأقيم نظام سياسي سرى واستعمرت أساليب القمع
بشكل مباشر من ترسانة البوليس السرى السوفيتي (NKVD) .
وعمل تيتو على توسيع نفوذه في دول البلقان ، فأرسل مبعوثه
سفيتوزار فكماتوفيك Svetozar Vukmanovic ليوطد علاقاته مع
الشيوعيين اليونانيين الذين انشغلوا في حرب أهلية ضد المؤيدين
للنظام الاستبدادي الموالي للغرب . وكانت يوجوسلافيا تتعامل مع
الأحزاب الشيوعية الألبانية الصغيرة بقيادة أنور خوجه Enver Hoxa
- مدرس اللغة الفرنسية بمدينة تيرانا Tirana (٣٨) - من موقع
الأخ الأكبر .

وعندما قرر ستالين أن يستعدى تيتو ويطرده من حركة الأمية
الشيوعية ، تذكر خوجة وزملائه الذل الذي لحق بهم على يد
اليوجوسلافيين المتعجرفين ودعموا الحملات السوفيتية المعادية
ليوجوسلافيا .

أوهام وقوضى :

ما الذي وعدت به هذه الائتلافات الشيوعية كي تحرر أممها
سياسيا ؟

ما هي المبادئ التي تبناها وما هو برنامج العمل الذي سيطرحونه
لتحديث النظم السياسية الاقتصادية والاجتماعية بدولهم ؟

ان مبعث هؤلاء الذين تورطوا في أنشطة شيوعية خلال الحرب العالمية الثانية هو تقديسهم التام ودون تحفظ للاتحاد السوفيتي ، إضافة الى القناعة التي كانت لدى معظم الشيوعيين وهي ان نضالهم ضد الفاشية هو جزء من التحرر العالى والانسانى من العبودية .

فقد تبنى الاتحاد السوفيتي لقضية التحرير الانسانى كان له اثر توسطت في اوساط المبدعين فالتحق العديد منهم خلال الفترة التي الشيوعية وهم على خلال سنوات المساومة ضد النازية بالحركة وتم التعيم على المعلوم بانها تقدم صيغة مثلى للمعقولية التاريخية .
Great Purge الذى جرى فى تفصح بشاعة التطهير الكبير USSR ، بل لقد رفض الكثيرون الأنصت لجمهوريات السوفيتية الاشتراكية افتراء قاشيا .
توفر منها باعتبارها

ان المناورات المايكرة التي مارستها الديمقراطية البنية وخاصة بعد مؤتمر الكومنترن السابع Comintern Congress حيث اتبعت استراتيجية « الجبهات الشعبية » (وهى المنظمات التي ترفع مظلة الهيمنة الشيوعية) جعلت الناس يؤمن بان أوروبا الشرقية سوف تحكمها بعد الحرب أنظمة ديمقراطية شعبية ، وبدا ان الشيوعيين يتصرفون باعتبارهم المثلين الحقيقيين للتعددية واستخدمت اسطورة المجتمع الخالى من الطبقة حيث سترال كل التوترات السياسية والاقتصادية وتستبدل بجنة أرضية ، حيث تسود المساواة بين البشر وهو ما استخدم كمبرر لرغبة المناضلين الشيوعيين فى الانغماس فى نضالهم الهادف . ولم تتوفر لدى دى الكرملين وأوروبا الشرقية أى نية لبناء نظام تعددى ، أو لبناء مجتمعات لاطبقية وظنت العقول المدبرة للكمنترن بأن وصول القوات السوفيتية لهذه البلدان سيمنح الأحزاب الشيوعية تقوفا سياسيا هائلا يدحرون به كل خصومهم .

ومنذ الثلاثينيات اصطبغت الأحزاب الشيوعية بالصيغة الستالينية بكل ما تحمله الكلمة من معنى الا أن الايمان بإمكانية تحقيق الاحلام الاشتراكية كان لا يزال يراود البعض ، وأبدت هذه الاحلاف بصفة عامة استعدادها التام لخدمة مصالح الاتحاد السوفيتي ودون ادنى تردد . واعرب كثيرون عن استيائهم من الأحزاب المحلية الاشتراكية الديمقراطية التي أيدت اتخاذ طريق ثورى لتحقيق مجتمع أكثر عدالة . واتهم الشيوعيون خصومهم بأنهم عملاء للبرجوازية مستخدمين فى ذلك وسائل الدعاية الفظة كما حاول ستالين أن يحافظ على صورته (على

الأقل حتى تنتهى الحرب العالمية) كرجل دولة محنك وحكيم وذلك بتخلي الشيوعيين الموالين للاتحاد السوفيتى عن رطانتهم وبتعهدهم بالعمل كأبطال للاستقلال القومى .

وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية كانت الأحزاب الشيوعية آنذاك تطالب وتعالى من شأن التيم الوطنية من خلال لجان تنظيمية ، والحقيقة أن كثيرين من مناضليهم قد حكم عليهم بالسجن أو قتلوا في السجون الفاشية ، وقد أصبح هؤلاء رموزا للتضحية والبطولة الحقيقية الا ان آلة الدعاية استغلت تضحياتهم بهارة وقدمتها للجماهير كأدلة على مراعاة المصالح القومية . وكف الشيوعيون عن تلميع وتمجيد رموزهم ، ومدوا أيديهم لتشكيلات سياسية وذلك لخلق مظلة واسعة من تلك الحركات التى كرسست نفسها لاقامة الحكومات الديمقراطية المزعومة . ان تلك هى الخفايا التى تكمن وراء الأوهام التى تنذر بها الكثيرون فى الغرب بما فيهم بعض صانعى القرارات السياسية وأكثرهم تأثيراً عندما حاولوا ايجاد تفسير لوقف ستالين بشأن مدى معقولية « الثورة العالمية » ومدى أهميتها .

ورغم أن هذه الأوهام كانت كالبوبك بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم الأمل فى تحقيقها ، الا أنهم تجاهلوا تماما الطبيعة التوسعية للانظام السوفيتى والتى كانت واضحة للغرب ، مما أدى الى عقد عدد من الاتفاقيات بما فى ذلك اتفاقيات مؤتمر طهران Teheran (١٩٤٤) ويالطا Yalta (٣٩) (١٩٤٥) . واقنع الاتحاد السوفيتى شركاءه الغربيين فى طهران ويالطا بأنه يملك الحق فى الدفاع عن مناطق نفوذه فى أوربا الشرقية .

ولا يهم ما اضطبغت به اتفاقية يالطا من وعود براقبة عن الديمقراطية ، فقد استغل الاتحاد السوفيتى دوره الدولى ليقر نظاما تابعة له فى دول أوربا الشرقية .

وباسم النضال ضد ما خلقتة الفاشية من اضطهاد بشع للأحزاب الديمقراطية بأوربا الشرقية تأسست الرقابة وتم التشديد عليها وأنشئت نظم سياسية سرية لاضطهاد وملاحقة كل من يجرو على نقد الشيوعية . كانت معاداة الشيوعية (أو معاداة السوفياتية) تعسد فاشية ، ولأنهم أدركوا عدم وجود أية عقبات تقف فى وجه نفوذهم ، فان الأحلاف الشيوعية المحلية بدأت فى التحرك بجرأة متزايدة .

ان الوجود العسكرى لروسيا فى دول أوربا الشرقية منح الائتلافات الشيوعية الجماهيرية أبواقا تهتف لهم وتحميمهم وبذلك تكون

روسيا قد وظفتهم وبنجاح كي ما يحققوا أهدافهم السياسية وعودا
السياسي ، وعلى أية حال فان هذه الأحزاب — في الواقع العملي
بادرت بالقيام بعمليات التصفية والتفريق المستمرين وأرست قواعد
هيمنتها السياسية التي انسمت بالنزعة الفردية .

واستخدمت هذه الأحزاب — كي تحقق أهدافها — مجموعات
صغيرة من الأحزاب — التقليدية الشعبية والتشكيلات السياسية
والشخصيات السياسية البارزة والتي هيء لها أن التعاون مع المحتل
ستالين سيضمن بقاءهم في مناصبهم السياسية . ولم يرغب الشيوعيون
على أية حال في التورط في السلطة ومنطق اللينينية ديكتاتوريتها العسكرية
وبممارستها السلطوية المطلقة جعلت الشيوعيين يستعدون على نحو
أفضل لكسب الجولة ، كما كانوا على اقتناع — بعكس أعدائهم — بأن
نظام الحزب الواحد فقط هو القادر على حل مشكلات بلادهم كما كرهوا
بشدة النظام البرلماني ونظروا للبنى الديمقراطية على أنها أنظمة
عضال .

وعلى عكس منافسيهم لم ينقسم الشيوعيون في خطوط أيديولوجية
وعقائدية ، وإنما كانوا تجمعات متماسكة ومتناغمة قلبا وقالبا وحقيقة
فان هذه المجموعات لم تكن متناغمة بالقدر الذي تنشده ، بل كان هناك
بعض النزاعات التي لم تكن بسبب الاختلاف حول مسائل عقائدية
أو استراتيجية بقدر ما كانت بسبب الصراع على السلطة والمناصب
القيادية ، وكان الشيوعيون بارعين في منح روح الدعم غير المشروط
للقوى التي يقفون بصفها تلك القوى التي تطيع أوامر قيادتها دون
أدنى اعتراض أو تردد .

ولكى تكون شيوعيا حقيقيا عليك محاصرة أي شخص يطالب
بحرية الفكر أو الحرية الشخصية وذلك لتحقيق مصالح الكيان .

وبينما كانت القضية هي الاضطلاع بالسلطة وإقامة ديكتاتوريات
على الطراز السوفيتي فان الحزب الشيوعي تصرف ككيان واحد دون
أي أثر للفوضوية السياسية أو الاجتماعية ، ان عقيدة ستالين هي
الاطار الذي يجمع هذه الأحزاب وهي البديل الكودي للينينية وقد
اكتسبت بعد انتشار الجيوش الشيوعية حول العالم صفة الدولية ،

لقد أساء الشيوعيون استخدام ثقة الطبقة العاملة عندها ادعوا أن حزبهم هو مستودع كل المبادئ الإنسانية وقد قدر التاريخ له أن يكون القوة الحاكمة في المجتمع . وتغلغل أعضاء الحزب في النقابات وسيطروا تماما عليها بإعتبارها « الطريق » إلى الطبقة العاملة . ورغم أن الشيوعيين كانوا يدافعون عن البروليتاريا ، إلا أنهم لم يثقوا في هذه الطبقة التي حاولوا — باسمها — أن يصلوا للسلطة إذ نظروا للعمال على أنهم مجرد جماهير مراوغة وتجمع غير فعال عاجز عن فهم مصالحه الخاصة ، أما الشيوعيون الحقيقيون فهم الأقلية المثقفة التي أثمرتها مهمتها السياسية واعتبرت أية معارضة لخطط حزبهم جريمة .

الشيوعيون ونظرية المعسكرين

بعد عامي ٤٤ — ١٩٤٥ المساويين ومنذ أن أعلن السوفييت بأنهم لا يهدفون إلى إقامة أنظمة شيوعية في شرق وقلب أوروبا بدأت الأمور تتغير في عام ١٩٤٦ . وبلغت الحرب الباردة Cold war ذروتها ودخلت الحرب الأهلية في اليونان والتي بدأت عام ١٩٤٤ مرحلة أسوأ من ذي قبل ، وهاجم الغرب بشدة الممارسات السياسية الشيوعية التي اتسمت بالعنف مما جعل ستالين يدرك أن الوقت قد حان للتخلي عن الشعارات التي ترفع للتهدة وخاصة فيما يتعلق بالجبهات الشعبية والائتلافات القومية . كما كان المناخ مناسباً في الكرملين لظهور الصراعات الشرسة من أجل النفوذ وذلك بين فريقين تنازعا ليكون لأحدهما اليد العليا في بطانة الطاغية العجوز ، أحدهما مكون من عملاء موسكو بقيادة جورجى مالينكوف Georgy Malenkov ولافرينتى بريا Lavrenty Beria ، والآخر من الرئيس السابق لحزب ليننجراد اندري زدانوف (٤١) Andrei Zhdanov إذ بدأ محاولات مستمرة ودعوية كي يبرهنوا لستالين على التزامهم التام الذي لا يعرف الكلل بمبادئ الصراع الطبقي الدولي .

ويرى زدانوف أن اللجنة البريطانية وهي الدعامة الأولى للقوى المعادية للشيوعية في اليونان أولاً ثم قرار الولايات المتحدة لإقرار العلاج الاقتصادي في أوروبا الغربية من خلال خطة مارشال Marshall Plan (٤٢) ثانياً كانا مؤشرين واضحين على أن المهلة الخاصة بالاتفاق الدولي مع الأوصاف « البرجوازية » السابقة بلغ نهايته ، ورأى كهنة الأرثوذكسية

الستالينية ، أن المرحلة الجديدة في الصراع العنيد بين قوى السلام والتقدم والقوى الرجعية ودعاة الحرب قد بدأت .

ولم يعد هناك أى متسع للبحث عن « الطريق القومى للاشتراكية » ، ثم كانت صيحة الحرب التى أصدرها زدانوف لكل الشيوعيين والقوى التقدمية ، فالتفوا حول الاتحاد السوفيتى باعتباره « قلعة الأحلام الإنسانية عن المساواة والسعادة » ، ان النظرية التى أنشأها زدانوف رجل ستالين الأول وتبصر ايدولوجيا الكرملين هى مهد فكرة الأهمية وسبب انتشارها حتى موت ستالين فى مارس ١٩٥٣ .

وقد أوضح زدانوف استراتيجيته الخاصة بتقوية الصراع الطبقي الدولى وتوضيح مدلولاتها لأوروبا الشرقية وذلك فى الاجتماع السرى الذى تم فى بولندا فى مدينة تسكلارسكا بوريا Szklarska Poręba فى ديسمبر ١٩٤٧ . وفى هذه المناسبة اجتمع ممثلو الأحزاب الشيوعية البلغارية والتشيكية والفرنسية والبولندية والرومانية واليوغوسلافية لمناقشة رد الأحزاب المشترك على ما أسماه ستالين السلوك العدوانى الجديد للامبريالية الأمريكية وبلغ الاجتماع السرى هدفه بتشكيل مكتب معلومات للأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال فى مدينة بلجراد Belgrade ويشار لهذه المنظمة الجديدة باسم الكومنفورم Cominform الذى يدل على رغبة موسكو فى احتواء التيارات المبعثرة داخل عالم الشيوعية ، ورغم أن الهدف من انشاء الكومنفورم جعله امتدادا للكومنترن الا انه افترق للمنزلة التى تمتعت بها الأممية علاوة على عدم انضمام بعض الأحزاب المؤثرة للكومنفورم منها الحزبان الشيوعيان الصينى واليونانى لانخراطهما فى حروب أهلية .

بل لقد غاب عن الكومنفورم حزبا اليابان والمانيا الشرقية وهذا يعنى أن الكومنفورم لم يضم كل الأحزاب الفاعلة على الساحة الأوروبية ، أو قل التى تتمتع بنفوذ وسطوة

وكان صوت الشيوعيين اليوجوسلافيين صوتا مسموعا مطالبا بتوحيد الجهود ضد الغرب واتهموا زملاءهم من ايطاليا وفرنسا بـ « الانهزامية » و « الاستسلام » و « الانتهازية اليمينية » ، ومنذ الاجتماع السرى فى تسكلارسكا بوريا أصبح لزدانوف مكانة عالية مرموقة فى الاتحاد السوفيتى وبين كل الشيوعيين ، وبعد عام واحد فقط منذ أن وجه اللوم للشاعرة آنا أخماتوف Ann Akhamatov والفنان ميخائيل زوتشنتكو Mikhail Zoshchenko لانحرافهما عن عقائد الواقعية

الاشتراكية والتي ترى انه « يجب أن يرتبط الفن بمهمة الانتقال
الأيدولوجي وتنشئة العمال على الروح الاشتراكية (٤٣) ومن خلال
حملة ١٩٤٦ المعادية للثقافة كون زدانوف نظرية شوفينية مضادة
للغرب والخاصة بالادعاء الروسى بالتفوق الأخلاقى والتزام المثقفين
بالتكيف مع أوامر الحزب على نحو صارم :

« ان حضارتنا التى تعبر عن المستوى المعيشى المرتفع اذا قورن
بنظيره فى الدول البرجوازية وثقافتنا التى تتفوق عن مثيلتها فى الدول
البرجوازية من حقها ان ترشد الآخرين لنظام اخلاقى شعبى جديد ،
اين يمكنك ان تجد مثل امتنا ؟ اين يمكنك ان تجد مثل هذه الصفات
الانسانية الرائعة التى يتمتع بها شعبنا السوفيتى فى حرب ارض الأجداد
Fatherland ... ان الكاتب لا يستطيع ان يتابع الأحداث الا
عندما يكون فى الصفوف الأولى للجماهير ، يجب ان يريهم الطريق الى
التقدم ولكن فى ضوء الواقعية الاشتراكية ومسترشداً بالدراسة الواعية
للواقع ويمحاولة فهم أسس نموتنا وتطورنا » (٤٤) .

واماب زدانوف فى الاجتماع السرى لتأسيس الكمنفورم
بالشيوعيين لاصدار بيان نحوه ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية
السوفيتية هو الذى يجسد حقاً الأهداف الانسانية للصراع المعادى
للنازية بينما قاومت القوى الغربية هتار لأسباب ترجع لأطماعهم
وأهدافهم الامبريالية فقط .

وكشف هذا البيان مدى صعوبة الموقف السوفيتى المحلى والدولى
اذ اهتم بحشو العقول بالأخيلة الأيدولوجية وبالهجوم الانتقامى ضد
الغرب ، وراى المنظر الأول لستالين ان الاتحاد السوفيتى والبلدان
الديمقراطية الأخرى لابد أن تجعل اعادة وتقوية أوامر النظم
الديمقراطية فى أوربا ، وابداء الفاشية ومنع أى اعتداء جديد على أى
جزء من ألمانيا واقامة تعارن ممتد وشامل بين الدول الأوربية من
أهدافها الأساسية ، ومن ناحية أخرى حققت الولايات المتحدة الأمريكية
وبريطانيا العظمى هدفاً آخر من وراء دخولهم الحرب وهو اقتحامهم
الاسواق كمنافسين لألمانيا واليابان وبذلك فرضوا هيمنتهم ، واستمر
زدانوف فى جداله قائلاً :

« ان الفرق بين تعريف أهداف الحرب ومهام الاستقرار التى
تلى الحرب تأخذ ابعاداً أكثر عمقا بعد انتهاء الحرب وبناء عليه تم
تشكيل معسكرين ، المعسكر الإمبريالى والمعادى للديمقراطية ، وهدفه
الأساسى هو فرض هيمنة الامبريالية الأمريكية وسحق الديمقراطية ،

والعسكر المعادى للامبريالية وهو معسكر ديمقراطى كان هدفه الرئيسى هو تقويض اواصر الامبريالية وتدعيم الديمقراطية ، وابادة كل اثر للفاشية » (٤٥) .

وكان قصد زدانوف قاطعا لا يشوبه اى غموض فهو يرى انه لا يوجد طريق وسط بين الاشتراكية على الطراز السوفيتى والراسمالية الغربية ، وترجمت رؤيته العقائدية Manichean هذه فى التعجيل والاسراع بعملية فرض هيمنة روسيا على البلدان الشرقية (٤٦) وتبعيتها لها ، وعندئذ فرض على اوروبا الشرقية نموذجا يكمن فى التخلص التام من التوجهات السابقة على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، وكذلك اقضاء كل الاعداء الذين يتمتعون بثقل حقيقى على الصعيد السياسى .

وشيدت البنى الجديدة على انقاض هذه المجتمعات المطحونة التى يتم اخضاعها بفرض التبعية عليها ومن ثم تخويلها لنسخ كبرونية من المجتمعات السوفياتية من حيث : البرلمانات البيفائية ، والسيطرة الشيوعية على كل اجزاء ومجالات المجتمع واقامة جميع المعسكرات الايادية ليتولى امر العناصر السياسية المشكوك فيها واقامة مؤسسة للاقتصاد المركزى حيث تلغى الملكية الخاصة تماما وتستبدل بملكية الدولة لكل مصادر الثروة .

وفى رومانيا ، على سبيل المثال ، بدأ تطبيق هذا النموذج فى مارس ١٩٤٥ : وقد قام نائب وزير الخارجية السوفيتى اندريه فيسينسكى Andrei Vyshinsky بزيارة لرومانيا واجبر الملك ميخائيل على تعيين بيترو جروتزا Petru Groza رفيق نضاله على درب الشيوعية كرئيس وزراء رومانيا . وعندما رفض الملك ازادات لهجة النائب العام السوفيتى حيدة وهدد بالتدخل السوفيتى ، وفق نفس الوقت عيبا الشبيوعيون ، جحافلهم المقاتلة وتشروا الازهات فى ارجاء البلد ، لذا فان الملك استسلم للأمر (الدكتات) السوفيتى ، وسقط البلد فى ايدى الحكومة التى عينت من قبل السوفيت وعين الشيوعى تيورى جورجسكو Teohari Georgescu وزيرا للداخلية مؤكداً بذلك على مدى تدهنوز النظام الديمقراطى واكمل التحول للسوفياتية فى ديسمبر ١٩٤٧ وذلك عندما اجبر الملك على التخلّى عن عرشه واعلنت رومانيا جمهورية شعبية وحدث نفس السيناريو فى معظم بلدان اوروبا الشرقية ، ففى المجر احتل الشيوعيون المناصب الاجتماعية ، وشغلوا كل المواقع الحيوية بالحكومات .

واشار الزعيم الشيوعي ماتياس راكوسى Matyas Rakosi — متهمًا — الى « الاستبعاد » الذى يتم للشركاء غير الشيوعيين فى الحكومات الائتلافية (٤٧) وعلى عكس المجريين استخدم الشيوعيون البلغاريون تكتيكات « المواجهة » لاضعاف منافسيهم أولا وليصلوا الى السلطة ثانياً (٤٨) . وفى بولندا برز الشيوعيون مرة أخرى أثناء الحرب تحت اسم حزب « العمال البولنديين » « Polish Worker Party » بقيادة القائد السرى فلاديسلاف جوميلكا والذى حاول أن يستدر مشاعر الجماهير القومية ولكنه لم يجد أى مردود لدى الجماهير التى ظلت تنظر الى الشيوعيين على أنهم أدوات للحكومة السوفيتية . وانخرط الشيوعيون فى عملية « التهئة » وذلك بما مارسوه من قمع حاد لآخر . جيوب المقاومة المسلحة ضد الشيوعية بمساعدة ودعم من الاتحاد السوفيتى ، مستغلين مواقعهم القيادية فى الوزارات المختلفة .

ويسجل أحد السياسيين البولنديين الذين شهدوا على هذه الواقعة ملاحظاته الآتية :

« ... فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة لم تكتسب الأحزاب الشيوعية وحلفاؤها دعماً شعبياً مؤثراً فى بولندا بل وظلت الغالبية العظمى من البولنديين موالين مخلصين للبولنديين فى المنفى ودعموا المعارضة التى قادها حزب الفلاحين البولندى . ولم يتحول النظام الشيوعى السطوى فى بولندا ، اذ كان هناك صراع عنيف بين حزب العمال البولندى ومن ورائه القوة العسكرية السوفيتية والقوى السياسية المعادية للشيوعيين ومن ورائها الغالبية الساحقة من الشعب البولندى » (٤٩) .

وما يؤكد استمرار المقاومة البولندية المعادية للشيوعية هو الاصرار العنيد على الاتصال بالكنيسة الكاثوليكية . وكان وضع الكنيسة الكاثوليكية المتجاوز للقوميات والمثل فى تبعيتها للفاشكان مضرباً للدعم الدولى ، بينما حاول الشيوعيون قطع أية صلة بين الجماعات المحلية والعالم الخارجى . وفيما بعد ستمثل الكنيسة الكاثوليكية معقلاً للمجتمع المدنى البولندى رغم حصار الشيوعيين لها .

وكانت تشيكوسلوفاكيا هى آخر الضحايا التى سقطت فريسة للسياسات السوفيتية المدمرة . وقد دبر الشيوعيون لحشد مظاهرات ضخمة فى فبراير ١٩٤٨ لاجبار الوزراء المعادين للشيوعية على الاستقالة . لما زعم عن قيامهم بأشقة تأمرية . واضطر الرئيس ادوارد بتيس

Edward Benes الى أن يذعن لآذار الزعيم الشيوعى كليمت جتولد الذى شكل حكومة جديدة خالية من ممثلى الأحزاب الديمقراطية . وأصرت الدعاية الشيوعية على أن يتم لها الغلبة فى تشيكوسلوفاكيا بطريقة سلمية ودستورية .

وعلى أية حال فالحقيقة هى أن الشيوعيين كانوا يعدون أنفسهم من أجل الحسم العسكرى للقوى الديمقراطية وكانت فصائل الميليشيات مستعدة للعمل العسكرى فى المصانع التى تقع فى كل أنحاء القطر . وساهم تواجد فاليرين زورين Valerian Zorin نائب وزير الدولة السوفيتى للشئون الخارجية عند وقوع الانقلاب العسكرى فى الضغط على المعارضة ، واعترف واحد من المشاركين فى هذا الانقلاب بعد عشرين عاما من ضربة فبراير خلال ربيع براغ Prague Spring ١٩٦٨ قائلا :

« لقد أفسدنا صورة قصة فبراير ... وزورنا التاريخ الحقيقى لفبراير وأشعر اننى لم أكن آمينا أبداً فى السرد ، الآن فقط أرى ان الوقت قد حان لعمل دراسة ناقدة تجعلنا نضع ايدينا على الأخطاء وانصاف الحقائق والحقائق الزائفة التى روجت فى فبراير ١٩٤٨ داخل أرجاء الوطن وخارجه » (٥٠) .

ووصف زدانوف الانظمة الجديدة فى أوربا الشرقية بأنها لم تكن دكتاتوريات بلوريتارية ناضجة ، بل هى مشاريع لصيغ سياسية جديدة تسمى « الديمقراطية الشعبية » (٥١) . وقد عكست الجريدة الرسمية للكمنفورم الصيغة السياسية الجديدة فى شعارها « من أجل سلام دائم ، من أجل الديمقراطية الشعبية » وكان ستالين نفسه هو الذى ألف هذا الشعار الطويل . لقد كان هذا الشعار الأخرق محاولة لاجبار الاعلام الغربى — متى ذكروا صحيفة الكمنفورم — أن يرددوا شعاراتها .

لقد كشفت ضربة براغ فى فبراير ١٩٤٨ عن لهفة ستالين كى يغرى الأحلاف الشيوعية الشرق أوروبية لقبول منحة الغرب لاسداء العون لهم من خلال خطة مارشال Marshall plan . واعتقد ستالين باغراء من خطة مارشال المشار إليها بأن الوقت قد حان للكف عن تشجيع أو قبول أى مبادرات سياسية تأتى من جانب الشيوعيين المحليين . ان ما يقوم به ستالين يبين أن الكمنفورم جاءت للوجود من أجل توحيد كل من السياسات الداخلية والخارجية للأنظمة التى أنشئت حديثا فى ضوء التفسير السوفيتى للتغيرات التى تتم فى ميزان القوى

الدولى ، كما استهدف ستالين من تكثيف التناقضات الامبريالية جعل الهجمات ضد الأقطار الشيوعية أكثر ضراوة ولم يسمح لأحد باختراق الصفوف فى هذا المنعطف التاريخى الخطير .

وقد دعم تينو وبحماس توجه ستالين الجديد رغم أن الفرصة كانت سانحة لتينو كى يتوسع فى برنامجه الخاص .

ولسخرية الأقدار لم تتلاق وجهتا النظر السوفياتية واليوجوسلافية للصراع الطبقي الدولى وظلا خطين متوازيين لا يلتقيان حتى ان الصدام بين البلدين كان واقعا لا محالة . وتجاهل تينو سلوك ستالين الغيور وبادر بمشروع من أجل كونفدرالية دانوبية Danubian تتضمن يوجوسلافيا وبلغاريا ، وربما رومانيا .

اما الاتصالات السرية لتينو مع السكرفيين فقد كان السوفيتيون على علم تام بها باعتبارها تحديا لسيادة روسيا العظمى على الجميع داخل المعسكر الشيوعى بل وداخل الحركة الشيوعية العالمية .

لم يستطع ستالين أن يتحمل وجود قطب للسلطة يضاهيه وينافئه ، فكرس جهوده على ترويض قيادة يوجوسلافيا المتمردة . وتبدلت الخطابات بين الكرملن وتينو ولكن دون جدوى . وهكذا سبق السيف العذل ولم يعد فى مقدور القيادة اليوجوسلافية التراجع عن الانشقاق وفور رفض تينو الخضوع للنفوذ السوفيتى الذى ينم عن شعوره بالمتفوق ، تحول لعدو لدود للديكتاتور السوفيتى ، واعتبر ستالين كل المنشقين والمنتيمين للثروتسكية Trotskyism وكل « الحركات المنشقة » الأخرى أشرا را لابد من القضاء عليهم واستئصالهم تماما فى الاتحاد السوفيتى .

ان النزاع مع يوجوسلافيا خاصة بعد أن قطع تينو اتصالاته مع الكمنفورم فى يونيو ١٩٤٨ أعطى اشارة البدء للمذابح الدراماتيكية داخل أحزاب شرق أوربا الشيوعية. ولكنه يشر فى ذات الوقت الى ان هيمنة الاتحاد السوفيتى على الدول الأخرى لم تستطع أن تقمع الاتجاهات الوطنية المحلية حتى داخل أكثر الحكومات الشيوعية تأييدا للسوفيت . ومع ذلك فقد كرس تينو كل حياته من أجل القضية الشيوعية . لفت أصبح تينو قائدا بموافقة ستالين ولكن خطأ تينو القاتل — من وجهة نظر سنالين — هو أنه فى الاحتفاظ بحكمه المستقل الدستورى ليوجوسلافيا وبعلاقته بالكرملن فى آن واحد .

وفى هذا الوقت الحرج وبالتحديد عندما قرر الامبرياليون .ن يكتفوا
أعمالهم العدوانية ضد « الديمقراطية الشعبية » مع ظهور ثواهد
لحرب عالمية ثانية وشيكة ، فرر ستالين انه لن يسمح لآى بلد او زعيم
بالتورط فى التجارب الخاصة بالأهمية الدولية فالزعيم يعتبر الأهمية
خيانة للاتحاد السوفيتى بل وخيانة للمبادئ اللينينية الماركسية المقدسة
ومن ثم وجهت ابشع التهم لهؤلاء الأميين ومنها التعاون مع الجستابو
Gestapo ووكالات الاستخبارات الغربية . لقد كانت الفردية هى
عقيدة الستالينية ومن تم وجب أن تستأصل ودون رحمة كل الانجاهات
المعادية لفكرة سيطرة « الواحد » . لقد كان الهدف من الكومنفورم توحيد
سياسة الأنظمة التى تأسست حديثا بما يتلاءم مع راديكالية السلوك
الدولى السوفياتى وبما يضمن منع مثل هذه الصدامات ، الا أن الشرط
الوحيد لمنح الشرعية للأحزاب الشيوعية الحاكمة أن ندور فى فلك
الاتحاد السوفيتى ، وان تنفذ جميع توجيهات ستالين دون احجام . وقد
فرضت الأحزاب الشيوعية فى أوربا الشرقية بالقوة وبفضل ستالين
وصلت الى المواقع القيادية ، ومن ثم نعم القادة الحزبيون داخل بلدان
عدة فى الكتلة السوفيتية بتقديس شعوبهم الا انهم لم يكونوا سوى
ظلال تعكس ايمانهم الشديد بالزعيم ستالين .

وقال جوميلكا الزعيم الشيوعى البولندى عن القادة المحليين انه
« يمكن اعتبارهم مجرد ظلال او ضوء مستعار ، انهم يضيئون مثلما يضىء
القمير » (٥٢) .

لقد رأى ستالين انه لا مجال للشك وحذر من التفكير والذكاء
الناقد ونظر الى الماركسية على انها الحقيقة الكلية المنزهة عن كل
شك ، وادعى ستالين انه سيحسم كل القضايا الشائكة والمواقف
المحيرة بما له من وحدوية كلية مزعومة . لقد احتفى بكوادر النظام
العسكرى العدوانى السلطوى وكان الزعيم هو الضمان الوحيد للنقاء
الأيدىولوجى والخضوع التام لأوامره هو التصرف الوحيد المقبول
اجتماعيا ، ومن ثم تحطم مبدأ الحكم الذاتى المدنى وحل محله الطاعة
العمياء من جانب المناضلين السياسيين . وكى تتحقق الوحدة الأيدىولوجية
والنظام الصارم فان الماركسية ابتكرت واتقنت طريقة « التطهير » التى
كانت الدعامة الأساسية للسيادة الستالينية وهى البسديل العصرى
لمقصلة العصور الوسطى . وقد تبناها صبية ستالين الأوربيون
الشرقيون وكيّفوها حسب أغراضهم . وأصبح الحزب هو القائد

الأعلى الذى يطبق حرفيا منهج ستالين ووجد الشعب فى مؤلفات ستالين اجابات للأسئلة المستعصية . وقد وصف كل مناوئى بأنه « عدو الشعب » ، وحكم على اعضاء الاحلاف السياسية التقليدية ، و أعضاء الكنيسة ، وممثلى الانتلجنسيا القومية الذين رفضوا التعاون مع الأنظمة الجديدة بالسجن لمدد طويلة من خلال محاكمات صورية أو محاكمات سرية خاطفة ، وهذه هى المرحلة الأولى للتطهير فى أوريسا الشرقية . واقتاتت المذابح بعد عام ١٩٤٩ بالأحلاف الشيوعية نفسها وراح ضحيتها هؤلاء الستالينيون المخلصون ، بل كانوا أول من دفع ثمن آلة الارهاب الشرهة .

ويرى الفيلسوف البولندى المولد لتسك كولاكفسكى ان المذابح ساهمت فى القضاء على البقية الباقية من الحكم الذاتى الذليل وخلق جو اشتراكى لا يجرؤ أحد على نقده :

« ان هدف الشمولية هو تحطيم كل أشكال الحياة الطائفية التى لا تقرها الدولة بل تقوم بمراقبتها عن كثب وتفرق بين الأفراد ليتحولوا لأدوات فى يد الدولة التى ينتمى لها المواطنون ولا يجب ان يحملوا لغيرها أى ولاء ولا حتى ايدىولوجية الدولة » (٥٣) .

لقد كان ستالين المستفيد الوحيد من تفسير وتأويل العقائد الايدىولوجية لتلائم التغيرات فى الخط الرسمى للحزب واتسمت الايدىولوجيا بالغموض والجمود وكانت خليطا من الاعراف البالية والتحريمات ، التى لا بد للفرد ان يعتنقها ويطيعها طاعة عمياء . وفى الوقت الذى كان السياسيون الحزبيون أبرياء مما وجه اليهم من تهمة ، فقد حاول الستالينيون قمعهم ، لأنهم كانوا رموزا لتقاليد سياسية مرفوضة ووصفتهم النظرية الستالينية المزعومة بأنهم طبقة من « الاعداء الموضوعيين » وذلك لانهم عبروا عن تحفظهم على الممارسات السوفيتية بل وانتقدوا ستالين نفسه وما حدث من جدل وخلافات مع تيتو كشفت عدم الثقة التى تفشت بين زعماء شرق أوريسا ومنهم لانسلو راجيك Lazlo Rajk فى المجر وكان قد شارك الحرب الأهلية ومد أواصر الصداقة مع حاشية تيتو . وكان الغرض من عملية التطهير المستمرة هو القضاء على أية مبادرات محلية والتأكيد على استمرار الهيمنة السوفيتية على الدول التابعة لهم تامة .

ويرى زيجنيسو بريجينيسكى Zbigniew Brzezinski المحلية شيئا مبالغا فيه بل ان الأمر مجرد « انشغال غير واع بالاهداف

المحلية الأهلية الشيوعية على حساب الأهداف السوفيتية الأعم والدولية » (٥٤) . لقد نظر للمحلية على أنها فلسفة غير حكيمة لمعارضة السيطرة السوفيتية ، وأنها تأييد لرؤية بعض الزعماء الشرق أوروبيين أمثال فلاديسلاف جوميلكا في بولندا ولكريتو باترسكانيو Lucretiu Patrosceanu في رومانيا وتريتشيو كوسنوف Traicho Kortov في بلغاريا ، ولا يعنى ذلك ان المصالح القومية تعارضت بالضرورة مع جدول الأعمال السوفيتى . وبعد ردع كل المبادرات والأهداف المحلية بدا أن الحكام « المحليين » الشرق أوروبيين لم يكونوا على صواب وتعرض معظمهم اما للموت أو السجن لاتهامهم بأبشع التهم وأسخفها .

وأصبحت المحلية ظاهرة دولية وسعى ستالين لاقتلاع هذا الاتجاه وهو برغم والا ستصبح خطرا يهدد الهيمنة السوفيتية التى عمل على فرضها على كل دول أوروبا الشرقية ، وتعرضت التيتوية Titoism باعتبارها محاولة شجاعة وخطيرة لاعادة الرأسمالية ولفصل يوجسلافيا عن : عائلة الأشقاء الاشتراكيين لهجوم الكمنفورم وأصبح هدفه الأول - ان لم يكن الوحيد هو قمع مثل هذه الطموحات المحلية . وكان القضاء على المحلية نهائيا والى الأبد وفرض الوحدة على هذه الدول شيئا لا بد منه . وعبرت وجهات النظر السوفيتية عن مدى الهيمنة السوفيتية التى لاقت كل التقديس باعتبارها معصومة من الخطأ .

ولتحقيق المخطط الستالينى فى أوروبا الشرقية تم اتباع استراتيجية واحدة تؤدى فى نهاية الأمر الى تحويل الثقافات السياسية القومية المتعددة لنسخ كربونية من التجربة السوفياتية التقدمية . وتورطت الأحزاب الشيوعية المحلية فى محاولات مشبوبة لتقليد النموذج الستالينى وأحيانا تعزيز أكثر سمات النظام الشمولى السوفيتى بغضا محققين بذلك غايات استراتيجية .

الأهداف الاقتصادية : التصنيع

وفى المجال الاقتصادى كانت ستالينية شرق أوروبا تعنى تبنى نموذج الاقتصاد المخطط . وتشكلت اللجان العامة للتخطيط فى كل البلدان الاشتراكية- الشرق أوروبية . وكانت مهمتها هى رسم المهام الأساسية للاقتصاد الذى نملكه الدولة ومن ثم بنى اقتصاد الدولة المخطط على تأمين ووسائل الإنتاج الرئيسية
وقامت الديكتاتورية-الاقتصادية الستالينية بدور مهم لاقامة

الصناعة الثقيلة خاصة الصناعة الآلية الكبيرة ، ونطبقا للعقيدة السوفياتية القائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتى الاقتصادى الا أن فرض التصنيع على دول مثل رومانيا وبلغاريا التى تفوقت فى السابق فى المجال الزراعى يعد خرقا للمسيرة الاقتصادية الطبيعية ويقضى على المصدر الأساسى المناخ للنمو الاقتصادى وهو الزراعة ، ومن ثم شرعت كل الدول الشرق أوروبية فى اقامة بنية صناعية وتجاهلوا نهما أهمية التوازن بين الفروع الاقتصادية المتعددة . وأدى الاغتراب بالتصنيع السوفيتى الى اطلاق العنان لمشاريع ضخمة Pharaonic مثل مد القنوات واقامة مصانع الصلب دون الأخذ فى الاعتبار النماذج الاقتصادية الأساسية .

لقد أقيمت هذه المشاريع لأسباب أيديولوجية بحتة بصرف النظر عن مدى فاعليتها حتى اذا ما فشلت فى تحقيق النتائج المرجوة فإن اللوم يلقى على المخربين المزعومين الذين حاولوا خلق عقبات فى طريق المسيرة الظاهرة التى تبغى تحقيق مجتمع غير طبقى .

لقد رغب الشيوعيون فى الانتقال بالطبيعة والمجتمع معا الى المرحلة الجديدة ومن ثم دمجوا بين التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والتربوى بصورة قمعية قسرية ومستبدة . ان المعادلة اللينينية الكلاسيكية « الاشتراكية او القوة السوفياتية + الصدمة الكهربائية » لم يبق منها سوى الطرف الثانى أى الصدمة الكهربائية بل لقد تغيرت فى المرحلة الأولى للاستالينية وأصبحت الاشتراكية تعنى ببساطة « الصدمات الكهربائية + الارهاب » . تحت اسم الدولية البروليتارية فرض الاتحاد السوفيتى الاتفاقيات التجارية المجحفة على الدول التابعة له واجبرهم على انشاء مؤسسات تجارية متحدة مع الشركاء السوفيت والتى تضر بمصالح الدول الشرق أوروبية اذ بموجبها استغل السوفيتون الفحم الرومانى والبولندى والبورانبوم التشيكوسلوفاكى وتحول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية USSR على الصعيد الاقتصادى والسياسى الى عاصمة ام وأصبحت الولايات الشرق أوروبية هى مستعمراتها .

★ الأهداف الاقتصادية : الزراعة

لقد الفت الاشتراكية السوفيتية الملكية الخاصة ايحل محلها التعاونيات الزراعية التى استدعى وجودها الاعتقاد الماركسى اللينينى بأن طبيعة مهنة الفلاحة شكلت طبقة رجعية جاهلة لا يمكن أن تشارك

في الكميونة الاشتراكية الا من خلال هذه التعاونيات . لقد بذلت جهود ستالينية كبيرة لتغيير أوضاع الفلاحين ، وهو ما يعد ضروريا لإنشاء كيان اقتصادي مناسك يمكن السيطرة عليه تماما وتم التأكيد على هذه السيطرة عندما نجحت الحكومة في جعل هذه التعاونيات تعتمد عليها اعتمادا كبيرا للحصول على الامدادات التكنولوجية والآلات الزراعية والجرارات .

★ الأهداف السياسية : القضاء على المجتمع المدني :

وعلى الصعيد الاجتماعي سعت الستالينة الى تحطيم العلاقات الانسانية والتي توصف بشكل عام على أنها المجتمع المدني وغرست في نفوس أفرادها الخوف والرعب ولاقوا منها كل هوان اذ اعتبرتهم مجرد تروس في آلة الدولة التوتاليتارية . وتغير النظام الشرعي ليحرم الأفراد من أي احساس بالحماية أو الأمن . وأشبع القضاء الثوري ظمأ الحزب الشيوعي للنيل من المجموعات الحاكمة السابقة والانتقام من كل متشكك في جدوى الأهداف السياسية والاقتصادية ومن ثم قلبت الشرعية رأسا على عقب وعين قضاة جدد وأصبحت الاجراءات الاقتصادية مهزلة حقيقية .

أما السلطة الحقيقية فكانت في يد الجهاز السياسي للحزب الشيوعي بما فيه من فروع تنظيمية وأيديولوجية وسياسية خاصة بالحفاظ على الأمن ونم تطهير الجيش وتجنيد موظفين جدد من العمال الذين أطاعوا وبتعصب أوامر قادة الحزب .

الأهداف السياسية : اخضاع الحياة الفكرية والثقافية لنظام صارم ذي نسق واحد :

وفي مجال الحياة الفكرية نجح الشيوعيون جزئيا في ابطال كل الانجاهات النقدية ، وسحق الحزب كل أشكال الانشقاق التي تظهر داخله أو خارجه . وشنت الحملات للتخلص من « الاتجاهات الموضوعاتية والأممية » .

أما الماركسبة اللينينية التي قام سنالين بجمع وتنسيق قوانينها ففقدت باعتبارها الأيديولوجية الوحيدة المقبولة ، ولعبت دورا محسورا ومعينا في تلقين الشعب واخضاعه بسهولة لتوجهات الحزب .

وادعت الأيدولوجيا بأنها كاملة وشاملة وأنها مجموعة من المبادئ العامة لتفسير كل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .
ويمكن مشروع ستالين الأيدولوجى فى تكوين نموذج انسانى جديد للتشكيل مواطن ينقاد تماما للحزب . وأشار الكتاب السوفيتيون المنشفون الى هذا « الانسان الجديد » على أنه « السوفيتى المتسق » وبهذا « السوفيتى المتسق » طمحت الانثروبولوجيا للسناينية لتحقيق أكثر من مجرد الانتقال الاجتماعى . وبعد مرور ثلاث سنوات من ثورة أكتوبر فى ١٩٢٠ كتب الكاتب الروسى يفجنى زامياتن Yevgeny Zamyatin عن قمع الاستقلال الذاتى الانسانى فى اللبفانان Leviathan (٥٥) التعاونى حيث قال :

« خذ ميزانا وضع على احدى كفتيه جراما وعلى الأخرى طنا ،
أى على احدى كفتيه « أنا » وعلى الأخرى « نحن » أو دولة واحدة .
أليس من الواضح أن اغتراض أن « الأنا » يمكن أن يكون لها
بعض انواع من « الحقوق » فى علاقتها مع الدولة هو تماما مثل
الادعاء بأن الجرام يمكن أن يساوى الطن فى الوزن ؟ وبناء عليه فإن
الطن يمثل الحقوق بينما يمثل الجرام الواجبات والطريق الطبيعى من
اللا شئئية الى الخلود هو ان تنسى انك جرام وأن تشعر نفسك بأنك
جزء من مليون من الطن » (٥٦) .

ان اخضاع النظام الاجتماعى لنسق واحد صارم لابد أن يكون
شاملا . ولا يمكن لأى مجال من مجالات الحياة مهما كانت خصوصيته ،
أن يغفل من هذا الدمج . وفى كل البلدان التابعة فرضت البيروقراطيات
الأيدولوجية (٥٧) ، للقيام بحملات غسيل مخ مشابهة لتلك التى تم تجريبها
بالمفعول فى الاتحاد السوفيتى وملأت الشعارات الدعائية الجوفاء كل وسائل
الاعلام . وعهد بالمجال الأدبى للمفوضين المتعصبين حيث كان هدفهم
الوحيد التخلص من كل أشكال الفكر المستقل . وأعلنت « الواقعية
الاشتراكية » طريقا للكمال الثقافى السياسى وطريقا للانحياز الكبير
(الجملى) (بضم الجيم وفتح الميم) الخاص بهذا الواقع اليوتوبى ، مما
جعل الجمهور يشعر بالامتعاض تجاه هذا الابداع المكفول والمفروض
رسميا .

وفقد الأدب والفن والفلسفة كل مصداقية لهم اذ كانوا ذيو لا للنظام
القائم ، وأصبحوا مرتعا للكذب والرياء والفساد الأخلاقى ورفضت قلة
من المبدعين التورط فى هذا التلغيق ونعاون بعضهم مع النظام بدافع

الخوف أو بدافع الانتهازية ومن ثم أصبح الانتحار الأخلاقي والسلوك المتلون وباء متفشيا بين الانتلجنسيا الشيوعية . وحاول كثيرون ايجاد تفسيراً لتدله الانتلجنسيا الشرق أوروبية بالليزنية الماركسية أو « الدين الجديد » ومنهم تشيسلومبلونز Czeslaw Milosz عندما حلل في كتابه « العقل الأسير The Captive Mind » الذى نشر فى ١٩٥١ عندما وصلت الحرب الباردة لذروتها أوهام وأخيلة زملائه الذين اعتنقوا الشيوعية بعد وصول القوات السوفيتية لبولندا .

ويرى ميلوتز أن دور الايدلوجيا هو نزع الشك . وغرس الحب والامتنان وبلا حدود فى نفوس الأفراد تجاه الحزب ، وادعاء المعرفة الكلية وتقديم اجابات جاهزة لكل القضايا التى لم تحسم ، وتعزيز اعتقاد الفرد بأنه لا يوجد خلاص خارج الحزب أو بعيدا عنه فقال ميلوتز :

« هناك اجناس من الحشرات التى تحقق سمها فى جسد البرقة ، فنصاب البرقة وتظن انها ستظل مشلولة وتترك نفسها كحاضن جيد لبيض الحشرة السامة فتفقد فيها . ان ماركس وانجلز لم يثبته بان عقيدتهم سوف تستفل بنفس الطريقة حيث يدس مخدر المادية الجدلية فى عقول افراد الشعب ، وعندما يصاب عقل الفرد بالشلل كما هو مطلوب توضع بيض الستالينية فيه . » وبمجرد ان تكون ماركسيا « يقول الحزب للمريض : « يجب أن تكون ستالينى لأن لا ماركسية خارج الستالينية » (٥٨) .

وقال زيغنيو هربرت Zbigniew Herbert شاعر بولندا العظيم أن دعائم الستالينية هى الخوف ، العظمة ، المنعة المسنمة فى اذلال الآخرين ، وقاعدة من المصالح المادية . الا ان هناك مبدعين آخرين قبلوا بل ابتهجوا للتعاون مع المؤسسة الستالينية :

« ستالين ايها المتحدث العظيم ، لقد قلت مرة ان الانسان لا يحتاج لشراء امة . فالانسان ببساطة يجب ان يملك مقدرات الأرواح البشرية ، ان الحكومة فى حاجة للشرعية التى تدعمها طبقة المثقفين أو « الانتلجنسيا » « المبدعة » وخاصة الكتاب . . . لقد كانت هناك هوة بين الحلف ومشاعر الامة ، واعتقد هؤلاء بأن الامة جمهور احمق يجب أن تقوده الأقلية المستتيرة مثل هؤلاء الذين يدعوا النظام الفاشى أى الحلف الذى نصب نفسه ثم فرض على الآخرين رؤية عن المستقبل السعيد » (٥٢) .

الخلاصة :

ماذا حدث في كل دولة من دول شرق أوروبا ؟ كيف أمكن اقتلاع نواة التفكير الناقد وتحويله لتفكير عقيم ؟ كيف خطط الجهاز الحزبي الذى ترأسه الائتلافات الصغيرة لسحق كل المعارضة وفرض دوره الأوتوقراطى ؟ من هم ضحايا هذه التطورات ؟

كى يمكن فهم نجاح التجربة الستالينية في أوروبا الشرقية يجب أن نذكر الدور الحاسم الذى لعبه التهديد الدائم بالتدخل السوفيتى المباشر ، ونذكر أيضا التنسيكات الستالينية المحلية التى قللت النموذج الستالينى في ندميرها للمؤسسات المعادية للشيوعية وتفتيت المجتمع المدنى والاحتلال الاحتكارى للساحة الشعبية من خلال المنظمات والمؤسسات التى تسيطر عليها الدولة منها (منظمة الشبيبة الشيوعية ، ونقابات العمال التى تسيطر عليها الحزب ، ومجالس منظمات السلام ومنظمات جماهيرية أخرى تابعة) .

وكانت الغاية العليا هى خلق اجماع رأى سلبى ناشئ عن الخوف ومبنى على الالتزام المطلق بالبرنامج السياسى للحزب الحاكم ، ان النظام السياسى هو نظام « عبادة الفرد » وحيث يرمز الشخص للحكمة الجماعية التى لا تخطئ وحيث يعد الاختلاف فى ذاته تدميرا ، وحيث لا توجد مطلقا أية مساحة للمعارضة ، وحيث يقوض الكيان الاجتماعى وأى معيار للثقافة المدنية .

ان تركيز السلطة السياسية فى يد نصف اله شيوعى أدى لعبادته عبادة دينية قسرية ولادلال ماسوشى لتابعيه . وكان العامل الذى ساعد على تخمر مبدأ العبودية الأخلاقى والسبائى هو التعريف الستالينى للدولية على انها حب غير محدود لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الديمقراطية وقالت الافتتاحية التى نشرت فى الرود برافو Rudepravo الجريدة التشيكية الشيوعية اليومية فى ٢٥ مايو ١٩٥٢ :

« ان الطريق الى مستنقع الخيانة يبدأ حقيقة من الخطأ المنحرف الذى تتضمن التشكك فى صحة سياسة الاتحاد السوفيتى » (٦٠) .

وقد تم تبرير الارهاب نظريا على أنه الخطيئة التى لا بد منها من أجل الحفاظ على النظام ، كما أكد النظام الديكتاتورى الستالينى أن معارضة الجماعات الاجتماعية المهزومة ستصبح أكثر ضراوة مع تقدم البناء الاشتراكى .

وبالتالى سيكون الرد على تلك المؤامرات التى يثيرها « اعداء الشعب » أكثر الحاحا .

وهكذا كرس الارهاب وعلا شأنه كترىاق يصون المكتسبات الاجتماعية .

ان شعار ملحمة أوربا الشرقية كان النموذج الستالينى للتطهير الكبير الذى نم بالانحاد السوفيتى : « عندما يضرب أحدهم بفأس على الخشب لا بد أن تطير شظاياه » . وفى مرحلة بعينها أثار اتهام تيتو بأنه ينجس على رواتب وكالات الاستخبارات الغربية Western Intelligence Agencies جدلا حول اعادة تعريف الأولويات الرئيسية فى مجتمعات الديمقراطيات الشعبية . وأعلنت الأحزاب الشيوعية توظيفها « للينينية الاشتراكية » ، ووصفت « الديمقراطيات الشعبية » على أنها صيغة جديدة لديكتاتورية البروليتارية . وأكدت مبادئ الكمنفورم مرارا ونكراراً على « الدور القائد للحزب الطليعى » . ولم تكن سيادة الحزب موضعاً للتساؤل وطرح — دون تردد — النموذج الديكتاتورى السوفيتى كنموذج صالح للتطبيق متجاهلين كل السمات القومية التى تميز كل بلد عن الآخر ولاحكام السيطرة على كل الآليات التى تضمن التوالد الاجتماعى والحفاظ على الهيمنة المقولية كان دور الحزب دورا مركزيا وتم التخلص من كل العناصر المحرصة — سواء داخل الحزب أو خارجه وسيطر المرشدون السوفيتيون على البوليس السياسى الذى أخذ على عاتقه مهمة انجاز التوجهات الأيديولوجية الأساسية . ان الارهاب كان قحوى الديكتاتورية الأيديولوجية فى شكلها الناضج (١٩٤٨ - ١٩٥٣) كما استعرت الدعائية داخل هذه الديكتاتورية وعجز النظام عن اكتساب أى شرعية .

وتكتسب الشرعية عادة عبر رسوخ مؤسسى ، واستقرار ، وضمان الحفاظ على مبادئ معينة أو على الأقل الحفاظ على الحد الأدنى من وحدة الرأى القومى . وتحت مظلة السنالينية فى كل من الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية قام الطغبان الأوتوقراطى بتحطيم الفاعلية الوظيفية للحزب كمؤسسة مستقلة بل تحول لمجرد ملحق للمكتب الخاص بالسكرتير العام . وفى هذا الصدد قال بيترام وولف : Betram Wolf :

« نهت نظام حكم الحزب الواحد فان الحزب يعد أى شئ الا أنه سئب . بل يتحول الى حارس للحاكم بأمره ، ويصبح فريق عملى يتمتع

أعضاؤه بالامتيازات وله الأمر وعلى الآخرين الطاعة ، كما تنحصر مهمة فريق من المناضلين السياسيين فى حث كل شخص ، كى يبدل أقصى ما عنده لتنفيذ خطط الزعيم ، ويصبح بوقاً مسموعاً يذيع الأوامر التى لا تعصى والعقائد التى لا تخطئ ، انهم عيون وآذان النظام ، ان الحزب هو نواة اختراق الصفوف ، والمهيمن على كل المنظمات والأندية والاتحادات النقابية والمزارع الجماعية والمصالح والأجهزة الحكومية والجيش والشرطة ، انه حلقة الاتصال لنقل أوامر القائد للأمة المسلوكة الارادة والأعضاء والمناطفين مع هذا النظام فى دول أخرى » (٦١) .

ان الكتبية الثورية تتبع الخطة التى ستعيد بناء الانسان والطبيعة والمجتمع بقلهف شديد ، وتم زرع النظام الستالينى فى كل دول أوربا الشرقية التابعة للاتحاد السوفينى وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ومن تلك البلدان : البانيا ، وبلغاريا ، وشيكوسلوفاكيا وجمهورية المانيا الديمقراطية ، والمجر وبولندا ورومانيا ، وفى يوجوسلافيا وبسبب رفض تبثو العنيد لندخل ستالين فى الشئون الداخلية لبلده وبسبب نخاصمه الذى تلا ذلك مع الكمنفورم كان هناك ثمة نموذج متفرد سينبثق حيث أقر تيتو دوراً قيادياً للحزب الشيوعى يختلف عن نظيره الروسى .

وباستثناء زعماء يوجوسلافيا استمدت كل التشكيلات الشيوعية ادعاءها بالشرعية من تبعيتها للاتحاد السوفيتى ولستالين نفسه ، ولم يكن فى المستطاع دعم الأفكار الابداعية الراديكالية وذلك لافتقار الشيوعيين فى ذات الوقت للقاعدة الجماهيرية ، بل لقد نظر الشعب لوسائل الاعلام وكذلك للشيوعيين المحليين على أنهم عملاء لقوى أجنبية . ونظرت معظم شعوب الدول الشرق أوروبية للشيوعيين على أن « هم » مجموعة من المليشيات الفاضلة التى تخدم طاغية أجنبية ، فى محاولة لفرض نموذج اجتماعى ليس له جذور فى نراثها القومى .

وللإكيد على أحادية السلطة ، خططت الأحزاب الشيوعية للقضاء على الثقافات الشعبية فى البلدان التى تهيمن عليها . ولحل الأحزاب الاجتماعية ، ونم احتواء الفصائل اليسارية فيما يدعى أحزاب العمال المتحدة .

وعمل الشيوعيون على تجنيد فصائل من الطبقة العمالية الصناعية وتوسيع قاعدتهم الاجتماعية ، وباسم الصراع ضد القوى الأجنبية فان الأحزاب المعادية للشيوعية تعاونت معاً أو انضمت لبرلمانات ببغائية ليس لها أية سلطة فعلية يسيطر عليها الشيوعيون تماماً . واستخدمت

نظرية ستالين عن شد أزر الصراع الطبقي وما يترتب عليه من نتائج ، ونظريته عن سيكولوجية الحصن المنيع كمبررين لاقامة بوليس سياسى مهيمن ومرهوب بشكل عام ، حيث يهاجم كل من يتجاوز الخط الذى رسمه الحزب فعم مناخ رعب عام وعدم ثقة متبادل .

ان نموذج الفرد فى هذه المجتمعات هو نموذج فرد متجرد من ذاته مستعد للوشاية بالأصدقاء وأقرب المقربين حيث اعتبرت الخيانة فضيلة اذا ما كانت فى سبيل الحزب وبفلس المنطق يعد الاحجام عن التعاون مع البوليس السياسى جريمة سياسية . ويقودنا هذا الحديث الى ذكريات ناديزدا ماندليستام Nadezhda Mandelstam أرملة أوسيب ماندليستام Mandelstam الشاعر الروسى العظيم الذى توفى فى معسكرات التعذيب الستالينية Stalin's Gulag اثناء الارهاب البشع حيث تصف بمرارة شديدة المناخ الخانق الذى ساد مثل هذا المجتمع ، والتى تشير فيها للمحظة آنا أخماتوفا Ann Ahkmatova فكتبت ناديزدا نقول :

« فى تلك الفترة التى صعق لها الناس فى الخارج وبالذات المهاجر الروسى اساء الجميع فهم حياتنا ، وكثيراً ما رددت أخماتوف جملة اصابتنى بالحقق وهى « انهم غيرون من معاناتنا » اذ أن سوء الفهم لا يستحق الحسد ويأتى من استحالة تصور طبيعة التجربة ، ويأتى ايضا من طوفان الأكاذيب التى التوت بسببها الحقائق ورفضتها عقولنا حقيقة لا يوجد شيء يستحق ان نحسد عليه ، لا يوجد فى معاناتنا شيء راق . وليس القصد هو البحث عن سمة تعويضية ، اذ لا يوجد فى حياتنا شيء سوى الارهاب الحيوانى والألم . لا يمكن ان احسد الكلب الذى تسحقه شاحنة ولا القطة التى يلقيها سفاح من الطابق العاشر ، ولا يمكن ان احسد اناسا مثلى تشككوا فى كل شخص حولهم باعتباره خائفا او واشيا او جاسوسا ، ولم يجرعوا على التفوه بأفكارهم حتى لأنفسهم خشية أن يفاجأوا بمن ينهرهم اثناء نومهم وأخذهم بعيدا الى السجون . لا يوجد — واستطيع ان أجزم — ما نحسد عليه » (٦٢) .

ان الملايين فى كل بلدان أوربا الشرقية عاشوا هذه المشاعر المروعة كالكابوس . ولم تتوقف محاولات الشيوعيين للقضاء على الاستقلال الفردى . ولم يكن فى مقدورنا أن نلمح أية بارقة نور أو أمل فى نهاية النفق المظلم ، فقط كان هناك المقاصل التى بعد لقطع رقاب المعادين للشيوعية ، بل والاتلافات الشيوعية نفسها وبأكثر الطرق وحشية . ووضع الكمنفورم الأساسى لسن القوانين للمحاكمات الصورية حيث يتهم الشيوعيون المتطرفون بالخيانة والجاسوسية .

هوامش الفصل الأول :

الدولية البروليتارية

أهم مبدأ لأيديولوجية الطبقة العاملة (الشعبية) والاحزاب الماركسية اللينينية – وتتجلى فى تضامن الطبقة العاملة وطلبتها الشيوعية وشعلة كل الأمم فى وحدة وتنسيق أعمالها وفى الدعم والعون المتبادلين – (المترجم) .

(٢) امبراطورية هابسبرج

وتضم (سويسرا أو هابسبرج) وهى جزء من البيت الألمانى الملكى الذى حكمه ملوك النمسا من عام ١٢٧٨ الى ١٩١٨ – (المترجمة) .

(٣) الدولة العثمانية

وتشمل تركيا وفلسطين والسعودية ومصر وبلاد البربر والبلقان وأجزاء من روسيا والمجر (المترجمة) .

(٤) البلقان

وتضم دول رومانيا ويوغسلافيا وبلغاريا والبايا – (المترجمة) .

(٥) Adam Michnik, "The Presence of Liberal Values," East

European Reporter. 4 no. 4 (London . Spring-Summer 1991), 71.

(٦) الماكرثية

هى حركة ظهرت فى خمسينات القرن العشرين بأمريكا . وهى حركة سياسية قادها السيناتور الجمهورى جوزيف مكارتى الذى استفاد من وجود تقليد دستورى فى بلاده . وهو حق الكونجرس فى استجواب المواطنين . فأنشأ اللجنة العليا المشهورة بلجنة النشاط المبادئ لأمريكا وأمام هذه اللجنة استدعى مستوهم الفكر من الأدباء والفنانين والمدرسين – (المترجمة) .

(٧) الكونفدرالية

وهى اسم يطلق على كل ائتلاف أو اتحاد يضم مجموعة من البلدان لتحقيق أهداف معينة ، إلا أن ما يميزه هو أنه تنسيق فوقى بين النظم الحاكمة . وهو ما يجعله مختلفاً عن الاتحادات الفيدرالية والتي تكون ذات طابع شعبى – (المترجمة) .

(٨) For a splendid account of the spiritual effervescence in

Budapest before World War 1, see John Lukacs, *Budapest 1900*

A Historical Portrait of a City and its Culture (New York : Grove Widen.

Jean-François Revel, "Sortir du communisme, une tâche sans

précédent dans l'histoire. 6 *Est-Quest*, no. 90. (Paris, June 1991), p. 3.

(١٠) الاحلام الوئسونية ويقصد مبادئ ولسون (الرئيس الأمريكى) التى عرضها

فى مؤتمر الصلح فى باريس (باريس – تريبون) ١٨ يناير ١٩١٩ – (المترجمة) .

(١١) المقصورية : هى حقوق مقصورة على شخص أو جماعة – (المترجمة) .

(١٢) معاهدة فرساي – تريانون ١٨ يناير ١٩١٩ وفيها إقامة دولة جديدة من مولدا

وانشاء الممر البولندى وتأسيس دولة تشيكوسلوفاكيا ، وخططت الحدود السياسية الجديدة وحق مبادئ ولسون – (المترجمة) .

Joseph Rothschild, *Return to Diversity : A Political History of East Central Europe Since World War II* (New York · Oxford University Press, 1989), pp 3-24.

(١٤) راجع :

Carol Skalnik Leff, *National Conflict in Czechoslovakia : The Making and Remaking of a State, 1918-1987* (Princeton, N. J. · Princeton University Press, 1988). p. 138.

Rothschild, *Return to Diversity*, p. 70. (١٥)

(١٦) الزيولوت

وهو اسم يطلق على مجموعة ذات أفراد متعصبين نحو دين أو عقيدة ويرجع هذا الاسم الى الزيولوت اليهودي في القرن الاول قبل الميلاد والذي عارض الهيمنة الرومانية على فلسطين - (المترجمة) ·

(١٧) نهر فيستشل · Visual

يقع في بولندا ويصب في خليج جدنسك - (المترجمة) ·

Adam Michnik quoted in Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books, 1989), p. 28. (١٨)

For a clear analysis of Romania's interwar political life, see (١٩) Vlad Georgescu, *The Romanians : A History* (Columbus : Ohio State University Press, 1991), pp. 189-232.

Milan Kundera, "The Tragedy of Central Europe," *The New York Review of Books*, April 26, 1984. (٢٠)

(٢١) كوستلر

هو ارثر كوستلر (١٩٠٥ - ١٩٨٢) وهو كاتب مجري يهودي وهو معروف بمناهضته للستالينية - انظر ترجمة كتابه « القبيلة الثالثة عشرة » ضمن سلسلة الالف كتاب الثاني ·

Danilo Kis, "Variations on the Theme of Central Europe," (٢٢) *Crosscurrents : A Yearbook of Central European Culture*, no. 6, (Ann Arbor : University of Michigan, 1987), p. 11.

Alexander Wat, *My Century : The Odyssey of a Polish Intellectual* : (Berkeley University of California Press, 1988). (٢٣) p. 15.

Helmut Gruber, *International Communism in the Era of : A Documentary History* (Garden City, N. Y. : Anchor Books, 1972), pp. 241-46. (٢٤)

(٢٥) التروتسكية Trotskyism

يعود هذا الاسم الى ليون تروتسكي الشيوعي المناهض لستالين ولليكتاتورية والبيروقراطية وكان يرى أن الثورة في روسيا لن تنجح الا بثورة تعم أوروبا كلها - (المترجمة) ·

(٢٦) اللكسمبرجية :

نسبة الى الثائرة الالمانية - البولندية المولد - روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg (١٨٧١ - ١٩١٩) ، التي اعتنقت الشيوعية عام ١٨٩٠ وعاونت في تأسيس « عصبة » تاركوس ، ويرتبط اسم روزا بالثائرة عام ١٩١٩ والتي قتلت على أثرها ·

For the fate of foreign communists in the Soviet Union (٢٧)

during the Great Purge, see Robert C. Tucker, *Stalin in Power The Revolution from Above, 1928-1941* (New York : Norton, 1990. pp. 504-13.

See Kenneth Jowitt's discussion of this issue in his *Revolutionary Breakthroughs and National Development : The Case of Romania, 1944-1965* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1971), pp. 175-77.

(٢٩) ليبزج

مدينة فى ألمانيا الشرقية •

(٢٠) فى عام ١٩٢٥ وفى مؤتمر الكومنترن السابع والأخير القى ديمتروف الخطاب الافتتاحى حيث وضع فيه التعريف الستالينى الأرثوذكسى للفاشية حيث وصفها بأنها « ديكتاتورية أكبر قوى السلطة المركزية الأحادية رجعية » • وبعد الحرب العالمية الثانية عاد ديمتروف الى بلغاريا حيث أصبح رئيسا للدولة حتى موته المفاجئ والعامض بينما كان فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٨ • وبعد انهيار النظام الشيوعى فى بلغاريا تم ازالة جثمان ديمتروف عام ١٩٩٠ من متحف موسوليم Mausoleum وهو محط على الطراز السوفيتى وذلك بمدينة صوفيا لجزء من الحملة القومية لازالة الرموز الشيوعية • لمزيد من التفاصيل انظر

Drachkovitch, *Biographical Dictionary of the Comintern : New, Revised and Expanded Edition* (Stanford, Calif. : Doover Institution Press, 1986).

(٣١) ماسونى

هى المضاد لحركة « اللاماسونية » التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٦ وكذلك تقوم على أساس ان الانضواء تحت لواء جمعيات سرية لا ينسجم مع المواطنة الصالحة الشريفة - (المترجمة) •

(٣٢) اقليم السودان :

المنطقة الواقعة شمال تشيكوسلفاكيا فى جبال سودتى - (المترجمة) •

Norman Davies, *Hart of Europe : A Short History of* (٢٣)

Poland (Oxford and New York : Oxford University Press, 1986), p. 426, and Anthony Read and David Fished, *The Deadly Embrace : Hitler, Stalin, and the Nazi-Soviet Pact 1939-1941* (New York : Norton, 1988).

(٣٤) معاهدة مولوتوف - ريبنتروب

هى امتداد لاتفاقية هتلر - ستالين التى تمت فى ١٢ آب - أغسطس سنة ١٩٣٩ والتى نصت على حدود مناطق النفوذ للطرفين وبعد اسبوع من المعاهدة قامت الحرب العالميه الثانية • وفى اواخر عام ١٩٤٠ قدم الالمان مذكرة بتصوراتهم ومقترحاتهم عن الحدود وفى اواخر تشرين الثانى - نوفمبر ١٩٤١ ابلغ مولوتوف السفير الالماني بالمواثقة على الحلف -

الرباعي المقترح شريطة عقد اتفاقية خاصة بأمن الاتحاد السوفيتي ومصالح في أوروبا والشرق الأقصى - (المترجمة) .

See "What I Central Europe The Telltale Scar," *The New Republic*, August 7 and 14, 1989, p. 28. (٣٥)

NKVD (٣٦) وهي اختصار للمصطلح الروسي Norodnyi Komissariat Vnutrennikh Del وتعني مفوضية الشعب للشئون الداخلية . وسترد فيما بعد بمعنى البوليس السري السوفيتي .

For Tito and Titoism, the literature is enormous and very (٣٧) controversial. See Adam Ulam, *Titoism and the Cominform* (Cambridge : Harvard University Press, 1952), and Vladimir Dedijer, *The Battle Stalin Lost : Memoirs of Yugoslavia* (New York : Viking, 1971)

Archi Pipa, "The Political Culture of Albanian Communism", (٣٨) in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy : Its Impact on the Twentieth Century World Politics* (Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books, 1984), pp. 434-64.

(٣٩) يالطا . مدينة في الاتحاد السوفيتي تقع في شمال جمهورية أوكرانيا (المترجمة) .

See Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism*, vol. III, (٤٠) *The Breakdown* (Oxford : Oxford University Press, 1978), and Vladimir Tismaneanu, *The Crisis of Marxist Ideology in Eastern Europe : The Poverty of Utopia* (New York and London : Routledge, 1988)

Gavriel D. Ra'anan, *International Policy Formation in the USSR : Factional "Debates" During the Zhdanovschina* (Hamden, Conn. : Archon Books, 1983), and William O. McCagg, Jr., *Stalin Embattled 1943-1948* (Detroit : Wayne University Press, 1978). (٤١)

(٤٢) خطة مارشال يومية ١٩٤٧ وقدمها « مارشال » وزير خارجية أمريكا ودعا فيها دول أوروبا الغربية الى وضع برنامج كبير يهدف الى انعاش اقتصادياتها وقدمت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال هذا المشروع المساعدات المادية للبدول الأوروبية (المترجمة) .

The Statutes of the Union of Soviet Writers adopted in 1943, (٤٣) as quoted by Abram Terlz (Andrei Sinyavsky); *The Trial Begins and On Socialist Realism* (Berkeley), and Los Angeles : University of California Press 1982), p. 148.

Quoted in McCagg, *Stalin Embattled*, pp. 250-51. (٤٤)

Ibid., p. 264 : the full text of the declaration appears in *For a Lasting Peace, for People's Democracy* no. 1 (Belgrade, 1947), p. 1. (٤٥)

Zbigniew Biezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Conflict* (٤٦) (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 3-151.

- (٤٧) Paul Ignotus, "The First Two Communist Takeovers of Hungary : 1919 and 1948," in Thoma T. Hammond, *The Anatomy of Communist Takeovers* (New Haven : Yale University Press, 1975), p. 395.
- (٤٨) Nissan Oren, "A Revolution Administered : The Sovietization of Bulgaria", in Hammond, *Anatomy*, pp. 321-33.
- (٤٩) Adam Bromke(*Poland's Politics : Idealssm vs. Realism* (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 60-61.
- (٥٠) *Kulturny Noviny*, do. 7 (Prague 1968), Qubted by Pavel Tigrd, "The Prague Coup of 1948 : The Elegant Takcover," in Hammond, *Anatomy*, p. 400.
- (٥١) الديمقراطيات الشعبية : استعملت الأحزاب الشيوعية هذه الكلمة لتدل بها على الأنظمة السياسية الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية في أوربا الشرق وولدت الديمقراطيات الشعبية الأوربية بواسطة حركات المقاومة ضد النازية التي تعودها الأحزاب الشيوعية وقد مرت بمرحلتين المرحلة الأولى دامت حتى عام ١٩٥٦ وكانت هذه الأنظمة كلها تتبع النموذج الاشتراكي السوفياتي .
- المرحلة الثانية بدأت كل دولة تتبع سياسة تتفق مع واقعها القومي والخاص - (المترجمة)
- (٥٢) Brezezinski, *Soviet Bloc*, p. 65.
- (٥٣) Kolakowski, *Main Currents* (note 20 above), II : 85.
- (٥٤) Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 52.
- (٥٥) الليفيثان كلمة تعنى الدولة التوتاليتارية التي يعم فيها البيروقراطية - (المترجم)
- (٥٦) Quoted by Mikhail Heller *Cogs in the Wheel : The Formation of the Soviet Man* (New York : Knopf), p. 6.
- (٥٧) وتدعى تلك البيروقراطية الأيديولوجية باسم أقسام الاجتروب Agitprop وهو مكتب خاص للدعاية .
- Czeslaw Milosz, *The Captive Mind* (New York : Vintage Books, 1981), p. 220.
- (٥٩) Jacek Trznadel, "An Interview with Zbigniew Herbert", *Partisan Review*, no. 4 (1987), pp. 559-60.
- (٦٠) Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 67.
- (٦١) Berram Wolfe, *Khrushchev and Stalin's Ghost* (New York : Praeger, 1957), p. 10.
- (٦٢) Nadezhda Mandelstam, *Hope Abandoned* (New York : Atheneum, 1974), pp. 249-50.

الفصل الثانى

أبناء فى الضباب

من الديمقراطية الشعبية الى « الاشتراكية المتطورة

« Developed Socialism

« لقد أمضيت حياتى مثلما يعيش ابن فى الضباب لم أعرف شيئاً ، بمعنى ، كنت أعرف ولا أعرف فى آن واحد ، مثل الجميع حوائى . فى المعتقل فقط عرفت ماذا يعنى الصراع السياسى فى المعسكر الشيوعى ، وبين الشيوعيين عرفت ما هو البغض البشع ، ما هو التعصب ، ما هى القسوة التى يسفر عنها هذا القناحر » .

الكسندر وات

Alexander Wat

أدت بارانويا ستالين الى استفحال الارهاب فى كل من الاتحاد السوفيتى وأقطار أوربا الشرقية التابعة له . لقد رأى ستالين أن الاستقلال الذاتى الذى بدعه ستالين وتحديه السافر لسلطة الكرملين تعد خيانة للشيوعية لصالح « الكتلة الامبريالية » وأمر مشيعيه أن يركزوا البحث عن مخربين أقوياء وحقيقيين . ونموذج ستالين للارهاب العظيم Great Terror — نظرية ١٩٣٧ التى نادت بمضاعفة الصراع الطبقي حتى تتقدم الاشتراكية — تجنأه الطفاعة المحليون فى الدول التابعة بحماس شديد . وتمتصع البوليس السرى فى كل دولة من دول شرق أوربا الشيوعية بسلطات مطلقة لذلك لم يشعر أحد — حتى ولو كان عضواً فى الحزب بأنه بمنأى عن موجة القمع العاتى .

الاذاب والمقاصل :

ان فئة « العدو الموضوعى » أى هؤلاء الذين تمكذوا بفضل ما لهم من وضع اجتماعى من التآمر ضد النظام الشيوعى كانوا وقوداً للارهاب واستخدمهم رجال ستالين لتبرير القمع . وكان الهدف من وراء المحاكمات الصورية التى تمت فى الديمقراطيات الشعبية خلق

اجماع رأى قوميا على ائتلاف القمة الشيوعى ويبقى على حالة عامة من
الرعب والهلع بين الجماهير ، وقد رأى جورج هـ . هودز
George H. Hodes الذى نجا من مكيدة لانتسلو راجيك Larzlo Rajk
١٩٤٩ بالمجر ان المكائد كانت اشارات يبعث بها لكل المفكرين الأحرار
ذوى الشأن أو للراديكاليين فى الأقطار التابعة ، وطريقة الفضح أى
شخص يحاول الجهر بخلافه مع السلطة باعتباره مجرما خسيسا
أو عميلا للامبريالية ، واعتبرت الاختلافات التكتيكية خيانة وتخريبا
وتجسسا (١) . الا أن هذه المحاكمات لم تكن مجرد تكرار للمذابح
الدائمة التى دمرت الكيان السياسى السوفينى فى الثلاثينيات .

ورغم أن طقوس المحاكمات الصورية فى الأقطار التابعة كانت
مشابهة لمثيلاتها فى الاتحاد السوفيتى ، فان تحديد المدعى عليهم اختلف
باختلاف تاريخ كل واحد منهم .

وقد ارسل ستالين فرقا خاصة من « المستشارين » لكل الدول
التابعة للاعداد للمحاكمات واجراء الاستجوابات وتلفيق سيناريوهات
محكمة شريرة كى تبرر عقوبات الاعداء التى صدرت ضد المدعى عليهم
وكان البلشفيون القدامى Old Bolsheviks (٢) أمثال جريجورى زبنوفيف،
Grigoryzinovyev وليف كامينيف Lev Kamenev والكسى رايكوف
Aleksei Rykov ونيكولاى بوخارين الذين تصدوا ستالين وقدموا بديلا
لبرنامجهم ، ضحايا للمحاكمات الصورية السوفيتية اضافة الى الضحايا
من الحلف الستالينى نفسه . وقد تم التخطيط للمحاكمات الصورية
بسبب اختصام الكمنفورم مع يوجوسلافيا واعتبر تيتو رأس « عصاة
القتلة والجواسيس » الا أن ذلك كان مبررا للتعمية والتموية .

ان الحد من هذه المكائد لم يكن يعنى أن بداخل الأحزاب الشيوعية
الرق أوربية حركات تهدف للحد من التأثير السوفيتى وتشجيع
التجارب الشيوعية القومية البناءة بل ان الصراعات تصاعدت بين
الأجنحة المختلفة وخاصة بين الشيوعيين المحليين والمسكوفيين (أى
الشيوعيين الذين عادوا من المنفى بموسكو بعد نهاية الحرب العالمية
الثانية) الا أن هذه الصراعات لم تكن تعنى وجود عصبية حقيقية
عبر أوربا الشرقية مستعدة لتبارى اليوجوسلافيين فى تحديهم لدكتاتورى
موسكو . ورأت الستالينية أنه لابد من الإبقاء على حالة الطوارئ
والارهاب وضرورة فضح المؤامرات التى تحاك ضد الشيوعية ، إذ لا أحد
فوق الشبهات ، ومن الممكن أن يكون الضحية التالية لآلة التعذيب البشعة،

واقبعت في أوروبا الشرقية نفس التكتيكات والاجراءات التي استخدمت في محاكمات موسكو الصورية : وأسندت تهم حكم الاعداد على اعترافات المدعى عليهم فقط دون أى أدلة مادية ووقفوا في قفص الاتهام بعد عملية تعذيب نفسى بشعة يتقبلون الأحكام باستخفاف وقال هودز في ذلك :

« كانت المحاكمات الصورية تتم في أوروبا الشرقية حتى قبل ان يكون هناك تخاصم بين ستالين وتيتو واستخدمت كأداة لجعل الأحزاب المناهضة في الدول السوفيتية التابعة في الفترة التي سبقت الحرب تدور في فلك الحزب السوفيتي ، وكانت جزءا لا يتجزأ من الستالينية وتطبيقها في الدول التابعة خطوة منطقية باعتبارها جزءا من النموذج السوفيتي الذي جرب ... كان للمحاكمات الصورية جيتس دعاية يبرر الارهاب السياسى . وكان هدف هذه المحاكمات هو تضييق عدو سياسى مجرد ، موضعه في الحاضر وابتدائه ، ولدعم نظام لا عدل فيه ، ولتحويل تمايزات أيديولوجية سياسية مجردة الى جرائم عامة جليلة -- انها تحرض العامة ضد الشر الذى يجسده المتهمون تقصوم بتحذيرهم من تقديم أى عون أو دعم لهذه المعارضة » (٣) .

ولأن الأنظمة الجديدة في أوروبا الغربية كانت تعاني من مصاعب اقتصادية وفشلت في كسب الدعم الشعبى الجماهيرى لسياساتهم الاجتماعية ، فإن هذه الأنظمة تورطت في ممارسة مسعورة للارهاب والاعداد ، ان المحاكمات الصورية بدأت في البانيا في مايو ١٩٤٩ عندما أعدم عضو المكتب السياسى 'Polirburo' السابق ووزير الداخلية كوشى زوكسى 'Koci xoxe' باعتباره تيتوى - والحقيقة ان تيتو حاول عقب الحرب العالمية الثانية ان يمد نفوذه عبر أوروبا الشرقية ولم تكن هناك أية بادرة تنم عن معارضته لخطوة ستالين الا ان « التيتوية » جنحت الى التأكيد على المصالح القومية ضد السياسات التى فرضها ستالين على الاحلاف الشيوعية المحلية ، وفي سبتمبر ١٩٤٩ اعترف لاتسلو راجيك ، وزير المجر السابق للشئون الداخلية وأحد قيادات القمة الشيوعيين بعد الحرب ، بجريمته في محاكمة علنية وحكم عليه بالموت مع رموز حزبية بارزة سابقة ، وقد أصيب القاضي بالهستيريا عند النطق بالحكم . وقد ربط ستالين بين مؤامرة راجيك المزعومة وبين اعمال تيتو وأنشطته المناهضة للشيوعية وتورطه مع المحرضين في الاعداد للهجوم " . . . ضد الديمقراطيات الشعبية .

« ان الامبريالية الأمريكية هي الممرض والمنفذ لبرنامج تيتو رانكوفيتش Rankovic السياسى وخطط « الانقلاب Putsch » لقد استمالت وكالات الاستخبارات الأمريكية والبريطانية تيتو وعصبته حتى أثناء الحرب ضد هتلر ، لمنع الحرية القومية والاجتماعية عن شعوب أوروبا الشمالية الشرقية ولعزل الاتحاد السوفيتى وللتحضير لحرب عالمية ثالثة ٠٠٠ والانقلاب الذى خطط له تيتو وعصبته فى ألمانيا كى ما تضعه خلية راجيك للجاسوسية موضع التنفيذ ، لا يمكن فهمه بعيداً عن سياق المخطط الدولية للامبرياليات الأمريكية ٠٠٠ التى تتفاقم دون هوادة ٠ وطالب شعبنا بالموت للخونة ولى باعتبارنا ممثلين للسلطة المتهمة وكنت أنا نفسى مع هذا المطلب ، اذ يجب أن تسحق رأس الأفعى التى تريد لدغنا ٠٠ وكان رد الفعل الوحيد ضد الكلاب المسعورة هو ضربها حتى الموت » (٤) ٠

وفى ديسمبر ١٩٤٩ وجه لعضو المكتب السياسى السابق واحد أساطين الاقتصاد البلغارى تريشيو كوستوف Traicho Kostov مع آخرين تهمة مماثلة لتلك التى وجهت لراجيك : التجسس ، النيتوبة ، والتعاون مع السياسة البرجوازية السرية أثناء السنوات التى كان فيها الحزب سرياً . وفى حالة كوستوف فان المسرحية العلنية التى تم الاعداد لها جيداً تم كشفها بقرار مفاجئ لمحامى المتهم بدحض التهم التى وجهها المدعى العام الا أن كل شئ عاد لأصله نانية بعد استراحة قصيرة ، وفى آخر الأمر قبل كوستوف الذى اتهم مثله مثل القادة الشرق أوروبين الآخرين حكم المحكمة ، بل وتعاون مع المحكمة لانجاز مهمتها ، ونراجع عن محاولته الأولى لانكار التهمة واعترف وفقاً لرابونتشيسكو ديلو Rabontnichesko Delo الجريدة الشيوعية الرسمية اليومية بأنه لم يكن الا ندلاً . ولن نخوض هنا فى بحث اسباب تعاونهم مع معذبيهم ولكن يمكن القول بأن اعتقادهم اللينينى الارثوذكسى بأن الحزب هو حامل الحقيقة التاريخية وان من الواجب عليهم أن يقدموا حياتهم قرباناً على قداس المصالح العليا للحزب هو الدافع الرئيسى وراء تصرفهم على هذا النحو . ولأن ارواحهم تشرت بعبادة لا نهائية لستالين والاتحاد السوفيتى فانهم كانوا يفتقرون لأدنى جنوح للاستقلالية التى قد تساعد على ادراك الفخ الذى وقعوا فيه ، وقد صعد بعضهم بوابل التهم الذى وجه اليهم حتى انهم اعتقدوا فى البداية بأنهم كانوا ضحايا لضربة مضادة للثورة ، ورفض قليلون سلسلة التهم التى دبرت لهم . وساعد استخدام الضغط الجسدى والنفسى بما فى ذلك التهديدات التى وجهت لحياة اقرباء المتهمين فى تفسير كيفية انتزاع اعترافانهم .

وفي ديسمبر ١٩٤٩ ، ومن خلال وقوع الحزب الشيوعي اليوجوسلافي في أيدي القتلة والجواسيس الذين سلموه لقمة الكمنفورم ببودابست ، ندد الزعيم الشيوعي الروماني جورجى جورجيو - دجى بزميله السابق في المكتب السياسى ووزير العدل السابق لوكسريتو بترسكانيو Lucretiu Patrascanu باعتباره خائنا تيتوى وعميلا أجنبيا . وقبض على بترسكانيو بعد خطاب جورجيو - دجى الا أنهم لم يستطيعوا اجبار بترسكانيو على افشاء اسرار الرفاق في المحاكمة الصورية التى عقدت في بوخارست ورفض ان يعترف بجريمة لم يرتكبها ورفض التورط فى اعترافات علنية فاشستية . وظل فى السجن حتى عام ١٩٥٤ حتى حكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص بعد محاكمة ملفقة .

وبعد الاجتماع نفسه في بوخارست ١٩٤٩ وامتداداً للحملة الدولية المعادية لمؤيدى تيتو المزعومين جرد الزعيم البولندى فلاديسلاف جوميلكا من رتبة لاتهامه بالافتقار للحذر الثورى فيما يتصل بمبدأ الدولية وحدت اقامته فى بولندا تحت مراقبة البوليس السياسى . أما حزب العمال البولندى المتحد فقد وقع بعد مذبحه فريق جوميلكا فى يد عصابة المسكوفيين بقيادة بولسلو بيرت وجاكوب بيرمان Jakub Berman وهيلارى مينك Hilary Minc وفى وقت المحاكمات أصبح المناخ في الديمقراطيات الشعبية خائفا حيث تفشى الخوف من المتسللين وحيث الاحتفاء بعقريه ستالين العالمية والاذلال الذى تلاقيه الانتلجنسيا . وأدى الهجوم على التقاليد القومية الى خلق مناخ من اليأس والقنوط والكرب . وبدأت المحاكمات لمعظم الجماهير وكأنها تجرى فى عالم آخر . وكان طرفا الاتهام شيوعيين وشارك المواطن العادى فى هذه المهزلة وقرض عليهم ترديد التهم الملفقة ضد المتهمين ليؤكدوا على الأكاذيب . وكان المواطن العادى مدركا بأن المصير المأسوى للزعماء الشيوعيين المثبوثين يمكن أيضا أن يصيبه فى أية لحظة ، بل ان كل فرد كان يشعر فى قرارة نفسه بأن الدور سيأتيه وبأنه المرشح للضربة التالية للآلة الاجرامية ، كما أجبرت آلة الدعاية الشيوعية الهائلة كل الجماهير على الانغماس فى احتفالات جماهيرية لشايعة الحزب ورفع شعاراته . وفى نفس الوقت وتعزيزاً لمنطق الالتزام والقسر تم استيراد نموذج اجبارى من الاتحاد السوفيتى لرفع انتاجية طبقة العمال ، ومن لا يمثل من العمال لأوامر الحزب يعتبر سياسيا غير اهل للثقة واسفرت المحاكمات الصورية عن انفصام شيزوفرنى فى عقلية الفرد ، اذ أنه كان يهدف علانية لنفس القيم التى كان يمقتها فى قرارة نفسه .

ان الضحايا الرئيسيين فى المحاكمات الصورية التى جرت فيما

بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥١ كانوا أعضاء فى الاحلاف « الشيوعية الدولية » أو « شيوعيين وطنيين » وهم النقيض للموالين للديكتاتور ستالين . ونجد كوسى زوكسى وترشيو كوستوف ولوكريتو بترسكانيو وفلاديسلاف جوميلكا ولاسلو راجيك قد قضوا سنوات الحرب فى بلاداتهم ، وشاركوا فى حركة المقاومة ضد النازى على عكس زملائهم الذين تلقوا تدريبهم بموسكو والذين وصلوا فى دبابات الجيش الأحمر Red Army ولم يحققوا أى شرعية من انخراطهم المباشر فى حركة « الانصار Partisan » . واستاء الشيوعيون « المولون لومنههم » (الاتجاهات التى تجنح لتقديم التنازلات للمسكوفيين الذين استغلوا علاقاتهم الحسنة بموسكو وتاجروا بها وتعاملوا مع الشيوعيين من جنسيتهم على أنهم شركاء فى مرتبة أدنى . وتفهم ستالين وجود هؤلاء المتحيزين واستغلهم فى التمهيد للمذابح المستمرة فى الأقطار التابعة .

وفى بداية الخمسينيات أبدى ستالين اهتماما متزايدا بدور اليهود باعتبارهم حاملى « رؤية للعالم الأسمى » وباعتبارهم داعمين « موضوعيين » للغرب . ولا يهم الشيوعيين اذا كان الفرد ، ضد النظام ولكن يعنيتهم ما يدور بذهنه او ماذا يمكن أن يفعله استنادا لموضفه الاجتماعى (اذا كان منصدرا من عائلة برجوازية . درس فى الغرب ، ينتمى لأقلية معينة ، ولم جراً) . ونظم الستالينيون حملات شاذة ضد السامية فى الاتحاد السوفيتى ، وضد الكناز اليهود والنقاد والأدباء . وكان شبح المخطط الضخم يطل برأسه على السكان اليهود السوفيتيين . وادى الصراع فى الديمقراطيات الشعبية ضد « أممية بلا جذور » (شفرة تعنى اليهود) الى تورط زعماء شيوعيين محليين فى مذابح الائتلاف ضد زمر « المسكوفيين » التى يسيطر عليها شيوعيون من أصل يهودى (العديد منهم فر من الفاشية وطالبوا باللجوء الى الاتحاد السوفيتى فى الفترة التى توسطت الحريين) . ان التخلص من الموالين المخلصين لستالين وصل لحد مذهب فى تشيكوسلوفاكيا وفى محاكمة أكتوبر ١٩٥٢ الصورية حكم على رودلف سلانسكرى الذى ظل عسكرياً عاماً للحزب الشيوعى حتى سبتمبر ١٩٥١ ومن منصبه هذا أشرف على عملية اضطهاد الشيوعيين وغير الشيوعيين بالاعدام شنفا فى ديسمبر ١٩٥٢ ، كما أعدم غيره كثيرين من المناضلين البارزين ذوى الأرومة اليهودية . واتهم سلانسكرى ورفاقه بالتآمر الصهيونى والتواطؤ المباشر مع شبكة التجسس الغربية . ولم يستطع سلانسكرى الذى كان الراس المدبر للمذابح فى تشيكوسلوفاكيا أن يدرك التهم الغربية التى وجهت اليه فحاول الانتحار فى زفرانته أكثر من مرة ،

وقد توسل سلاتسكى لرئيس الحزب وصديقه السابق كليمنت جتولد أن يمنحه فرصة يدافع فيها عن نفسه الا انه رفض . وكان الهدف من هذه المحاكمات الصورية ادانة التآمر الذى يحاول القضاء على استقرار الكتلة الشيوعية ومن ثم لم يكن بالامكان ابراء ساحة المتهمين .

وفى مايو ١٩٥٢ اعلنت وسائل الاعلام برومانيا نبأ التخلص من ثلاثة أعضاء من المكتب السياسى ، اثنان منهم كانا زعيمين لمركز موسكو للهجرة Moscow emigrecenter النابغ الحزب وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية ، وشغل الثلاثة منصب سكرتير الحزب . وتقاسموا السلطة الماطقة مع زعيم العصبة المحلية جورجيو - دجى . واحد هؤلاء الثلاثة أنا بوكرا الزعيمة السوفيتية المتمرسه والتى طالما احتفت بها وسائل الاعلام الشيوعية باعتبارها مناضلة منزهة عن الأخطاء الا انها فقدت وظيفتها كوزيرة للشئون الخارجية وحددت اقامتها . وكذلك اتهم رفيقها الموسكوفى المجرى المولد فاسيل لوكا Vasilluca بالقيام بالتخريب الاقتصادى وذلك أثناء توليه لمنصب وزير المالية كما وجهت له تهمة التعاون مع السياسة البرجوازية أثناء نشاط الحزب السرى وتم القبض عليه ومات فى المعتقل فى أوائل السنينات ، اما ثالث هذه المجموعة فهو تيهسارى جورجيسكو Teahari Georgescu الشبه عبرى المولد ، الرئيس السابق للشئون الداخلية ، اتهم بالتعاون مع فريق بوكرا ولوكاس وحكم عليه بالسجن ولكن سرعان ما أطلق سراحه . وعمل جورجيكو فيما بعد فى وظائف وضيعة .

ان الظروف المحلية والدولية هى التى أدت الى هذه المذابح فى رومانيا . وكان هناك ثمة منافسة على السلطة بين حردجى دجى وأنا بوكرا ، ومصدر تنافسهم لا يكمن على أية حال فى اختلاف معتقداتهم السياسية ولكن فى طموحهما الشخصى وغرورهما . واستغل جورجى فى نزاعه مع بوكرا اهتمام ستالين بجعل الأحلاف الشرق أوروبية الشيوعية « عرقية » أى اهتمامه بالتخلص من الزعماء اليهود بما فيهم أنا بهكر . واقنع حردجى الكماين بأنه أكثر المثلى للمصالح السوفيتية ولاء واتهم مناوئيه باللجوء لحيل تهدف الى تقويض استقرار الوطن وإعادة الرأسمالية .

فى الاتحاد السوفيتى بلغت الحملات المعادية لأمريكا والمعادية للسامية أشدها وذلك فى فبراير ١٩٥٣ ، أى قبل موت ستالين بشهر واحد ، مع الاكتشاف الزائف « لمؤامرة الأطباء » . ووفقا للرواية الرسمية فان أطباء الكرملين و، كان أغلبهم من اليهود ، قد تورطوا منذ أمد

بعيد في أنشطة إجرامية تهدف لإبادة القيادة السوفيتية وتصفيتهما
جسديا .

وهكذا تم القبض عليهم جميعا وخضعوا للتعذيب الجسدى
والنفسى الرهيب ، ولم يمنع اجراء محاكمة علنية صورية القيام بمذبحة
شاملة معادية للسامية وتقويض استقرار السكان اليهود فى صربيا(٥)
سوى موت الزعيم ستالين . ووصل النظام مع محاكمة سلافسكى
« ومؤامرة الأطباء » الى أقصى حدود اللامعقولية ، وقد رجعت أكثر
الاتهامات غرابة ضد اليهود السوفيتيين واليهود الشرق أوروبيين ودون
أدنى اعتبار للحد الأدنى من المصادقة . وكان « الخط الحزبى » مرنا
يتغير حسب نزوات اديكتاتور السوفيتى وافقر الجميع بما فيههم
السكرنارية العامة المحلية الى الشعور بالحماية والبعد عن الاتهام
بالخيانة والمثول امام محاكمة صورية . وبصرف النظر عن جريرة
الضحية كان شاغل المستشارين السوفيت ، والمخرجين الفعليين
لمسرحيات المحاكمات الصورية هو تأكيد صدق شكوك ومخاوف
ستالين واطافة أسماء جديدة على نحو متوال الى كشف المجرمين
الذين افترض امرهم ، ولكن هذه المذابح طالت آخرين غير زعماء الامة
فبمجرد أن تفشت هذه المذابح دوى صداها فى الحزب كله وأسفرت عن
شلل نام لكل استقلال فردى . واستخدمت الوسائل الارهابية اتبع
اى اتجاه نقدى وأصبحت الطاعة هى المفتاح الذهبى للبقاء حيا .

وعند وفاة ستالين فى الخامس من مارس ١٩٥٣ كانت بلدان
الكتلة السوفيتية منخرطة فى النظام السياسى الذى بنى على الإرهاب
كما اشتركت فى المساومات الايدولوجية والاقتصاد الموجه . وكانت
المذابح باعتبارها أداة الحلف للاستبدال والتعبئة السياسية ظاهرة
مميزة لكل بلدان الكتلة . ويرى زيغنيو بريجنسكى أن السمات
الرئيسية للنظام الداخلى السئالينى هى جعل المنظمة المؤسسية
جماعية ، وفهم النفوق والسبادة السوفيتية باعتبارها نجسدا لدور
ستالين وزعامة الدولية الشيوعية ، وكذلك النظر لدور السبادة
الذى يعزى للأيدولوجية باعتباره مصدر الشرعية السياسية للأحلاف
الحاكمة ، واستغلال الاتحاد السوفيتى لاقتصاد الدول التابعة (٦) .
ويمكن ان توصف هذه الممارسات السياسية بالنظر لسماتها الأساسية
المبزة بأنها ثوتالبتارية خاصة بعد أن خطط حزب الدولة المنفرد
بالسلطة لامتصاص أو ابادة كل أشكال الاستقلال الذاتى . وكانت
المانيا الشعبية الديمقراطية German Democratic Republic

أقل الدول تأثراً بما يجرى لأن سياسة الدولة لم يتم ارساؤها إلا بعد أن بنى صور برلين Berlin Wall في عام ١٩٦١ ليكمل العزل التام لألمانيا عن الغرب .

★ تحدى تيتو وسقوط الحكم الفردى :

من الصعب المبالغة في أهمية رفض تيتو للانحناء أمام دكتاتوريات ستالين . لقد كانت المرة الأولى التى يجرؤ فيها شيوعى تلقى تدريبه فى الكومنترن على تحدى سيادة الكرملين ويطالب بأن يكون لحزبه دور مستقل ، ومثلت معارضة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ التى أبداهما تيتو فى مواجهة ضغوط ستالين وابتزازه نقطة تحول فى تاريخ الأممىة الشيوعية . لقد كان أول رفض موفق لادعاء ستالين بأحادية الحقيقة ، ودحض المعتقد الستالينى عن الدولية ، والتمسك والاعتزاز بالقيم القومية فى مواجهة السلوك الامبريالى السوفيتى . ورفض تيتو عقيدة الكمنفورم التى يجب أن يحكم بموجبها كل الشيوعيين ويتوجهوا صوب الاتحاد السوفيتى وصوب ستالين شخصيا . وكان تيتو يرى أن كل حزب شيوعى - كبيراً كان أو صغيراً - من حقه أن يؤسس خطا سياسيا وفقا لمصالحه الخاصة التى يقررها بنفسه . ومنذ أن قادوا حركة مقاومة جماهيرية ناجحة لمواجهة المحتلين النازيين ، شعرت القيادات اليوجوسلافية بأن لها الحق فى تبني رؤية مختلفة لدورهم القومى داخل عالم الشيوعية .

ان مطلب تيتو الخاص بتدشين القومية الشيوعية كان هو الانجاه السائد داخل الأممىة الشيوعية . التى رعت من شأن الأولويات الوطنىة على المبادئ والأهداف الامبريالية . لقد كان مطلباً قومياً فى مواجهة الضغط الشديد الذى فرضه ستالين على الاتجاهات القومية . ومن ناحية أخرى لم يسمح باستئناف الحركات القومية والسيمات الأيديولوجية لأوربا الشرقية فيما قبل الشيوعية - وعضد تيتو وجهة نظره عن أيولوجية الوحدة اليوجوسلافية الاشتراكية والتى لا يجمعها أى شىء مشترك مع القومىيات الصربية والسكرواتية والسلافىة التقليدية ، وتجاهل ستالين تماماً بل واحتقر الاعتزاز بالقومية ، ولم يدرك أن تيتو قرر أن يقاوم ضغطه ، وأمكن للشيوعى اليوجوسلافى أن يعبىء الراى العام الا أن ستالين استاء من النظام السياسى الجديد وقال لزملائه فى المكتب السياسى : « اذا اشرت باحدى أصابعى ، فسيسقط تيتو » وهو ما نقله نيكيتا خورتشوف Nikita Khurshchev (٧) .

ولم ير الديكتاتور السوفيتي في الاله اليوجسلافى سوى عبد جرؤ على أن ينازع سيده فى سلطته .

ولم يدرك اليوجوسلافيون مقدار ما يكتفه لهم ستالين من كره وحقد ، وتصرفوا باعتبارهم موالين للاتحاد السوفيتي ولم يكن تيتو أقل ميلا للتصنيع من ستالين . ولم يكن أقل التزاما — فى مستهل حكمه — بمبدأ الجماعة . وقد خطط البوليس السياسى بقيادة الكسندر رانكوفيك عمليات الارهاب ضد « أعداء الطبقة » فى يوجوسلافيا . ولأنهم تخرجوا من مدرسة التقاليد الستالينية فقد نظر القواد اليوجوسلافيون للحزب على أنه مصدر المنطق والأداة الكاملة التى لديها اجابات جاهزة عن كل الأسئلة الصعبة وذلك من خلال تطبيق المعتقدات اللينينية الستالينية .

ومن ثم تمسك تيتو ورفقاؤه مبدئيا بالنماذج والقواعد الأيديولوجية اللينينية الستالينية ، وردت الزعامة اليوجسلافية على اتهامات ستالين بمحاولتها التفوق على ستالين فى الأرثوذكسية .

وفى المرحلة الأولى من الصراع رأى تيتو أن الصراع نجم عن سوء فهم مؤسف ولقى ما أبداه تيتو من استخفاف نحو الديكتاتور السوفيتي رد فعل عنيف من ستالين . وقد مر وقت طويل حتى انخرط الزعماء اليوجوسلافيون فى تناقض تام مع الستالينية التى كانت آنذاك فى أوج نضجها وقد استخدموا طرقا سلطوية فى تحديدهم للستالينية تماثل تلك المستخدمة فى « الديمقراطيات الشعبية » فى صراعها مع « أعداء الطبقة » فالشيوعيون الذين رفضوا وجهات نظر تيتو وواصلوا ولاءهم للكمفورم، وأيدوا هجومه العنيف على الحزب الشيوعى اليوجوسلافى قد لقبوا « بالكمفورميين » واعتبروا عملاء ، كما نفى بعض هؤلاء لعسكرات المعتقلين السياسيين النائية بما فيهم جولى أوتوك Goli Otok (٨) الشيوعى المعروف ، وتدبر آخرون وسائل للهرب الى « الديمقراطيات الشعبية » المجاورة حيث شنوا حربا للدعاية ضد هؤلاء الذين وصموا بأنهم « العصابة التيتوية والخونة » . وقد شجع تيتو ايجاد « طريق للاشتراكية » على أن يكون يوجوسلافيا يختلف عن مثيله السوفيتي المغالى فى البيروقراطية والسلطوية وذلك لحاجته الشديدة للدعم والتأييد الشعبيين . أن تزايد حرص يوجوسلافيا على « إدارة شئون نفسها » ووعدها للعمال بالمشاركة فى اقرار المشاريع الصناعية ثم عن رغبة حقيقية فى التخاصم مع النظام المتحجر

الذى يضع الادارة المؤسساتية البيروقراطية فى قبضة الاتحاد
السوفيتى .

وضعف تيتو بعد ان عزلته حركة الاممية الشيوعية كلها
وافترت على عقائده التى لاقت منه كل تقديس وفرض نموذج
يوجوسلافيا « لادارة شئونها بنفسها » من أعلى ، ووضعت مبادرات
الجمهير التلقائية تحت سيطرة الحزب الصارمة مستخدمين آلة
الدعاية . ان الاصرار على مراعاة الشئون الداخلية ليوجوسلافيا
كان المفترض ان يؤدى لانحيار النظام الشيوعى بل وتكوين خط سياسى
يخلف عن مثيله فى الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ستالين . وادخرت
المطالبة بالأهلية صراعا ظهر فى المستقبل بين المراكز الشيوعية
المتنافسة اضافة الى الصدام بين وجهات النظر الخاصة بالتفسير
التوتاليترارى والانسانى للماركسية واللينينية . ورأى تيتو ومعاونوه
فى النعرة العرقية أداة لتقوية القاعدة الجماهيرية أكثر مما لو كانت
دافعا عميقا من أجل طلاق يوجوسلافيا من روسيا .

ان السياسة الخارجية لم تكن تنقسم كلية عن الشئون الداخلية
ولذلك فان نقد تيتو لسلوك ستالين الامبريالى زاد من ضراوة نقده
للنظام السوفيتى . وقد وصف النموذج السوفيتى فى عدد من الوثائق
النظرية التى نشرها الشيوعيون اليوجوسلاف فى بداية الخمسينيات ،
بأنه ديكتاتورية يسيطر عليها آلة ضخمة بيروقراطية . وأكدت هذه
المنشورات على أن الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى لم يعد الحارس
الخاص للبروليترارىا العالمية ، ولم يعد سوى مجموعة من البيروقراطيات
ويقاؤها أصبح مرهونا باستمرارية المذابح ، وان النظام السوفيتى
تدهور فتحول الى رأسمالية دولية تديرها الطبقة الجديدة من الحكام
البيروقراطيين . وفى عام ١٩٥٠ قرر تيتو وعصيته تجنب اخطاء
ستالين فجربوا نمودجا يعطى للعمال حق السيطرة المباشرة على
مشروعات الانتاج الا أن التيتويين لم يتخلوا تماما عن الدور القبائى
للحزب . واستمر توظيف خلايا الحزب الشيوعى ، واستمرت الحكومة
المركزة فى التحكم فى تعيين المدراء فى المواقع الصناعية وحاولوا تحسين
صورة الحزب الشيوعى فى المجتمع باعتباره تشكيلا سياسيا ذا « شخصية
فدائية وديمقراطية » .

وعندما أجرى تيتو هذه التغييرات بدا لستالين أنه تخلى بالفعل
عن الاشتراكية واعتبر ستالين التشاور مع العمال فيما يتعلق بالمشاريع
الصناعية واعطاءها الحق فى اتخاذ القرار النهائى دليلا قاطعا على
الفوضوية السياسية و « الليبرالية البرجوازية » . ولم يغير الزعماء

في الاتحاد السوفيتي — حتى بعد وفاة ستالين — نظرتهم الى القيادة اليوجوسلافية وظلوا على وصفهم « بالارتدادية » . ولا تعد المحاولات التي بذلها الزعماء في يوجوسلافيا للتقليل من الأضرار التي سببتها البيروقراطية الشديدة اصلاحا جذريا للنظام اذ أن تيتو أبقى على دور الحزب القيادي وجرم أي تشكيلات سياسية بديلة ، كما فرض رقابة صارمة على المطبوعات وعلى المصلحين أمثال ميلوفان دجيلاس نائب تيتو السابق ، الذي تجاوز الحدود المسموح بها داخل الحزب في مجال « الابداع » .

في عام ١٩٥٢ قرر الزعماء اليوجوسلافيون التخلي عن التعاونية في الزراعة ، وتورط تيتو باعتباره المتحدث الرسمي في نقد حاد وبناء لنموذج الاتحاد السوفيتي باعتباره نموذجا جامدا وديكتاتوريا . وعلى عكس النظريات السوقية التي أصررت باستمرار على ضرورة تقوية الدور الذي تلعبه ديكتاتورية البروليتاريا ، طالبه الشيوعيون اليوجوسلافيون باستلهم الاشتراكية الحقة من الماركسة الأصيلة مما يحد من نطاق مشاريع الدولة حتى يتم « أفول دور الدولة » . ان عملية « البحث عن رجل » التي قام بها اليوجوسلافيون عندما نادوا بفلسفة وممارسات مختلفة للاشتراكية (٩) ، لم تتضمن الانفصال التام عن عقيدة الحزب باعتبارها مستودع العقلانية التاريخية . ان الصراع يكمن في اصرار «...»

المشين المفروض عليهم من قبل «...» من مسهم في الاستقلال القومي ببلادهم . لقد وجه الشيوعيون في يوجوسلافيا نقدا نظريا للامتيازات التي يتمتع بها الحزبيون . مع ذلك لم يتم تقايسها وعندما هاجم ميلوفان دجيلاس الذي كان آنذاك نائب رئيس الدولة أعضاء النظم الحزبي (النومنتلاتورا) (١٠) تم طرده أولا من تحالف الشيوعيين اليوجوسلافيين ، ثم اعتقل بعد أن نشر اتهاماته « للطبقة الجديدة » من الملوك واعتبر « عنصرا مخريا » (١١) . وكان تيتو مستمدا لشجب الفضائح الستالينية وأن بأسف للبيروقراطية الاشتراكية الا أنه رفض تشجيع النقد البناء للأصول النظامية للأوتوقراطية (١٢) الشيوعية .

لقد طرح تيتو مبادرة ورؤية نقدية مختلفة تتمسك بنظام الحزب الواحد ولكن دون قمع . وفي خطابه للتهنئة بكريسماس عام ١٩٤٩ شجب تيتو الستالينية بسبب أقرارها للظلم والعدوان حيث قال : « ان هؤلاء الذين يسكنون ضمايرهم بتيتي مبدا » الغاية تبرر الوسيلة » يجب ان يتفكروا ان هذا القول المأثور شاع عمليا بين

اليسوعيين في زمن المحاكمة الكاثوليكية الرومانية لكشف الهرطقة .
لا يمكن للأعمال العظيمة أن تلجأ بوسائل قدرة أو بمشاعر مزيفة . إن
الأشياء العظيمة لا يمكن أن تخلق إلا بالأساليب النظيفة وبمشاعر
صادقة وهذا ما تؤمن به دائماً » (١٣) .

ورغم هذا ، فإن الزعيم اليوجوسلافي لجأ لنفس الوسائل التي
ينقدها مع التيار الراديكالي داخل حزبه . إن رؤية تيتو لم تختلف في
الواقع عن رؤية استاذة ، ولم يختلفا أيضاً في الهدف وهو الاحتفاظ
بالسلطة المطلقة في يديه .

السياسيون الشرقيون الأوروبيون :

إن فهم تطورات الأحداث في أوروبا الشرقية في الخمسينيات،
يتطلب الحديث عن السمات الرئيسية للأحزاب الشيوعية في هذه
البلدان ، فنجد أن جميع التشكيلات اللينينية في المنطقة - وهذا نسئني
تشييكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا مرة أخرى - كانت تعاني من عجز
دائم عن كسب الشرعية والدعم الجماهيري ، رغم انضمام ملايين
الأعضاء لهذه التشكيلات إلا أن الشيوعيين كانوا قلة واستمدت
الأحزاب شرعيتها من ولائهم اللا محدود واللا مشروط للاتحاد السوفيتي
ولستالين شخصياً .

ولم يقاوم أحد حتى الزعماء اليوجوسلافيون ادعاء الاتحاد السوفيتي
بالهيمنة داخل عالم الشيوعية . ولم يخل أحد بالتضحية مهما كانت
كبيرة لأظهار ولائه والتزامه بالقضية الشيوعية .

إن الأممية كانت عقيدة لدى كل الأحزاب الشيوعية التي تتبنى
فلسفة حزبية واحدة ، وواجب العضو الفرد كواجب العبد وهو الطاعة
العمياء للأوامر التي تأتي من أعلى وأطلق على هذا المنطق العسكري
المركزية الديمقراطية . وكانت الحياة داخل الأحزاب شعائرية وسلطوية
وهرمية إلى أقصى حد ويقوم الأعضاء بعملهم بما يتوافق مع رؤية القادة
التي تتولى بمهارة عملية التنظيم والتوجيه وحصر كل أشكال الشقاق
الحزبي والاتجاهات النقدية ، مما جعل المناخ مناسباً لازدهار الحماس
الآلي والرومانتيكية المزيفة وتم استبعاد وإبادة كل من عبر عن أدنى
شك في سياسة الحزب .

وتمت قيادة الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية بواسطة نواة
شديدة التعقيد والأحكام من العيسكريين الذين اقتنعوا بضرورة تطبيق

النموذج السوفيتي في بلادهم دون أى تحفظ أو تردد . وقد رأس
أحزاب الكتلة السوفيتية قادة ثوريون محترفون تلقى معظمهم تدريبهم
في مدارس الكمنترن وقد تم اخبار مدى ولائهم للاتحاد السوفيتي على
مدار سنوات طويلة . ولتحقيق المشاريع الأساسية للمستالينية ، أسس
هؤلاء الناس نظاما من الارهاب والابادة ولم يفلت من هذا النظام حتى
انصارهم المتحمسون . وفي هذه القطاعات الشيوعية لم تكن هناك
مساحة للولاء الشخصي أو الارتباط بأى شيء سوى الحزب باعتباره
أسمى من أى عنصر فردى . وبنى الحزب وجهة نظر أحادية عن العالم
باعتبارها الحقيقة الوحيدة المقبولة واعتبروا كل ما هو دونها ارتدادا
وخطرا حقيقيا ، وأسفرت هذه الحساسية المفرطة تجاه أية حقائى
لا يكون الحزب مصدرها عن معاداة للابداع . ونظرت أحزاب الكتلة
السوفيتية لكل المبدعين بما فيهم المبدعين الشيوعيين أنفسهم نظرة
شك وارتياح أى نقد قد يوجه للأوضاع الراهنة ، وأدى الاعتقاد بأن
الأحزاب تجسد وعى طبقة البروليتاريا الصناعية ، الى محاولة
الائتلافات داخل هذه الأحزاب لتوسيع قاعدتهم الجماهيرية لدى
العمال .

وكشفت الصحيفة البولندية تيرسا تورانسكا Teresa Toransk
في سلسلة من المقابلات التى أجرتها في أوائل الثمانينيات مع بعض
الزعماء السابقين في الحزب الشيوعى البولندى ونشرتها في كتب
بعنوان « هم oni » كل الأساطير والفتنات والسخط والأوهام التى
سلبت الشيوعيين في بولندا ارادتهم . وأهم هذه المقابلات كانت مع
عضو المكتب السياسى Politburo وسكرتير اللجنة المركزية
Central Committee Secretary السابق جاكوب بيرمان (١٩٠١ -
١٩٨٤) الذى حاول أن يدافع عن خيارات وتصرفات جيله السياسى إذ
رأى أن الشيوعيين البولنديين كانوا محقين عندما اعتبروا سياسات
ستالين فى بولندا بطولية ، وادعى أن السوفيت ضمنوا حرية بلادهم
الاجتماعية والقومية . وعندما كشفت تورانسكا التى تربطها علاقة مع
تضامن عن الكوارث والمصائب الفادحة التى سببها الشيوعيون للأمة
البولندية فان بيرمان رد قائلا :

« ان هذا محض افتراء ، لقد اتينا بالحرية السياسية ٠٠٠ لم
نات الى هذا البلد كمحتلين ولم نتخيل أنفسنا كذلك . وبعد كل الكوارث
التي نزلت بهذا البلد اتينا بالحرية السياسية في اكمل صورها لاننا
تخلصنا أخيراً من هؤلاء الألمان وهذا أسفر عن شيء ما واننى أعلم ان
هذا الشيء ليس بالهين . لقد أردنا لهذا البلد ان يتقدم للأمام وان

يستتشق عيبر الحياة الحرة . ان آمالنا كانت متعلقة بالنموذج الجديد
أبولونيا والذي لم يحدث مثيله من قبل وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة
التي واتت هذا البلد منذ ألف عام ، كما كنا نريد أن تستثمر هذه الفرصة
بنسبة مائة في المائة . ونجحنا . وعلى أية حال فقد كنا على وشك
النجاح لأننا كنا على حق ولم تكن آمالنا محض خيال ولم ننفد عزيمتنا
من نراغ ولكن تاريخنا - بل التاريخ كان بجانبنا » (١٤) .

وهكذا لم يكن الشيوعيون في حاجة لأى دليل على (اجتماعى
أو ثقافى أو معنوى) يمنحهم الثقة بأنفسهم لان التاريخ هو الذى
منحهم تفويضا ولان أحلامهم عظيمة من أجل تحقيق الخلاص دون أدنى
اهتمام لمصير هؤلاء الذين كرسوا هذا المخطط اليوتوبى ، وكانهم
يحاولون فرض السعادة على الناس وذلك بالتوحيد مع معتقدتهم
التبشيرية عن الدور المختار لأحزابهم مما جعل الأحلاف الشيوعية
توصد أبوابها أمام أية إشارة تنبع من المجتمع الذى ثبطت همته ويحبل
فى باطنه التمرد والفوضى . ولم تحاول هذه الأحزاب استقاء خطتها
من الواقع الفعلى لكل بلد بل جنحت هذه باستمرار الى فرض التغيير
على المجتمع واذا لزم الأمر أن تقمه . وهذا يفسر الهوة السحيقة بين
الائلافات الحاكمة أى « هم » كما أطلق عليهم المواطنون الماديين
وجموع الجماهير أى « نحن Us » . وفيما بعد قاطعت الأحلاف
الشيوعية فى أوروبا الشرقية التقاليد القومية لبلدانهم لصالح جمعية
« محررى البشرية » المتجاوزة للقوميات . واقتنع زعماء أحزاب الكتلة
السوفيتية مثلما كان لينين مقتنعا - إنما أسس الحزب البلشفى فى بداية
القرن العشرين بأن الشعب فى حاجة الى قوة خارجية لتنويره وتعليمه ،
وبدون حزب طليعى لن يكون هناك أمل فى عتق حقيقى . وفى نهاية
إقامته مع تورنسكا أعرب بيرمان عن دفاعه المستميت عن السمو
الأخلاقى للشيوعية الأصلية ، وأكد أن اليوم الذى سيتحقق فيه
الحلم بثورة كونية قادم لا محالة ، وسوف تصبح كل فضائح وجرائم
الحقبة الستالينية مجرد نكريات مقال :

« ويدون استخدام أية كلمات سحرية كى يبدو ايمانى قويا ،
فاننى مقتنع بأن مجمل أعمالنا قد تم انجازها بمهارة وحصدنا أخيرا
ثماتها وخلقنا الوعى البرولندى وذلك لأن كل المميزات التى انبثقت من
منهجنا الجديد ستولد بل لابد أن تخرج للحياة واذا لم تدمر بحرب ذرية
ولم تفتك داخل اللا شيعية فسيكون هناك فى النهاية اختراق للعقلية
التي ستكون لها طبيعة مختلفة تماما . وبعدها ستكون نحن الشيوعيين
قادرين على تطبيق كل المبادئ الديمقراطية التى كان لابد أن تطبقها .

لكننا لا نستطيع ، لأن ذلك فيه هزيمتنا وإبادتنا • ربما يتم ذلك في خمسين أو مائة عام ، اننى لا اتكهن ، ولكننى على يقين بأن ذلك سوف يحدث يوما ما «(١٥) •

ان بيرمان وغيره كثيرين اعتقدوا بأن التاريخ فى صفهم وكان هذا الاعتقاد السمة التى ميزت الأحلاف الشيوعية فى كل البلدان التابعة للاقتصاد السوفيتى • وقد كان لدى آنا بوكر نفس الايمان وظنت أن الاتحاد السوفيتى هو عماد الانسانية التقدمية • وفى الوقت الذى تحولت فيه بولندا للاستالينية تولى الحكم فى بولندا بوليسلاف بيرت Boleslaw Bierut (١٨٥٦ — ١٨٩٢) وهو العميل السوفيتى السرى السابق الذى خدم كمرشد لکمترن فى بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا خلال الفترة التى توسطت الحرب • وحكم بلغاريا « رباعى » مكون من الزعيم الشيوعى ماتياس راکوسى (١٨٩٢ — ١٩٧١) الذى قضى خمسين عاما فى سجون الاميرال هورثى بسبب ممارساته الشيوعية ومزاملته الوثيقة لارنو جيو (القيصر الاقتصادى) وجوزيف ريفيا Jozsef Revia « الايديولوجى الرئيسى » وميهائى فاركاس (وزير الدفاع) • وتولى قيادة الحزب فى بلغاريا فالكو تشرفينكوف Vulko Chervenkov (١٩٠٠ — ١٩٨٠) الذى خدم فى الثلاثينيات كنائب لمدير مدرسة الكمترن اللينينية بموسكو • وفى المانيا الشرقية تولى زعامة الحزب ولهلم بيك Wilhelm Pieck (١٨٧٦ — ١٩٦٠) ولتر ألبرخت Walter Albricht (١٨٩٣ — ١٩٧٣ — اللذان تركا وطنيهما بعد اجتياح هتلر فى ١٩٣٣ وقضى هؤلاء الزعماء — هذه الفترة فى منفى بموسكو وعادوا الى المانيا فى عام ١٩٤٥ •

اما فى رومانيا وبعد التخلص من عصبة (بوكز — لوكا) قاد جورجى جورجيو — نجل الحزب الشيوعى (١٩٥١ — ١٩٦٥) وكان عاملا فى السكة الحديد وقضى أكثر من عشر سنوات فى السجون ومعسكرات الأشغال الشاقة كما قضى الزعيم التشيكوسلوفاكى كلمينت جوتولد (١٩٥٣ — ١٩٥٦) سنوات الحرب فى المنفى السوفيتى (١٦) • وفى موسكو التقى الجميع خلال سنوات الحرب أو خلال الفترة التى توسطتها الا ان قصة ما جمع بينهم من علاقات لها كتاب آخر وتم اعداد بيرمان وبوكز وراكوسى وغيرهم من الزعماء الشيوعيين الشرق اوروبيين كى يكونوا ميليشيات تتخذ ستالين قدوة لها فى السلوك الشورى الصحيح وأبدوا اعجابهم بصلابة الزعيم السوفيتى ويصرّاه ضد عصب المعارضة وشاركوه عداءه للحزب • وهكذا آمن تلاميذ النظرية الستالينية بنظرية التعاضد الدائم والمستمر للصراع

الطبقى وبذلوا قصارى جهدهم لاقامة نظام يجمع كل الاتجاهات الناقدة وراوا في عقيدتهم الاشتراكية الصواب كله وفي الرأسمالية الشر كله ، وليس هناك طريق وسط بين الاثنين ، وانطلاقا من هذا الايمان زرعوا هذه المبادئ في عقول الطلاب في بلدانهم . وكى يتعرف الشيوعى على الماركسية لابد ان يبدأ بتعلم وحفظ نصوص الكومنترن Comintern Vulgate وقبولها دون تحفظ باعتبارها شعارات ستالين الناجعة ، بل ورأى الشيوعيون في الكتلة السوفيتية أن صياغات ستالين التعليمية أفضل ما عبر عن أفكارهم ومعتقداتهم الخاصة . وكان الامتزاج العقلى والعاطفى بين النبوءة والأنظمة شيئا لا يتزعزع .

وعندما توفى ستالين قاست الأنظمة الشرق أوروبية مشاعر اليتيم ، اذ كان ستالين أكثر من مجرد نصير بل كان حامى حماهم ومحقق أحلامهم ورمز قوتهم ، والمصدر الحقيقى لسلطتهم وبدونه سوف يشعرون بالعجز .

نيكيتا خروتشوف و « المسيرة الجديدة New Course »

وعادت القيادة السوفيتية بعد وفاة ستالين لفرض هيمنتها على الاقطار التابعة . واثرتفجير الصراع الشرى على السلطة فى الكرملين على استقرار الائتلافات الحاكمة فى الاتحاد السوفيتى . وعندما استأنف السوفيتيون علاقتهم مع يوجوسلافيا رأى الزعماء الشىوعيون الشرق أوروبيين أن سلطتهم يحق بها خطر جسيم ، ومن ثم قاوموا بكل ثقلهم انحراف تيتو عن الأيديولوجية الموضوعية ، بل واستحلوا دم الرفيق الشىوعى . وعلاوة على ذلك لم تقهاون زعامة الاتحاد السوفيتى الجديدة فى الحفاظ على قلعة ستالين الحصينة فى أوربا الشرقية الا أن الكرملين حاول تعديل بعض من عقائده الأساسية .

فى صيف عام ١٩٥٣ قام نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev زعيم الحزب الشىوعى السوفيتى ومالينكوف Malenkov رئيس الوزراء وكلاهما موضع للاحترام ، باستدعاء الزعماء المجريين للاجتماع بهم فى موسكو حيث طلبوا منهم تطبيق استراتيجيه جديدة ستضمن لعامة الشعب مستوى معيشيا أفضل كما ستضمن انكماش الارهاب . واضطر راكوسى للتنازل عن منصبه كرئيس للوزراء لامرى ناجى Imre Nagy عضو المكتب السياسى السابق الذى استبعد من القيادة فى أواخر الأربعينيات بسبب مناهضته للزراعة التعاونية .

وفى ألمانيا الديمقراطية عجلت وفاة ستالين بتفشي التوترات فى حزب الوحدة الاشتراكى (SED) Socialist Unity Party الحاكم . وفى يناير ١٩٥٣ فرض الحزب عشرة فى المائة زيادة فى ساعات العمل فى مواقع البناء ببرلين (دون زيادة مماثلة فى الأجور) مما أدى الى اندلاع الاضطرابات والمظاهرات أمام المقرات الرئيسية للحزب الشيوعى . وسحقت القوات الالمانية الشرقية والسوفيتية هذا العصيان المسلح المعادى للتوتاليتارية وكان الأول من نوعه فى أوروبا الشرقية . ورسميا فان عشرات بل مئات على الأرجح ماتوا أثناء هذا الردع الحاسم . وفى كلمات تقطر مرارة عبر بيرتولت برخت Bertolt Brecht الشاعر والكاتب المسرحى الشهير عن هذه المأساة قائلا :

« بعد انتفاضة ١٧ يوليو ، ألقى سكرتير اتحادنا وريقائه الستالينية ، قائلا ان هؤلاء قد راهنوا على ثقتهم فى الحزب ، ولن تعود الا اذا تضاعفت الجهود . وعندئذ سيكون يسيرا على الحكومة ان تسحق الشعب أو تختار غيره » (١٧) .

ان انتفاضة برلين الشرقية كانت أولى حلقات سلسلة الانفجارات المتتالية للحنق الشعبى ، ضد الأنظمة العقيمة التى نصبت نفسها فى أوروبا الشرقية بمساعدة مباشرة من الجيش الأحمر — وكان لتلك التمردات طبيعة مزدوجة . فهى عصيان سياسى ضد النظام الاجتماعى المعادى للحرية والذى أهدر كل الطاقات الانسانية من ناحية ، وحركات التحرر القومى ضد القوى الأجنبية الممثلة فى الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى . ولذا فان تعطش الشعوب الشرق أوروبية للتمرد عام ١٩٥٦ عبر عن مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية . وتصدى الشعب للنظام القائم بعد ان أدركوا أن أساسه هش ، وهاجموا أسلوب التعمية الأيديولوجية التى تبرر ظلم الشيوعيين الجائر . أما الماركسية اللينينية كما فسرها ستالين فقد فتحت عليها النيران فى المؤلفات والمقالات العامة للمبدعين أصحاب المذهب اليسارى الذين شعروا بأن العصب الحاكمة قد تلاعبت بأحلامهم الرومانسية وآمالهم البريئة ، وظل المبدعون الذين حجبت وجهات نظرهم ومنع نشرها بعيدا عن ما بدا أنه صراع العائلة الشيوعية ، ومن هؤلاء المبدعين نضرب مثلا واحداً بلوسيان بلاجا Lucian Blaga وهو واحد من الفلاسفة والشعراء الرومانسيين البارزين ، حيث منع الحزب نشر جميع أعماله فيما عدا بعض الكتب المترجمة وقضى حياته يعمل كأمين مكتبة . وحاول الزعماء الجدد فى الاتحاد السوفيتى البرهنة لانصارهم

فى الحزب وفى الفرق العسكرية والحكومية ان زمن الارهاب الأعمى قد ولى . واستنتج الزعماء السوفيت خاصة بعد تمرد برلين أن الأساليب العتيقة للقمع والارهاب والاستغلال الاستعماري فى أوربا الشرقية لابد أن تستبدل . وأبلغوا قناصلهم العسكريين فى عواصم أوربا الشرقية ضرورة استخدام أساليب جديدة للقيادة وصيغ جديدة للسلطة فى ظل هذه الظروف المتغيرة . وبادر السوفيت بالتقرب من تيتو وبإقامة علاقات ودية معه وطلبوا ممن قاطعوه من زعماء شرق أوربا أن يحذوا حذوه . وادى التعديل فى « خط الحزب » الذى كان مقدسا وثابتا ولا يمكن تغييره الى التشوش وتخطيط الأحلاف الشيوعية الشرق أوروبية . وأدرك ماتياس راكوسى وعصبته فى المجر وكذلك جورجى جورجيو - دجى فى رومانيا ، وبوليسلو بيرت فى بولندا وأنطونين نوفتنى Antonin Novotny فى تشيكوسلوفاكيا ، وولتر البرخت وولهم بيك فى جمهورية المانيا الديمقراطية وفلكر تشرفنكوف فى بلغاريا وأنور خوجة فى البانيا أن استمرار وجودهم السياسى يعتمد على قدرتهم على التعامل مع مذهب الاتحاد السوفيتى الحاد اذا ما نشب فى بلدانهم . لقد انكشفت التهم الكيدية التى سبق وجها الستالينيون المتشددون لمناسيتهم خلال المحاكمات بعد ان رد لتيتو اعتباره وكف الجميع عن وصف القيادات اليوجوسلافية باعداء الانسانية . وبادر اعداء الستالينية وهم ملينكوف وخروتشوف بنشر تلك العداوة على نطاق واسع فى أوربا الشرقية وكان طبيعيا أن تماطل القيادات المحلية التى استمدت شرعيتها - كما ذكرنا آنفا من تأييدها المطلق لستالين فى اعلان عدائها له ، ورغم ان هؤلاء مجزوا عن تقييد الحرية السياسية الا انهم وبالتاكيد قد أثروا على مسيرتها .

ولأن الاتحاد السوفيتى كان يندفع فى اتجاه احترام الجريات ، فان الضغوط من أجل احترام الحرية السياسية فى كتلة الاتحاد السوفيتى كانت قوية ومؤثرة .

علاوة على ذلك كان الوضع الاقتصادى فى تلك البلدان شديد التدهور . وتأكد الاتحاد السوفيتى من خلال المعلومات التى جمعها عملاؤه فى بلدان الكتلة ضرورة تبنى مسيرة جديدة وبسرعة والا ستكون الانفجارات الاجتماعية فى المنطقة حتمية . وفى المجر ، عين امرى ناجى وهو أقل من راكوسى وحشية ميلا للايدلوجيا رئيسا للوزراء بمباركة الاتحاد السوفيتى . وذلك فى يونيو عام ١٩٥٣ ، وأطلق العنان لبرنامج جرىء ملىء بالخطط الاقتصادية والسياسية الجديدة . وتتلخص استراتيجية ناجى فى تخفيف العبء الواقع أو المفروض على طبقة

العمال فى المصانع وتخفيف الضغوط عن كاهل الفلاحين وذلك بالتطبيق الجبرى للتعاونيات وتمهيد طريق جديد للشرعية يتضمن عفوا جزئيا عن المسجونين السياسية وغلق معسكرات الاعتقال . وكان الاجراء الاخير يعد عمليا على قدر كبير من الاهمية ، بل كان أكثر تحديا لكل النظم الستالينية الشرق اوروبية .

ان قرار ناجى بالتخلص من السجون المجرية اكسبه شعبية حقيقية وجماهيرية كبيرة ، جعلته منافسا لا يستهان به لراكوسى الذى اخذ موقفه يزداد ضعفا .

واتبع الزعماء فى بلدان شرق اوروبية اخرى نفس استراتيجيات الحرية السياسية الا ان التزامهم بها وتحمسهم لها كان اقل من ذلك الذى اظهره ناجى . وعند اندلاع الصراع على السلطة فى الكرمليين حاول الرؤساء الشرق اوروبيين المحليون كسب ثقة الزعماء السوفيتيين ، واعتبروهم اقل تورطا فى الانفصال عن الارث الستالينى الذى اكتسح اوربا . وادى ما حققه خرتشوف من انتصار على مالىنكوف فى عام ١٩٥٥ الى ان يستعيد راكوسى سيادته وازيح ناجى من منصبه فى الوزارة والحزب الشيوعى بتهمة « الانتهازية اليمينية » .

وفى مايو من عام ١٩٥٥ اتخذ الاتحاد السوفيتى خطوة اخرى فى اتجاه تحويل هيمنتهم فى المنطقة لشكل مؤسسى وذلك بتكوين حلف وارسو كنوع من المصاهرة العسكرية التى تستند الى صلات ايدولوجية . وعبر زيجنيو بريجنسكى عن رايه فى حلف وارسو فقال :

« انها المعاهدة الرسمية الوحيدة التى تشكل اهمية كبيرة لأنها تجعل الدول [الاوربية الشرقية] ملتزمة تماما باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، ولأنها تحد من العمل المستقل وتسمح بوجود (ومن ثم التأثير السياسى) القوات السوفيتية فى قواعد على اراضيهم » (١٨) .

وضم حلف وارسو فى البداية البانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفيتى . وبعد الانشقاق الالبانى السوفيتى فى ١٩٦٠ انفصلت قيادة تيرانا Tirana عن حلف وارسو الذى شجبه الالبان باعتباره أداة للامبريالية السوفيتية . وتخلت البانيا رسميا عن الحلف فى اغسطس عام ١٩٦٨ عندما غزا الاتحاد السوفيتى واحلافه تشيكوسلوفاكيا . وبينما كفل حلف وارسو للاتحاد السوفيتى فرض هيمنته السياسية والعسكرية على البلدان

المتهمدة وضمن تبعيتها له ، فان اولالاتات النى تشكلت فى عام ١٩٤٩ ضمن سىاسة فرض هيمنة الاتحاد السوفيتى الاقصادية على بلدان المنطقة كان مركز المساعدات الاقصادية المتبادلة The Council of Mutual Economic Aid أو (CMEA) .

ان الأداة التى استخدت لجعل اقصاديات هذه البلدان معتمدة تماما وللأبد على الاتحاد السوفيتى هى « التخصص فى الإنتاج الصناعى » وأعيدت صياغة مبادئ الاشتراكية الدولية ، لتلائم المفهوم الجديد لهيمنة اقصادية محدودة وتنسق مع الجهود المبذولة لخلق كيانات اقصادية عابرة للقوميات خاضعة كلية للمصالح السوفيتية . وبعد عام ١٩٦٠ كان مركز المساعدات الاقصادية المتبادلة سيمثل الاطار الذى ستنفذ من خلاله سىاسة التكامل الاقصادى لبلدان شرق أوربا ذات الاقصاد المركزى المخطط ، لقد كان من المفترض أن تنبثق عن هذه الجهود الاقصادية المشتركة سوق اشتراكية متحدة . وبعد اجتياح عام ١٩٨٩ أصبح كل من حلف وارسو ومركز المساعدات الاقصادية المتبادلة لا تربطهما أية علاقة وسعت الدول الأعضاء لحلها . وفى الاجتماع الذى عقد فى فبراير ١٩٩١ ببودابست وضم وزراء خارجية ودفاع بلدان حلف وارسو ، تقرر حل الاتحاد العسكرى فى ٣١ مارس عام ١٩٩١ (١٩) .

مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرون - قنبلة معاداة الستالينية :

ان أهم الأحداث التى أدت الى تدمير ارث الستالينية كان « الخطاب السرى » الذى سلمه نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev فى فبراير عام ١٩٥٥ لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين (CPSU) وفيه هجم خروتشوف لأول مرة الزعيم السابق وذلك لأسباب عدة : أولا أنه أراد أن يطعن فى شرعية خصومه فى المكتب السياسى للحزب السوفيتى لأن تعاونهم مع ستالين كان أكثر توفيقا منه وهم «فتسلاف مولتوف Vyacheslav Molotov ، لازاركا جنوفتش Lazarkagnovich جورجى مالنوف وكلمنت فورشيلاف Kliment Voroshilov» وثانيا . لأن تدمير أسطورة ستالين ضرورى لاستعادة امتيازات الحزب كمصدر فعلى للسلطة السياسية أو بمعنى آخر للتأكيد على الوثارة المؤسسى لصفوة الحزب التى حاق بها الخطر بسبب استبداد شخصية ستالين ، وثالثا : لأن ادعاء « العودة الى اللينينية الحققة » باعتبارها الخط الحزبى الجديد يجعل خروتشوف يبدو كمدافع عن استعادة الشرعية الاشتراكية وحامى البيروقراطية من الارهاب السياسى السرى،

ورابعا : أعطى « الخطاب السرى » (لم يذكر وجوده فى السجلات الرسمية للمؤتمر ، ونشرته الصحافة السوفيتية فى بداية عام ١٩٨٩) الفرصة لخروتشوف لحصر أعدائه داخل كل من الائتلاف السوفيتى وداخل الحركة الشيوعية (بما فيهم بعض زعماء الدول الشيوعية وعلى رأسهم ماوتسى تونج Maozedong فى الصين) باعتبارهم ذوى عقائد فاسدة تعجز عن مواكبة التغيرات فى العالم المعاصر .

وتم ابلاغ الوفد المفوض عن الأحزاب « المتأخية » فى الحال عن ما يحملة « الخطاب السرى » لخروتشوف من قنابل موقوتة ، وتم اجبارهم أيضا على الاعتراف بأن اتهام « الدعاية البرجوازية » لستالين لعب دورا أساسيا فى الارهاب كان صحيحا . وأكد خروتشوف على دور ستالين فى تحطيم حلف البلاشفة Bo'shevik ، وعلى نزاعه الاجرامية ، وتورطه المباشر فى بناء نظام ارهابى . ان افشاء أسرار الخطاب السرى بعد أن حصلت النيويورك تايمز New York Times على نسخة من الخطاب ونشرت نصه الكامل أثار ردود فعل واسعة النطاق . وأشار ليتسك كولاكفسكى الى التجربة المريرة التى عاشها الآلاف من العسكريين الذين نشأوا على تعاليم ستالين الذى كان أكثر حكام العالم الشيوعى سلطوية عندما اكتشفوا أن « قائد الانسانية التقدمية ، والملم ، والأب الروحى للشعب الروسى والأستاذ والمعلم ، والعبقرية العسكرية العليا ، بل أعظم عبقرية فى التاريخ كان ارهابيا يتلذذ بتعذيب الآخرين ، وبالقتل الجماعى ، مع جهله بالشئون العسكرية وهو ما عرض الاتحاد السوفيتى لطامة كبرى » (٢٠) . ان الخطاب ركز على سيكولوجية ستالين المضطربة وأكد على شخصيته السيكوباتية ومن ثم افتقاره للمصداقية . لقد حاول ستالين فرض نظام الحزب الواحد ومن ثم حكم بقبضة من حديد بمساعدة كتيبة من المؤيدين . ورأى خروتشوف أن البحث فى أسباب هذه الفضائح يرتبط بالكشف عن مسئولية ستالين الشخصية عنها ، وبدلا من التركيز على الظروف البنيوية الموضوعية التى افرزت مثل هذه الشخصية السيكوباتية وبدلا من التركيز على المقدمات اللينينية للستالينية ، بذل خروتشوف قصارى جهده ليبرىء ساحة « الحرس القديم » اللينينى البلشفى .

وفى خطاب خروتشوف بدا بيريا Beria شيطانا بينما بدا سنالين كبيدق ساذج تلاعب به هذا المغامر المجرى من كل القيم . ويرى خروتشوف أن هلاك الحزب كان نتيجة لكائد بيريا البشعة وشكوك ستالين المرضية . ولم يتسأل خروتشوف لم تقاعس الحزب عن مواجهة المسيرة التخريبية وأذعن لها مطاطيء الرأس ؟ . وكان البديل

الاستراتيجى من أجل البقاء ومنع هؤلاء الوحوش السادية من الوصول لقمة الحزب هو التخلص منهم وإبادتهم . ولم يضمن الشيوعيون للجماهير أن انحرافات ستالين لن تتكرر فى المستقبل وعلاوة على ذلك فإن التزام خروتشوف للصمت المحير والمشئوم ساعد فى تسديد الضربة القاضية لمصير ضحايا ستالين من اللاشيوعيين . ولم يبد خروتشوف أى ندم فى « الخطاب السرى » فيما يتعلق بملايين الفلاحين الذين تمت إبادتهم أثناء المجاعة التى سببتها الحكومة فى أوائل الثلاثينيات ، ولم يشر إطلاقاً لحالات الإعدام التى تمت بالمنطقة أو لتصفية الأحزاب السياسية الديمقراطية ولم يبد أى ندم على تدمير الأحلاف القومية فى الجمهوريات الخاضعة للهيمنة السوفيتية . وفى نفس الورقة أكد خروتشوف على أن عام ١٩٣٤ كان بداية الكارثة وذلك عندما خطط ستالين لاغتيال زميل المكتب السياسى سيرجى كيروف Sergikarov لأنه ظن أن سيرجى يناقسه على القمة .

لقد رأى خروتشوف أن نكبة ستالين بدأت فى اللحظة التى قرر فيها أن يطلق هجومه ضد البيروقراطية الستالينية نفسها . ولم يعبر خروتشوف عى أدانته لمنطق الإرهاب ، إنما أدان التطبيق « المنحرف » للإرهاب ضد خادمى المشروع الشيوعى المخلصين وهذه هى المغالطة الرئيسية للخروتشوفية التى بذلت جهداً خارقاً لتنزيه اللينينية عن أى تعاون مع الستالينية ولم تقم سوى برد الاعتبار لضحايا الإرهاب الستالينى الذين خدموا الحزب البلشفى وزعيمه بتفان . ويقودنا هذا المنطق لضرورة تحليل المحاكمات الصورية التى جرت فى الثلاثينيات وتفنيد التهم اللامنطقية التى وجهت ضد معارضى ستالين من « الحرس القديم » البلشفى — لقد تم التشهير بتروتسكى Trotsky وزينوفيف Zinoviev وكامنيف Kamenev ورايكوف Rykov وبوخارين Bu Kharin باعتبارهم أعداء الحزب وكثيراً ما تلقى ستالين المديح لصراعه الذى لا يكل ضد هؤلاء المتآمرين . أن التجميل الأيديولوجى لأسلوب الأكاذيب ، والفساد ، والقتل الجماعى والفزع المتفشى كان عقيدة « عبادة الفرد » . أن النظام السياسى سيبدو مختلفاً لو أبدى ستالين مزيداً من التواضع والانسانية . ورفض خروتشوف وضع نوايا ستالين الشخصية فوق الشبهات . وكان آخر زعيم يتولى الحكم هو دائماً الزعيم الشيوعى المخلص وكانت وسائله وليست غاياته هى التى تدان . واعترف خروتشوف بأن الجرائم الإرهابية تمت « أثناء حياة ستالين وتحت قيادته وبموافقته » . وعلى أية حال عجل « الخطاب السرى » فى الوقت ذاته بإصدار حكم البراءة على الزعيم الفقيد وذلك بالإشارة لالتزامه المزعوم بالمبادئ الثورية حيث قال :

« ان ستالين كان مقتنعا بان ذلك كان ضروريا من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة ضد مكائد الأعداء وضد هجوم الطبقة الامبريالية . وقد رأى ذلك من منطلق مصلحة الطبقة العاملة ومصلحة الانتصار الذى حققته الاشتراكية والشيوعية . ولا نستطيع ان نقول ان هذه ممارسات طاغية طائش . . واعتقد أن ذلك كان شيئا لا بد منه من أجل مصلحة الحزب ومصلحة الجماهير العاملة وباسم الدفاع عن مكتسبات الثورة . ان المأساة كلها تكمن فى هذه الادعاءات والأكاذيب » (٢١) .

وبعيدا عن تبرير خروتشوف لأعمال ستالين ، فان « الخطاب السرى » أضفى الشرعية على التمرد ضد المؤسسات والقيم الستالينية . وحاول الاتحاد السوفيتى أن ينقذ ما يمكن انقاذه من أساطيره الأيديولوجية الا ان موجة التحرر اكتسحت كل البلدان التابعة وكانت المجر وبولندا هما اول من بادر لاكتشاف معنى جديد للاستقلال الذاتى وللتخلص من العقائد الستالينية المحنطة — ويمكن استشعار الآثار العميقة الناتجة من المؤتمر السوفيتى فى كل بلدان الكتلة الأخرى حين جنحت انتلجنسيا الحزب للراديكالية ونقد مساوىء الماضى .

كوارث ١٩٥٦ فى بولندا :

لقد توفى الزعيم الشيوعى البولندى بوليسلو بيرت الذى أطيح به لافشائه أسرار المؤتمر العشرين فى مارس ١٩٥٦ وتبع ذلك صراع مروع على السلطة وقع بين فصائل مختلفة داخل ائتلاف الحزب . ولفهم السمات المميزة للشيوعية فى بولندا ، يجدر الإشارة الى الجذور السياسية والفكرية لتشكيل الحزب وكذلك الى المحن التى مرت ببولندا وهى تحت الحكم الستالينى . لقد كان الحزب الشيوعى البولندى السرى Polish Communist Party من أقل الأحزاب اللينينية الشرق أوروبية التى تعانى من التفتت — لقد استاء ستالين من الزعماء الشيوعيين البولنديين المتوسمين وخطط لآبادتهم اثناء التطهير الكبير . وتم حل الحزب الشيوعى البولندى فى عام ١٩٣٨ بمرسوم من اللجنة التنفيذية Executive Committee للأمم المتحدة الشيوعية Communist International التى اتهمت الحزب البولندى بأنه عش للجواسيس ، ووكر للعملاء المحرضين للبوليس السرى البولندى . لقد كانت لطمة خطيرة وجهها ستالين ضد المجموعة السياسية التى تعانى من الأمراض النفسية نتيجة لعملها السرى ومنها الشك ، والطائفية والامتناع الى الرؤية السياسية .

لقد أشار ايزاك دوتشر Isaac Deutscher الى أحد أسباب كره ستالين للشيوعية البولندية وهو علاقة الشيوعية البولندية بالتقاليد اللكسمبرجية المهجورة وتبنيها لمنطق الاشتراكية الراديكالية لروزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg ولم يكنوا أى احترام لستالين رغم أنهم اعتبروا الاتحاد السوفيتى رمزا لمتهى آمالهم . وهنا يجب أن نذكر أن الحزب الشيوعى البولندى قد صبح على نحو مخز بالصيغة البلشفية وذلك فى أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات وقبل مناضله أوامر الكمنترن دون أن ينبسوا ببنت شفة . وطرح ايزاك دوتشر سؤالا حول الآثار الستالينية على الحلف الشيوعى البولندى فقال :

« كيف حدث ذلك ، لابد أن نسأل ، كيف للحزب الذى يملك هذا الرصيد من النضال السرى الذى امتد لعقود وتبنى الفكر الماركسى الجليل ولفترة طويلة (امتدت سبع سنوات) ان يذعن على نحو مخز لهذا الهجوم الوحشى ودون أدنى اعتراض ودون القيام بأية محاولة للدفاع عن الزعماء المناضلين الشهداء ودون أدنى محاولة لرد اعتبارهم ولم يعلنوا أن هؤلاء الذين اعدمهم ستالين سيظلون أحياء وسيواصلون النضال ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ يجب أن نكون واعين تماما لما تعرضت له الشيوعية البولندية ولسنوات عديدة من قبل الستالينية للتعذيب المعنوى هذا اذا ما أردنا أن نفهم انهيارها التام تحت وطأة هذه اللطمة » (٢١) .

ان الحزب الشيوعى البولندى استعاد نفسه كقوة سياسية فعالة فى المقاومة المعادية للنازية وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان زعيم الحزب فلاديسلاف جوميلكا وأصبح بعد تحرر بلاده سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى البولندى الا أن العصابة المسكوفية بقيادة بوليسلو بيرت وهيلارى منك Hilary Minc وجاكوب بيرمان استبعدت جوميلكا الذى قضى سنوات الارهاب الستالينى معزولا بعد أن حددت أقامته بمنزله .

ومن بين السمات المميزة والبارزة للثقافة السياسية البولندية فى العقد الأول من الحكم الشيوعى المقاومة القومية وضعف الأيديولوجية الماركسية اللينينية وقوة السلطة السياسية للكنيسة الكاثوليكية Catholic Church (٢٢) ورغم أن الصراع الأيديولوجى المستمر من قبل الشيوعيين ضد الكنيسة بات مستعرا ، فان الكنيسة الكاثوليكية ظلت تقوم بدورها فى استقطاب البولنديين . ولأن معاداة الستالينية كانت تنتمى فى الاتحاد السوفيتى فان الحلف الشيوعى البولندى اتخذ أول

خطواته في طريق الانشقاق فانقسم لطائفتين الأولى من المدافعين عن الحرية السياسية والأخرى من الأصوليين المحافظين الذين رفضوا التخلي عن أي من العقائد التقليدية . ورفع عن جوميلكا قرار تحسديد إقامته وأطلق سراحه في عام ١٩٥٤ وذهبت تهمته بالفساد « القومي » المزعوم طي النسيان . وأصبحت بولندا في عام ١٩٥٥ مرتعا خصباً للصراعات الفكرية الملهبة ، وابتهج المفكرون لافناء أسرار مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي العشرين (٢٣) . وخلال عام ١٩٥٦ أقيم أكثر من مئتي ناد فكري لبحث القضايا الشائكة في ماضي الأمة وحاضرها بصراحة شديدة . ان اطلاق سراح الرأي العام أعاد الحياة للمجتمع المدني البولندي المحاصر .

وطرح المفكرون البولنديون مبادئ جديدة للاشتراكية . ولم يكن نقدهم للحزب الحاكم يرجع للحنين أو العودة للنظام الفائت بل يرجع لحد ما للاعتقاد بأن المبادئ الحقيقية للاشتراكية قد نسيها البيروقراطيون الشيوعيون في غمرة اهتمامهم بتوسيع نطاق سلطتهم . لقد عانى المفكرون المتمردون من آثار معنوية ونفسية مفجعة تجمعت عن الاستبدادية الديكتاتورية وطالبوا بأنسنة النظام القائم ، الا أن نهجهم كان نهجا تطويريا أكثر منه ثوريا . لقد أرادوا تغيير نظامهم من الداخل وعلقوا آمالهم على زمرة الحزب الحاكم التي تبدو أكثر تفتحا . واطلقت قصيدة الكاتب الشيوعي آدم فاسك Adam Wask «قصيدة للشباب» التي نشرت في عام ١٩٥٥ العنان لمعركة سياسية وأدبية بين الليبراليين والمحافظين . وفي قصيدته شجب فاسك افتقار القيادة الحزبية للوعي بمدى تردى المستويات المعيشية للطبقة العاملة وأدان غياب نظام شرعي عادل وندد بالكذب باعتباره أحد السمات التي يتعذر محوها من الحياة اليومية في بولندا الستالينية فقال :

✱ الناس هناك مطحونون ،

وفي القاع يعيشون ،

أبدأ للمسرح لا يذهبون ،

والصغار من التفاح البولندي لا يأكلون ،

والبنون والبنات يكذبون بالاجبار ،

والزوجات يطردن خارج الديار ،

والمراهقون يموتون من غم القلوب ،

أنهم يعانون الاجفاف والتحقير ،

انهم عرايا سلبهم قطاع الطرق الثياب ،
من أجل هؤلاء تناشد السلطة معنى للشرعية ،
فهؤلاء ينتظرون دعما ، وهؤلاء ينتظرون عدلا ،
ينتظرون ، وقد طال الانتظار ..

وبعد هذا الاتهام القاسى الموجه للنظام القائم ، عدد فاسك
المطالب الأساسية للمجتمع المدنى الصاعد ببولندا الا انه رأى مع
زملائه الذين آمنوا بالعقيدة الماركسية ان الحل يمكن ان يأتى من خارج
الحزب الشيوعى . وقد قدمت هذه المطالب لزعيم مستنير غير معروف
استطاع فيما بعد ان يعيد للاشتراكية الحقيقية كرامتها ، وتعتبر السطور
التالية من قصيدته عن روح التعديلية كمحاولة لتصحيح مساوئ
النظام دون التبرؤ من أكثر المؤسسات أهمية الا وهى الحزب الشيوعى
نفسه حين قال :

- لنا على هذه البسيطة مطالب ،
- مطالب أناس مهملة ،
- نريد مفاتيح الأبواب الموصدة ،
- نريد حجرات لها نوافذ ،
- نريد حوائط لا تبلى ،
- نريد معرفة ما خفى ،
- نريد زمنا إنسانيا ،
- نريد بيتا آمنا ،
- كى تضيق المسافات ،
- بين العمل والكلمات

- لنا على هذه البسيطة مطالب ،
- ومن أجلها سنناضل ،
- من أجلها سيموت الملايين ،
- في المعارك ،
- من أجل حقيقة واضحة
- من أجل خبز مغموس بالحرية

- من أجل مشاركة فعلية
- من أجل مشاركة فعالة .

- نطالب بذلك كل يوم
- نطالب من خلال الحزب (٢٤) .

لذا أطلق فاسك حملة معادية للايديولوجيين الشيوعيين الذين ردوا عليه بأكثر الطرق وحشية . ونشرت صحيفة الحزب الرسمية تريبونا لودا Trybuna ludu القصيدة ووصفتها بأنها هستيريا طفولية ، وأشار الكاتب ستانيسلاف بارنتزاك Stanislaw Boranczak أن هذا العبث الطفولي جعل كتابة فاسك تبدو موجهة ومحرضة :

« أن المنطق الذى تحاول قصيدة فاسك اثباته منطق سخيف وان يتصرف كالطفل الذى تنتابه نوبة غضب عندما لا يوافق الواقع توقعاته . ان القاء فاسك لقصيدته فى الصالون الأدبى ١٩٥٥ كان اهانة لكل فرد » (٢٥) .

ان قصيدة فاسك تحذير للجميع من الأحداث التى ستقع فى القريب العاجل .

لقد فقدت الطبقة الشيوعية الحاكمة فى بولندا ثقتها لحظة إنعقاد مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين ، وتحطمت الأوثان العتيقة وأنهارت المبادئ المقدسة وتناثرت أشلائها هنا وهناك ، وأصبحت حاجة بولندا اتبنى نهج جديد لاشتراكية ملحة .

وبدا الانفصال عن المعتقد الستالينى الخاص بالدور القيادى للأجهزة الحزبية بينا . وقرر المفكرون زيارة المصانع واجراء الحوارات مع العمال لنشر أفكارهم اللارثونكسية ، وبدأت الحياة السياسية والفكرية البولندية تنحور الى قطبين ، قطب المحافظين يشدهم الحنين للستالينية وقطب انصار التغيير . وكانت الأهلية أو قل اغراء الوقوف على محددات مميزة للطريق البولندى نحو الاشتراكية تتجاذب بين القطبين مع ميل واهن للعودة للستالينية . ورات معارضة ١٩٦٥ البولندية امكانية تحقيق الكمال من خلال النظام الشيوعى نفسه وليس بالخروج عليه ومن ثم اتسمت التغيرات بالتدرجية وأخلت من الصراعات الضارية بين الحكام والمحكومين . ان الأحداث التى جرت فى بوتسان Poznan فى يونيو ١٩٥٦ أكدت عكس الاعتقاد السائد بأن

« الإصلاحات » يمكن أن تتم بطريقة سلمية هادئة حيث بدأت الطبقة العاملة في اعلان تمرد لها .

واتسعت الهوة بين المصلحين والدجمائين ، وسببت عودة جوميلكا للسلطة ضغوطا للإبقاء على الحزب ونظراً للاضطهاد الذى عانى منه تمتع جوميلكا بشعبية جارفة حتى انه تمكن من تطهير صورة الحزب وحدث الانقسام بين الائتلاف الحاكم ، حول طبيعة العلاقات البولندية السوفيتية المستقبلية .

ورأى الليبراليون بل والمفكرون الرجعيون ضرورة اقامة علاقات بين بولندا والاتحاد السوفيتى بشرط أن تكون علاقة الند بالند .

ومنذ أن نحا الليبراليون منحى راديكاليا ، زاد تشدد المحافظين وعادوا لاستخدام الشعارات المعادية للابداع وللأجانب وللسامية . ووصلت الأزمات داخل قمة الهرم الحزبى لنقطة الانفجار . وطالب كل من ضباط الصف الحزبيين وجماعات الضغط اللابزبية بعودة جوميلكا لرئاسة اللجنة المركزية . وفى نفس الوقت طالبوا باقالة فورية للمارشال السوفيتى قنستانتين روكوسوفسكى Konstantin Rokossovsky من منصبه كوزير للدفاع (كان تعيينه فى هذا المنصب احدى الدلائل على انتهاك ستالين للشرعية واذلاله للاعتزاز القومى البولندى) . وقرر كسكرتير أول Edward Ochab الشيوعى المحنك الذى تزعم الحزب خلفاً لبولينسكويرت فى مارس ١٩٥٦ الموافقة على توقيع قرار ترشيح فلاديسلاف جوميلكا فى اجتماع اللجنة المركزية العاصف ١٩ أكتوبر ، وحضر الاجتماع ممثلو الاتحاد السوفيتى وهم نيكيتا خروتشوف وفيتسلاف مولوتوف وانستاس ميكوين Anstas Mikoyan ولازار كجنوفتش الذين وضلوا لوارسو على نحو مفاجئ دون دعوة لتابعة مجريات الأحداث والتأثير فيها . ان امكن . ورغم التحفظات السوفيتية تم انتخاب جوميلكا كسكرتير أول First Secretary للحزب وأعلن تأسيس « الطريقة البولندية للاشتراكية » . وأكد الزعيم الجديد على الحاجة لسياسة داخلية مستقلة وأكد مرة أخرى على بقاء بولندا على ولائها لحلف وارسو . وبينما لعب تيتو دورا مهما وخاصة فى الأحداث العالمية عندما حول يوجوسلافيا لدولة محايدة اقتضت مطالب جوميلكا على الحصول على الاستقلال القومى . ورأى جوميلكا أن تحالف بولندا مع موسكو لا غنى عنه من أجل وحدة الأمة خاصة فى ضوء الحق الذى تدعيه ألمانيا الغربية فى بعض الأراضي الإقليمية .

ولم يجرؤ جوميلكا أن يتجاوز حدود الإصلاح المقيّد حتى في السياسة الداخلية ولم يدرك مسئولية الحزب تجاه المستقبل الاقتصادي وظل متعلقاً بأهداب الخطة المركزية ودافع جوميلكا أيديولوجياً عن الهيمنة الماركسية اللينينية ومنع إقامة حوار حقيقي مع الكنيسة الكاثوليكية ووصفها بالرجعية إذ كانت تناهض النظام القائم باستقطابها لكل من رأى في الحكم الشيوعي حكومة مفروضة عليهم من قبل قوى أجنبية . وأسفرت التغيرات التي أحدثها جوميلكا وكذلك الإبطاء من الاستثمارات الصناعية والسماح بمزيد من التجريب الفكري والفني عن تخفيف حدة الضغوط الداخلية . أما المقاطعة المريحة لستالين فكانت بالنسبة لجوميلكا طموحاً بعيد المنال إذ كانت أقصى آماله تعديل النظام وليس استبداله . لقد خلا المناخ السياسي في بولندا أثناء سنوات حكم جوميلكا الأولى من أي توترات مقارنة بالبلدان الشرق أوروبية الأخرى إلا أن التعددية السياسية ظلت مجرد أمنية . ووعده جوميلكا بشفاء سريع من التوعك الاقتصادي ، وخطط لتضليل الكثير من المفكرين الذين ظنوه عدواً حقيقياً للستالينية وتهلّلوا لوصوله للسلطة . وفي الواقع لم يبد جوميلكا تفهماً لوجهة نظر هؤلاء الذين طالبوا بتغيير ثوري داخل النظام ، وظل راضياً عن الهيكل المؤسسي القائم بصرف النظر عن إمكانية سقوطه .

وأعرب جوميلكا عن ارتياحه في المجالس العمالية المشاغبة ، وفي المواقع الصناعية واعتبرها تهديداً لسلطة الحزب . وأراد جوميلكا تدعيم أوضاع سلطته داخل التنظيم الشيوعي فشرع في قمع أية مبادرات قد تتولد تلقائياً من القاعدة الجماهيرية واستعاد سيطرة الحزب الكلية على المجتمع . وأطلق العنان في عام ١٩٥٧ لمذبحة ضد المفكرين الرجعيين الذين اتهمهم بمحاولة تقويض النظام الاشتراكي . لقد تقلصت حرية الصحافة البولندية — ولم تكن كذلك من عام سبق — ومنع المؤيدين للاشتراكية الديمقراطية من الاقتراب من الجمهور ، وأصبحت التعديلية التي تبناها هدفاً لحملة تشويه تخططها السلطة . وتجسدت التعديلية في وجهة نظر ليتسك كولاكفسكي الذي كان استاذاً في الفلسفة بجامعة وارسو حين قدم في كتابه القصير « ما الاشتراكية ؟ » الذي صدره نظام جوميلكا سلسلة من التعريفات السلبية للاشتراكية واعتبرها النظام تحريضية ، كما نوه عن المعنى والمحتوى الحقيقي لمبدأ الاشتراكية . وألقى كولاكفسكي بما عرف عنه من سخريّة وحصافة

الضوء على أكثر العوامل أهمية في العقيدة الرجعية فقال :

الاشتراكية ليست :

- ١ - مجتمعا تحدد فيه اقامة أى مواطن ويحاصره البوليس .
- ٢ - مجتمعا يعيش فيه الانسان تعسا لأنه لا يعبر عما يدور بخـلده .
- ٣ - مجتمعا يعيش فيه الانسان على افضل حال لأنه لا يفكر على الاطلاق .
- ٤ - الدولة التى يلعن جيرانها الجغرافيا .
- ٥ - الدولة التى تريد من كل مواطنها أن يكون لديهم نفس وجهات النظر فى الفلسفة ، والسياسة الخارجية والاقتصاد والأدب والفن .
- ٦ - الدولة التى تحدد حكومتها حقوق مواطنيها ولا يحدد مواطنوها واجبات الحكومة .
- ٧ - الدولة التى بها ملكية خاصة لوسائل الانتاج .
- ٨ - الدولة التى تعتبر نفسها اشتراكية بالاجماع لانها تخلصت من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .
- ٩ - الدولة التى تعرف دائما رغبة شعبيها دون أن تسأله .
- ١٠ - الدولة التى يردد فيها الفلاسفة الكتاب نفس ما يقوله الجنرالات والوزراء .
- ١١ - الدولة التى يمكن التنبؤ فيها بعودة الانتخابات البرلمانية .
- ١٢ - الدولة التى لا تحب أن يطالع مواطنوها الصحف والمجلات (٢٦) .

ان هذا التعريف الساخر للاشتراكية يعد أهم التحليلات التى تصف الأوضاع المزرية التى فرضها الشيوعيون على الأمم الشرق اوروبية . وبينما أعد جوميلكا العدة لاحتواء الاختار الثورى المتمرد والقضاء على كل أثر له فى بولندا فان الحركة الجماهيرية فى المجر نجحت فى اسقاط النظام القديم وبشرت بمجتمع تسوده تعددية سياسية حقيقية .

نداء الحرية : امرى ناجى Imre Nagy والثورة المجرية :

أقيم فى بودابست فى ١٦ يونيو ١٩٨٦ احتفال مهيب لرد اعتبار امرى ناجى وغيره من الشهداء بعد أكثر من ثلاثين عاما من تلطيخ النظام

لسمعتهم باعتبارهم محرضين للمؤامرة المضادة للثورة عام ١٩٥٦ ودفنوا في مقبرة معلومة . وفي نفس الوقت اختلق النظام قصص تبريء هؤلاء الذين خانوا الثورة وتواطئوا مع الغزاة السوفيت . واجبر جانوس كادار الرجل الذى أذعن للأمر السوفيتى وحكم الأمة لعقود ثلاثة على الاستقالة من الحزب وقبل عام من انتهاء فترة رئاسته . وحاول الزعماء الجدد كارولى جرونس Karoly Grosz السكرتير العام وميكوس نيميث Miklos Nemeth رئيس الوزراء جاهدين الحصول على السلطة تحت اسم الشيوعية الإصلاحية . وبسبب وجود جورباتشوف Gorbachev فى الكرملين لم يعد اجتياح ١٩٥٦ يوصف بأنه مضاد للثورة . لقد استمر حزب العمال الاشتراكى المجرى Hungarian Socialist Workers' Party فى المطالبة برد الاعتبار لأمري ناجى وزملائه . وانضم امرى بوتسجاي Imre Pozsgay المصلح المنشق على جماعته ورئيس الجناح الليبرالى لائتلاف الحزب وكذلك روتسو فايرز Rezso Nyrs أبو الإصلاح الاقتصادى فى أوائل السبعينات للمعارضة الديمقراطية عندما طالبت بكشف حقيقة اجتياح ١٩٥٦ القومى .

وعندما حاول الشيوعيون الإصلاحيون فى المجر الانضمام لهذا الركب الذى مجد اجتياح ١٩٥٦ تناهى لأسماعهم حديث وقح على لسان فكتور أوربان Victor Orban وهو أحد زعماء اتحاد الشبان الديمقراطيين (FIDESZ) Federation of Young Democrats وهو الحزب السياسى الذى ضم أعضاء معادين للديمقراطية فقال :

« فشلنا نحن الشباب فى التوصل لفهم أشياء كثيرة كانت تبدو واضحة للأجيال السابقة . اننا متحIRON فى امر هؤلاء الذين افترؤا على الثورة وعلى امرى ناجى ثم أصبحوا فجأة أعظم المؤيدين لسياسات رئيس الوزراء السابق ، ونجد زعماء الحزب الذين نظروا لثورة ١٩٥٦ نظرة احتقارهم انفسهم الذين يتدافعون الآن للنمسخ فى الاكفان كما لو كانت تعاويذ تجلب الحظ . لا يجب ان نمئن لعودهم بدفن الشهداء بعد واحد وثلاثين عاما ، ولا يجب ان نشكرهم لسماحهم لنظامنا السياسية بان تمارس عملها » (٢٧) .

ودل حديث أوبرن على الهوة الشاسعة بين الأوهام الرجعية للأجيال السابقة ورفض الشباب المجرى الجلى لأية صيغ شيوعية ، وفقد الحزب الشيوعى كل مصداقية له فهو الحزب الذى حكم ضد ارادة الشعب وهو لا يستحق شكرا أو امتنانا لتبنيه المفاجئ لمبادئ التسامح . ومن ثم كان الاحتفال بتأبين امرى ناجى فى يونيو ١٩٨٩ وداعا رمزيا لهؤلاء المصلحين . وعلت الأصوات مطالبة بمقاطعة

حاسمة للنظام الشيوعي واقامة نظام سياسى تعددى قوامه اقتصاد حر وحكومة تحاسب من قبل الشعب . وقد تبنى ناجى هذه التجريبية الرائدة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأظهر شجاعة فائقة فى الدفاع عن قضية الشعب ضد الشيوعيين الذين قمعهم .

ولعبت الانتلجنسيا دوراً قيادياً فى الانفجار المجرى المبكر المعادى للشمولية وذلك لأسباب عدة : أولاً أن الانتلجنسيا خضعت أثناء سنوات الحكم الستالينى لاجراءات قمعية وحشية ، ثانياً أن ممثليها اعتبروا أنفسهم ممثلين للقيم القومية التى حققت الستالينية من شأنها ، وثالثاً أن الانتلجنسيا اعتبرت نفسها المضطلمة بالدور القيادى فى الصراع ضد الاستبداد باعتبارها ائتلافاً مستتراً له تقاليد ثورية تعود لاجتياح ١٩٤٨ الاجتماعى والقومى ، ورابعاً أن الانتلجنسيا البولندية والمجرية بطوائفها العريضة والتى اعتنقت قيم الماركسية لم تعد الألاعيب التى يقوم بها البيروقراطيون فى الحكم تفتنهم .

وبالنسبة لعمال المصانع فقد أسرتهم وعود الشيوعيين بتحقيق العدل الاجتماعى والمساواة واستغلت الروح الجماعية التى اتسمت بها الأممية الأولى وسياسة الملكية الجماعية فى بث شعور مزيف لدى العمال بأنهم سيحكمون المجتمع . وساهم هذا الشكل من المقصورية فى توسيع الهوة بين العامل والمفكر فنظر العمال للمفكرين باعتبارهم المسببين للمشاكل ، بينما نظر المفكرون للعمال باعتبارهم القاعدة الاجتماعية الرئيسية اللازمة لاحكام السيطرة على النظام ، ولم يتم التعاون الحيوى بين الاجنحة الراديكالية لكل من الانتلجنسيا والطبقة العمالية الصناعية الا فى السبعينيات ، وناشد المفكرون فى عام ١٩٥٦ الدعم من الجناح المعادى للتيار الديماجوجى فى الأحزاب الشيوعية فحاولوا ضم بعض عصابة جوميلكا . وقد أبدى المفكرون فى المجر الاهتمام بناجى وأنصاره لأن راكوسى وحاشيته خضعوا تماماً للستالينية، وأن التيتوية لعبت دوراً مهماً فى التحام حركة الاصلاح الراديكالية وانتقل أثرها لكل بلدان أوروبا الشرقية واعتبر الاصلاحيون استراتيجية تيتو فى رفضه للستالينية نموذجاً لا بد أن يحتذى ولم يخف اليوجوسلافيون مع التعديليين (٢٨) ، وبذلت حركة الاصلاح فى أوروبا الشرقية فى عام ١٩٥٦ محاولة لحل التناقضات البنيوية والتوترات داخل كيان السلطة القائم الا أن هذه المحاولة التى قام بها ناجى وبعده كولاكفسكى لم تكن تهدف لالغاء النظام الشيوعى

بل شددت على امكانية اصلاح الوضع الراهن فى اطار الشيوعية .
لقد فشلت التعديلية فى التحول لبديل للنظام الشيوعى لانها لم تهتم
بمعاناة الجماهير أو الرفض القومى للشيوعية (٢٩) .

لقد حلل آدم متشنك المؤرخ البولندى الشهير والمدافع عن الحقوق
المدنية طبيعة التعديلية الماركسية فى مقاله « التطور الجديد » الذى
عرض فيه استنتاجات لها دلالة عن ما يجرى فى بولندا بل وفى بلدان
اوربا الشرقية كلها . ويرى متشنك ان زيف الرجعيين يأتى من ايمان
هذه الجماعة بأن الحزب الشيوعى لديه القدرة على احداث تغيير بنيوى
وهو ما يعد المثالية بعينها :

« يعتمد مفهوم التعديلية على رؤية حزبية داخلية قاصرة . ولم
تتحول أبداً لبرنامج سياسى . واقترحت ان النظام القائم يمكن ان يتحول
لنظام انسانى وديمقراطى وأن الديكتاتور الماركسى كان لديه القدرة على
استيعاب الفنون المعاصرة والعلوم الاجتماعية . واراد التعديليون ان
يتم التغير داخل اطار الحزب الشيوعى والعقيدة الماركسية . وهم
يريدون ان ينتقلوا « من قلب » العقيدة والحزب فى اتجاه الاصلاح
وتحقيق المصلحة العامة » (٣٠) .

واكد متشنك على ان نقطة ضعف التعديليين ترجع فى الأصل
الى افتقارهم لبرنامج راديكالى معارض وتأثرهم بالأوهام والاخليلية
الماركسية ولم يدرك التعديليون ان البرنامج الخاص بالتغيير الجذرى
هو الوحيد الذى يمكن ان يمددهم بقاعدة جماهيرية :

« لا يكمن خطأ « التعديليين » القاتل فى هزيمتهم فى صراعهم من
اجل السلطة داخل الحزب (ولم يكن بإمكانهم الظفر بها) فقط ولكن فى
طبيعة هذه الهزيمة ، انها هزيمة مسئولين تم طردهم من مواقعهم فى
السلطة وجردوا من ثقلهم السياسى . وقد حدث ذلك لأنهم ارادوا تطبيق
برنامج سياسى ديمقراطى يسارى التوجه على نطاق واسع » (٣١) .

ان ما حدث فى المجر كان الأول من نوعه فالحركة الاجتماعية
القادمة من القاعدة الجماهيرية فاقت توقعات وآمال جماعة التعديليين
وتحولت الحركة الى ثورة ضد الشمولية بعد أن انضم اليها عمال
المصانع وبعد قرار أمزى ناجى الشخصى بشبئى مطالب الانتفاضة
الشعبية . ولأول مرة استخدم الجماهير فى المجر العنف للدفاع عن
أنفسهم ضد الأعمال القمعية التى فجرتها القوات الأجنبية . ومن
الضرورى ان تؤكد هنا ان الثورة المجرية لم تكن مجرد رد فعل يهدف
لاستعادة النظام القديم ancien régime ولكنها كانت انفجارا للغضب

الشعبي ضد انتهاك البيروقراطية الشيوعية لمبادئ العدل والمساواة بين البشر . وهذه الثورة الديمقراطية الأولى من نوعها في أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت نموذجا يحتذى به وكان لها أثر كبير على كل الحركات الاجتماعية المعادية للشمولية في المنطقة .

ان صلف وصفقة الحزب الشيوعي المجرى تحت قيادة راكوسى وجيرو عجلا بانفجار السخط الجماهيرى .

وفى عام ١٩٥٥ وبعد عامين من تجريب سياسة « المسار الجديد » تم التخلص من ناجى وحاولت عصبة راكوسى ان تعيد هيمنتها الكاملة على البلد ، الا ان الوقت كان قد فات لأن هؤلاء الستالينيين الذين استماتوا من أجل استعادة السلطة لم يدركوا طبيعة المؤثرات القادمة من موسكو ، ولم تقدمهم فى مواجهة ربح التغيير العاتية التى تهب على المنطقة كلها . ومن ناحية اخرى فان المفكرين البولنديين كانوا قد تذوقوا تجربة الديمقراطية فى العامين اللذين تولى فيهما ناجى رئاسة الوزراء ورفضوا ان تسلب منهم تحت نير الضغوط الحزبية . وتحدى المفكرون السلطة ضاريين بتهديدات راكوسى عرض الحائط ، ورفضوا تصديق الأكاذيب الرسمية واطلقوا العنان للبحث عن « ثورة العقل » (٣٢) . ان تقدم الحركة الثورية الجماهيرية كان لها مقدمات منطقية عديدة ، أولا ان تحدى السلطة الشيوعية لن يكون ممكنا طالما ظل الحلف الشيوعى متماسكا ، بمعنى ان الكوارث الاجتماعية كى ما تتحول لكوارث سياسية فى هذه الانظمة يجب على الأحزاب الشيوعية ان تفصل بين القضايا الأيدلوجية والشخصية . اما الصراع الدائر فى المجر بين المتشددى الستالينيين راكوسى وجيرو وحاشيتهم وجماعة التعديليين بقيادة ناجى زاد من هذه الهجمات ضد الدولة البوليسية . وثانيا أدى تأزم الموقف الثورى وتآكل سلطة الحزب الى افشاء الأسرار وخاصة « الخطأ السرى » لخروتشوف ففقد راكوسى لمصادقته السياسية وبدلا من الاستعانة ببعض التعديليين لتحسين الموقف كثفت الزعماء المجرىون حملاتهم ضد أعضاء الحزب المتمردى وبادروا بنصب مقاصل جديدة ضد المفكرين النقاد . وشجع ما أصاب الحزب الحاكم من ضعف المعارضين على تكوين اتحاد يضم معظم المفكرين والطلاب وممثلى طبقة عمال المصانع . وفى صيف ١٩٥٦ تقريبا عم الساحسة السياسية والثقافية مناظرات حامية حول قضايا جوهرية مثل قضية تاريخ الحزب الشيوعى ، حرية الصحافة ، ورد اعتبار ضحايا الارهاب الستالينى فى المجر .

وكانت حلقة بيتوفى Petofi Circle دليلا على صعود الحياة المدنية وعقدت فيها المناقشات والمناظرات التى تتعلق بقضايا ديمقراطية الحياة العامة وطرق التغلب على التراث الستالينى . واستطاع مؤيدو ناجى أن يطالبوا بالأفكار التى عبر عنها رئيس الوزراء السابق فى مذكرة تخاطب قيادة الحزب وذلك فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٦ . وتتطلب الدفع بتطوير الاشتراكية — حسبما رأى ناجى — ابتكار منهج جديد للماركسية ، وبدلا من تقديسها نادى بتعديلها تبعاً للحقائق المتغيرة ، وفوق ذلك فإن الاشتراكية كما يدعى ناجى مهددة بسبب اهتراء القوى السياسية الحاكمة والتى اتبعت النهج السوفيتى حيث نجد الديمقراطيات الشعبية قد « تبدلت على نحو بين ديكتاتورية الحزب والتى لا تعتمد على عضوية الحزب ولكن على ديكتاتورية الفرد وعلى تحويل أجهزة الحزب وبالتالي أعضاء الحزب لمجرد أدوات تحريكها. هذه الديكتاتورية » (٣٣) . ولا يملك هذا النظام السلطوى — والحديث لناجى — أى شئ يفعله بصدد الاشتراكية الانسانية : « ان الحكم لا تشوبه أى روح اشتراكية أو ديمقراطية ولكن الذى يشوبه هو روح بوناپرتية Bonapartist لديكتاتورية الأقلية . وأهدافه لا تحددها الماركسية ولا دراسات الاشتراكية العلمية ولكن تحددها وجهات النظر الأوتوقراطية والتى ناضلوا للحفاظ عليها بأى ثمن وبأية وسيلة » (٣٣) .

ويمكن ان نحدد من خلال وجهة نظر ناجى كل الأصول الفكرية لأسطورة التعديلية ، فمن ناحية ندد ناجى بسيطرة الحزب القابضة على السلطة باعتبارها غير شرعية وضد الديمقراطية بكافة المقاييس ومن ناحية أخرى تمسك ناجى بتفسير « الاشتراكية العلمية » على انها مذهب للتحرر الانسانى ، ولم يذكر السبب الرئيسى للظروف القمعية التى أثرت فى ناجى وهو الادعاء الأيديولوجى بأن احتكار المعرفة والمعصومية من الخطأ هما سمتا الحتمية التاريخية الماركسية . ومثل هذه الجذور الفكرية لتحدى ناجى « للديكتاتورية البوناپرتية ، والفردية » باسم التحول الانسانى للاشتراكية فارتكزت على « نظام بنىوى وشرعى خاص بالديمقراطيات الشعبية بهيئته التشريعية وحكومته وديمقراطية الحياة الاجتماعية والرسمية بأكملها » (٣٤) .

ووصلت هذه القضايا فى المناقشات التى تمت داخل حلقة بيتوفى الى مدى أبعد من مجرد التطوير بل لدى تجاوز أهداف ناجى المعلنة ، وشعر الكتاب والصحفيون المشاركون فى المناقشات بأنهم تحرروا من الحصار والقيود التى فرضها المنطق البلشفى على أفكارهم ، وادركوا،

ان الخطأ فى الأيديولوجية والتي بررت وحدانية السلطة وقصرها على عصابة من البروقراطيين المتعطشين لسفك الدماء . ومثالا على ذلك هو تيبوردري Tibor Dery الكاتب الذى عمل طويلا كمناضل نشط فى الحركة الثورية اذ زفع صوته فى واحدة من المناقشات مجاهراً برفضه للنظام الذ مجد جرائم ستالين قائلاً :

« طالما اننا نوجه نقدنا لشخص بدلا من معرفة مكن الخطأ سواء فى النظام نفسه أو فى الأيديولوجيا فلن نحرز أى تقدم واننى واثق باننا سنتخلص من الزعماء الحاليين وكل ما اخشاه ان نطاردهم ويطاردونا وكلاتا فى هذه الحالة من الضعف . . يجب ان نبحث فى نظامنا الاشتراكى عن الأخطاء التى سمحت لزعمائنا بإساءة استخدام سلطتهم بل وتركنا أيضا عاجزين عن التعامل مع بعضنا البعض بالشكل الانسانى الذى نستحق . وان الأخطاء فى القضية لهى أخطاء بنائية قلصت حقوق الأفراد لحد كبير وزادت فى نفس الوقت من أعبائه » (٣٥) .

وأعلن المفكرون البولنديون أن الحرية مبدأ عالمى ولن تقف عند الحدود التى وضعتها الطبقة الحاكمة الانانية .

وان عقيدة الحزب التى تفسر كل المفاهيم الأخلاقية فى ضوء مصالح الطبقة العاملة كما رسمها الشيوعيون الشيوعيون قد طرحت جانبا باعتبارها دجلا ، وبدا أن فكر الحزب (Partiinost) الذى ظل لوقت طويل بمنأى عن أى شكل من أشكال استعباد العقل وحظر ملكة الابداع . وعبر جيولاهاى Gyula Lahay وهو أيضا كاتب ستالينى سابق - بما لا لبس فيه - عن اشتياق الانتلجنسيا لحرية ثقافية وسياسية كاملة وذلك حين قال :

« حسنا » ، دعنا نحصل عليها بسرعة . نحن نتحدث عن الحرية الكاملة للأدب . . . فالكاتب مثله مثل أى شخص آخر يريد ان يقول الحقيقة دون قيود ، ان ينقد أى شخص وأى شيء ، ان يحزن ، ان يحب ، ان يفكر حتى الموت . . ان يؤمن بوحداية الاله أو لا يؤمن ، ان يشك فى صحة الاحصائيات ، ان يفكر بطريقة لا ماركسية ، ان يكره زعماء بعينهم ، ان يعتبر القانون هو حياة الشعب » (٣٥) .

وتعطشت حركة الاصلاح لدمقرطة بنية الحزب واطلاق العنان للإصلاحات الاقتصادية وتخلص سريع من المركزية ، وتحسر سياسى وحرية ثقافية وشخصية .

ان تزايد تحدى المصلحين جعلت الستالينيين فى القيادة ينتابهم الفزع والحيرة بصدد الخط السوفيتى الجديد ولم يجدوا طريقة للتعامل معه ، تحول راكوسى واتباعه لديناميكيات سياسية ، ونظروا للمفكرين النقاد على أنهم عناصر مخزية تريد استبدال النظام القائم بالراسمالية . وفى مارس ١٩٥٦ وتحت ضغط من القاعدة الجماهيرية اضطر راكوسى الى أن يوافق على رد اعتبار لاسلو راجيك . ولأن راكوسى هو الرأس المدبر للمحاكمات الصورية لم يتحرك على أى مستوى سياسى لتقديم التعويض التاريخى . وفى صيف ١٩٥٦ وعندما أقدم راكوسى يائسا على اطلاق حملة جديدة ضد « المؤامرة التى يقودها » امرى ناجى « المزعومة قرر السوفيت ان يستغلوا نفوذهم وأن يستبدلوا الطاغية الستالينى الذى أصبح فى موقف يحسد عليه .

ان استبدال راكوسى زاد الأمور سوءا ، اذ تولى الحكم ايرنو جيرو الرجل الثانى فى قيادة الحزب اذ عجز عن المطالبة بممارسات سياسية نظيفة فى وقت تصفية الحسابات الوحشية . وبحثا عن طريقة لتوسيع وتقوية سلطته بالتعاون مع عدد من الشيوعيين الذين تمت محاكمتهم وسجنهم خلال الارهاب الستالينى قام جيرو برد اعتبار جانوس كادار الذى كان عضوا بالمكتب السياسى ووزيرا للشئون الداخلية كما تخلى عن أسلوبه السابق وحاول مد أواصرا الصداقة مع يوجوسلافيا . ولقد كانت هذه لمحات متفرقة عن طبيعة هذه الجماعة السياسية التى فقدت كل شرعية لها . وكان تولى جيرو للحكم يعد تحديا للشعب المجرى بأسره ، رغم ما قام به جيرو من اجراءات تصالحية وفشل الحزب الشيوعى فى القيام برد فعل قوى ضد الاضطراب الذى بلغ أقصى مدى له .

لقد تحول الحزب فعلا الى فيلق سياسى اقتصرت وظيفته على نقل وتنفيذ قرارات الحكام المتضاربة . ان فريق جيرو أهدروا الارادة الشخصية وألقوا اللوم على الديكتاتورية التى يحميها البوليس السياسى الذى لم يثبت أمام الغضب الشعبى المستعر كما فشلت البيروقراطية الشيوعية فى التصدى للمقاومة الجماهيرية العظيمة .

لقد أصبحت الراكوسية قائمة دون راكوسى منذ أن اقتصر عمل جيرو على القاء الخطب الساخطة على ناجى وفريقه الذين ترددوا فى اعلان تخليهم عن ولائهم للحزب ولم يتخلصوا سوى من اسطورة ستالين وابقوا على رؤيتهم الرومانتيكية للحزب باعتباره مخلصا من التاريخ للقيام بدور تحررى حتمى . وفى اكتوبر ١٩٥٦ عاد ناجى لوضعه السابق فى الحزب الا أن جيرو رفض تعيينه رئيسا للوزراء .

وفي ٢٣ أكتوبر خرج مئات الآلاف من المواطنين الى شوارع بودابست مطالبين بتأسيس دولة القانون وبمعاقبة راكوسي وعصايته وبإعادة تعيين امرى ناجى كرئيس للوزراء ، ويتسريح البوليس السياسى ويسحب القوات السوفيتية من قواعدها بالمجر . وقد اكتسبت هذه الحركة الثورية شخصية سياسية وقومية وتحولت لعصيان شعبى سبب الفزع لجيرو الذى أسرع بطلب العون من روسيا وأعلن حالة الطوارئ ووجه خطابا عنيفا وصف فيه التمرد بأنه « مضاد للثورة » ، وأمر البوليس باطلاق الرصاص على المظاهرات السلمية ولهذا السبب قررت اللجنة المركزية عزله ليحل محله ناجى . وانتخبت قيادة جديدة للحزب ضمت كلا من ناجى وكادار ، وبمجرد أن أدى ناجى اليمين الدستورية أعلن عن برنامج من أجل الديمقراطية . ورغم تدخل الاتحاد السوفيتى القصر فى ٢٤ أكتوبر فان القوات السوفيتية عملت بأسلوب « انتظر لتري » . وأكد السفير السوفيتى فى المجر يورى أندروبوف Yury Andropov لناجى أن حكومته لن تتدخل فى الشؤون الداخلية لبلده . وما بدا على أنه مجرد جمهرة تحول الى ثورة شعبية . واكتشف امرى ناجى الشيوعى المحافظ ، ان الشعب يريد التخلي كلية عن النظام الشيوعى وإقامة نظام تعددى حقيقى . وتشكلت مجالس ثورية فى المصانع كشكل من أشكال الديمقراطية . واكتسب ناجى جماهيرية كبيرة عندما قام باستشعار نبض الحركات التاريخية فى بلده وتبنى المطالب الشعبى الخاصة بالتخلص من النظام الستالينى . ان العمل الثورى فى الداخل قويت شوكتة بعد صحوه ناجى وجماعته وما مارسوه من ضغوط وبعد اكتشاف ازدواجية موقف الاتحاد السوفيتى بصدد التفريات التى تتم فى المجر . ومن ثم ، لا نستطيع أن نقول ان ناجى بدأ كمصلح وانتهى كثورى ولكن تجاوز فيما بعد منطق احداث التغيير فى اطار الحزب الشيوعى ولحق بزخم الحركة المضادة للنظام التى اجتاحت كل الصروح الحصينة للاشتراكية البيروقراطية .

وبتحريض من الحركة الجماهيرية المتدفقة ، قرر ناجى أن يوسع قاعدة حكومته وذلك بقبول مبدأ التعددية السياسية . ومع حلول نهاية أكتوبر ١٩٥٦ كفت المجر عن الأخذ بالديمقراطيات الشعبية ، وتحركت سريما نحو نظام تعددى . لقد قرر الاتحاد السوفيتى التعامل مع هذا التحدى الذى قام به احد تابعيه السابقين فخرج باعلان ٣٠ أكتوبر الذى أقر فيه بالتزامه الشديد بمبادئ المساواة الكاملة فى العلاقات التى تربط موسكو بالدول التى اصطلح على تسميتها العائلة الاشتراكية وعندما أقر السوفيون بالانتهاكات السابقة لهذه المبادئ وعد الكرملين

ياحترام السيادة القومية للأقطار الشرق أوروبية . لقد كان لهذه الوعود السوفيتية اثر مهديء على الشعب . فإساءة ناجي تقدير مدى تصميم موسكو على حفظ النظام الشيوعى فى المجر فبعد عدة أيام أثبتت روسيا عدم تهاونها مع هذا النوع من الحكومات وذلك عندما تدخلت القوات السوفيتية تدخلا مباشرا للقضاء على حكومة ناجي الشرعية ولسحق حركة المقاومة المجرية .

وجاء التدخل السوفيتى الثانى فى المجر بسبب قرار ناجي بتدشين النظام المتعدد الأحزاب وبتكوين « مجلس عسكرى ثورى » لقيادة القوات المسلحة المجرية ، فاستشعر الاتحاد السوفيتى الخطر يهدد وجوده فى المجر وادركوا أن انهيار الحزب الشيوعى المجرى أصبح وشيكا فاتخذ الكرملين قرار التدخل المباشر واعادة النظام السلطوى البيروقراطى ، لقد عجل القرار الذى اتخذه ناجي فى ٣١ أكتوبر بإجراء مفاوضات لانسحاب المجر من حلف وارسو ، وقراره فى أول نوفمبر بإعلان المجر دولة محايدة بهذا التدخل المباشر اذ أدرك الكرملين ان المجر قد بدأت مسيرة قد تنتقل عدواها لدول أخرى فتتقضى على تبعية هذه الدول للاتحاد السوفينى اذ قامت الثورة المجرية بالتخلص داخليا وخارجيا من الأطر المؤسسية لنظام الديمقراطيات الشعبية . ونظرا للفضب الناجم عن هذا التحدى غير المسبوق ونظرا لضغوط المتشددى داخل حركة الأممية الشيوعية وخاصة ماوتسى تونج فى الصين ، قررت القيادة السوفيتية ان تضع نهاية لتجربة التعددية المجرية . واختفى جانوس كادار من بودابست ليعلن من احدى المحطات الاناعية السوفيتية ولادة « حكومة العمال والفلاحين الثورية » وفى ٤ نوفمبر هاجمت القوات السوفينية المواقع والوحدات العسكرية الموالية لحكومة ناجي . ولجا ناجي وانصاره الى السفارة اليوجوسلافية ، واضطروا بعد أن أعطاهم كادار وعدا بعدم اتخاذاى اجراءات انتقامية ضدهم لقبول اللجوء السباسبى الذى عرض عليهم من قبل الحكومة الرومانية ، وهناك — فى رومانيا — خضع جميع زعماء الحكومة لاستجوابات مستمرة من قبل «وظفى البوليس السباسبى السوفيتى بمساعدته موظفى الحزب الرومانى والمتحدثين باسم المجر .

وفى يونيو ١٩٥٨ تمت محاكمة صورية لناجي وانصاره فى بودابست وحكم عليهم جميعا بالاعدام شنقا .

ان محاولة ناجي لتدعيم الاشتراكية بالديمقراطية كان لها اثر عظيم ولا نبالغ لو قلنا ان هذا الاصلاح الراديكالى قد تجاوز حدود

المنطق الذى تطرحه الاممية الشيوعية الذى تبناه تيتو فى يوجوسلافيا الذى لم يسمح بالانشقاق انكامل عن الشيوعية ولم يطبق النظام التعددى فى بلده رغم النقد القاسى الذى وجهه لأساليب ستالين الديكتاتورية . ان قضية الشيوعيين القوميين امثال تيتو وجوميلكا كانت دفاعا عن ذاتيتهم القومية والاحتفاظ — فى حالة يوجوسلافيا — بهامش واسع نسبيا من الحرية فى مجال السياسة الخارجية . ان الشيوعية القومية — كما كان يقول ميلوفان جيلاس — ظلت دائما شيوعية رغم أنها أقل استبدادية (٣٧) . وأصبح واضحا لناجى أن ديمقراطية النظام الحاكم تتطلب انهاء الادعاء غير الشرعى للحزب الشيوعى بحقه فى احتكار السلطة .

ان مشكلة امرى ناجى كانت فى تمزقه بين ولائه للشيوعية والقيم الديمقراطية وكذلك فشله فى ادراك مدى ما اتسم به السلوك السوفيتى من استبدادية على الصعيد الدولى ووضع ثقته فى زعمائه وخدعته ووعودهم . وعلى اية حال لقد كان ناجى زعيما له قيم اخلاقية نبيلة جعلته يلتزم قدر الامكان بوعوده للأمة المجرية الا انه أجبر مثل جوميلكا على تقليص الحركة الثورية ومناورتها ثم خنقها فى النهاية ، لقد قاوم الاجتياح فى المجر منطق الاستسلام للأمر الأجنبى بعد قرار ناجى بمنصرة الضحايا لا الجلادين .

والدرس العظيم المستفاد من الثورة الديمقراطية المجرية أن الحركة الجماهيرية التى استلهمت من مثاليات انسانية كان فى مقدورها القضاء على الطغيان الحقيقى والقيام باختراق حقيقى لعالم التوتاليتارية الخانق ، وانهاء الارث الذى تركته معاهدة يالطا فى أول عشرة أيام من الاجتياح وعبر فرانس فير Ferenc Feher وأجنس هيلر Agnes Heller عن ذلك فقالا :

« لأننا نعيش فى عالم تتعاون فيه القوى العظمى بشكل مريب ، وفيه تخون القضايا الراديكالية أهدافها الأصيلة ، وفيه تعاني حركات التحرر من أنواع شتى من طغيان الاستبدادية الأصولية فان شهر أكتوبر المجرى ، [لأنه ديمقراطى راديكالى ومستقل ونادى «بجمهورية الجديدة» الاشتراكية] يعد عملا شريفا وواعدا ، لأنه جعل الأمة تشعر بثقة معنوية واجتماعية كانت فى أشد الحاجة لها » (٣٨) .

ان هذه الثورة التى تحطمت آمالها فى التحرر والعنق السياسى استمرت لعقود طويلة مثالا على روح التضامن المجرية .

ان مبدأ السياسة الواقعية Real Politik لم يستطع هزيمة البحث القومى عن الحقيقة التاريخية رغم المعاهدة التى فرضها كادار

الذى نجح فى إقامة نظام من انجح الأنظمة فى دول المعسكر الشرقي .
ان الاكاذيب السمجة التى بنى على أساسها حكم كادار الذى زعم
وجود « مؤامرة مضادة للثورة » بتحريض ناجى ، وأصدقائه لم تسفر
إلا عن مزيد من التمرد ، وبدلا من دفن ذكرى اللحظات البطولية للعصيان
أثارت دعائية كادار الحنين لتجربة ناجى فى التعددية (وبظرت اليها
الجمهير كنموذج) وتفشى بين المواطنين اعجاب كبير بالسياسيين
الذين فضلوا التضحية بأنفسهم عن التعاون مع المحتل . وأصبحت
تضحية ناجى مثلا تحذو سياسات ما بعد الاشتراكية حذوه وساعد
دحض ناجى لعالم البيروقراطية الشيوعية المخادع مع تأييده لحق المجتمع
فى الحلم الذاتى فى مقاطعة الطريقة الأبوية والبلشفية المستبدة فى ادراك
شرعية التمردات المدنية ضد الوضع الارهابى الراهن ، ومن ثم دشن
ناجى تقليد المعارضة السياسية الذى ارتكز على اللا عنف ، والفخر
المدنى ، والمسئولية الأخلاقية . ان اشارة ناجى لحدودية التحدى
الخرتشوفى للستالينية ، واعتقاده فى امكانية قلب النظام الجائر القائم
يعد نبؤا لأجيال المستقبل من المنشقين فى الكتلة السوفيتية بكاملها ،
وهكذا تعلم العالم الشيوعى كله من تجربة الثورة المجرية . وفى ذلك
قال فير وهيلر :

**« لقد كان للثورة المجرية السبق فى مهاجمة النظام العالمى المستبد
الذى بدعه هؤلاء الذين وقعوا اتفاقيتى يالطا وپوتسدام Potsdam (٣٩) .
انها الثورة المجرية التى كانت درسا نتعلم منه ان الحكم الشمولى يمكن
ان يتداعى من الداخل وهو عكس ما اعتقده الناس لأمد طويل » (٤٠) .**

وعلى عكس ناجى الذى آمن بسيادة الشعب ، فضل جانوس كادار
ان يذعن للمنطق الامبريالى ويطيع أوامر خروتشوف . لقد كره الشعب
المجرى كادار كما لم يكره زعيما من قبل ، اذ تم فى عهده اعدام ناجى
ورفاقه فى يونيو ١٩٥٨ بتواطؤ منه . وحاول كادار بعد ان خفف السوفيت
أنفسهم من توجههم المتشدد واذعان خروتشوف « لتعديلية » ماو أن
يهدىء الشعب الثائر لناجى ورفاقه ، وفى نفس الوقت أعدم واعتقل
عشرات الآلاف من أبناء الشعب كما نفى آخرون اجباريا .

وتسببت المذبحة التى دبرها كادار والمتعاونون مع المحتل وما تبعها
من عواقب فى استنزاف وتصفية الانتلجنسيا فى المجر ومنهم جورج
لوكاس الفيلسوف المجرى الماركسى الذى تولى منصب وزير الثقافة
فى أول حكومة ثورية لناجى وظل سنوات عديدة عاجزا عن نشر أعماله
واتهمه ما جورو الحزب بأنه « تعديلى خطر » . أما الكتاب المناضلون

الذين اشتركوا في دائرة بيتوفى فقد تركوا وطنهم وهاجروا وبعضهم اعتقل .

وبعد القضاء على الثورة المجرية مع حلول عام ١٩٥٦ ظلت مناطق النفوذ التي صدقت عليها اتفاقيات نهاية الحرب العالمية الثانية كما هي ، كما استعاد الاتحاد السوفيتى دوره كحارس للأرثوذكسية داخل الكتلة الشرقية وتؤكد من أن أى بدع مماثلة لما فعله ناجى لن يكون له أدنى تأثير على البلدان التابعة . وفى وثائق مؤتمر الأممية الشيوعية الذى تم فى موسكو فى نوفمبر ١٩٥٧ ، وصفت التعديلية والشيوعية القومية بأنها انحراف عن الماركسية اللينينية . أن ما نشر فى عام ١٩٥٨ عن برنامج الحلف الشيوعى اليوجوسلافى اعطى الفرصة للدوجماتيين أمثال جورجيو دجى برومانيا والبرخت Ulbricht بالمانبا الديمقراطية لتجديد هجماتهم على تبتو والتيتوية . وتؤكد السوفيت من أن هيمنتهم الأيدلوجية والعسكرية ستصمد فى وجه أى دخلاء .

لقد كانت موسكو مستعدة لتحمل ما تلاقيه من احتقار وازدراء على الصعيد العالمى كى تحافظ على وحدة الكتلة ضد أى محاولة شيوعية قومية . لقد سحب تيتو أيضا تأييده لأمري ناجى ، بسبب الضغط السوفيتى المتواصل . ولم يشأ الزعماء لى يوجوسلافيا أن يجابهوا العزلة مرة أخرى ولذلك اذعنوا للزعيم السوفيتى عن الخطر المضاد للثورة فى المجر واعتبروا حكومة ناجى « ابتسار » وقرروا فى نهاية الأمر أن يتولى كادار للحكم .

وكشفت الثورة المجرية أن الخروتشوفية Khrushchevism هى فى واقع الأمر استراتيجية للحد من اجراء تعديلات فى قمة الحزب وبرهنت بما لا لاجس فيه على الطبيعة الامبريالية للاتحاد السوفيتى وهيمنته التامة على دول الكتلة الشرقية ، وداخل هذه الامبراطورية السوفيتية لم يسمح خروتشوف بتقدم الحركات الاستقلالية فى جمهوريات مثل البلطيق Baltic ومولدافيا Moldavia أو اكرانيا Ukraine بل استمر فى تطبيق برنامج ستالين عن السوفيائية ولم يقبل الغاء وعلى الصعيد الدولى كان قمع الثورة المجرية دليلا على هييوقراطية القيادة السوفيتية فى ادعائها التخلّى عن الطرائق الستالينية فى تعاملها مع البلدان التابعة ، ووفق حكام الولايات الشيوعية الأخرى لردع الثورة والحكم الذى صدر ضد ناجى وأنصاره عام ١٩٨٥ ، بل أن جوملكا الذى عانى أكثر من غيره من الهيمنة السوفيتية وصف تدخل روسيا فى المجر بأنه « التصرف الصحيح والضرورى » (٤١) . وطبقت

السياسية الجديدة ، وهى تضيق الخناق الأيديولوجى ، على كل بلدان أوروبا الشرقية ، وعادت القوى الستالينية تنظم نفسها بحيث تتخلص من معارضيها الليبراليين . وفى ألمانيا الشرقية ، كمثال ، أجبر الفيلسوف الماركسى إيرنست بلوخ Ernst Bloch على الهجرة بعد أن شنت السلطة حملة شعواء ضده . وقبض على فولفجانج هاريتش Wolfgang Harich أستاذ الماركسية الشاب الذى وضع برنامجا لتحويل بلده للمسار الديمقراطي . وأكدت صحف الحزب على ضرورة التصدى « للأيديولوجية البرجوازية والتعديلية » . وهكذا ازداد نفور مفكرى شرق أوروبا يوما بعد يوم من هذه السلطة الدوجمائية وعبر الشاعر جيرارد زويرنز Gerhard Zwerenz عن ذلك قائلا :

ان الأيام تمر كثيرة

فمن الخوف

صمت الكتاب

وفى الحصار

ندوات النقّاد

والأدب المنشور

كفر به الجمهور

ولكنهم يدفعون له الأجور (٤٢) .

وفى تشيكوسلوفاكيا حيث كان الاقتصاد أكثر انتعاشا عنه فى دول الكتلة الشرقية الأخرى ، طمأنت هزيمة الثورة المجرية الستالينيين الجدد برئاسة حليفه جوتولد ، انتونين نوفتنى الذى اعتقد ان سماح الاتحاد السوفيتى بمزيد من التحرر لن يضر . وفى عام ١٩٥٨ واتثناء الحملة المضادة للتعديلية وبعد عامين من حل الكمنفورم رسميا تأسست جريدة دولية تعبر عن وجهات نظر مشتركة لحركة العالمية الشيوعية وذلك فى مدينة براغ واتخذت اسم قضايا السلام والأشترابية Problems of Peace and Socialism وهى نفس الجريدة التى اتخذت اسم نشرة الماركسية العالمية World Marxist Review .

وبعد عام ١٩٦١ تبنى الشيوعيون المجرىون استراتيجية داخلية أكثر ديمقراطية ، ولخلق حد أدنى من اجماع الرأى القومى قاطع كادار الشعار الستالينى « من لا يكن معنا فهو ضلنا » واستبدل به آخر أقل استبدادية وهو « من ليس ضدنا فهو معنا » . وبعد المؤتمر الثامن للشيوعيين المجرىين فى نوفمبر ١٩٦٢ ، أعلن كادار سياسة التصالح القومى وتبنى استراتيجية اقتصادية تهدف الى رفع المستويات المعيشية

للجماهير وتشجيع الملكية الخاصة المحدودة ، والعمل الحر الصغير وبارك خروتشوف استراتيجية المهادنة التي اتبعها كادار والتي عرفت باسم « اشتراكية التجانس » . وفي مارس ١٩٦٣ أصدر عفوا عاما وأطلق سراح آلاف من المعتقلين السياسيين المجريين . وفي مقابل مساحة الحرية المحدودة طالب النظام رعاياه بالكف عن توجيه أى نقد للاتحاد السوفيتي وبالتغاضي عن شهادة ميلاده التي وقعت بالدم . وأبدى الحزب استعدادا للتعاون مع كل الأنكياء الذين لا يتساءلون عن الشرعية السياسية (٤٣) .

✧ محاولات الاستقلال : معاداة التبعية الستالينية في رومانيا واليانا :

في رومانيا ، خاصة بعد قمع الثورة المجرية شددت القيادة الستالينية قبضتها على الثنئون الداخلية ، وتخلص جورجيرو - دجى من العصبية الموالية لخروتشوف التي حاولت ان تطيح به ، واهتم بشدة بالتخلص من عضوين بالمكتب السياسى وهما اسويف تشيزنفتش Isoif Chisinevech المنظر الرئيسى للحقبة الستالينية في رومانيا وميرون قنستانتينسكو Miron Constantinescu الشيوعى الماركسى الذى أبدى ميلا نحو التعديلية . ورغم انهما لا يتمتعان بشعبية كبيرة الا أن جورجيرو أصر على أن يفضح دورهما فى ارهاب أوائل الخمسينات باعتبارهما أحد الدلائل على تورطهم فى أنشطة معادية للحزب . وكان خروتشوف فى هذه اللحظة مشغولا جدا فى صراعه ضد مناوئيه الستالينيين فى الكرملين حتى انه عجز عن مد اتياعه الرومانيين بأى دعم . وفى عام ١٩٥٨ حدثت مذبحة ضخمة للانثجنسيا فى الحزب وطرد عشرات الآلاف من الحزب الشيوعى وبعدها سمي رسميا حزب العمال الروماني Romanian Worker's Party وفى يونيو ١٩٥٨ اسفرت المفاوضات السرية بين جورجيرو دجى وخروتشوف ، عن قرار الكرملين بسحب قواته من رومانيا ، وكان ذلك يعد دليلا على ثقة الاتحاد السوفيتى المطلقة وانه مجدودة فى الرومانيين الأرثوذكس وفى قدرتهم على حفظ النظام واستقراره ، وكان فى سحب القوات السوفيتية من رومانيا ما أقتنع الغرب بأن التدخل فى المجر كان مجرد حادثة وأن السوفيت لم يكن لديهم النية لاستمرار سياستهم الامبريالية تجاه الاقطار التابعة السابقة . وفيما بعد ثبت أن الشيوعيين الرومانيين برئاسة جورجيرو دجى قد خدعوا خروتشوف ، إذ كان هدفهم هو ضمان اتساع هامش استقلالهم القومى وعم خضوعهم لأى انذارات وذلك لمزيد من النكوص عن الستالينية . وفى الحقيقة كانت رومانيا واليانا أكثر الدول الاشتراكية التي تعرضت للقمع السوفيتى .

ولم يجرؤ أحد في رومانيا على تحدى سلطة جورجيو ، حيث يتعرض كل من يجرؤ على توجيه تهمة الاشتراك في مفسد الستالينية للتصفية الجسدية . لقد ارتقت سياسة جورجيو - دجى لأعلى مستويات الستالينية ، فقد فضل التصنيع الكبير وشن حملات لا هوادة فيها من أجل احلال التعاونيات . وفي ربيع عام ١٩٦٢ أصبحت الزراعة الرومانية تعاونية . وأعلن جورجيو - دجى انتصار الاشتراكية الباهر وبداية مرحلة جديدة وهى « اكتمال البنية الاشتراكية » ، وبدأ لجورجيو أن حملة خروتشوف الثانية المعادية للستالينية في المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى فى أكتوبر ١٩٦١ ونقل رفات ستالين من ضريح لينين Lenin's Mausoleum خطأ لا يغتفر .

وكزعيم ستالينى متمرس استاء جورجى من سياسات الزعماء السوفيتيين الغربية إذ رأى أن المزيد من الليبرالية لن يسفر الا عن تقويض دعائم النظام القائم وتهديد أنظمتهم .

لقد كان جورجيو - دجى مثل خوجة بالبانيا ونوفتنى بتشيكوسلوفا والبرخت فى المانيا الشرقية يتفق مع ماوتسى تونج فى شعوره المفرط بقوة وأهمية معجزات ستالين .

وفى عام ١٩٦٠ زار أنور خوجة زعيم الحزب الشيوعى الألبانى موسكو لحضور مؤتمر الأممية الشيوعية الثانى وفيه هاجم خروتشوف لدوره المحرض الذى يهدد الاستقرار فى عالم الشيوعية وقد كان لهذا المؤتمر آثار مفاجئة . وبعد عام من هذا المؤتمر وجه الشيوعيون الصينيون نفس الهجوم على خروتشوف ومنحوا خوجة مساعدة اقتصادية . وبعد أن أعلن خروتشوف المقاطعة الاقتصادية لألبانيا ، وأصبح الشيوعيون الألبان بعد المحاولة السوفيتية لاذلالهم وحصارهم أكثر نقاد « التعديلية الحديثة » ضراوة واتهموا خروتشوف بأنه يحفر مقبرة الأممية الشيوعية . وامتنعت البانيا عن المشاركة فى أنشطة الكتلة الشرقية وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع موسكو والدول التابعة لها (٤٤) .

واسفرت المقاومة المحدودة للستالينية والتي تمت السيطرة عليها تماما عن شن هجوم جديد على المنافسين السابقين لجورجيو مثل عصابة (بوكرا - لوكا) وكان قد تخلص منهم عام ١٩٥٢ . وفى عام ١٩٥٧ اعادة الكرة فتخلص من عصابة تشيزنفتش - قسطنطينكو (وتم شنق عضو المكتب السياسى السابق لوكريتيو بتراتشنسكو Lucretiu Patrascau فى عام ١٩٥٤ واستمر فى تشويه سمعته باعتباره خائناً للطبقة العاملة . وفى نفس الوقت أكد جورجيو - دجى على

عصبوية ائتلافية الحزب والحكومة . واستبدل الحزبين المجريين واليهود برومانيين عرقيين قدموا فروض الولاء لجورجيو - دجى لصعودهم السريع والمفاجيء للسلطة . وفى هذا الوقت ظهر نيقولاى شوسسكو Nicolae Ceausescu أصغر الأعضاء فى المكتب السياسى واعتبرَ زينا للزعيم .

وبادر جورجيو - دجى بالتقرب ثانية من تيتو ليتمكن من مواجهة الهجوم السوفيتى وهتف للمطالبة بعدم التدخل السوفيتى فى الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى . وعندما أراد خروتشوف أن يدفع فى اتجاه تكوين وحدة تكاملية عابرة للقارات داخل مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (CMEA) ، عارض الرومانيون بعنف هذه الاقتراحات وقاطعوا اجتماعات القمة بالكتلة الشرقية ، ولم يعد امام جورجيو - دجى وعصبته وسيلة للدفاع عن هيمنتهم السياسية سوى تأمين استقلال البلد الاقتصادى ، ولأنهم تلاميذ المدرسة الستالينية فقد آمنوا بأن الطريق الى الاستقلال الاقتصادى هو التصنيع السريع مع التأكيد على أهمية الصناعة الثقيلة ، والاكتفاء الاقتصادى لرومانيا لأن الطريقة الوحيدة للافلات من الضغط الأجنبى - ويعنى هنا الضغط الروسى - لقد نشرت الصحف الرومانية فى عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤ عددا من المقالات المعادية للسوفيتيين وانتقدت الخط السوفيتية لفرض الاندماج على اقتصاديات بلدان دول شرق أوربا . وفى ذات الوقت ونظراً لتدهور نفوذ خروتشوف فى الكرملين اتخذ جورجيو - دجى موقفاً محايداً من الصراع الواقع بين الحزب الشيوعى الروسى والصينى . لقد انتقد جورجيو - دجى خطة خروتشوف لفرض الدمج لأنه أدرك أن رومانيا ستدخل ضمن الترتيبات الشرق أوروبية الجديدة وستخضع للاقطار الأكثر تقدماً مثل المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا . ولعبت العداوات الشخصية بين جورجيو - دجى من ناحية والبريخت ونوفتنى دوراً مهماً فى تفجر الصراع .

وفى صيف ١٩٦٣ نشرت الصحافة الرومانية وثائق عن طرفيه الصراع الصينى السوفيتى وعن «الخط العام لحركة الأهمية الشيوعية»، وهنا نستطيع أن ندعى أن جورجيو الذى لم يدخل ضمن عصبة ماو الثورية استغل الوقيعة بين عملاقى العالم الشيوعى لخلق منطقة نفوذ خاصة به ورصد ج ف براون J. F. Brown ذلك قائلاً :

« لقد فهم جورجى الداهية دلالات النزاع الصينى - السوفيتى Sino-Soviet حول الاقطار الشرق أوروبية التابعة . وراى أنهم

يستطيعون الآن فقط مناورة الكرملين • وفى الوقت الذى كان فيه مستعدا لأخذ جانب السوفيت ، لم يكن لديه مانع فى أن يصبح ماويا Maoist ، كوسيلة للحصول على تنازلات الاتحاد السوفيتى « (٤٥) •

وفى الواقع فان جورجيو - دجى تعاطف مع دفاع ماو العنيد عن التراث الستالينى • وفهم جورجيو مثله مثل كل من عاصر زمن الارهاب أن حملة خروتشوف المترهلة ضد تاليه الفرد لن تسفر سوى عن عزله من قيادة الحزب الشيوعى • واستخدم دجى القومية سلاحه لتقسوية نفوذه ، وتذكر الشيوعيون الرومانيون الذل الذى تذوقوه على يد موسكو فأداروا لها ظهورهم وتعهدوا بالالتزام بالقيم القومية ، ورد اعنبار الرموز الثابتة للانتماء الوطنى وأعيدت كتابة التاريخ وفقا لخط الحزب الجديد ولم تعد الروسية اللغة الأجنبية الإلزامية التى تدرس بالمدارس • وفى ابريل ١٩٦٤ بلغ النزاع السوفيتى الصينى أشده على نحو غير مسبوق فأصدر الحزب الشيوعى الرومانى بيانا يتعلق بالقضية الرئيسية داخل حركة الأممية الشيوعية ، وتأثر هذا البيان باستقلال تيتو وأكد على حق كل حزب شيوعى فى تقرير استراتيجيته الخاصة وانكروا على الكرملين الهيمنة التى يتمتع بها داخل الكتلة الاشتراكية ونادى بعلاقات جديدة فيما بين الأحزاب والبلدان الشيوعية ، على أن يكون قوامها المساواة والاحترام للعادات والمصالح القومية •

ان تحدى رومانيا لهيمنة الاتحاد السوفيتى اكسب جورجيو - دجى جماهيرية عريضة رغم الخط السوفيتى البين الذى تبناه ، وشعر دجى بأنه فى مأمن فأعلن عفوا عاما عن المعتقلين السياسيين ونشرت مخطوطات كارل ماركس Karl Marx التى طال فرض الرقابة عليها وهى المخطوطات التى تنفذ سياسة الامبراطورية الروسية التوسعية تجاه الامارات الدانوبية Danubian فى القرن العشرين • وتم تنظيم جماعات عمل قدمت نقدا راديكاليا لما قام به الاتحاد السوفيتى من سلب ونهب لرومانيا فى الخمسينيات • ان اعادة المطالبة بالقيم القومية خدمت بالطبع مصلحة جورجيو - دجى ومعاونيه فى الائتلاف الشيوعى الذى حاول مناورة الرموز القومية كي ما يفرض هيمنته وسيطرته المطلقة على البلد • وفى نهاية حكم جورجيو - دجى وفى مارس ١٩٦٥ كان على رومانيا أن تختار بين محاكاة تيتو فتسمح بمزيد من المرونة الايدلوجية والانفتاح على الغرب أو ترك الحزب الشيوعى قابضا السلطة فتدعم العداء السلطوى القومى لأى تحرر ، لقد توفى جورجيو دجى فى مكتبه عام ١٩٦٥ ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمجريات الأحداث لو أن جورجيو عاش فترة أطول •

وبعد وفاته اتبع خليفته نيكول شاوشيسكو منهج مناوئة الستالينية لتعزيز سلطته ، الا انه لم يستطع التحكم فى مقدرات السلطة من خلال معارضته للسوفيت منلما فعل جورجى فحاول أن يجعل نفسه زعيما قوميا . ان الصيى الذى كان يعمل صانعا للأحذية لم يتلق تعليما حقيقيا ، لم يثق فى المفكرين ورفض الليبرالية أيا كان شكلها وتأكد من فكرة القومية لخدمة مصلحته وأخذ شاوشيسكو بصلف بالمنهج الستالينى فى مجال الاقتصاد الا أنه سمح خلال السنوات الأولى من حكمه بالنحرر — نسبيا — من القيود الدجماتية المفروضة على الحياة الفكرية فى القطر ، وفيما بعد انشغل فى تعزيز نفوذه وبناء رؤية أصيلة للشيوعية القومية لتتضمن المبادئ الماركسية اللينينية والعرقية ، وآمن شاوشيسكو — كستالين — بالدور المقدر للحزب الشيوعى ودافع عن هيمنته وانفراده بالسلطة . وكان حلمه الكبير اقامة دولة قوية شديدة المركزية ومتسعة عرقيا وأشار بثقة الى « الشعب الموحد العامل الذى يتحدث لغة فريدة من المفردات الشيوعية » . وبالمقارنة بالزعماء الشرق أوريبيين الآخرين تمتع شوشيسكو الى حد ما بوضع مميز ، اذ حكم بلدا تخلو أراضيه من جنود القوات السوفيتية ، وبدلا من استخدام هذه الميزة لدمقرطة النظام السياسى فقد اقام حكما فرديا ديكتاتوريا والذى سيصل فى الثمانينيات الى أقصى درجات اللامعقولية .

بلغاريا : التحالف المخلص

ان الاتجاه البلغارى نحو الخرتشوفية عكس الصراعات التى تفشت بين القيادات السوفيتية . واستمد تودور جيفكوف Todor Zhivkov الزعيم البلغارى الشرعية السياسية من افشائه لأسرار مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين . وفى الواقع خطط جيفكوف فى عام ١٩٥٦ للتخلص من راعى الكمنترن السابق ونصيره قالك تشرفينكوف .

وفى جلسة ابريل ١٩٥٦ الكاملة الأعضاء تم التصديق على أكذوبة جيفكوف باعتباره ممثلا للشيوعية الجديدة . واستمر الصراع بين جيفكوف وعصبة تشرفينكوف حتى المؤتمر الثانى والعشرين فى عام ١٩٦١ عندما وضع خرتشوف الاطار السياسى المعادى للحركة المضادة للستالينية التى اجتاحت الأقطار التابعة . وبعد ازاحة تشرفينكوف من الحزب

استمر الستالينيون في معارضة دعوات جيفكوف من أجل اذابة الجلبـ
الذى اصاب الشئون الداخلية . وفى مؤتمر الحزب الواحد والعشرين
يحيط انتصار جيفكوف على معارضة الستالينيين بهالة من التقديس
وهاجم جيفكوف انتون يوجوف Anton Yegov رئيس الوزراء المشدد
الذى شارك في مذابح الخمسينيات وعزله من منصبه الحزبي والحكومي
ومع ذلك كان جيفكوف نفسه بيروقراطيا شيوعيا ماهرا التزم بالليبرالية
السياسية ولكن دون حماس حقيقى . وفى عام ١٩٦٢ قلد جيفكوف
خروتشوف عندما تحدى المفكرين قبداء بالفنانين الليبراليين السوفيتيين
امثال الشاعر بافجنى يوفتشينكو والمثال ارنست نيزفستنى Ernst
Neizvestny فخطط لمذبحة هائلة للبلغاريين المعادين للستالينية . وتم
نقى كل من انتقد النظام . وابتعدوا عن العاصمة صوفيا واستأنف
البوليس السياسى مطارده لكل من حام حوله أدنى شك ، وأعدمهم
لمعارضتهم للنظام . وعندما تنحى خروتشوف من الحكم فى أكتوبر ١٩٦٤ ،
حاول جيفكوف الفوز بالحظوة لدى القيادة السوفيتية الجديدة وعلى
رأسها ليونيد برجنيف Leonid Brezhnev والسكى كوسيجين
Aleksei Kosygin . وفى ربيع عام ١٩٦٥ دبر الشيوعيون المتمرسون
بالتعاون مع قيادات الجيش للاطاحة بجيفكوف الذى أعلن تأييده غير
المشروط للاتحاد السوفيتى بعد أن نجح فى قمع الانقلاب وجعل من هذا
التبعية مصدرا أساسيا لقوته ، وفيما بعد عندما يكف الاتحاد السوفيتى
دعمه ويفقد مصدر قوته ، سيتمكن الانقلابيون من انكسب السياسى من
الاطاحة به فى نوفمبر ١٩٨٩ .

الخلاصة :

ان الصدمة التى نجمت من الحملات التى شنّها خروتشوف لمعاداة
الستالينية ألقت بظلالها على كل بلدان شرق أوروبا . وأسفرت الفوضى
التي تفشت فيما بين الائتلافات المحلية عن فقدان الحزب لهيئته ولاحت
حركات التحرر فى الأفق خاصة فى بولندا والمجر . وطالما انكشف زيف
التهم التى وجهها الستالينيون لتيتو أصابت المنطقة حمى الشيوعية
القومية . ان انهيار أسطورة ستالين وتحطيم ادعاءات خروتشوف
الخاصة بطرح منهج جديد مبتكر لنظام ثورى شجعت المفكرين
الأرثوذكس على مساءلة النظام القائم وتحديه .

لقد مرت كل بلدان أوروبا الشرقية مع نهاية الخمسينيات وبداية
الستينيات (وبدرجات متفاوتة) بتجربة ازدهار الاتجاهات التعديلية

التي ظهرت في أجرا صورها في بولندا والمجر ، حيث قوض الصرح الستاليني تحت ضغط التيارات الناقدة وانهارت النسق الشيوعية بسبب الآلية السياسية القائمة فنما جنين نظام سياسي تعددي ، إلا أن هذه التيارات الناقدة سحقت من قبل القوات الروسية في نوفمبر ١٩٥٦ . وبعد هزيمة الثورة المجرية ، حاول السوفييتون استعادة تماثل وانساق الكتلة لكن محاولتهم باءت بالفشل ونمت في كل بلدان شرق أوروبا اتجاهات نرفض المركزية ورفضت الأحلاف المحلية الطريقة المهيمنة التي يحضون عليها تحت الحكم الشيوعي .

ومن ناحية أخرى ، جاءت المبادرات في تلك البلدان من الزعماء المحليين ، وأجبروا موسكو على الاذعان لقراراتهم ومنهم الزعيم الشيوعي والتر برخت الذي اقنع الكرملين بأن إزالة سور برلين هي الطريقة الوحيدة لوقف النزيف الديموجرافي في بلده .

وفي المجر فاز كادار باجماع الرأي القومي بسبب فتحه ملف أحداث عام ١٩٥٦ ودوره في رد اعتبار حكومة ناجي الشرعية . لقد كانت مساومة قوامها الأكاذيب وأنصاف الحقائق والأوهام الخاصة بإمكانية إصلاح النظام الشيوعي القائم من الداخل بدلاً من استبداله . ورغم افتقار المجر للاستقلالية في إدارة شئونها الداخلية ، إلا أن اتساع هامش الحرية الفردية والحد من سلطات البوليس السياسي أحدث توازناً ما داخل القطر . واحتفظ الرومانيون بمسافة متساوية بينهم وبين كل من موسكو وبكين والتزموا الحياد فيما يتعلق بالصراع الحاد المتصاعد بين العملاقين الشيوعيين . لقد اتسمت سياسة رومانيا الخارجية بشيء من الاضطراب بينما حافظوا على أدواتهم القمعية سليمة والتصقوا بالتفسير الستاليني للأصولي للبنى الاشتراكية . واستمرت يوجوسلافيا في تبنيها لسياسة عدم الانحياز الخارجية إلا أن تيتو لم يخف دعمه لبرنامج خروتشوف المعادي للماوية .

وعلى الصعيد الداخلي أجريت إصلاحات جديدة في اتجاه الإدارة الذاتية وأسس النقاد الماركسيون صحيفتهم براكسس (٤٦) Praxis . ونادوا من خلالها بطلاق لا رجعة فيه للاشتراكية الجيروقراتية . وانتقدوا تبتو وحلفه الشيوعي بسبب تناقض موقفهم من مقاطعة النموذج الاشتراكي السلطوي — القائم على عبادة الفرد . ان البانيا هي البلد الوحيد الذي استطاع بفضل عزلته وأدواته القمعية أن يقضى على أى شكل من أشكال المعاداة للستالينية .

وعندما تكونت الكتلة نتيجة لاحتلال ستالين الامبريالى لأوربى الشرقية ظهرت دلائل واضحة تتم عن الاعتلال الذى اصابها . وحاول خلفاء خروتشوف احتواء هذه الاتجاهات المتناقضة بتطوير أشكال جديدة من العلاقات فيما بين الدول .

وتحت قيادة برجنيف أصبح التوازن الخاص بالمبادرات السياسية الخارجية بين الاتحاد السوفيتى وأحلافه على رأس أولويات الكرملين الذى حاول اقامة نوع جديد من العلاقات تتمتع بموجبها كل الأقطار بنفس الحقوق ويكون عليها نفس الواجبات . وسمى المفهوم الجديد للوحدة « الدولية الاشتراكية » وهو المفهوم الذى جعل المصالح السوفيتية والشرق اوروبية تتقارب واعتبرت أية محاولة للتشكيك فى طبيعة هذه العلاقات شكلا من أشكال الانحراف عن الخط الأصيل للماركسية اللينينية .

لقد عملت كل الأنظمة القائمة فى دول أوربى الشرقية تحت اسم « الاشتراكية المتطورة » الذى وصفته الدعاية الشيوعية بأنه النظام السياسى المستقر الذى بنى على الاقتصاد الديناميكي واجماع الراى الاجتماعى . وحقيقة الأمر أن الالتفاف حول البرجينيكية قام على الجمود السياسى ونشر اللامبالاة والاستقلالات الجماعية : لأنه كان مشابها للحقبة الستالينية وان كان أقل بشاعة منها .

ولم يعتمد الميثاق الاجتماعى الخاص بالمجتمعات الشيوعية فيما بعد الستالينية على الارهاب فقط ولكن على الاجراءات الوقائية المتبادلة بين الحكام والمحكومين ، فبينما حمى الأول نفسه بدرع من المصالح الاجتماعية تخلق الأخير عن حقه فى التمرد ضد النظام الجائر الجامد ، وعلى أية حال كان هذا العقد الاجتماعى مرفوضا بل وموضعا للشك ، فالحكام لا يتمتعون بشرعية حقيقية بينما أخذ الوضع الاقتصادى فى التدهور ولم يعد يكفل الاستمرارية لهذا الاتفاق فانهار النظام تماما . وازضافة لذلك فان شرعية هذه الانظمة كانت مزيفة لأنها لم تصل للسلطة — باستثناء حكومة يوجوسلافيا — بناء على رغبة الجماهير ، كما فقدت هذه الأنظمة الأيديولوجية التى خدمت عقيدة الماركسية اللينينية كل ما خلق عليها من قدسية ، نتيجة للحملات المعادية للستالينية والاجتياح الاجتماعى لعام ١٩٥٦ .

وعلى عكس الستالينيين العقلانيين الذين قادوا الأحزاب الشيوعية الشرق اوروبية فى أوقات القمع الوحشى فان الائتلافات الصاعدة نظرت للماركسية على أنها عقيدة شعائرية اجبارية ورفضوا الادعاء اللينينى

بالعالمية واعتبروا للستالينية كيانا هشا . لقد أخذت قلة من الأعضاء في الائتلافات الشيوعية بالأفكار الستالينية بل لقد استخدموا اللينينية فقط كستار يخفون وراءه دكتاتورياتهم لضمان سمردية حكمهم واحتكارهم للسلطة .

هوامش الفصل الثاني :

(١) George H. Hodos, *Shotrials : Stalinist purges in Eastern Europe, 1948-1954* (New York : Praeger, 1987), pp. 11-12.

(٢) البلشفي •

هو عضو الجناح الروسي المتطرف في الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي الذي تولى السلطة بعد ثورة نوفمبر ١٩١٧ في روسيا كما يعتبر البلاشفة قبل الثورة ممثلين للأغلبية بينما المناشفة تعني الأقلية في الحزب - (المترجم) •

Ibid, p. XIII. (٣)

The trialoh. Loszlo Rajk in Gale Stockes, from Stalinism to (٤)
Pluralism : A Documentory History Eastern Europe Since 1945
(New York and Oxford : Oxford University Press, 1991, pp. 69-70.

See Louis Rapoport, *Stalin's War Against the Jews : The (٥)
Doctors' Plot and the Soviet Solution* (New York : The Free Press,
1990).

Zbigniew Brzezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Confticl (٦)
(Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 137.*

Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of (٧)
Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books,
1989) p. 116 : on Stalin versus Tito. see fhrushev's 'Secret Speech'
in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy* (Harmondsworth, Middlesex :
Books, 1984), p. 256.

See Ivo Banac, *With Stalin Againsi Tito : Cominformist (٨)
See Ivi Banac, *With Stalid Agaisdt Tito : Cominformist
versity Press, 1988).**

See Oskar Gruenwald, *The Yugoslav Search for Man : (٩)
Marxist Humanism in Contemporary Yugoslavia* (South
Hadley, Mass. : J. F. Bergin, 1982).

Nomenklatura (١٠) نومنكلاتورا

هى طريقة فى التسمية تستخدم فى مجال العلوم والفن والأنظمة ، وهى طريقة دولية لتصنيف الأسماء اللاتينية الجديدة فى مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف الأسماء اللاتينية الجديدة فى مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفى السياسة تأتي بمعنى « تكنوقراط الدولة/الحزب » أو شريحة متميزة من البيروقراطية - (المترجمة) •

- See Milovan Djilas, *The New Class : An Analysis of the Communist System* (New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1957), and idem, *Of Prisons and Ideas* (Orlando : Harcourt Brace Jovanovich, 1986). (١١)
- Autocracy الأوتوقراطية (١٢)
- تطلق على الحكومة التي ينفرد فيها شخص واحد بالسلطة المطلقة وصنع القرار - (المترجمة)
- Wolfgang Leonard, *Three Faces of Marxism : The Political Concepts of Soviet Ideology, Maoism, and Humanist Marxism* (New York : Paragon Books, 1979), p. 268. (١٣)
- Teresa Toranska, *"Them" : Stalin's Polish Puppets* (New York : Harper & Row, 1987), p. 257. (١٤)
- Ibid, p. 354. (١٥)
- For these biographies, see the appropriate entries in Branko Lazich and Milorad M. Drachkovich, *Biographical Dictionary of the Comintern : New Revised and Expanded Edition* (Stanford, Calif. Hoover Institution Press, 1986). (١٦)
- Brecht as quoted by William Echikson, *Lighting the Night*, (New York : Morrow, 1990), p. 63 ; Timothy Garton Ash, "Comrade Brecht," in his book *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 28-46. (١٧)
- Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 174. (١٨)
- Celestine Bohlen, "Warsaw Pact Agrees to Dissolve Its Military Alliance," *New York Times*, February 26, 1991. (١٩)
- Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism* (Oxford : Oxford University Press, 1978), III : 451. (٢٠)
- Khrushchev's « Secret Report », in Ali, *Stalinist Legacy* (note 6 above), pp. 296-70. (٢١)
- Isaac Deutscher, *"The Tragedy of Polish Communism"*, in Isaac Deutscher, *Marxism, Wars and Revolutions : Essays from Four Decades* (London : Verso, 1984), p. 121. (٢٢)
- For the Polish Political traditions, see Marcin Krol, "The Polish Syndrome of Incompetentness," in Stanislaw Gomulka and Antony Polonsky, eds., *Polish Paradoxes* (London and New York, Routledge, 1990), pp. 63-75, and Jan Jozef Lipski, "Two Fatherlands, Two Patriotisms," in Robert Kostrzewa, ed., *Between East and West : Writings from Kultura* (New York : Hill & Wang, 1990), pp. 52-71. (٢٣)

- Paul Zinner, ed., *National Communism and Popular Revolt in Eastern Europe : A Selection of Documents on Events in Poland and Hungary February -- November 1956* (New York : Columbia University Press 1956, pp. 47-48. (٢٤)
- Stanislaw Baraczak, "Before the Thaw : The Beginning of Dissent in Postwar Polish Literature (The Case of Adam Wazyk's 'A Poem for Adults')." *East European Politics and Societies*, 3, no. 1 (Winter 1989) . 11. (٢٥)
- Quoted in Irving Howe, *Beyond the New Left* (New York : McCall Publishing Company, 1970), pp. 31-32. (٢٦)
- "Victory Orban's Speech at the Reburial of Imre Nagy," *Uncaptive Minds*, II, no. 4. (August-October 1989) : 26. (٢٧)
- (٢٨) التعديلية حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطوير (الترجمة)
- William E. Griffith, "The Origins and Significance of East European Revisionism". in Leopold Labedz ed., *Revisionism : Essays in the History of Marxist Ideas* (New York : Praeger, 1962), pp. 223-38. (٢٩)
- Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985), p. 135. (٣٠)
- Ibid.*, p. 137. (٣١)
- See Gyorgy Aczel and Tibor Meray, *The Revolt of the Mind* (New York : Praeger, 1959). (٣٢)
- Leonhard, *Three Faces of Marxism* (note 10 above), pp. 282-83. (٣٣)
- Ibid.*, p. 283. (٣٤)
- Ibid.*, p. 284. (٣٥)
- Ibid.* (٣٦)
- See "Christ and Commissar," an interview with Milovan Djila, in George Urban, ed., *Stalinism : Its Impact on Russia and the World* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1986), pp. 180-245. (٣٧)
- Ferenc Feher and Agnes Heller *Hungary 1956 Revisited : The Message of a Revolution — A Quarter of a Century After* (London : (George Allen & Unwin, 1983), p. 150. (٣٨)

• (٣٩) بوتسدام . مدينة فى ألمانيا الشرقية تقع شمال غرب برلين - (المترجمة) •

Ibid., p .vii.

(٤٠)

Quoted by Albert Camus in his preface to *The Truth about the Nagy Affair : Facts, Documents*, New York . Praeger, 1959), p.vii. (٤١)

Quoted by Melvin Coran in his masterful essay "East German Revisionism : The Spectre and the Reality", in Leopold Labedz, ed., *Revisionism : Essays on the History of the Marxist Ideas* (New York : Praeger, 1972), p. 254. (٤٢)

The journal ceased to come out in 1990 as an effect of both the dramatic changes in Eastern Europe and Gorbachev's markedly diminished interest in what used to be called the "world communist movement." (٤٣)

See William E. Griffith, *Albania and the Sino-Soviet Rife* (Cambridge, Mass. : MIT Press, 1963). (٤٤)

J. F. Brown *The New Eastern Europe : The Khrushchev Era and After* (New York : Praeger, 1966), p. 206. (٤٥)

(٤٦) براكسس

• وتعنى الممارسة العملية لما اعتنق نظريا - (المترجمة) •

الفصل الثالث

من الانصهار حتى التجمد

« الاشتراكية الحقيقية » تحكم أوروبا الشرقية

« لا يوجد هناك مثل شيوعية لم تحملها

التوتاليتارية ومن ثم لم تصبح توتاليتارية ولا

ظلت شيوعية »

آدم متشنك •

لقد تم اقضاء نيكيتا خروتشوف عن منصبه كسكرتير أول للحزب الشيوعي السوفيتي Soviet First Secretary وكرئيس لمجلس الوزراء Chairman of the Council of Ministers وذلك في أكتوبر عام ١٩٥٤ نتيجة لضربة وجهت له من داخل الحزب بتدبير من القوى الستالينية البيروقراطية الجديدة التي لم تقبل الأساليب التي انتهجها المذكور ووصفتها بأنها « خطط رعناء » ووجهوا لخروتشوف تهمة اضعاف سلطة الحزب الشيوعي بما أجراه من اصلاحات • لقد حرص الزعماء الجدد في الكرملين على استعادة وحدة عالم الشيوعية التي تضررت على نحو خطير من تفاقم الهجوم العنيف الذي شنته على الصين ، فألغوا البيانات المعادية للستالينية التي أصدرها خروتشوف • واختفى الاسم المدوي للسكرتير الأول السابق لأكثر من عشرين عاما من الخطابات الرسمية السوفيتية •

ان الحملة التي شنّها ليوند برجنيف ونيكولاى بودجورنى Nikolai Podgorny وميخائيل سبسلفوفيت M. Khail Suslovate على الصبغة الخروتشوفية للبلاد ، وتخطيطهم لضربة القصر فى أكتوبر اتسمت بالاعتدال الا أنها كانت محاولة واضحة لرد اعتبار ستالين (١) • وأثر القرار الروسى باستعادة الوحدة الأيديولوجية والاتساق داخل الكتلة على أوروبا الشرقية • وفى البداية خشي زعماء أوروبا الشرقية المحليون على مناصبهم من جراء التغيير الذى يتم فى الكرملين ، الا أنهم سرعان ما تأكدوا بأن روسيا سوف تستمر فى منحهم العون والدعم • لقد كانوا أدوات لروسيا لذلك شعروا بالامتعاض نحو ايماءات السكرتير

الأول السابق (خروتشوف) المعادية للاستالينية وفضلوا أن يتعاملوا مع قيادة سوفيتية أكثر روتينية وبالتالي أكثر جمودا . وحاول الزعماء السوفيت الجدد أن يستنهضوا الأجهزة الاستشارية الدولية القائمة وأكدوا على التزامها المتزايد بالتضامن بين الأحزاب الحاكمة في الكتلة السوفيتية . لقد قبل جميع زعماء بلدان حلف وارسو باستثناء جورجي - جورجيو دجي الذي توفي ١٩٦٥ وكذلك خليفته نيكولاى شوشيسكو إعادة الهيمنة السوفيتية على الكتلة - الشرقية كما طالبتهم البرجنيفية Brezhnevism بضمان الاستقرار الداخلى والانسجام الأيديولوجى والاحجام عن المبادرات المنفردة فى السياسة الخارجية . وسعد الحكام فى تلك البلدان بوضع حد لمحاولة خروتشوف الارتجالية .

لقد استغلت الدعاية السوفيتية تزايد الصراع الصينى السوفيتى والتدخل الأمريكى فى فيتنام لاثارة الجدل وتقوية الروابط بين الأحزاب الحاكمة فى أوروبا الشرقية .

✽ ربيع براغ ومذهب خروتشوف :

ان العاصفة التى أثارها مصلحو براغ (٢) فى تشيكوسلوفاكيا لتقديم نموذج للاشتراكية يختلف راديكاليا عن نظيره السوفيتى وضع نهاية للفترة القصيرة التى اتسمت بالهدوء والاستقرار فى أوروبا الشرقية وذلك فى عام ١٩٦٨ . وحاول الزعماء الجدد بتشيكوسلوفاكيا الفوز بشعبية عريضة وضم فئات اجتماعية متعددة للعملية السياسية مما أثار شك العقائديين فى تشيكوسلوفاكيا ودول حلف وارسو ، وخاصة جمهورية المانيا الديمقراطية وبولندا والاتحاد السوفيتى . ان افتقار الاحلاف للشرعية السياسية وهو ما يفسر اجتياح ١٩٥٦ فى المجر وبولندا كان ينبىء بكارثة على وشك الوقوع . ورغم المحاولات التى بذلتها البيروقراطيات الشيوعية لخلق شكل من أشكال اجماع الراى الدولى الا أن الشعوب اعتبرتهم ممثلين للنموذج الستالينى المستبد . وفى تشيكوسلوفاكيا ابخرط الرئيس أنتونين توفتنى نفسه فى الاعداد للمذابح وعارض دائما رد الاعتبار لهؤلاء الذين عانوا من جراء الارهاب ، وبعد رد اعتبار رودلف سلنسكى ومتهمين آخرين رسميا وكانت احدى المحاكمات الصورية فى عام ١٩٥٢ قد ادانتهم ، رفض توفتنى اعلان ادانته الكاملة لتلك المذابح كما قاطع كل الحركات التى ترمى الى اصلاح البنى السياسية والاقتصادية المفرطة المركزية .

لقد عم البلاد ركود اقتصادى وجمود سياسى وهبطت الروح

المعنوية للشعب وتعالى الأصوات داخل وخارج الحزب الشيوعي لمقاطعة النموذج الستاليني .

وأقيمت الحوارات الثقافية فى أوائل الستينيات والتي هاجمت ادعاء الحزب بحقه فى السلطة وتحدى المفكرون الحزب من خلال الحلقات الدراسية التى عقدت فى ليبلسى Liblice (٣) فى عام ١٩٦٣ لمناقشة أعمال Franz Kafka كما اثاروا كثيراً من علامات الاستفهام حول عقيدة الواقعية الاشتراكية التى نظرت للفن باعتباره تابعاً للقيم السياسية . واعتبر المفكرون قصص كافكا الرمزية التى تحكى عن انسان تحول الى وحش Leviathan (٣) بيروقراطى مفزع ، ارهاصات تحذير من الديكتاتوريات الشمولية الجديدة ، وقال ادوارد جولد ستكر Eduard Gold Stucker رئيس اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكى أثناء ربيع براغ Prague Spring أن مؤلف « مسنعمرة الأشغال الشاقة The Penal colony » يلعب دوراً رئيسياً فى الصراع ضد العزلة التى تفرضها الستالينية وضد الحرب الباردة (٤) . وفى تعليقه على انشقاق المفكرين ادان نوفتنى صعود موجة التعديلية باعتبارها خطراً حقيقياً على الاشتراكية التشيكوسلوفاكية . وفى صيف ١٩٦٧ وفى مؤتمر اتحاد الكتاب ، هاجم المفكرون الرقابة التى يفرضها الحزب على الإبداع الثقافى ، ومن بين معارضى نظام نوفتنى كان هناك عدد كبير من الكتاب الشيوعيين السابقين الذين تحرروا من الأكاذيب والادعاءات الرسمية، ومنهم لودفك فاكوليك Ludvik Vaculik الذى القى خطبة مؤثرة معارض فيها القيود التى يفرضها النظام على ممارسة الحقوق الانسانية الأساسية فقال :

« ان الموقف الثقافى — السياسى لا يجعلنى أشعر بالأمن والأمان ولأن النظام يحاول أن يجرنا الى حلبة الصراع : اننى كمواطن لا أشعر بأننى فى مأمن بل أشعر اننى معرض دائماً للمصائب وأشعر أن هذا النوع من اللقاءات لن يتكرر ثانية — ايجب أن أكون ممثلاً ؟ لا يمكن . اننى لا أرى أية ضمانات مؤكدة . صحيح أن الأوضاع أصبحت أفضل فى المحاكم ، ولكن القضاة أنفسهم لا يشعرون بأن الضمانات كافية . اننى أرى العمل فى مكتب المدعى العام يتحسن ولكن هل لدى أى منا ضمانات وهل نشعر بالأمان ؟ ساكون سعيداً اذا أجريت معهم حواراً لينشر فى المجلة ولكن هل تعتقد أنه سينشر ؟ اننى لا أخشى مقابلة المدعى العام ولن أجيبه عن أسئلته ، فلم أصدر حكماً على ، وشوهد سمعة أناس لم يحصلوا عن حقوقهم الأساسية بوصفها حقوقاً طبيعية واسم تعارض المجالس القومية عودتهم لوطنهم ؟ الا أن ذلك لن ينشر . لماذا

لا يرد اعتبار هؤلاء المضطهدين ؟ لماذا لا يتوقفون عن اضطهادهم للمواطنين ؟ لماذا نساومهم بالمال ؟ لماذا لا نستطيع ان نعيش حيثما نريد ؟ لماذا لا يستطيع مصمموا الأزياء ان يذهبوا لفيينا Vienna ويقيموا فيها ثلاث سنوات ، ولماذا لا يذهب عمال الطباعة لباريس Paris ولا توجه لهم تهمة الاجرام اذا ما عادوا لأوطانهم ؟ » .

وبعد ادانة فاكبولك لمطالبة نظام نوفتنى فيما يتعلق بالتخلى التام عن الممارسات الستالينية أعلن رفضه لادعاء الحزب بتحقيق التقدم الاقتصادى ليوجوسلافيا خلال عشرين عاما من الاشتراكية وسجل جميع المشكلات الانسانية فى تشيكوسلوفاكيا وأهمها مشكلات البنية الأساسية التى تعجز عن تقديمها الأنظمة اللا ديمقراطية مثل الحاجة الى الاحساس بقيمة المجتمع الكاملة والاحساس بأن القرارات السياسية تخضع لمعايير أخلاقية والاحساس بقيمة العمل مهما كان ضئيلا ، والحاجة للثقة المتبادلة بين الناس ، والحاجة لمتعة كل الناس بالعلم والتربية فقال :

« وكنت أود ألا أقول ان جهودنا تذهب سدى اذ لا شئ مما اطالب به له قيمة عندهم - بل ان قيمته فى أنه تحذير مسبق . وحتى فى هذه الحالة فان المعرفة الانسانية سوف تتزايد وتتقدم . ولكن هل كان ضروريا أن يتحول بلد عرف على وجه الدقة المخاطر التى تهدد ثقافته وتراثه لمجرد أداة كى يحصل على هذا النوع من المعرفة ؟ » .

وبعد هذه الخطبة لم يكن فى مقدور أحد منع الصراع الذى وقع بين مناصرى الحزب والمفكرين ، فقام النظام بطرد فاكبولك وعدد من الكتاب الذين يشاركونه الرأى من الحزب الشيوعى ، كما نظم حملات لتشويه صورة المفكرين النقاد وحاول تعبئة العمال ضد آرائهم الانشاقية الا ان ذلك لم يسفر سوى عن تعبئة الطلاب والجامعيين ضد السلطة .

ان تعالى النظام على السلافيين وتعامله معهم بطريقة مزرية أسفر أيضا عن مزيد من الازمات ، وازداد الصراع بين المفكرين وأعضاء حكومة الحزب البيروقراطية فى سلوفاكيا للحصول على مزيد من الاستقلالية لسلوفاكيا فى علاقتها مع حكومة براغ . وكان السكرتير الأول للحزب الشيوعى السلافى وهو الكسندر دوبتشك الذى تخرج فى مدرسة الحزب العليا High Party School فى موسكو والمعروف بنزعاته الخروتشوفية (٦) من بين الذين تورطوا فى هذه الحركة .

وأيد جوسلاف هوساك Gustave Husak هو الآخر الحقوق السلافية داخل الجمهورية الاتحادية كما نزع هوساك المحامي المحترف والشيوعي المتمرس عصيان عام ١٩٤٤ السلافى المسلح المعادى للنازية ، ووجهت اليه فى احدى المكائد الستالينية فى اوائل الخمسينيات نهمة القومية مما جعله يبدو نصيرا للحركة الاصلاحية .

واستمر الصراع السياسى فى القمة فيما بين أكتوبر ١٩٦٧ ويناير ١٩٦٨ يتزايد حدة فلم يعد أعضاء اللجنة المركزية يدعمون نوفتنى لأنهم اعتبروه متهما ومسئولا رئيسيا عن الكارثة التى أصابت البلد مما جعل نوفتنى ناشد برجنيف مطالبا بالدعم السوفينى المباشر لنظامه . وبعد زيارة قصيرة لبراغ أدرك السكرتر العام السوفيتى أن موقف نوفتنى ضعيف جداً ويتعذر الدفاع عنه ومن ثم وجد أن الحل الوحيد للأزمة هو ابعاده الفورى ، وفى يناير عزل الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى جلسة اللجنة المركزية الكاملة الأعضاء نوفتنى من منصبه كسكرير أول وحل محله الكسندر دوبتشك الزعيم السلافى الذى تحدى سلطة نوفتنى فى مناسبات سابقة . وفى غضون أسابيع قليلة بدا واضحا أن برنامج الزعيم الجديد سوف يتجاوز حدود علاج اهتراءات النظام . وأجبر نوفتنى فى مارس على الاستقالة من منصبه كرئيس لتشيكوسلوفاكيا ، وخلفه لودفك سفوبودا Sudvik Svoboda أحد جنرالات الجيش المبجلين وكان قد استبعد فى السابق من قبل الستالينين .

وكان جوزيف سمركوفسكى Josef Smrkovesky الذى انتخب رئيساً لمجلس النواب القومى National Assembly من بين ضحايا المحاكمات الصورية . واستبدل دوبتشك الشيوعيين المتشددىين فى اللجنة التنفيذية بحزبين آخرين مقربين له .

ولم يكن هدف القبادة الجديدة ازالة النظام القائم بل جعله اكر عصرية وفاعلية .

وطرح المصلحون الشيوعيون فى أبريل ١٩٦٨ وثيقة مهمة هى « برنامج العمل » التى عجز فيها دوبتشك عن اقتناعه بالأوهام الخاصة بإمكانية تعديل النظام الاشتراكى وبأن النظام المركزى يمكن أن يكون فعالا وعمليا . ورغم أن هذا البرنامج أبقى على التزام الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين بالماركسية اللينينية الا أنه أكد على ضرورة توجسه النظام نحو الديمقراطية، وضرورة التخلي عن أسلوب الأوامر الديكتاتورية وتعهد باحترام رأى الشعب وتنفيذه وبالبعد عن سياسة القمع ،

وتمسك بالشرعية كأساس جوهري وضروري لاقامة كيان سياسي متعاف . وتضمنت الوثيقة التي سميت « طريق تشييكوسلوفاكيا للاشتراكية » النقاط التالية :

١ — تقديم ضمانات جديدة لحرية الرأي والصحافة والجمعيات والممارسات الدينية .

٢ — اقرار قوانين انتخابية تسمح للمرشحين بخيارات أوسع والاعتراف بأربعة أحزاب غير شيوعية شريطة توحيدها في جبهة قومية يسيطر عليها الشيوعيون .

٣ — الحد من الامتيازات الممنوحة للحزب الشيوعي في تعاملاته مع البرلمان والحكومة .

٤ — اجراء اصلاحات اقتصادية كبيرة لتقوية الاستقلال الذاتي للمؤسسات التجارية ، والسماح ثانية باقامة عدد محدود من المشروعات التجارية الخاصة ، وتوفير العملة الصعبة ، وزيادة التبادل التجاري مع الغرب .

٥ — قضاء مستقل .

٦ — وضع فيدرالى للسلوفاك .

٧ — مؤسسة جديدة تمارس عملها بحلول نهاية عام ١٩٦٥ .

لقد كان البرنامج نتاج مصالحة تمت بين المصلحين الراديكاليين وعصبة المحافظين داخل مؤسسة الحزب ، وكانت بعض أفكاره واعدة وبعضها الآخر تكرارا بحثا للشعارات اللينينية التي أقرط في استعمالها لحد جعل الدور القيادي للحزب دورا مبتذلا . وأمكن للبرنامج — في نوجه العام — أن يوضع موضع التنفيذ من قبل ممثلى الجناح الديمقراطي وواصلوا بحثهم عن نموذج جديد للاشتراكية .

لقد كانت محاولة للتحكم في دفعة الحزب وابجاد مرفأ له لاعادة الصحوة للمجتمع :

« ان هذه الاجراءات الأولية لا تعنى تنازلنا أو تخلينا عن مثالننا — دعونا وشأننا مع معارضينا ، فنحن مؤمنون بأنهم سيأخذون بأيدينا للتخلص من الاعباء التي سببها تقليص وشل فعالية النموذج الاشتراكي اننا نريد أن نجعل القوى الجديدة المتفائلة في الحياة الاشتراكية في حركة دائبة من أجل الوطن ومن أجل مزيد من التحدى الفعال في سبيل

الأنظمة الاشتراكية وتقديم رؤى مستقبلية للعالم وتحقيق الاستفادة الكاملة من مزايا الاشتراكية » .

لقد التزم البرلمان التزاما عميقا بالمثل الاشتراكية ولم تبد القيادة الجديدة أى استعداد للتورط فى مقاطعة شاملة للنموذج السوفيتى للاشتراكية (٧) . وتمت الموافقة على رد الاعتبار لكثيرين من ضحايا القمع الستالينى وسمح لهم بتنظيم جمعياتهم ونواديهم . لقد كان البرنامج حركة اصلاح قام بها مجموعة من الشيوعيين الناقمين على الاداء الاقتصادى الرديء وعلى ما اتسم به حكم نوفتنى من اعتلال اجتماعى . ونظرا لتطور هذه الحركة واستعادة مجموعات اجتماعية نشاطها الذى يدافع عن الأفكار الإصلاحية ، فقد شجب انصار المجتمع المدنى التشيكي والسلافى الصاعد الهامش الضيق الذى سمحت به الاستراتيجية الرسمية من أجل الإصلاح والتجديد .

لقد أدرك دويتشيك ومعاونوه أن الاشتراكية الحقيقية لا يمكن تحقيقها فى عياب الديمقراطية فسمحوا بتدفق المبادرات المستقلة من القاعدة الجماهيرية بما فى ذلك تكوين جماعات واتحادات غير شيوعية أو حتى معادية لها .

ان قسوة الحركة التنويرية لإحلال الديمقراطية اذهلت المفكرين التشيكوسلوفاك الذين اتخذوا - دون موارد - جانب أكثر إجنحة القيادة الشيوعية راديكالية . وفى ذات الوقت فشلت المراكز القيادية للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى ايجاد صيغة متكاملة لحل العضلات الأساسية التى تعاني منها البلاد . وجنح البعض فى اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب نحو التعجيل بالاصلاحات الشاملة والجريئة ، بينما تخوف آخرون من مخاطرة فقدان سلطتهم السياسية اذا طبقوا النظام التعددى ومن صعد نجم قوى الجناح اليمينى والحواء على دويتشيك أن يعقد سياساته الإصلاحية . وعلى أية حال ، فإن غالبية الحزب أيدت الأفكار التى تبناها دويتشيك وكانوا بين خيارين :

أما تطبيق اشتراكية ذات وجه انسانى أو العودة الى النظام الستالينى الخائق للحريات .

ان اهتمام القوى الأرثوذكسية الأهلية بما يقوم به الحزب من مبادرات فى اتجاه الإصلاحات أطلقت العنان لحركة مدنية دائبة ضد الشيوعية وحظت بمشاركة وتشجيع الزعماء السوفيتيين وأحلافهم . وفى مارس ١٩٦٨ عقد مؤتمر قمة فى درسدن Dresden بالمانيا الشرقية

حيث عبر كل الزعماء الشيوعيين بحلف وارسو عن قلقهم بصدد مجريات الأحداث في تشيكوسلوفاكيا . وفى الشهر التالى واثناء اجتماع جمع بين دوبتشيك وبرجنيف ، حاول الزعيم التشيكوسلوفاكى أن يهدىء من المخاوف السوفيتية المتعلقة بخطر « الثورة المضادة » فى بلده . وعبر بريجنيف عن انتقاده لاصلاحات دوبتشيك واستيائه من الحكومات الشيوعية ليس فى الاتحاد السوفيتى ولكن فى الاقطار الأخرى بالكتلة وقال ان السوفيتيين لا يمكن أن يتهاونوا مع الطموح التشيكوسلوفاكى لاقامة نموذج بديل ومجتمع يعامل فيه الفرد كإنسان وليس كأداة لتنفيذ خطط الحزب .

لقد دخل العالم الشيوعى مرحلة جديدة من الازمات والاضطرابات بسبب تعمق الخلاف بين المصلحين التشيكوسلوفاكيين وزعماء حلف وارسو .

وعبر اليوجوسلافيون والرومانيون علانية عن رفضهم وادانتهم للتدخل الأجنبى لقمع مسيرة الديمقراطية فى تشيكوسلوفاكيا . وبعثت الأحزاب اللاشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا بإنذارات مشابهة لموسكو . وفى الفترة التى حوى فيها وطيس المناظرات حول معنى الدولية الماركسية وحول حق كل حزب شيوعى فى تبنى خط سياسى يختاره ولا يفرض عليه فان العديد من الأحزاب الشيوعية الغربية طرحت برنامجها السياسى ، وتحدثت الشيوعية الأوربية حق الكرملين فى املاء خطه على الأحزاب الأخرى وأصرت على عدم امكانية الفصل فيما بين الشيوعية والديمقراطية التعددية (٨) ، وحظى رفض التشيكوسلوفاكيين للنموذج السوفيتى لجموده ولافراطه فى المركزية ولتشكله فى أى مبادرات — بقبول عدد من الأحزاب الشيوعية الغربية ايمانا منها بأن الحاجة أصبحت ملحة للتخلى عن العقيدة اللينينية الخاصة بدكتاتورية البروليتاريا . وعلى الطرف النقيض سعى الستالينيون فى الصين والبنان لعودة النظام البائد واتهموا ربيع براغ بأنه محاولة لافساح الطريق للامبريالية وفى نفس الوقت عارضوا ادعاءات الاتحاد السوفيتى الامبريالية لفرض هيمنة على شرق أوربا . ورغم ما يحمّله الرئيس الصينى ماوتسى تونج من عداوة للمنهج التعديلى الذى يتبناه دوبتشيك ، الا أنه انتقد السوفيتيين لاستخدامهم طرقا امبريالية فى التعامل مع أحلافهم واطلق على بريجنيف ورفاقه اسم قياصرة الكرملين .

ولم يسفر النقد السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا سوى عن تحويل الاصلاحيين لراדיكاليين . واستمرت طبقة الانتلجنسيا فى ممارسة

ضغطها على القيادة المترددة للتوسع فى التعددية السياسية ولتقديم ضمانات كافية للتخلص من الطرائق الستالينية القمعية بلا رجعة . وبعد ان دعا جورباتشوف Gorbacheve لسياسة المصارحة (الجلاسونست) رفض مصالحو براغ مبدأ « ممارسة السياسة خلف الكواليس » . وانخرط الزعماء التشيكوسلوفاكيون بدءا بدويتشيك السكرتير الأول وسمركوفسكى فى حوار مباشر مع ممثلى الراى العام . وفى غضون شهر استتظ المجتمع انتشيكوسلوفاكى من سيئاته وأصبح المتحكم فى عملية صنع القرار . واكتشفت الجماهير قدرتها على لعب دور أساسى فى تغيير المجريات السياسية ولم تعد مشاركة الجماهير مجرد شعار فارغ . وفى يونيو ١٩٦٨ نشر بيان بعنوان « ألفا كلمة للعمال والفلاحين والعلماء والفنانين وللجميع » فى الجريدة الأسبوعية الجريئة لاتحاد الكتاب « لترانى لستى أو قائمة الأدب Literanilisty » وقد قام لودفك ماكبولك بصياغته باحكام بحيث يرمز لرفض منطق القبول والاذعان وطالب بالانفصال عن أساليب الهيمنة السياسية والمناورة التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى ، وطالب البيان بالتعجيل بعملية الديمقراطية والتخلص من الدوجماتيين فى قيادة الحزب كما طالب بالانتقال السريع للنظام المتعدد الأحزاب ، وقام سبعون من رموز الانتلجنسبا الليبرالية البارزة بتوقيع هذا البيان ثم دعم بتوقيعات أربعين ألف شخص ، وعبر البيان عن حالة عدم الرضا المتزايدة لبطء تنفيذ الإصلاحات وتردد السياسة الرسمية تجاه عملية التجديد ، وأسر الدجماتيون بوصف الوثيقة باعتبارها « دعوة للثورة المضادة » ومعبرة بكل المعانى عن موقف متعسف ومتعصب . وعارض البيان فكرة الانتقام من هؤلاء الذين حكموا البلد لعقدين متتاليين ورفض أى استخدام للعنف ، بل على العكس فقد أعربت الغالبية العظمى من التشكيكين والسلافين عن أملها فى إمكانية تحول الحزب الشيوعى الى قوة ديمقراطية حقيقية :-

((بداية ، اننا نعارض وجهة النظر ، التى تقول ان البعث الديمقراطى يمكن تحقيقه دون الشيوعيين او بمعاداتهم اذ يعد ذلك افتراء غير مبرر ، فللشيوعيين تنظيم جيد البناء ويجب علينا ان ندعم الجناح التقدمى بداخله . . . ان الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى حالة تاهب تام للمؤتمر الذى سينتخب اللجنة المركزية الجديدة . دعنا نأمل ان تكون هذه اللجنة أفضل من الحزب الحالى ، واذا قال الحزب الشيوعى الآن بأنه يريد الحصول على الحكم فى المستقبل مستنداً لثقة المواطنين وليس للقوة ، فدعنا نصدق ذلك طالما نؤمن بالجماهير التى تبعت الآن بمفوضيتها لحضور مؤتمرات المقاطعات والمؤتمرات الإقليمية)) (٩) .

ان الخلاف الرئيسى فى الصراع السياسى داخل الحلف الشيوعى اليوجوسلافى تمحور حول طبيعة الزعامة المستقبلية وحول المخاوف من المحافظين (وأنصارهم من السوفيتيين) حتى ان مؤتمر الحزب الأربعين الذى بدأ أعماله فى صيف ١٩٦٨ حاول التخلص منهم والتصديق على برنامج « الاشتراكية ذات الوجه الانسانى » الا ان دوبتشيك رفض ذلك واضعا فى اعتباره التهديدات السوفيتية المتزايدة كما رفض الاذعان للقوة الستالينية الجديدة التى اعتبرت البيان « مضادا للثورة » .

وتفاقم السخط السوفيتى لتهاون دوبتشيك فى اتخاذ اجراءات حاسمة لوقف عملية الليبرالية فقام خروتشوف بممارسة ضغوطه على الزعماء الشيوعيين فى كل من بولندا وألمانيا الشرقية . ان فكرة انتقال عدوى الاصلاح الذى اجتاحت يوجوسلافيا الى البلدان الأخرى اثارت دعر زعمائها . وفى شهر يوليو عقد حلف وارسو اجتماعا فى العاصمة البولندية وفى غياب زعماء تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ووجه المؤتمر خطابا منذرا للزعماء التشيكوسلوفاكيين يطالبهم باقتلاع نبتة الثورة المضادة « من جذورها وتطهير وسائل الاعلام من العناصر المعادية للاستالينية » .

واوضح الخطاب الذى يعد بكل المقاييس انذاراً أن التعهد بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لأى من البلدان الشيوعية من وجهة نظر الكرملين لا يعد سبأى المفعول أو ملزماً طالما القضية تتعلق بمستقبل الاشتراكية فى واحدة من البلدان التابعة .

وأصر السوفيتيون وأحلافهم على أن « الحفاظ على مكتسبات الشعب من الثورة » لا يعد قضية داخلية تخص زعماء تشيكوسلوفاكيا ، بل تخص المجتمع الاشتراكى كله وهو نفس السبب الذى استخدموه لتبرير تدخلهم العسكرى فى المجر عام ١٩٥٦ .

« ليس لدينا أية نية للتدخل فى [الشؤون] الداخلية لحزبك أو بلدك ، ولا نشوى انتهاك مبادئ الاحترام والاستقلال والمساواة فى العلاقات التى تربط بين الأحزاب الشيوعية والبلدان الاشتراكية » . وفى نفس الوقت لا يمكن ان نقبل وجود قوى عدائية تدفع البلد بعيدا عن طريق الاشتراكية وتهدد تشيكوسلوفاكيا الصامدة لتخرج عن قطيع البلدان الاشتراكية . وهذا يعنى ان المسألة ليست شأنك وحدك ، انها شأن كل الأحزاب الشيوعية والعمالية والبلدان التى يجمعها التعاون الصداقة » (١٠) .

وهكذا حاول زعماء حلف وارسو أن يجبروا دويتشيك ومعاونيه على انتهاء عملية الإصلاح والتخلي عن طموحهم لتطبيق شكل جديد ومختلف للاشتراكية ولوجوا لهم بنذير التدخل العسكري . ورفض دويتشيك الإذعان لأمر الكرملين، ورفض التهديدات السوفيتية وشن هجوما مضادا في خطاب بثته محطات التليفزيون في الثامن عشر من يوليو ودافع فيه عن خيارات حزبه واحتج على اتهامه بالانتهازية والارتدادية :

« أخيراً وبعد سنوات عديدة ، أصبح المناخ في بلدنا يتيح لكل شخص أن يعبر عن أفكاره علانية بلا خوف ويعزز برأيه ويقرر بنفسه إذا كانت قضية هذا البلد وقضية الاشتراكية هي قضيتنا جميعا ويستعيد من خلال سياسة واضحة وأمينه وتطهير مخلص وأمين الخلفات الماضي الكريهة ثقته بحزبنا ، ومن ثم نقول بهدوء ولكن باصرار (اننا) ندرك الآن ما هو الصواب فلا يوجد بديل آخر أمام هذا الشعب سوى تعميق التغيرات الديمقراطية والاشتراكية في مجتمعه . اننا لا نرغب في التخلي عن أي من مبادئ برنامج العمل مهما كانت ان الحزب الشيوعي يعتمد على الدعم الثوري للشعب . ان دورنا في حكم هذا المجتمع لن يكون ارشاديا ولكننا سنخدم تطوره الحر التقدمي الاشتراكي ولن ندافع عن حقنا في السلطة باعطاء الأوامر ولكن بجهد اعضائنا ويعدل أفكارنا » (١١) .

لقد كان صداما بين وجهتي نظر سياسيتين أي بين التشيكوسلوفاكيين باصرارهم على الاشتراكية ذات البعد الانساني وزعماء بقية دول الكتلة الذين اهتموا بالحفاظ على الأوضاع القائمة ، ومن ثم نظروا لتجربة دويتشيك من أجل الديمقراطية نظرة مفعمة بالريبة .

ان الزعماء السوفيتيين كستالينيين حقيقيين لم يتعاملوا مع المواطنين باعتبارهم ممثلين سياسيين مستقلين اذ رأوا أن ائتلاف الحزب لا بد أن يبقى على امتلاكه الكامل والمطلق للهيمنة على الحكم وتعتبر أية محاولة لاقامة مبدأ للسلطة يختلف عن مبادئهم خاصة ذلك الذي يكرس سيادة الشعب ، محاولة معادية تهدف الى التخريب .

وبعد مرور عشرين عاما على الاجهاض الوحشي لربيع براغ لخص انطونين ليهلم Antonin Liehl وهو واحد من أكثر المبدعين الفاعلين في حركة الإصلاح معنى المحاولة التي بذلتها تشيكوسلوفاكيا لاعادة النظر في الرؤية المتحجرة للاشتراكية وطرح نموذج بديل يطالب بمجتمع جديد يسود فيه احترام الحقوق الخاصة لأعضائه :

« ان المحاولة التشيكوسلوفاكية لاصلاح الاشتراكية الواقعية كانت محاولة لايجاد اسباب بناءة تفسر انهيار النظام الستاليني في مجموعه ، ولخلق نموذج لمجتمع مدنى يعيد تجديد واصلاح نفسه بنفسه دون كلل . وكان من الممكن ان تسفر عن تحول تدريجى من الامبراطورية السوفيتية الى كومنولث تربطه المصالح المتبادلة خاصة المصالح الاقتصادية واقامة سوق واسعة مشتركة بينها بعيدة عن الاكراه العسكرى والسياسى » (١٢) .

ان البيروقراطيين فى حلف وارسو اعتبروا حلم التشيكيين والسلافيين والماركسبيين الانسانيين كابوسا لانه كان المحاولة الاولى من نوعها لتحديد اهداف الاشتراكية والاهتمام بقضايا العزة والحريسة الانسانية ، وادركوا ان تفشى اغراءات الاصلاح فى الاقطار الاخرى سيقوض هيمنة الحزب على المجتمع . لقد فشل دويتشيك ومؤيدوه فى فهم الطبيعة الشمولية للنظام السوفيتى واعتقدوا واهمين ان برجنىف سيقتنع بمعتقداتهم الشيوعية الاصلية .

وبناء عليه فان ربيع براغ قد ضرب بجذوره فى تربة من الاوهام وآمن زعماءه بان الاصلاح يمكن ان يولد من رحم النظام القائم ودون تغييره ، وان الحصول على الدعم السوفيتى لثل هذه المحاولات ممكن . وفيما بعد أدرك زدنيك ملينار Zdenek Mylnar سكرتير اللجنة المركزية السابق والمنظر الايديولوجى فى حكم دويتشيك قصور فهم المجموعة الاصلاحية للبيئة السياسية التى يعملون فيها :

((لقد أساءت زعامة الحزب تقدير ثقلها فى الكتلة السوفيتية . ان الاتحاد السوفيتى لديه فكرة عما يجرى من اصلاح ولكنه لم يتخيل ان يصل التصدع فى أسوا الأحوال لما وصل اليه فى تشيكوسلوفاكيا . وفى هذه الحالة ليس امام المرء سوى التصرف مثلما يفعل كادار فى المجر وعندئذ سيكتشف انه عمل لا هدف يرجى من ورائه . وتوهم زعماء الحزب ان عشرين عاما من الشمولية قد افسحت المجال لعملية الديمقراطية ، ومن ثم تمتعوا بدعم جماهيرى هائل وهو ما كانوا يهدفون اليه على الأرجح ليضمنوا قبول الشعب لكل ما يقومون به . وأخيرا لقد توهم الزعماء انهم قادرون على تخطى حدود معينة شريطة وجود الدعم الجماهيرى) (١٣) .

وبمعنى آخر ، لقر تورط دويتشيك وأعوانه فى أعمال تجنح الى اعاقا النظام الاستبدادى الموجود وتقويض السيادة السوفيتية فى الكتلة ، الا أنهم لم يقدرُوا مدى جدية التهديد السوفيتى باتخاذ رد فعل

مضاد ، وهكذا فشل الديتشيكيون فى تقدير الهوة بين حلمهم الناهض بتجديد الاشتراكية والسياسة النفعية التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى فى العلاقات الدولية والشئون الأيديولوجية . ورأى السوفيت أن الماركسية اللينينية أصبحت منذ أمد بعيد وهما وذلك بسبب البيروقراطية ولم تحاول القيادات الحزبية فى المجتمعات ذات الطراز السوفيتى تجريب الإصلاحات السياسية والاقتصادية الجريئة : ويرجع ذلك الى القمع الذى مارسه خروتشوف فى أكتوبر ١٩٦٤ ضد هذه المحاولات الإصلاحية حتى لا تؤدي « لقلقلة النظام » .

ولم يسمح الزعماء السوفيتيون بعودة الحركة المضادة للستالينية فى أى من البلدان التابعة . وتوقعت القيادات السوفيتية من الأحزاب الشيوعية المحلية أن تسهر على الاستقرار الداخلى وتقمع أى اتجاهات ثاقدة . وكتب ايفان سفيتاك (١٤) الفيلسوف المناضل عن القطيعة مع النظام الشيوعى حيث قال :

« إن أية ديكتاتورية بيروقراطية ينهار كيانها فور توقف النظام عن ممارسة القمع فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو الإعلامى . وهذا يعطل امتناع الديكتاتورية البيروقراطية التام عن مناصرة أى نوع من الحريات أو حقوق الإنسان أو أفساح المجال لازدهار الاقتصاد . إن مهمة تحول الديكتاتورية التى تحتقر الدوافع النبيلة الى الديمقراطية مهمة مستحيلة .

إن المنظومة تقام كلها ثم تنهار كلها . ومنذ أن رفض الشيوعيون التشيكوسلوفاكيون الاستسلام للأمر السوفيتى لتحجيم الاعلام المستقل اتسمت العلاقات بين موسكو وبراغ بالتوتر الدائم لأن برجنيف رأى أن إعلان الحقائق يمثل قبلة موقوته يجب أن يتعامل معها الحلف أو يسقط ضحية لها . ولم ينتظر » (١٥) .

وأجريت خلال شهرى يوليو وأغسطس مفاوضات جديدة بين المكتب السياسى السوفيتى واللجنة التنفيذية الشيوعية التشيكوسلوفاكية وتوصل الفريقان لاتفاق يضع نهاية للانتقادات والاتهامات التى يتبادلها الطرفان . وبعد إبرام الاتفاق عقدت قمة لحلف وارسو فى مدينة براتسلافا Bratislava ولم تحضرها رومانيا للمرة الثانية حيث ظهر مدى زيف الوحدة بين الدول الشيوعية . وتضمن التقرير الرسمى لقمة براتسلافا بعضا من العبارات السوفيتية التقليدية عن « الأعمال التخريبية للإمبريالية » وأكد على أن البلدان الاشتراكية يجب عليها جميعا أن تفى باستمرار وثبات « بالقوانين العامة اللازمة

لبناء مجتمع اشتراكي وذلك بتقوية الدور القيادي للطبقة العاملة وطلاتها أي الحزب الشيوعي » (١٦) .

وتوقع السوفيت أن يتصرف دويتشيك كشيوعي مطيع ، في مواجهة انتهاكهم لسيادة دولة تشيكوسلوفاكيا ، كما انخرطوا على الفور في تنظيم حملة ضد القوى الديمقراطية ووسائل إعلامها إلا أن ماردا الديمقراطية كان قد خرج من القمقم فاستحوذ على الزعماء الاصلاحيين أن يتراجعوا والا فقدوا مصداقيتهم السياسية . واكتسب دويتشيك مكانته كزعيم قومي بسبب قدرته على مقاومة الضغوط السوفيتية لاعادة الرقابة على المطبوعات ولانتهاج اجراءات قمعية ضد تلك القوى التي يمتنبرها الكرملين « نخريبية » . وفي نفس الوقت حاولت موسكو تعبئة القوى الدوجماتية في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي على أمل أن يقع انشقاق في اللجنة التنفيذية ويتنحى دويتشيك .

ولكن القوى المؤيدة للسوفيت كانت ضئيلة ولم تحظ الا بدعم ضعيف داخل البلاد وذلك لأن الدعم السوفيتي الرمزي لم يكن كافيا لاستعادة السيطرة البيروقراطية . واحتلت قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا في ٢١ أغسطس ١٩٦٨ وحاول السوفيتيون فرض حكومة اختاروا أعضائها بأنفسهم ، كما احتجزوا دويتشيك زعيم الحزب وأولدريتش كيرنك Oldrich Cernik وزعماء اصلاحيين آخرين كرهائن ونقلوهم لوحدة عسكرية في الاتحاد السوفيتي . ولتبرير التدخل نشرت البرافدا Pravda جريدة الحزب الشيوعي افقتاحية تتهم فيها دويتشيك بتكوين جناح يميني وبأنه كون عصبة انتهازية قاموا بأعمال غير مسئولة مما استلزم تدخلا و « مساعدة دولية » من حلف وارسو . ورفض لودفك سقوبودا رئيس الجمهورية الاشتراك في المفاوضات في غياب الزعماء الشرعيين للبلد، مما اضطر برجنيف أن يوافق على اعادة دويتشيك واعوانه لبلدهم . وسيطرت مئات الآلاف من القوات السوفيتية على المواقع الاستراتيجية في تشيكوسلوفاكيا . ولم يتوقع دويتشيك الكثير لانقاذ تجربة الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا ووجه برجنيف بعجرفة شديدة تهمة خيانة المبادئ الدولية الاشتراكية للزعماء التشيكوسلوفاكيين .

وفي براغ شجب مؤتمر الحزب التشيكوسلوفاكي الأربعون بعنف التدخل السوفيتي وطالبهم باطلاق سراح الزعماء المختطفين .

لقد شعر الزعماء بصدمة نفسية وعجزوا عن ايجاد مخرج للموقف الأساوي الذي حلقه الاحتلال العسكري لبلدهم ، مما جعل دويتشيك

ومعاونيه (باستثناء عضو اللجنة التنفيذية ورئيس الجبهة الوطنية د. فرانيسك كريجل (Dr. Frantisek Kriegel) يخضعون فى النهاية للمطالب السوفيتية . وقام برجنيف بإجراء محادثات فى موسكو واستخدم الزعيم السوفيتى أساليب مهينة ليحط من شأن دويتشيك ، وأوضح أن الكرملين لن يسمح بمزيد من البحث عن الاشتراكية ذات الوجه الانسانى . ورغم أن برجنيف كان مقدرًا تمامًا ماقد يثيره التدخل السوفيتى من ثورة بين الأحزاب الديمقراطية والجماعات على الصعيد العالمى، إلا أنه لم يخف احتقاره لكل من جرؤ على توجيه النقد للقرار السوفيتى . وبدأ دويتشيك كما لو كان مسلوب الإرادة ، عاجزًا عن اتخاذ أى إجراء لمواجهة الكارثة . وأصبحت أقصى آماله أن يستطيع - عندما يعود لبراغ - الحفاظ على بعض إنجازاته .

وأدرك دويتشيك أنه لم يعد له أى دور فى السياسات التشيكوسلوفاكية فقد تحدثه العصبية الموالية للسوفيتيين داخل المكتب السياسى ، وفقد دويتشيك دعم انتلجنسيا البلد الناقدة وكذلك دعم حركة الطلاب . لقد أصبح دويتشيك بعد عزله وتغريبه كبش فداء لكل الانتهازيين الذين أرادوا أن يؤكدوا للكرملين دعمهم اللا محدود للتدخل السوفيتى ومن بينهم دجوستاف هوساك الشيوعى السلافى الذى كان واحدًا من أكثر الفاعلين فى ربيع براغ ولكنه فضل تغيير موقفه بعد الغزو . وفى أبريل ١٩٦٩ أصبح هوساك زعيمًا للحزب وأطلق العنان لعملية تطهير واسعة النطاق لأكثر من نصف مليون عضو من بينهم دويتشيك وسمركوفسكى وكريجل Kriegel ، ومليينار .

ورغم أن عملية التدخل العسكرى فى تشيكوسلوفاكيا كان أقل دموية عن مثيلتها فى المجر إلا أن الموقف كان مأسويًا . وقرر الآلاف من المبدعين التشيكوسلوفاكيين طلب اللجوء السياسى للخارج بينما ظل الآخرون يعانون من آثار سياسة « النظامية » أو استعادة النظام التى انتهجها هوساك . ولم يفلح السخط الشعبى المتفاقم أن يمنع الميلاد الجديد للبربرية ، وأصبح الشاعر الفرنسى الشبوعى لويز أرجون Louis Aragon الذى أعلن دعمه العبودى للسوفيتيين بما فى ذلك موافقته على قمع ١٩٥٦ للثورة المجرية وعلى التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ووصف مذبحه الثقافة التشيكوسلوفاكية التى قام بها « النظاميون » بأنها « سلب الروح » . وابتدت الحكومة ما تعرضت له تشيكوسلوفاكيا من عقاب رادع لوقف الصراع « داخل العائلة الشيوعية » إلا أن القضية ، فى الواقع ، كانت قد تجاوزت نطاق « العائلة » ، فقد بلغ التدخل السوفيتى درجة القمع العنيف لأية

محاولة نبذل لاعادة تشييكوسلوفاكيا للثقافة الاوربية والساحة السياسية - وعبر الروائي التشيكي ميلان كنديرا الذي اجبر على مغادرة البلاد بعد عدة سنوات بسبب انتهاكاته السياسية المتكررة حيث قال :

« ان الذي يكمن وراء ستار الدخان الذي يحجب المصطلحات السياسية كالثورة ، الثورة المضادة ، الاشتراكية ، الامبريالية وغيرها ، هو مجرد تبادل للأدوار بين مدنيين • مدنية الامبراطورية السوفيتية والتي غزت قطعة من الغرب ، قطعة من اوربا ، والاخرى المدنية التي تخص بلدان قلب اوربا الاخرى وهذا ما اسماه أرجون Argon » : سلب الروح • وفي يوم ما سوف يكتب جامعو الاساطير السوفيتية عنها باعتبارها فجر التاريخ الجديد الا اننى اراها (سواء اكنت على خطأ أم صواب) بداية لنهاية اوربا » (١٧) .

وبعد الغزو تخلت حملة الدعاية السوفيتية عن طريقها لتبرير حق حلف وارسو في التدخل متى شعر الكرملين بأن « الفتوحات الاشتراكية » تتربص بها المخاطر • ونشرت البرافدا فى السادس والعشرين من سبتمبر مقالة لسيرجى كوفاليف Sergei Kovalev خير الوثائق الخاصة بالشئون الدولية حيث وضع مبدأ السيادة المقيدة بتفاصيله الكاملة • ورأى كوفاليف :

« ان اضعاف أية واحدة من الروابط فى النظام العالمى للاشتراكية يؤثر مباشرة على كل البلدان الاشتراكية ، وكل حزب شيوعى ليس مسئولا عن شعبه فقط وانما عن كل شعوب البلدان الاشتراكية وعن الحركة الشيوعية بكاملها » •

ان البرافدا استنتجت بعد تقديم هذا التفسير لمبادئ السيادة الدولية والمساواة بين الدول الاشتراكية ، وهو التفسير الذى يخدم مصالح الطبقة الحاكمة ، ان الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا يعد تحقيقا لحق البلد فى تقرير مصيره • ان قوات حلف وارسو ، كما ادعى الاتحاد السوفيتى :

« لم نتدخل فى الشئون الداخلية للبلد ، انهم حاربوا دفاعا عن حق الشعب التشيكوسلوفاكى فى تقرير مصيره ليس بالكلام ولكن بالعمل ، حاربوا دفاعا عن حق الشعب فى التفكير وتقرير مصيره بنفسه دون تدخل من جانب المعادين للثورة او الدوجماتية التعديلية او القومية » (١٨) .

واعتبر هذا اللون من الدجل الوقح الاحتلال الأجنبي مساعدة دولية ، ورأى التشيك واليوجوسلافيون أن اللغة المهترئة التي استخدمها المحتلون والنظاميون ترمز للقمع والعودة لتطبيق نوع جديد من السياسة الستالينية ان لم تكن هي ذاتها . واستغرق الشفاء من صدمة التدخل والعودة تدريجيا للصراع من أجل بناء مجتمع مدنى بعيدا عن المؤسسات والقيم الرسمية وقتا طويلا .

وبعد الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا والقمع المشين لحركتها الاصلاحية تشكلت العلاقات بين أقطار حلف وارسو وفقا لتعريف موسكو للسيادة « المقيدة » . والمقى برجنيف فى نوفمبر ١٩٦٨ خطابا فى وارسو حيث أكد من جديد على المبادئ الأساسية لهذا المذهب ورأى السكرتير العام السوفيتى أن الدول الشيوعية جميعا يجب أن تقبل دون اعتراض « المبادئ العامة للماركسية اللينينية » ، وأن أى انشقاق عن ارثوذكسية موسكو المعروفة ستعد خيانة لمبادئ الدولية الاشتراكية وللسوفيتيين الحق فى مجابهتها حتى لو اضطرت للجوء للقوة العسكرية . وبالطبع فإن ماسمى بالنظامية فى تشيكوسلوفاكيا أعطى درسا لا ينسى لكل من تسول له نفسه محاولة تقليد تجربة دويتشيك ، وتلا الصدام مع ربيع براغ أن أطلقت موسكو العنان لحملة ضسارية لقمع أية محاولات اصلاحية سواء فى الاتحاد السوفيتى أو فى الكتلة . لقد عم الفساد فى كل مكان وفقد الشعب روح التضامن وأى شعور بالتفائل . وأثرت حالة التوتر العام على كل بلدان الكتلة الاشتراكية . ومن ثم تم شجب الانفصال لمرة ثانية وأصبح التجرد السياسى والاقتصادى العلامة المبرزة للثقافة السباسبية الستالينية الجديدة التى وصفت دائما بأنها برجينية Brezhnevism .

ولقد تعلم المبدعون النقاد فى أوروبا الشرقية درسا مهما من ربيع براغ اذ اكتشفوا أن اعتقادهم المثالى فى امكانية اصلاح النظام الشيوعى من الداخل أثبت فشله كما أكدوا المعنى الحقيقى للمرونة التى يبيديها الكرملين تجاه أى نموذج بديل للشيوعية بعد الغزو السوفيتى لبلدهم . لقد كانوا شيوعيين مخلصين واعتقدوا ان الزعماء السوفيتيين متمسكون حقا بالاشتراكية كمثال ونموذج . لقد غاب عنهم أن برجنيف ومساعديه لم يكونوا سوى انتهازيين اشتركوا فى المذابح الستالينية ليضمدوا استمرارهم فى وظائفهم ، ولم تكن مقولاتهم عن الحرية وحقوق الفرد سوى شعارات جوفاء . لقد تشكك المبدعون التشيكيون والسلافيون فى صحة المعتقدات الديمقراطية التى تتبناها القيادات الحزبية (دويتشيك

واعوانه) عندها تأكلوا أن ربيع براغ بدأ كحركة استحدثها المصلحون في الحزب ، ولم تبغ سوى التحديث في النظام الشيوعي وليس القضاء عليه .

ان صلابة مصالحى براغ لم تنجم عن اعتقادهم بأن المصدر الوحيد للشرعية السياسية هو هيمنة الشعب . ان الفكرة الأساسية بأن الحزب قادر على ضمان الانتقال للنمذية التي يجب اعتبارها مركزا لانبعث نظام تعددى جعلت الشعب متشككا ومتربدا . وكان فيتسلاف هافيل كاتب المسرحيات والمقالات الشاب واحدا من هؤلاء المصلحين ولم يكن ينمى مثل ميلان كانديرا ولودفك فاكيولك وبافيل كهاوت Pavel Kohout للحزب الشيوعي ولم يؤمن أبدا بالأوهام الخاصة بإمكانية اصلاح النظام القائم من الداخل . وبعد مرور سنوات عدة ، طرح هافيل ملاحظاته التالية حول مدا الديمقراطية الذي يتناهى الشيوعيون المصلحون بقيادة الكسندر دوبتشيك حيث قال :

((ما سبب هذه الشكوك وهذا التردد ؟ . ومبدئيا لا بد أن نعرف مبلغ الاضطراب الذى أصاب قيادة الحزب في مواجهة كل هذه التطورات . فجأة تمتع هؤلاء الناس بدعم وتأييد عاطفى جم ، انه شيء لم يجربوا مثله من قبل لأن نوع الدعم الوحيد الذى عرفوه هو دعم يأتى من اعلى ، لقد ابتهجوا لكل ما يجرى .

ومن ناحية أخرى فقد تضافروا من النمو التلقائى العذيف للارادة الشعبية الطيبة . ومرة بعد أخرى فوجئوا بحماية الشعب اذ أن الاحداث التى جرت بدت مبهمه بل ومخيفة في بعض الأحيان . لقد تجاوزت حدود ((المسموح)) ((والمقبول)) . دعنا نذكر ان هؤلاء الناس كانوا ييروقراطيين حزبيين عاديين نشئوا على مبادئ الحزب ، شربوا من أوهامه وعاداته واجحافه مع شيء من رؤية منهجية صحيحة وخلفية اجتماعية أصيلة وأفق أرحب قليلا ، والاختلاف الوحيد هو أنهم فاقوا هؤلاء الذين احتكروا مراكزهم الطيبة ممارسة للفكر الحر)) (١٩) .

لقد حملت حركة الاصلاح الشيوعية تناقضا فهؤلاء الذين بدءوا الصراع بغية تأمل دقيق للوضع الراهن هم انفسهم حصيلة ، ونتاج الأوضاع القائمة . ان ثورتهم ضد اللا منطقية وظلم الستالينية لم يكن تمردا ضد الوجود الماركسى لبناء « المجتمع الأفضل » ولكنها كانت جهدا يبذل لتصحيح انحرافات برنامج أول ما يتسم به العقلانية والانسانية . لقد كانوا أبناء النظام المخلصين ، ولم تكن معارضتهم للقيادة السابقة تحديا للشرعية الأخلاقية والنظرية للاشتراكية التى على الطراز

السوفيتى . ولم يجرؤ أحد حتى المصلح الراديكالى مثل أوتاسيك Ota sik - أحد الاقتصاديين الرئيسيين لربيع براغ - على تجاوز حدود المنطق السائد أو تصور الضرورة الملحة للتخلى عن الخطسة المركزية .

وكان ميلوفان جيلاس - المنشق اليوجوسلافى - كثيرا ما يشير الى الخطورة التى نطوى عليها الصناعة الشيوعية بأن النظام يمكن ان ترسى قواعده ويكون فاعلا بمجرد تقوية وتدعيم أجزائه الضعيفة والقضاء على الفساد ، والحقيقة ان كل جهاهير بلدان الكتلة السوفيتية كانوا فى حالة عداوة عميقة للنموذج الموجود ورفضوا فكرة استمراريته . وعلى عكس دويتشيك وأصدقائه المثاليين ، فهم المناورون الفاسدون فى الكرملين الواقع السياسى على نحو أفضل . لقد أدركوا ان تقديم أى تنازل لرفع شأن القوى الاجتماعية ودفعها للأمام سيؤدى فى آخر الأمر لمزيد من المطالب الراديكالية . وفى الحقيقة لقد كان برجنيف محقا . لقد كان حتميا أن يسفر تنقيح مفهوم الاشتراكية وتجريدها من الشكل الستالينى المخادع عن سقوط كامل ومدو للنظام القائم :

ان الاحتفاظ بالمؤسسات القائمة دل ضمنا على حصانة العقيدة الرسمية وعدم خضوعها للتفنيد ، وأن المساس بدعوى الحزب الشيوعى بالمعصومية من الخطأ حتى ولو كان هذا الادعاء مجرد تكرار اجبارى للشعائر الجوفاء سوف تنجم عنه - لا محالة - آثار ونتائج مأساوية عاجلة . ان وجود الطبقة الحاكمة امر لا يقبل الجدل لحفظ النظام ومعاملة الرعايا كعبيد خائعين ، لا كمواطنين أحرار لهم حقوق انسانية بعيدا عن مناخ التهديد والوعيد والرعب الذى يعيشون فيه كما كان وجودها ضرورة حتى لا يتمكن الرعايا من تنظيم أى احتجاجات أو عصيان مدنى .

ومن ثم كان لزاما على البوليس السرى ان يسهر على الهيمنة الديكتاتورية وان يقضى - باستمرار - على أى شكل من أشكال الانشقاق سواء داخل أو خارج الحزب الحاكم . ورغم أن البرجينية خفت من وطأة الطريقة الستالينية الارهابية ، إلا أنها استمرت فى الاعتماد على نفس المؤسسات والتكتيك الذى يمنع أى شكل من أشكال التخثر لسخط الشعب فتتحول لحركات سياسية أصيلة . لقد حلل روبرت كونكويست Robert Conquest الطبيعة الثقافية السوفيتية تحت حكم برجنيف فقال :

« ان السلطة تتركز فى يد بروتقراطية عنيت نفسها ، واعدت كل الترتيبات المؤسساتية لتحقيق أحد هدفين - اما ضمان استمرار هذه

الحقيّة أو اخفاؤها • ومن ثم كان هناك فوعان من المؤسسات فى البلاد ،
نوع تنقل من خلاله السلطة وآخر يلقى على أى نوع من السيادة
الشمعية ظلال تحجبها • وكلا النظامين اكتمل طورهما فى زمن ستالين
وكلاهما يسير الأمور بنفس الطريقة وحتى اليوم « (٢٠) •

✧ التمرد والتصعيد فى بولندا :

ان تحول برجنيف عندما جنح لمواكبة العصر وتحديث الستالينية
ترك آثاره على الشكل المميز للنظم التى على الطراز السوفيتى فى
أوربا الشرقية وهنا أيضا كان تيتو استثناء وذلك لعلاقته المتميزة مع
الكرملين ولما يتمتع به من استقلالية أرحب • وفى بلدان أوربا الشرقية
الأخرى أدى رفض الإصلاحات وتشديد السيطرة الأيديولوجية والسياسية
الى فوضى عامة غامرة وارتباك تفشى بين أوساط المبدعين النقاد ،
واحساس عام بالعجز والومن دب بين المعارضين للأنظمة • وبدأ أن
أوربا الشرقية سوف تشفى من حالة الشلل الجزئى الذى أصابها
بسبب قيام أحلاف فاسدة وغير فعالة تفرض الوحدة على مجتمعات
يزداد سخطها ، وراحت المنطقة كلها فى سبات عميق خلال حقبة
السبعينيات حيث انفرد الحكام بالسلطة دون ظهور تحد جاد من القاعدة
الشمعية • وبدأ أن « التهيدة » بأوربا الشرقية التى كانت أحد
الأهداف الرئيسية لسياسة برجنيف الخارجية قد تحققت بالفعل الا ان
بولندا أثارت ثائبة مشكلات وازمات فى الكتلة فى أواخر السبعينيات
والحقيقة أن البولنديين لم يشعروا بالرضا أبدا •

ففى عام ١٩٦٨ وقعت صدامات بين الطلاب الراديكاليين والأجهزة
القمعية • ورغم مضى الشيوعيين البولنديين فى قمعهم لأية مبادرات
ثورية قد تاتى من القاعدة ومنع اقامة أى اتحاد بين العمال والمفكرين
الا انهم لم يستطيعوا منع تصاعد النقابات المشتعلة • ورغم الجهود
التى بذلها البوليس لفك أو اصر أية حركة تهدف لاقعة هذا الاتصاف
بين العمال والمفكرين فان المدنيين البولنديين المدافعين عن الفعالية (٢١)
خططوا لاختراق القمع الرسمى وتدشين موجة مضادة للشمولية والتى
ستطبخ فى نهاية الأمر بالأنظمة الشبوعية فى أوربا الشرقية •

ان تمرد البولنديين فى نهاية الستينيات كان مقدمة للاختراق
التاريخى للجسد الشمولى فى بولندا • لقد تخلى فلاديسلاف جوميلكا
الزعيم الذى أتى للسلطة فى أكتوبر ١٩٥٦ كممثل للاتجاه الليبرالى داخل
الحزب الشيوعى عن البرنامج الأولى المعادى للستالينية ، وبدلا من

توسيع نطاق الاصلاحات التى وعد بها شرع فى تمجيد مبدأ المحافظة على غرار الأسلوب البرجنىفى كما خطط للتخلص من المفكرين والنقاد . وانقسم ح من اصار جومينا والعصبة الراديحايه القوميہ الصاعدة برئاسة الجيرال متسلاف مونسار Mieczysław Moszar وزير الشؤون الداخنية ورئيس اتحاد الفلاحين الشيوعيين السابق اثناء الحرب العالمية الثانية زعامة الحزب . استغل مونسار بعد توليه الحكم الانجاه المعادى للأجانب واتهم جوميلكا بالدعة فى تعامله مع « المؤامرة الامبريالية الصهيونية » المزعمومة . وفى نفس الوقت استهدف مويدير مونسار تنفيذ اقتراحات خاصة بالاصلاحات السياسية والاقتصادية التى اعتبروها سببا فى أرجحة قارب الاشتراكية . لقد تبنى مونسار ايدلوجية المعاداة السريعة للسامية مع الكره الشديد للبرالية والديمقراطية . ان المصدر الاساسى لهذه النظريات هو الارب التقليدى المعادى للسامية والذى ظهر فى الفترة التى توسطت الحرب على يد مؤيدى الحزب القومى الديمقراطى المغالى فى القومية والشوفينية ، ولان المفكرين النقاد يرمزون لبحث الأمة عن المجتمع المفتوح ؛ فلم تدخر حملة مونسار أى جهد لتشويه صورة الانتلجنسيا الليبرالية البولندية (٢٢) . وقال البرفسور جيرسى هولتسر Jerzyholzer المفكر الليبرالى الكاثولىكى فى رصده لنوايا الحملة المعادية للسامية التى تناور الراى العام وذلك بتفجير خرافات معادية للأجانب :

« ان مارس [١٩٦٨] يمثل مناورة محكمة استهدفت ضمير شرائح عريضة من الجماهير ، ولعبت معاداة السامية دورا جوهريا فى هذه المناورة . ومنذ امد ادعو ان العداوة الصهيونية الخفية لرخاء بولندا هى المسئولة عما اصاب بولندا من سوء طالع . ان المحاولات التى تقوم بها لنفسب كل النجاحات لأنفسنا وكل الاتهامات الممكنة لليهود هى مجرد حنق ليس [الا] على اليهود بل على الأمة البولندية كلها » (٢٣) .

لقد حاولت فصائل أخرى داخل الائتلاف الشيوعى الدفاع عن التهديلات التوافقية التكنوقراطية التى تهدف لتحسين النظام القائم اداريا . وكان ادوارد جيريك Edward Gierak آنذاك واحداً من زعماء هذه المجموعة ثم أصبح زعيم الحزب فى المنطقة الصناعية فى سيلسيا Silesia . وكان جوميلكا محاصراً بالعصبيية الليبرالية التى تتضاءل وبالمجموعة التكنوقراطية وبالعناصر القومية التى تتزايد حدةها ومن ثم

حاول الإبقاء على المركزية واعتمد كثيرا على اتصالاته الشخصية مع الزعماء السوفييتيين .

ان الرجل الذى شجب بقوة « عبادة الفرد » فى عام ١٩٥٦ هو نفسه الذى أعيد الآن الى مجموعة صناع القرار — واستلهمت قراراتهم من سنالين ومنها ما بنى على وجهات نظر شخصية بحته تحتقر وجهات نظر الآخرين ، وهو ما أسفر عن وقوع المأساة وعجلت بالمزيد من التفكك والفساد (٢٤) .

ان الاحوال الاقتصادية المتردية والافتقار للثقة فى الزعماء أسفرا عن انفجار الازمة الجديدة فى بولندا ومهد الاضطراب الاجتماعى لانهيار استراتيجية جوميلكا لتحقيق الاستقرار . وتشكلت حركة طلابية عارمة استلهمت قوتها من التفجرات التى وقعت فى تشيكوسلوفاكيا ومن التيار العام الذى عم أوروبا للدفاع عن الفعالية المدنية .

ومن الكتابات الناقدة لعدد من المبدعين الكاثوليكين والماركسيين الجدد الذين ألقوا الضوء على التناقضات التى لا يمكن تجاهلها أو تجاهلها فى النظام القائم . وكمثال على ذلك قام شابان ماركسيان فى بداية عام ١٩٦٥ وهما جيسك كورن Jacek Kuron وكارول مودزلفسكى Karol Modzelewski بتوجيه خطاب مفتوح لحزب العمال البولندى المتحد — أى الحزب الشيوعى — وقيد احتجاجا على الديكتاتوريات البيروقراطية القائمة . لقد أثار الخطاب غضب جوميلكا حتى أنه وضع المفكرين فى المعتقل (٢٥) وطرد — كجزء من الحملة القمعية — أكثر فلاسفة بولندا الماركسيين شهرة ليتسك كولاكفسكى من الحزب ومنعه من التدريس فى جامعة وارسو فترك بولندا وانتقل لتدريس الفلسفة فى إنجلترا والولايات المتحدة .

وفى ربيع عام ١٩٦٨ وصل الصراع بين الحزب والمفكرين ذروته . وفى مارس قررت الحكومة أن تمنع آدم ميتشيوتز Adam Michiewicz من عرض مسرحيته الكلاسيكية الوطنية « جدتنا حواء The Forebears Eve » وزعمت أن هذا العرض سيسفر عن إعلاء موجة المعادة للسوفييتية . واحتج اتحاد العمال على رقابة الحكومة واتهم الحكام بالجهل والفساد الأخلاقى . ونظم الطلاب فى جامعة وارسو احتجاجا الا أن النظام قرر ردعهم بأساليب ارهابية . وشن سفاحو البوليس السياسى والعسائون المسلحون ، حملة على حرم الجامعة ، نجم عنها اصابة واعتقال مئات من الطلبة . وبعد هذا التمرد، اضرب طلاب المدارس والجامعات .

وعبر ستيفن كردينال فيتزنسكى Steven Cardinal Wyszynski

كبير رؤساء بولندا عن تخوفه من عواقب الطريقة الوحشية التى مارسنها الحكومة ضد احتجاج الطلاب المشروع الذى عبروا فيه عن شكواهم . ويعد تمرد الشباب الحركة الاجتماعية الواسعة النطاق الأولى من نوعها منذ أكتوبر عام ١٩٥٦ . ان المفكرين الذين أملوا ذات يوم ان يقوم الحزب الشيوعى باصلاحات حقيقية كانوا من بين المحرضين والمؤيدين لهذا التمرد وكانت حركة مارس ١٩٦٨ هى النهاية للأمال التى هفت الى اكتساب الحزب قدرة على التغيير الذاتى . لقد كان التمرد لجيل فقد هويته مع وجود القيم الفاسدة والمفسدة للطبقة الحاكمة . ورغم أن الطلاب حرصوا على اعلان التزامهم بالاشتراكية الانسانية الا أنهم اعلنوا عن نيتهم لتشكيل منظمة متحررة من سيطرة ورقابة الحزب .

واتهم كل من جيريك وموتسار جوميلكا « برضاه الشخصى عن حركة التعديلية » وطالبا بقمع يكون عبرة للحركة الديمقراطية . واستمر الصراع بين جوميلكا وموتسار للعام التالى ، فحاول الأول أن يعبئ العمال لصالحه بينما أكد الأخير على معاداته الضارية للأنشطة الابداعية والسامية . ومثلت هذه الصراعات عوائق تحول دون اقامة سياسة موحدة متسقة فى القمة . وأطلق الستالينيون الجدد الشوفينيون شبحا جديدا يثير دائما « العداوة الداخلية » .

وبدلا من تفهم الأسباب السياسية لاحتجاج الطلاب وجهت القيادة اللوم « للمؤامرة الامبريالية الصهيونية » الاسطورية التى أثارت الاضطراب والقلق . وهلل الاعلام الرسمى للقومية الرومانية ولم يكف عن استخدام صيغ مبتذلة تشابه مثيلاتها النازية فى هجومهم على المفكرين النقاد والطلاب . لقد كانت الفرصة متاحة لتمرد ١٩٦٨ كى يحرز النصر وذلك لما أظهره من بطولة الا أن نقطة ضعفه الأساسية كانت فى طبيعته الابداعية البحتة وغياب التعاون بين زعماء الاحتجاج الطلابى وبين العمال الذين لم يدركوا أن الحملة القمعية الجديدة سوف تنال منهم أيضا .

وفهم العمال تمرد الطلاب بشكل افضل حال تردى الأوضاع الاقتصادية وأدركوا أن العيش على الوعود الفضفاضة التى تجنلها الحكومة بهدف التسكين شىء لا يمكن احتماله .

وقام جوميلكا البيروقراطى الذى عزل نفسه تماما عن جمهور الحزب بمجموعة من الاجراءات التى لم تلق قبولا جماهيريا وذلك فى

ديسمبر ١٩٧٠ فرفع أسعار الطعام والوقود بنسبة ثلاثين فى المئة .
وخرجت مسيرات عمالية كبيرة فى المدن العمالية وبدأت فى ميناء جدانسك
Gdansk .

ونجم عن تلك التظاهرات انهيار التوازن والتماسك فى
قمة الحزب . ووصف جوميلكا ما أحدثه العمال من قلق بأنها «مضادة
للثورة » وأمر الجيش والبوليس بإطلاق النار على المتظاهرين .

ان الرجل الذى وصل للسلطة كرمز يمثل أحلام العمال من أجل
حياة أفضل ختم وظيفته السياسية كمستبد عنيف يقمع بروليتارية
بولندا المتمردة .

واستفادت عصابة التكنوقراط من فقدان جوميلكا لشعبيته وخططوا
للاطاحة به هو ومؤيديه . وفور انتخابه كسكرتير أول للحزب ادان
ادوارد جيريك الاجراءات الانتقامية وقامتعهد فريد من نوعه للحفاظ على
رباط وثيق مع طبقة العمال البولندية . ولسخرية الأقدار ان جيريك
نفسه أمر البوليس بعد عشرة أعوام عندما تفجر غضب العمال من جديد
فى جدانسك بإطلاق النار على المضربين ، الا أن تحرك البيروقراطية
الحزبية جاء هذه المرة متأخرا ، فعجزت عن قمع الحركة . لقد مد العمال
والمبدعون جسور الروابط الفعلية بينهما والتي فسر غيابها نجاح الأعمال
القمعية السابقة . وبعد اضراب العمال عام ١٩٧٦ شكلت لجنة الدفاع
عن العمال KOR Worker's Defense Committee التى أسسها
المدافعون عن الحقوق المدنية والمفكرون النقاد بما فيهم الذين شاركوا فى
حركة ١٩٦٨ (٢٦) . وعندما بدأ الاضراب فى جدانسك فى صيف ١٩٨٠ ولم
يكن العمال وحدهم فقد تلقوا الدعم السياسى الضرورى من لجنة الدفاع
عن العمال (KOR) ومن المناضلين الذين ذهبوا لجدانسك وأصبحوا
مستشارين للجنة الاضراب الداخلية بالمصنع . لقد قام المفكرون أمثال
تاديوتس مازوفسكى Tadeusz Mazowiecki وأدم متشنك وجاسيك كيرن
Jacek Kurn وبرونسلاف جيرميك Bronislaw Geremek بدور بارز
فى المفاوضات التى تمت بين الحكومة والعمال .

لقد وقع اجتياح عام ١٩٨٠ فى بولندا لأسباب عديدة منها تزايد
انحرافات قيادات الحزب الشيوعى وتدنى المستوى المعيشى للجماهير،
والتردى الاجتماعى العام والنضج السريع للمجتمع البولندى المدنى .
وانبعثت الهامات السياسية طال سباتها بسبب بطلان زعم الحزب
الشيوعى بضرورة تفرد السلطة السياسية ومن ثم لم يعد يلقى أى

دعم حتى من البيروقراطيين المحترفين • ان فقدان الحلف الحاكم لثقتهم
بنفسه كان مقدمة لتصاعد مبداء الفعالية فيما بين العناصر الراديكالية
والانتلجنسيا وطبقة العمال • وعجزت قيادة جيريك لفسادها وعدم
فاعليتها ان نجابه مشكلات البلد الاجتماعية والاقتصادية ولم يقدم
تحقيرهم من شأن أزمة العمال أى علاجات للمصاعب والمحن المتزايدة
التي تواجهها بولندا (٢٧) •

هوامش الفصل الثالث

- (١) For excellent insights into the background of the conspiracy that eliminated Khrushchen, see Sergei Khrushchev, on Khrushchev (Boston : Little, Brown & Company, 1990).
- (٢) الإصلاحية تيار سياسى داخل الحركة العمالية ينفى ضرورة النضال الطبقي والثورة السياسية ويقف الى جانب التعاون بين الطبقات ويسعى الى جعل الرأسمالية مجتمع « الرخاء الشامل » بواسطة الاصلاحات التى تجرى فى اطار الشرعية البرجوازية - (المترجمة)
- (٣) الليفيثان Leviathan . هو وحش بحرى عملاق ولكن يطلق اسمه على الدولة ذات البيروقراطيات العتيقة - (المترجمة)
- (٤) See the interview with Eduard Goldstücker in Antonin Liehm, *Trois générations . Entretiens sur le phénomène culturel tchécoslovaque* (Paris : Gallimard, 1980), p. 212.
- (٥) See the extensive passages of Ludvik Vaculik's speech in Harry Schwarz, *Prague's 200 Days : The Struggle for Democracy in Czechoslovakia* (New York : Praeger, 1969), pp. 47-48.
- (٦) For Dubcek's political background, see William Showcross, *Dubcek Revised and Updated Edition* (New York : Simon & Schuster/Touchstone, 1990).
- (٧) Vojtech Mastny, *Czechoslovakia : Crisis in World Communism* (New York : Facts on File, 1972), pp. 21-25.
- (٨) For thoughtful contributions to the discussion on Eurocommunism, see George Schwab, ed., *Eurocommunism : The Ideological and political - Theoretical Foundations* (Westport, Conn. : Greenwood Press, 1981).
- (٩) For the full text of the manifesto, see Mastny, *Czechoslovakia*, Ibid., p. 28-34.
- (١٠) Ibid., pp. 36.
- (١١) Ibid., p. 44.
- (١٢) Antonin J. Liehm, "It Was You Who Did It !" in Jiri Pehe., ed., *The Prague Spring : A Mixed Legacy* (New York : Freedom House, 1988), p. 172.

Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Pantheon Books, 1989), pp. 256-57. (١٢)

(١٤) يعد ايفان سيفتاك أحد الكتاب المعروفين بتوجههم الراديكالي نحو الديمقراطية .
وقد ذاق القمع والاضطهاد من قبل القيادة الشيوعية التشيكوسلوفاكية في صيف ١٩٦٨ .
وبعد التدخل السوفيتي صنفته وسائل الاعلام كواحد من الأيديولوجيين للحركة المضادة للثورة
والتي نجح تدخل حلف وارسو في منعها ، وبعد عقدين من النفي في الولايات المتحدة
الأمريكية عاد الى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ بعد انهيار الأنظمة الشيوعية .

Ivan Svitak, "The Premature Prestoika," in Pehe, Prague, (١٥)
Spring, p. 179.

Masny, Czechoslovakia, p. 59 (١٦)

Milan Kundera, *The Joke* (New York : Penguin Books, 1982), (١٧)
"Author's Preface," p. xiv.

Masny, Czechoslovakia, pp. 144-45. (١٨)

Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with Karel Hvizdala* (New York : Knopf, 1990), p. 95. (١٩)

Robert Conquest, *Russia After Khrushchev* (New York : Praeger, 1965), p. 6. (٢٠)

(٢١) لم يكن كونكويست Conquest الوحيد الذي أكد على الاستمرارية المؤسسية
بين الستالينية والبرجينية إلا أن الدراسين الآخرين الذين شاركوا كونكويست وجهة نظره
كانوا زيغنيوبريجنسكي وليونارد شابيرو Leonard Shapiro ، وقد أشار الى أن
الستالينية سوف تتقوض طالما أبقيت الأنظمة السوفيتية على احتقارها لحكم القانون .

على الستالينية :

See Leonard Shapiro, *The Communist Party of the Soviet Union* (New York : Vintage Books, 1981), pp. 628-29.

See Jakub Karpinski, *Countdown : The Polish Upheavals of 1956, 1968, 1970, 1976, 1980 ...* (New York : Karz-Cohl, 1982), pp. 105-55. (٢٢)

Jerzy Holzelr quoted in Tadeusz Szafar, "Anti-Semitism : A Trusty Weapon." in Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Revolution* (New York : Vintage Books, 1983), p. 120. (٢٣)

Jan de Weydenthal, *The Communists of Poland : An Historical Outline* (Stanford, Calif. ; Hoover Institution Press, 1986), p. 121; Ray Taras, *Poland : Socialist State, Rebellious Nation* (Boulder, Colo. : Westview, 1986), pp. 103-17. (٢٤)

"The Kuron-Modzelewski Open Letter to the Party," in Gale (20)
Stokes, ed., *From Stalinism to Pluralism : A Documentary History
of Eastern Europe Since 1945* (New York : Oxford University Press,
1991), pp. 108-14.

Jan Josef Lipski, KOR : *Workers' Defense Committee in* (21)
Poland 1976-1981 (Berkeley : University of California Press, 1985)..
For the birth of Solidarity, see Neal Ascherson, *The Polish* (22)
August (New York : Viking Press, 1982).

الفصل الرابع

البعث العظيم

صعود المجتمع المدني

« لقد كان بعثا عظيما من قبر العبودية لسماء الحرية . لقد انطلقت روحى من سجنها ، ومضى الجبن وحل محله التحدى ، والآن فأننى عقدت العزم . ومهما طال بقائى كمعد فلن اظل كذلك الى الأبد » .

فردريك دوجلاس

Frederik Douglass

بعد ربيع براغ ، عاد عدد قليل من المنشقين بأوربا الشرقية لأوهامهم الخاصة بإمكانية تعديل الشيوعية من خلال ما يقوم به الجناح الليبرالى فى الحزب من مبادرات اصلاحية . لقد بات واضحا أن الاتحاد السوفيتى لن يسمح بأية محاولة جديدة لتبنى الفكرة المشنومة الخاصة بالاشتراكية ذات الوجه الانسانى . وظل الزعماء السوفيت على احتكارهم للماركسية اللينينية واقتلعوا - بحقد - جذور أى شكل جديد من أشكال « الانحراف » عن هذه العقيدة ، بينما أدرك المفكرون النقاد عبر بلدان أوربا الشرقية أن المطالبة الحقيقية بمجتمع ، يتمتع أفراداه بحياة مستقلة لا يمكن أن تقتصر على برنامج محدود يطرحه الليبراليون فى الحزب الشيوعى . وفى عام ١٩٧٨ حدد آدم ميتشك نقاط الضعف الأساسى فى الإصلاح داخل الحزب فى التوافق الذى تم بين المعارضة والأسس النظرية والميتافيزيقية للنظام القائم . لقد ظل المفكرون النقاد - رغم اشمئزازهم من البيروقراطية - على ولائهم لقيم الاشتراكية السامية ، ولم ينفصل نسقهم القيمى عن ذلك الذى بشرت به الأيديولوجيا الرسمية . ورائت الجماهير الساخطة أن الطبيعة الثورية للاشتراكية . قد زيفتها الممارسات الستالينية المقيته التى أثارت الشك والاحباط بين أفراد المجتمع . وقارن ميتشك تجسرية اكتوبر البولندية بربيع براغ فقال :

« رغم أن ربيع براغ لم يكن بتحريض من موسكو مثل أكتوبر البولندي ، إلا أن هناك تشابها بينهما هو ما تبع كليهما من اندفاع حزبي في اتجاه « حركة التحديث » ، وهو ما أوضح نقاط ضعف وقوة هذه الحركة . وترجع قوة الحركة لتفكك النظام من الداخل الذي تحول الى قبلة موقوته — اذا جاز التعبير — توشك على الانفجار ، كما ترجع لعدم كفاءة وفعالية الأجهزة الحزبية العليا أى الأجهزة الأمنية والجيش . وكمن ضعفها في عجزها عن ادراك هويتها التاريخية الحقيقية أو بالأحرى تحديد غاياتها .

واستخدم زعماءها المصطلح العام للديمقراطية في هذه الحركة إلا أن دلالة هذا المصطلح كانت سلبية تماما ومن ثم فقد معناه لدى الجماهير . ان الزعماء أنفسهم — فى مطالبتهم الناس بالواقعية والتحديث — فشلوا فى تقدير الموقف الجيوبولتيكى (١) (فى حالة تشيكوسلوفاكيا) وفى تقدير الأمانى الحقيقية للشعب (فى حالة بولندا) واستعادوا نظام الحزب الواحد الذى لا يتسم الا لوجهاء الحزب . وفى الحالتين كانت النتيجة هى الاضطراب » (٢) .

ان ربيع براغ كان أحد روافد الخروتشوفية الشيوعية ومن ثم فتد ما له من قبول لدى الجماهير . وأصبحت الحاجة ملحة لاستراتيجية مختلفة وهى العودة للمحافظة السياسية الخروتشوفية والتي لا تعنى تماما العودة الى الستالينية بل تمثل مرحلة جديدة — الى حد ما — من فساد الأنظمة الشيوعية . ووضعت هذه الاستراتيجية فى اعتبارها أسطورة النظام الموجود الآيلة للسقوط ، وانتهاء الجيل الأول من الصليبيين الستالينيين وصعود الأحلاف السياسية التى لا تعنى الا بالحفاظ على امتيازاتهم وانحرف النظام عن مسيرته الأولى وأصبح الركود والجمود هما سمتيه الرئيسيتين وتفشتا فى الأيديولوجيا الآلية والروتينية وتصدع الحكم فأصبح يسيرا على المعارضة مقاومته ثم هدمه .

وفى السبعينيات لم يكن هناك فى دول أوروبا الشرقية الشيوعية زعماء يتمتعون بنفوذ متميز وغابت الأساليب الأيدلوجية المتسقة القادرة على تعبئة شرائح عريضة من الشعب . وافتقرت الساحة السياسية للاتحادات الحقيقية اذ أن السلطة اعتبرتها أخطر من معارضيها الرأسمالين . لقد استبدل النظام الكلاسيكى الشمولى بخليط من السلطوية التكنوقراطية والبيروقراطية الجامدة ، ولم تعد سيكولوجيا الارهاب ، الذى جعل الستالينية هى الممكن الوحيد وهو ما سبب

الاحباط للشعب شبها يخافه أحد . لقد لجأت هذه الأنظمة دائما
لوسائل وحشية لقمع المعارضة . ورغم أن المعارضون الذين طرحوا
رؤى خاصة بالتطوير وبتكوين أحزاب سياسية بديلة كانوا قلة إلا أن
الانشقاق عن الستالينية بدا ممكنا ، ويمكن أن يكون له أثر اجتماعي
حقيقي . أن الأنظمة وقعت تحت وطأة عبء جمود الائتلاف وتجاهلات
الحمية التاريخية وأظهرت دلائل التعصب مما أدى إلى صعود للمجتمع
المدنى الذى طال قمعه فاستشعر هوبته وأطلق العنان لمعركة حامية
من أجل استعادة المناخ الشعبى .

ان المعركة الى خاضها المجتمع المدنى فى السبعينيات والثمانينيات
دفعها الأمل فى التغير الاجتماعى واقتناع الناس بأن اللعبة ليست أبدية
وأن الكرامة الانسانية شئ يستحق النضحية . ان فرصة نجاح هذه
المعركة كانت كبيرة وحقيقية . وبزغت فى بلدان قلب أوروبا - ألمانيا
الشرقية، بولندا ، المجر و تشيكوسلوفاكيا - وكذلك رومانيا الحركات
والجماعات الاجتماعية التى أعلنت تحديها للنظام وسعت لتكوين شبكة
من المبادرات غير الرسمية والتى تناسبت فى تطورها ودفاعها عن
مبدأ الفعالية من أجل تغيير اجتماعى مع تآكل الأجهزة الحاكمة ،
كما تعد نتاجا طبيعيا للطريقة المشينة التى استخدمتها الأنظمة فى التعامل
مع المعارضة .

وشهدت الأقطار الخمسة محاولات عنيفة لسحق المبادرات
الاجتماعية التى تهدف لاحراز التغيير الا ان ذلك أدى الى نتائج عكسية .
ففى بولندا قوبلت جهود جيريك من أجل فك عرى المبادرات المدنية
بردود فعل راديكالية أخذت فى التزايد من جانب المجتمع المدنى الصاعد .
وفى ألمانيا الديمقراطية سحقت أجهزة البوليس الضخمة والحزب الحاكم
كل أشكال الانشقاق وسجن معظم النقاد أو أجبروا على الهجرة .

أما فى المجر فقد رفض نظام كادار رفضا باتا الاستسلام لتصاعد
الحركات المعارضة ، كما مارست سياسات المهادنة الكادارية أنواعا
أخرى من المناورات لمواجهة المعارضين فلم تسمع لاعتقالهم فقط ، بل تجرعوا
أنواعا شتى من الاضطهاد . فحرم فلاسفة مدرسة بودابست أمثال
فيرنز فيهر وآجنس هيلر وجورجى وماريا ماركس Maria Markus
وجنوس كسى وميهالى فاجدا Mihaly Vajda وجورجى بنس
(Gyorgy Bence) من حقهم فى التدريس والنشر فى بلادهم . وأجبر
بعضهم على الهجرة بينما بقى آخرون أمثال كيسى فى المجر حيث أسسوا

في الثمانينيات معارضة « النشر السرى » Samizdat (٣) ، وأصبح هذا المصطلح هو العلامة المميزة لكل المواد المنشورة سرا ، في الأنظمة الشيوعية ومنعت السلطة نشر أعمال منشقين مجريين آخرين ومعروفين جيدا أمثال ميلكلوس هراتسي والقصاص الشهير جورجى كونراد .

لقد اختلف رد فعل جوستاف هوسكا على الانشقاق في يوجوسلافيا ، عما اتخذته كادار في المجر . لقد خضع أعضاء حركة حقوق الانسان السرية والتي صدر عنها ميثاق ٧٧ في يوجوسلافيا لاستجوابات البوليسى السياسى وحرّم بعضهم من وظائفه وتم اعتقال البعض الآخر .

لقد لاقى النقاد الاجتماعيون أسوأ اضطهاد في رومانيا تحت قيادة نيكولاى شوشيسكو ، ان جرم الطاغية أى نوع من أنواع المعارضة . واعتبروا النقد الموجه لشوشيسكو من قبل هؤلاء الذين يعيشون تحت النظام شبه الستالينى تقويضا لدعائم النظام . واحتقر شوشيسكو المنشقين واصطدم بهم وهاجم المحاولات المتواضعة التى قام بها زعماء تابعون للحزب للمطالبة بقيادة جماعية . وفى مثل هذه الظروف كانت فكرة التحدى الجماعى للنظام تعد فكرة انتحارية .

ووقع أكثر الانشقاقات أهمية داخل الحزب فى عام ١٩٧٩ عندما باغت الزعيم الحزبى المتمرس قنستانتين بيرفالشيسكو Constantin Pirvulescu المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى الرومانى واتهم شوشيسكو بأنه بنى ديكتاتورية شخصية . واعتقل بيرفالشيسكو فوراً وحددت اقامته جبريا كما سحقت قبل ذلك بثلاث سنوات الحركة الديمقراطية التى بادر بها الكاتب بول جوما (السجين السياسى السابق فى المعتقلات الستالينية) الذى أيد ميثاق ٧٧ وأجبر جوما نفسه على الهجرة الى فرنسا . وفى صيف عام ١٩٧٧ نظم عمال المناجم فى وادى جيو Jiu Valley اضرابا مطالبين بعدة مطالب منها التحرر من النظام السياسى . وأجهض الاضراب واختفى زعماءه من عمال التعدين دون أى أثر يذكر .

واقترنت أشكال الأنشطة فى بلدان مثل رومانيا وبلغاريا على الاضرابات الفردية . وترى فى حالة الرياضى الرومانى والفاعل فى مجال حقوق الانسان ميهائى بوتس مثالا واضحا تماما على القمع ان وجهه فى عامى ١٩٧٧ و ١٩٨٧ نقدا صريحا لنظام شاوسيسكو كما أجرى مقابلات

مع وكالة صحيفة اجنبية وخاطب الحكومة فى بيانات لا حصر لها مؤكدا على أن هذا البلد فى طريقه لكارثة قومية . ولم يكن بوتس يتحدى النظام الاجتماعى القائم ولكن كان يؤكد على فشل القيادة فى ادراك مدى ديماسوجية نظامها . وفى عام ١٩٨٧ ترك بوتس رومانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية بعد توجيه الحكومة تهديداتها له وحددت منفاه فى احدى القرى . وبعد رحيل بوتس بفترة ليست طويلة وقعت رومانيا تحت وطأة التغيرات التى تجرى فى الكتلة كلها ، والتسردى الملحوظ فى بنية النظام القائم الذى تمثله زمرة شوشيسكر ، مما ادى الى تزايد الانشقاق فى عامى ١٩٨٨ و ١٩٨٩ .

ورغم تزايد اشكال الانشقاق الفردى والجماعى فى رومانيا وفى كل بلدان حلف وارسو ، ورغم تفشى الفساد السياسى والأخلاقي والدياس فقد أصرت قيادة الحزب على التمسك بالسلطة وعدم التخلّى عنها مهما كان الثمن . وحاول زعماء بلدان حلف وارسو تجاهل الأشكال الوليدة للفعالية السياسية ووضعها على هامش العمل السياسى . وفى هذه الظروف كان ميلاد حركة تضامن فى بولندا بمثابة طوق النجاة الحقيقى . وبدأ بعد تشكيل حركة تضامن التى سبقتها أنشطة لجنة الدفاع عن العمال (KOR) أن النظام — حتى وهو تحت المظلة البرجنيقية — فى طريقه لأزمة طاحنة . ويتطلب فهم تطور المبادرات التى قام بها المجتمع المدنى ادراك حجم الدور الذى قامت به المؤسسات المستقلة فى بولندا بداية بالكنيسة الكاثوليكية وكذلك دور دوائر المفكرين الكاثوليك ، بالإضافة الى عناصر أخرى مهمة منها تقوية أواصر الروابط بين المدنيين البولنديين المنادين بمبدأ الفعالية ومصادر الدعم والمعلومات فى أوروبا وأمريكا بما فى ذلك مجلة الثقافة « كولتورا Kultura » التى تصدر فى باريس والتى مدت قناة اتصال كانت جسرا يربط بين المفكرين النقاد داخل وخارج بولندا (٤) .

مقدمات صعود المجتمع المدنى :

ان منظمة تضامن فتحت فصلا جديداً فى تاريخ أوروبا الشرقية باستخدامها لكل الوسائل والامكانيات ، لايقاظ الاتجاهات الاجتماعية التى طال سباتها وبفضوحها للتصديعات التى أصابت الصرح التوتاليتارى ، وتبع انهيار هذه الأنظمة بعث المجتمع المدنى . ان بعث المجتمع المدنى فى بولندا جاء نتيجة طبيعية لمقدمات عدة منها فقدان الأحزاب الحاكمة لسلطتها وهيبتها وثقتها بنفسها ، إضافة الى بعض العوامل الدولية التى لعبت دوراً أثر فى تطور حركات المواطنين

فى قلب أوربا الشرقية مثل : توقيع اتفاقات هلسنكى Helsinki Agreement فى عام ١٩٧٥ من قبل ممثلى حلف وارسو . وكذلك الاهتمام بميثاق حقوق الانسان .

ولم يكن برجنىف أو جيريك هوساك أو كادار مؤمنين ايماننا حقيقيا بحقوق الانسان ولم يكن لديهم أى استعداد للاستمرار والعمل وفق المواثيق الدولية ، الا ان هؤلاء الزعماء أدركوا أن مبادئ المدنيين المدافعين عن الفعالية السياسية تتفوق على عقائد الحزب الجامدة . لقد نجح المدنيون فى اجبار حكوماتهم على التصرف بما يتوافق مع المعاهدات الدولية واضعين فى الاعتبار حقوق الانسان والمواطنين . ومن تلك اللحظة أصبحت هذه الجماعات غير الرسمية قادرة على تشكيل لجان عديدة فى الدول الشيوعية للدفاع عن المناضلين الذين عانوا الاضطهاد . لقد منح الزعماء السوفيتيون النقاد المحليين فرصة غير مسبقة لتوجيه التساؤلات والمساءلات عن سياسات النظام وذلك رغبة منهم فى الظهور للعبان كشيوخيين صادقين . ان وضع الزعماء فى موقف دفاع لمخالفتهم الوعود التى أجذلوها والخاصة بتبنى انظمتهم لاستراتيجية جديدة تجاه جماعات المجتمع المدنى الصاعد فى أوربا الشرقية والتضامن مع ضحايا الانتهاكات لحقوق الانسان يعد أحد النجاحات غير المسبوقة للمعارضة .

بولندا : بحث المجتمع المدنى :

لقد انهار المجتمع البولندى فى نهاية السبعينيات بسبب القلاقل السياسية ، وبدلا من مواجهة فشل النظام فى مجال الاقتصاد الموجه وفى تبنى اصلاحات جريئة ، عادت البيروقراطية الشيوعية لاستخدام الديماجوجية والارهاب للحفاظ على الوضع الراهن . ان الحاجة لحركة تضامن المستقلة - التى لا تخضع لسيطرة الحزب - كمنظمة بديلة قادرة على استيعاب المطالب الاجتماعية من أجل احداث تغيير سياسى واقتصادى عاجل أصبحت ملحة مما جعل اللعبة السياسية التى أصرت على أن التغيير لابد أن يبدأ من موسكو تفقد فاعليتها . ورفضت الثورة البولندية السلمية المستقلة عقيدة التفرد بالسلطة التى يعمل بها الحزب الشيوعى ، وطرحت برنامجا من أجل تحويل مجتمع الكتلة السوفيتية لنظام التعددية . ان تعطش منظمة تضامن لسبر غور التحديث حرر المواطنين من الأعباء التى أثقلت كاهلهم بسبب الأنظمة البيروقراطية التى كانت تحط من شأن المجتمع المدنى . ان الجهود التى

بذلت من أجل حركة اجتماعية جديدة خلقت ندا لا يكل ينازع الحكومة في سلطتها وهي الحركة التي أدت - حسبما يرى ماكس فيبر Max Weber الى تقدم وتطور فئة المواطنين القوميين (٥) . ان تطور مثل هذه الحركة - مع تضاعفها بمؤثرات تلقائية ومؤسسية كانت احتمالا لم يتصور الستالينيون تحقيقه . لقد قامت حركة تضامن - ميلادا وشهرة - بسبب ايمانها بأن النظام القائم فقد سلطانه . ولم يعد نظام جيريك - أيولوجيا وسياسيا - هو النموذج التقليدي للتوتاليتارية . ورغم أن المؤسسات القمعية ظلت قائمة إلا أن وظيفتها قد قلصت فعلا ، كما رفضت أغلبية الجماهير قبول ادعاء الحزب الشيوعي بالشرعية إذ شعروا بأن « خمسة وثلاثين عاما من الفوضى السياسية قد جاءت بالآمة لنقطة الإفلاس الاقتصادي والسياسي الاجتماعي وإن أي حل حقيقي لمشكلة بولندا يتجاوز مجرد اجراء تغييرات في مجال السياسة الاقتصادية الى تغيير طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع المدني » (٦) .

وكشفت حركة تضامن (١٩٨٠ - ١٩٨١) أن هيمنة الحزب غير شرعية ونقضت غبار السنين عن العنصر الأصيل الذي تنطوى عليه الإرادة الشعبية . لقد فكرت الحكومة البولندية مليا في اللجوء الكامل للقوة العسكرية لمعارضة حركة الاحتجاج الجديدة في أغسطس ١٩٨٠ إلا أن الحزب الشيوعي وجد نفسه عاجزا في مواجهة الحركة الاجتماعية التي لا تقاوم . وأبرم ممثلو الحكومة ولجنة الأحزاب اتفاقا في ٣١ أغسطس ينص على أن الدور القيادي للحزب هو أقصى ما يمكن التفاوض حوله إلا أن القيادة الشيوعية اتخذت موقفا دفاعيا . وفي نوفمبر أصبحت منظمة تضامن نقابة عمالية مستقلة شرعية - وهكذا أجبرت الحكومة الشيوعية على الاعتراف بحق النقابة المستقلة في الوجود مما جعل وجودها الأيديولوجي الكلي في الحكم يبدو كخدعة . وبعيدا عن التمسك بالتفويض التاريخي لحكم المجتمع ظل الشيوعيون في السلطة بفضل الجمود البحث واستخدام منطق القوة . ولم يستطع الحزب الشيوعي نفسه تجنب بعث المجتمع المدني ، وبدا ذلك واضحا في مؤتمر الحزب في يونيو ١٩٨١ حين بلغ الصراع بين الفلاحين والديمقراطيين والتقليديين ذروته بسبب الامتيازات والتنازلات التي منحت لتضامن .

ان المؤثرات الخارجية وبالتحديد الضغوط الخارجية وخاصة من الاتحاد السوفيتي وجمهورية ألمانيا الديمقراطية زادت هذه الدراما تعقيدا . وفي خريف عام ١٩٨٠ أصبحت حركة تضامن بالفعل حركة

اجتماعية قوية ، وانضم لصفوفها العمال المفكرون والطلاب والفلاحون . ولم يعد في المستطاع تأجيل الصراع بين البيروقراطية الحزبية والتحدى الشعبى على يد النقابة المستقلة . لقد دعمت الكنيسة الكاثوليكية - دون تدخل مباشر فى الصراع السياسى وبما لها من هيبة وتأثير - المطالب الاجتماعية للنقابة . وفى نفس الوقت حاولت الهيئة الكاثوليكية تهدئة المناضلين الفاعلين فى تضامن ، وسعت لايجاد جسر بين الحكومة والمعارضة . وفى الحقيقة لقد سيطرت ثلاثة اتجاهات رئيسية على الساحة السياسية البولندية طوال عام ١٩٨١ وهى : الحزب الشيوعى - الكنيسة الكاثوليكية - وحركة تضامن التى أخذت فى الانتشار والامتداد . واكتسبت تضامن فى غضون شهور طبيعة هجومية اذ تجاوز جدول اعمالها القضايا الاجتماعية المحدودة ، وهدفت الى التفاوض حول المبادئ الدستورية للأمة البولندية . وفى نفس الوقت وبينما أخذ السوفييتون فى جلد تضامن بسبب اهدافها التآمرية المزعومة ركز الاعلام الغربى على الاستراتيجية الطليعية للحركة بما فى ذلك استخدامها لوسائل سلمية بعيدة عن العنف من أجل تحقيق التغيير السياسى . ان الاهتمام الذى أبدته وسائل الاعلام الغربى بنضال تضامن لتحقيق العتق الاجتماعى والسياسى مد الحركة بدعم معنوى كانوا فى أشد الحاجة اليه أثناء هجومها العنيف على الشيوعيين الأرثوذكسى فى بولندا والخارج . وأصبحت المجابهة بين الحكومة وتضامن لا مفر منها ففى اكتوبر ١٩٨١ أصبح الجنرال ياروزلسكى الذى عين رئيسا للوزراء وذلك فى فيسراير من نفس العام أصبح سكرتيرا أول للحزب الشيوعى وكان ذلك الموقف غريداً من نوعه فى الكتلة السوفيتية وانذر بتوجيه ضربة عسكرية ضد بولندا .

لقد اثارت المطالب الجريئة التى نادى بها حركة تضامن ذعر طبقة الحكام فى بولندا مما جعل الجيش يطالب فى ٣١ ديسمبر ١٩٨١ بتطبيق القانون العسكرى على البلاد ومنذ ذلك الحين تم حظر نشاط تضامن واعتقل زعمائها ، الا أن تطبيق القانون العسكرى لم ينفذ النظام من مصيره . وبينما حاول النظام العسكرى أن يحصل على أوراق اعتماد جديدة من الشعب وأن يسرح القاعدة الشعبية التى كونتها النقابة أعلن الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ميخائيل جورباتشوف بعد عام ١٩٨٥ تأييده للاستالينية الجديدة ومن ثم لم يعد حظر منظمة تضامن منطقيا ، وفى عهد جـورباتشوف أصبحت التهديدات السوفيتية بالتدخل العسكرى ، بسبب سياسات الزعيم التى تطورت وانتشر اريجها امرا غير وارد بالمرة ، ونظرا للتغييرات التى كانت تتم فى

الاتحاد السوفيتي وبسبب فشل خطته الاقتصادية والاجتماعية فان ياروزلسكى منح عفوا عاما عن المعتقلين السياسيين والنفى القادون العسكري ووعده باننهاج مسيره اصلاحية كما صدق على سياسة البروسترويك لجورباتشوف . واصبح نصيرا مقربا للزعيم السوفيتي في حلف وارسو حيث جابه جورباتشوف ائتلافا قآمريا من زعماء رومانيا والمانيا الشرقية وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا المعادية للاصلاح . ولم تكن جهود ياروزلسكى لاسترضاء الجماهير كافية لاقتناع المجتمع البولندي بمصداقية سياساته .

ان رفض الحكومة البولندية منح الشرعية لتضامن وتشويه صورة الفاعلين المدنيين البارزين ، اقنع البولنديين بأن نظام ياروزلسكى لا ينوى حقا التخلي عن الارث البغيض للقمع ، ومن ثم كان انفجار الأزمة الجديدة حتميا خاصة في ضوء مشكلات الأزمة الاقتصادية المتزايدة واتساع هوة الخلاف بين السلطة الرسمية والمجتمع المدني المتنامي . لقد فسر ج. اف براون J. F. Brown المراقب المتمرس للشئون الشرق أوروبية الاضطراب الذي ساد بولندا قبيل اجتياح ١٩٨٩ فقال :

« حقيقة ، ان صورة بولندا الآن تمثل مجتمعين — « الرسمي » و « البديل » . ويتكون « الرسمي » من كيان النظام وعدد كبير من الناس التي تتعاون بارادتها أو عدم ارادتها مع النظام . والمجتمع « البديل » الذي يلعب فيه الشباب — وهم يتخبطون — دورا عظيما ، مستخدمين وسائل اعلامهم الخاصة ، وهي الأنشطة الأدبية والثقافية والتربوية . ويتجنب المجتمع « البديل » الاصطدام بالمجتمع «الرسمي» كلما كان ذلك ممكنا . لقد وجد المجتمعان في جميع بلدان أوروبا الشرقية الشيوعية ، الا ان الهوة بينهما لم تكن بمثل عمق تلك التي وجدت في بولندا اذ لم يكن المجتمع « البديل » قد نظم جيدا ، وبالتالي لم يستقل ذاتيا » (٧) .

ان قرب وقوع اية أزمة جديدة يتوقف على مدى السطحية التي سيبيديها النظام القائم نحو ما يجري في بولندا . ورغم الجهود المتواصلة التي تبذلها الاحلام الشيوعية لزرع نظم على الطراز السوفيتي في شرق أوروبا واضفاء الشرعية عليها الا ان النظام في بولندا لم يظفر بموافقة شعبية حقيقية . وفي بولندا — أكثر من أي بلد شيوعي آخر — أصبح فقدان القيادة الشيوعية لشرعيتها جليا . لقد آمنت فئات معينة داخل الحزب الشيوعي في عام ١٩٥٦ بأن التغيير يمكن أن يولد من رحم الحلفاء الشيوعي تحديدا من الجناح « المستنير » ولكن بعد سحق ربيع براغ ،

١٥٩

وقمع ١٩٦٨ المعادى للمبدعين في بولندا وأصبحت هذه القناعة مجرد وهم يتعذر الدفاع عنه . لقد عانت الشيوعية منذ قيامها في أوريسا الشرقية من أزمات مستمرة ، أزمة السلطة والشرعية ، أزمة الأخلاق وبالطبع أزمة الفاعلية الاقتصادية . لقد عانت الانظمة من نوعين من الازمات ظاهرة وكامنة ، وعندما فقد الحزب الحاكم ثقته بنفسه وظهر الممثلون السياسيون كبديل تحولت الأزمات الكامنة لمواقف شورية . ولا بد — حسبما ترى اللينينية الكلاسيكية — لكى تقع الثورة أن يكف الحكام عن اللجوء للأساليب القديمة وأن يكف المحكومون عن الامتثال للأساليب البالية .

وتم التخلي عن الرمزية السياسية الزائفة للنظام القديم وألغى كل ما هو محظور سياسيا ، وتحطم فجأة الحاجز الذى يمنع التجريب السياسى ، وانقلب المبدأ الكلى للحقيقة السياسية رأسا على عقب تحت وطأة هذه الظروف ، وسطح نجم هؤلاء الذين شهرت بهم السلطة باعتبارهم « أعداء للشعب » كرموز حقيقية للأمل القومى لتحقيق « الخلاص » ويشمل الانتقال عادة تعديلا لنسيج السلطة . وصرح لجماعات اجتماعية وسياسية جديدة بالانضمام للكيان السياسى .

وأصبح خلق مناخ شعبى باستعادة الهيئة المدنية أمرا له الأولوية بعد أن حقرت الأصول الستالينية من شأن المجتمع المدنى وجعلت من أفرادها وبالقوة مجرد صبية يقومون بأعمال صبيانية ، ولكى يستعيد المجتمع المدنى لهيبته كان لابد أن يصل لأقصى درجة من الوعى بذاته . لقد شملت الضغوط النفسية التى مارسها ستالين زرع الخوف من الكائنات الانسانية التى تتورط فى أنشطة سياسية توصف بأنها تخريبية . ان أى شكل من أشكال النقد والاستغلال يعنى — حسبما ترى التوتاليتارية — هجوما على ادعاء الأمة وتظاهرها بالمعرفة والقدرة الكليتين . وأشار جاسيك كورن الفاعل المدنى البولندى الى أن بزوغ الحركة الاجتماعية الجماهيرية فى بلد شيوعى سيعقبها نتائج ستكون أكثر قوة من أى محاولة يقوم بها النظام لاجهاضها ، ولا يمكن أن يتم هذا التطور دون نضوج المعارضة ودون النيل من استبدادية النظام الستالينى فقال :

« ان الأمر يرجع لعام ١٩٥٦ . اننا لم نتخل عن الشيوعية بعد ، ولكننا مع الراى القائل بأن الحركات الاجتماعية يجب أن تكون مستقلة عن الحزب والحكومة . لقد مرت العلاقة بين المفكرين والعمال بأوقات عصيبة خلال الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٠ وفى عام ١٩٦٨ أدرك المفكرون ضرورة التحالف مع العمال . وبعد عام ١٩٧٠ وصل العمال لنفس الاستنتاج . وافرزت التجربة لجنة الدفاع عن العمال (KOR)

التي اثمرت محاولاتها لتعزيز قدرة الحركات الاجتماعية على تنظيم نفسها
ثمارة رائعة وذلك في عام ١٩٨٠ « (٨) »

وأضاف كورن وهو واحد من مؤسسي المعارضة البولندية واكفا
واضحى استراتيجيتها قائلا :

« حقيقة • لقد قمعت تضامن وتحولت للعمل السري ، ولكن
هذا لا يمكن ان يغير حقيقة أن اسس النظام التوتاليتارى قد قوضت •
لقد خلقنا ودغمنا حرية التعبير حتى أن السلطويين كان لا بد لهم أن
يفتحوا نار الاعلام الرسمي علينا • وبسبب ما مارسته تضامن السرية
من ضغوط فإن كل تلك الحركات الاجتماعية التي طال صمتها لم تعد
مجرد دمي ، هناك طريق واحد : من التوتاليتارية الى الديمقراطية ،
ولقد قطعنا في سبيل ذلك شوطا كبيرا » (٩) •

ان بقاء تضامن في بولندا في ظل القانون العسكري وقدرتها على
خلق ثقافة مضادة عن طريق دور النشر ، وصناعة الافلام ، والجرائد
والمجلات التي لا تحصى ، واشكال أخرى من الفعالية الاجتماعية
المستقلة يكشف مدى ما خسره النظام وعجزه عن ممارسة طرقه
القمعية التقليدية • وكانت بولندا بلدا تحكمه دكتاتورية فظة تستخدم
القمع والجمود الاجتماعي والمناورة والتهديد بشبح التدخل السوفيتي
الذي لا يقهر الا أن ذلك لم يجعل قيام المعارضة بدورها مجرد فكرة
دونكشوتية بل لقد تمتع البولنديون حتى في أحلك ظروف القمع الذي
استخدمه النظام العسكري بمجال أرحب للعمل من أجل الحرية
ولممارسة أنشطة أكثر استقلالية من تلك التي اتاحت للرومانيين تحت
حكم الديكتاتور شوشيسكو • ويعود الاختلاف بين النظامين للضغوط
التي مارستها الحركات الاجتماعية البولندية على الجسد السياسي ، ان
أن تضامن خلقت • رغم هزيمتها المؤقتة • احساسا بالوحدة السياسية
والثقة المتبادلة وهما الصفتان اللتان لم تتمتع بهما الدولة التوتاليتارية
التقليدية أبدا • • وحقيقة فان جيل المعارضين بما قام به من تحد •
أثناء الحكم العسكري • قد أدى مهمته على أكمل وجه وضمن ديمومة
الصراع رغم غياب زعمائه التاريخيين في المعتقل • وظهرت صحيفة
تضامن السرية تيجودنك مازوفتس Tygodnik Mazowsze للوجود دون
انقطاع وبلغ توزيعها خمسين ألف نسخة • وتكونت اللجان غير الرسمية
لجمع التبرعات لعائلات المناضلين المعتقلين وغيرهم من ضحايا القمع •
وفي الوقت الذي بدا النظام مسيطرا تماما على مجريات الأحداث ،
استمرت حركة المجتمع المستقلة بل وازدهرت •

« اذا كان القانون العسكرى عقبة فى طريق المجتمع المستقل ،
فان الوضع التوتالىتارى يعد كارثة » (١٠) .

هكذا قال آدم متشنك بعد اطلاق سراحه من المعتقل ، مفسراً
التناقض الذى وقعت فيه السلطة الحاكمة بعد فشلها فى كسب أى دعم
شعبى وهو الدعم الذى يعد مهما لها كيما تستمر فى السلطة .

ان ظهور تضامن فى اغسطس ١٩٨٠ ومطالبتها بالتدخل السدائم
فى الشئون القومية أدى خلال وقت قصير الى حتمية التغير فى بولندا
خاصة بعد ظهور نواة جديدة على الصعيد السياسى التى حولها
المناضلون الانسانيون المدافعون عن الحقوق المدنية وقد تمتعوا دوماً
بصورة جميلة Bona fids فى عيون العمال الراديكاليين . لقد حققت
لجنة الدفاع عن العمال انجازاً عظيماً فكان مجال نشاطها الرئيسى المجال
الاجتماعى بجانب المجال السياسى .

ورصدت اللجنة انتهاكات الحقوق المدنية ، كما نوهت عن
أسماء هؤلاء الذين تورطوا فى مثل هذه الجرائم . ان روح لجنة الدفاع
عن العمال كما أسماها جان جوزيف ليسكى هى اللقاح الطبيعى
لجنين المجتمع المدنى البولندى ، وقد ارتكزت على رفض مطلق
للأكاذيب الرسمية .

« الصديق هو أهم المبادئ الأخلاقية التى تتبناها لجنة الدفاع عن
العمال . وهذا المبدأ له — الى حد كبير — أسس ومبررات برجماتية
عن ذلك الذى يشجب العنف والكره . لقد لجأت السلطات للمناورة
والمساومة عندما تحرت اللجنة الصديق وقالت الحقيقة . لقد كسان
الأفضل لها ان تشجب الزيف ليساعدها ذلك على كسب الثقة . عن
الاستسلام لاحتمال ان الحقيقة التى تخفيها السلطة سوف يكشفها
الاعلام » (١١) .

وعندما تكونت لجنة الدفاع عن العمال فى عام ١٩٧٦ بلغ عدد
أعضائها ٥٩ عضواً فقط . وبعد عام واحد غيرت الجماعة اسمها الى
اللجنة الاجتماعية للدفاع عن الذات Social Self-Defence Committee
وأدرك جاسيك كورن وآخرون ممن لهم الخبرة فى صراعات المعارضة
فى بولندا أن المجتمع المدنى — اذا لم ينظم حركته — سوف يجر بسهولة
لمعارك ضارية وستفترسه قوات البوليس المتحسسة . وفى عام ١٩٧٠

عندما حاول المضربون فى جدانسك Gdansk ان يحرقوا المقر الرئيسى للحزب الشيوعى قال لهم كورن :

« لا تحرقوا لجائهم ، اذهبوا . واقيمو لجائكم » (١٢) .

لقد ساهم عامل آخر فى جعل موقف بولندا فريدا من نوعه وهو تواجد الكنيسة الكاثوليكية على الساحة وحيث نجحت فى مقاومة المحاولات الستالينية لاختضاع النظام لمنظومة معينة ، وظلت — كما اشار ليتسك كولاكفسكى :

« المصدر المستقل الوحيد للسلطة المعنوية فى مجتمع عليل » (١٣) .

وتدريجيا وبحلول نهاية السبعينيات ولعجز النظام وقشله فى الاضطلاع بمسئوليات الاصلاحات بدأ تشكيل حلف قوى المعارضة فى بولندا ، وبفضل العمل المضنى الذى قامت به لجنة الدفاع عن العمال وكذلك جهود جماعات المفكرين الكاثوليك الذين وصفهم متشكك ذات مرة بأنهم « المعارضون الجدد » ، أصبح من الممكن خلق علاقة رمزية بين الانتلجنسيا الناقدة والكنيسة والعمال . وبذل المناضلون المدينون فى لجنة الدفاع عن العمال وشبكة الاتصال الدولية جهودا فائقة لانجاح انفجار ١٩٨٠ . ولم يتمرد العمال فى بولندا على الصعوبات الاقتصادية ولكن على الهرم الكلى للاستبدادية الذى اتخذ اسم « الدكتاتورية » ولم يكن هناك أكثر من المفكرين المبدعين وعيا بأن تخلق النظام عسنة سلطته المعنوية شئ منطقى ، الا أن العمال أدركوا الفجوة الواسعة بين ما تدعيه الحكومة لتجسيد مصالح البوليتاريا وطبيعتها الأوليغاركية (١٤) البيروقراطية الحقيقية . وفى هذا الصدد قال كولاكفسكى :

« يمكن للمرء ان يرى منذ بدايات الاضرابات فى صيف ١٩٨٠ أن العمال كانوا على وعى تام بحقيقة أن الصراع من أجل الحصول على حريات ثقافية جزء أساسى من قضيتهم وأن هذه القضية ستخسر اذا لم يترجموا معاناتهم لعدد من المطالب السياسية المحددة منها حرية التعبير وحرية النشر ، وفى اطار وضع حد لانفراد السلطة بوسائل الاعلام الغنى العديد من القيود التى فرضت على الكنيسة كما اطلق سراح المعتقلين السياسيين . لقد كان واضحا منذ البداية أن تمرد العمال لم يكن ضد الفقر وظروف العمل المحففة فقط بل كان — فى الأساس — تمردا ضد حكم البلاد بالاكاذيب » (١٥) .

ما هو الاطار الاستراتيجى الذى ضمن نجاح تمرد تضامن ؟ كيف أمكن للطريقة السياسية والابداعية التى انتهجها الفاعليون

المدنيون البولنديون أن تتجاوز الاجراءات الصارمة التي تتخذها الحكومة؟ يمكننا ان نجد اجابات لهذه الأسئلة في ضوء المقالات السياسية المدوية لمتشكك والتي بين فيها مبادئ وغايات المجتمع المدني البولندي. وحال متشكك في مقاله « الارتقاء الجديد » الذي نشر عام ١٩٧٦ التقاليد السياسية للصراع المعادي للتوتاليتارية في بولندا ، فرأى أن كل المحاولات التي استهدفت تغير النظام والتي جاءت بعد الادانة الشعبية للاستالينية عام ١٩٥٦ حملت نفس الأوهام وهي امكانية تغير النظام من الداخل . واعتقد التعديليون بأن صعود الجماعات الليبرالية لقيادة الحزب سوف يجعل الاشتراكية ذات الوجه الانساني ممكنة . واعتقد « اليقينيون الجدد » الواحد تلو الآخر — اذ لم يكونوا سجناء « الرؤية الداخلية للحزب » — في امكانية التأثير على الحكومة من خلال ما سمي « بالتعاون الناقد » . وعارض التعديليون خنوع الحزب للكرملين ووجدوا منبعا لمعارضتهم في الانسانية الماركسية الأصلية ، وراوا أن الاشتراكية على الطراز السوفيتي انحراف عن الوعود الأصلية للمادية التاريخية . ان اليقينيين الجدد واغلبهم من المفكرين الكاثوليك لم يثقوا في الرؤية الماركسية الا أنهم اعتبروا العلاقة الودية مع الاتحاد السوفيتي دعامة ضرورية لبقاء بولندا . ويقول متشكك :

« اذا اعتبر المرء تنظيم الدولة في الاتحاد السوفيتي كنيسة واعتبرنا العقائد الأيديولوجية الماركسية كانجيل ، فإن التعديلية كانت موالية للأنجيل وتطور تفسيراته الخاصة في حين ان اليقينية الجديدة شابت الكنيسة ولكن ايماننا منها بان الكنيسة ستختفي — ان عاجلا او آجلا » (١٦) .

ان افلاس التعديلية خاصة في الستينيات لا يخفي اهميتها كتجربة تستفيد منها الانتلجنسيا الناقدة في بولندا . ان هزيمة التعديلية تعني في دول رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر نهاية الأوهام الخاصة باعادة تشكيل النظام القائم وكان التحرر التراجيدي من هذه الأوهام شيئا لا مفر منه لتحقيق الصحة . ان تفكك السلطة في الدول التي غابت أو قمعت فيها التجارب التعديلية مثل بلغاريا ورومانيا وصعود تيارات فكرية بديلة فيهما كان أكثر صعوبة عنه في بولندا وبلغاريا حيث وجد التعديليون الانسانيون نقدا عنيفا للأحلاف الحاكمة وساهموا في أعداد مناضلين شبان تخلوا فيما بعد عن العقيدة الماركسية كلية ، وفي ظرف تاريخي حاسم تحدوا النظام بما لديهم من طموح وآمال تفضيح التناقض بين الأيديولوجية الرسمية وحقيقة الاشتراكية .

لقد روت التعديلية — رغم سذاجتها وتنككها — ظمأ الثقافة السياسية الشرق أوروبية وساهمت في تكوين الاحلاف السياسية والفكرية المعارضة كما ساعدت المارك الأيديولوجية التي دارت من أجل محاولة إعادة الوجه الانساني للماركسية في تعميق فهم أعمال ميلان كوفنديرا وكازميرتس براندى Kazimierz Brandy ولا يعنى ذلك أن هؤلاء الكتاب لم يعبروا إلا عن الصراعات السياسية — لأنهم عبروا عن المبادئ العليا التي شملها الصراع بين الرجميين الأيديولوجيين والموالين للتعديلية . وان التعديلية قامت — من بين أشياء أخرى — برد الاعتبار لفهوم الانسان الذي تجاهلته عقائد الحزب كما أكدت على ضرورة المشاركة في نقد الوضع الراهن مشيرة الى أن الائتلاف الحاكم لم يكن حصينا كما يبدو — لقد تخطى التعديليون نطاق الفعالية الاجتماعية التي ازدهرت فيما بعد من خلال الحركات اللا ماركسية والمعادية للماركسية التي نشأت في السبعينيات والثمانينيات إلا أن موطن الضعف في هذه الحركات هو محاولتها اضعاف المثالية على السلطة القادرة واعتقادهم في امكانية اصلاح عيوب النظام ومن ثم لا يوجد أى سبيل للتخلص جذريا من النموذج الماركسي الاجتماعي . لقد فشل ممثلو التعديلية في طرح بدائل سياسية حقيقية للأنظمة القائمة وكان منتهى آمالهم هو رتق عيوب النظام لا التخلص منه وقال ميتشنيك في هذا الصدد :

((اعتقد أن خطأ التعديليين الفادح لا يكمن في هزيمتهم في الصراع داخل الحزب من أجل السلطة (حيث يتعذر فوزهم بها) فقط ولكن في طبيعة هذه الهزيمة . . انها هزيمة افراد طردوا من مواقع سلطاتهم ونفوذهم ولم تكن ارتدادا عن برنامج يسارى ديمقراطى سياسى له قاعدة عريضة . ولم يطرح التعديليون أبدا مثل هذا البرنامج)) (١٧) .

ان آخر العواصف التي هبت على الأوهام التعديلية جاءت مع أحداث مارس ١٩٦٨ في بولندا عندما أظهر الحزب الشيوعى طبيعته الشوفينية والفاشية الحقيقية بل أصابتهم صدمة التدخل العسكرى في تشيكوسلوفاكيا وقمع حركة الاصلاح فيها في أغسطس ١٩٦٨ — ويمكن القول بأن أحداث عام ١٩٦٨ دقت المسمار الأخير في نعش التعديلية ، ويات واضحا لكل من أدرك مدى فداحة المأساة التي تمت هذا العام أن الخروج على السوفياتية لن يتم إلا بمخاضة قاطعة لكل الأوهام الماركسية . وكان ليتسك كولاكفسكى الماركسي التعديلى السابق مثالا للرؤية الجديدة الخاصة بالصلة الوثيقة بين رؤية الامية الماركسية وممارسة الشيوعية في القرن العشرين حيث قال :

« لقد أصبح سخفا أن نقول إن الماركسية هي قضية الشيوعية القائمة اليوم ، ومن ناحية أخرى فإن الشيوعية ليست « خطأ » من شأن الماركسية ولكنها التفسير الممكن الذى يقام على أسس متينة رغم كونها بدائية وقاصرة في بعض الأمور . . . لقد انتهت عبادة الفرد - وهو الاسم الفلسفى الذى استخدمه ماركس بنفس الطريقة التى انتهت بها كل المحاولات السابقة وأسفرت الشيوعية عن وجهها الذى يهدف لاسترقاق الإنسان » (١٨) .

ولكن كيف يمكن للمرء أن يتورط فى الصراع ضد الأجهزة القمعية العديدة التى تستخدم قطع وسائل للتعذيب ومستعدة للجوء لأية وسيلة للدفاع عن امتيازاتها ؟ . لقد أصاب الاحباط التعديليين لانهيار أحلامهم إلا أن اليقينييين الجدد طالبوا بالتوسع فى عالم الحريات المدنية (١٩) التى قبلوا فى سبيلها اعلان تأييدهم للدور القيادى للحزب المهيمن . لقد اكتشف التعديليون واليقينيون الجدد - بعد تزايد حدة الموقف - أن رؤيتهما كانت بعيدة كل البعد عن استيعاب الحقائق السياسية البولندية التى وجدت فى السبعينيات :

« ان الصراعات بين الجماهير والسلطات كشفت خداع الآمال التى عقدها كل من التعديليين واليقينيين الجدد ووضعتهم فى موقف أجبرهم على القيام بخيار مأسوى . وعندما ينشب صراع ما لا بد أن يتخذ المرء موقفاً ويعلم مع أى جانب هو المهزومين أم المنتصرين . وعندما يكون الصراع علنياً فإن التعديليين المتحدين وكذلك اليقينييين المتحدين يختارون حتماً طريق الدمج بين السلطات القائمة والفروض التى تطرحها وجهات نظرهم . ان منح الدعم للعمال المضربين ، والطلاب الذين عقدوا مؤتمراً جماهيرياً صاخبا ، وللمفكرين المعتصمين كان تحدياً للاستراتيجية الداخلية للحزب الخاصة بإيجاد تسوية مع التعديليين واليقينيين الجدد » (٢٠)

وقدم متشنك طسرحاً ثورياً لتغيير قواعد اللعبة التى جعلت من النظام القائم فى الاتحاد السوفيتى - فى ذلك الوقت - عائقاً رئيسياً للممارسات الجريئة المعادية للنظام . وعلى أية حال فقد رأى متشنك ان الصراع من أجل توسيع هامش الحريات المدنية ممكن ، ومن ثم كانت « الارتقائية الجديدة » أقرب للنموذج الأسباني عنه للبرتغالى فى طريقة الانتقال من الديكتاتورية للديمقراطية . وبمعنى آخر ، فقد أصر متشنك على الحاجة الى التغيير بشرط أن يكون تدريجياً لا عنيفاً مكتسحاً أو سريعاً مفاجئاً . ان الاختلاف بين المحاولات السابقة من أجل التغيير

واستراتيجية منشك أن الأخيرة قدمت لمجتمع حر وليس للحكام ، ولم يكن ذلك رفضاً للبروليتارية للحقائق الجيوبوليتيكية ولكنها - إلى حد ما - كانت تقريباً للمسافة بين مطالب المعارضة والجانب المحافظ بل والرجعي الامبريالي . ان الارتقائية الجديدة قد استندت إلى افتراض مؤداه أن المجتمع يمكن أن يقلع عن ادمان التوتاليتارية وأن أفرادها يمكن أن يتحولوا تدريجياً لمواطنين ودون الدخول في صراع مع الحكام . وبدأ أن تغلغل البنى القائمة وخلق شبكات متسقة للعمل والاتصال هما أحسن الوسائل التي تؤدي لتقدم هذا النوع من جداول الأعمال . وعلى عكس التجارب السابقة فإن الارتقائية الجديدة رأت في طبقة العمال عاملاً جوهرياً لتحقيق مثل هذا الانتقال السياسي :

« ان « الارتقائية الجديدة » تركز على الإيمان في قدرة الطبقة العاملة التي - بمجابهتها الصاعدة التي لا ترضخ - أجبرت الحكومة في مناسبات عديدة على تقديم تنازلات مذهشة . .

ومن الصعب التنبؤ بالتطورات التي تجري في الطبقة العاملة ، ولكن ليس هناك شك في أن الائتلاف الحاكم يخشى - أكثر ما يخشى - هذه الجماعة الاجتماعية . وكان الضغط الذي مارسه طبقة الشفيلة ظرفاً ضرورياً من أجل ارتقاء الحياة العامة في اتجاه الديمقراطية « (١٨) . ان فلسفة الارتقائية الجديدة أصبحت محوراً نظرياً لنشوء المعارضة الديمقراطية في بولندا وغيرها من الدول التي تقع في قلب أوروبا الشرقية . وكتب منشك ببصيرته الناقدة عن الأحداث التي مرت في بولندا بعد ذلك بأربعة أعوام قائلاً :

« لا بد للمعارضة الديمقراطية أن تحدد أهدافها السياسية لتصل لتسويات سياسية كأن يتمرد العمال فتعلن الحكومة أنها « تريد أن تتشاور في الأمر مع طبقة الشفيلة » بدلاً من التخطيط لمذبحة دموية . وعلى أفراد المعارضة الديمقراطية ألا يعتبروا رد فعل الحكومة « لأنها لم تطلق عليهم النار » تنازلاً كافياً بل على العكس ، يجب أن يظلوا على اتصال وثيق ومتواصل بعامة الشعب ويقدموا حقائق سياسية وينظموا أعمال الجماهير ويجب أن تطرح برامج بديلة وفيما عدا ذلك سيكون وهماً » (٢٢) .

ويرى منشك أن تضامناً قادرة على تجاوز هويتها كتنقابة عمالية لتصبح محوراً يلتف حوله المجتمع المدني الصاعد . وساهمت طبيعة الحركة المعادية للبيروقراطية وكذلك اتباع برنامج اجتماعي شامل في تحقيق الصحة للأمة :

« ان جوهر منظمة تضامن العمالية Labor Union Solidarity التي اخذت في تحقيق استقلالها يكمن في استعادة الروابط الاجتماعية ، وتطلب الانضمام للنقابة العمالية ضمان الدفاع عن العمال والحقوق المدنية والقومية . ولأول مرة في تاريخ الحكم الشيوعي في بولندا يبعث « المجتمع المدني » ويصل لتسوية مع الدولة » (٢٣) .

وارتكزت الاستراتيجية الكلية للارتقائية الجديدة على المفهوم السوفيتي للاشتراكية ، بمعنى انها ارتكزت على ادراك المجتمعات المدنية بأن جهودهم القصوى تتوقف على الهامش الذي يمنحه السوفييتيون في أية دولة تابعة لاجراء تغييرات سياسية . ونشبت الصراعات الشرسة في الاتحاد السوفيتي الذي يحكمه عصابة من الحكام المسنين البرجنيفيين المتشككين في التغيير باعتباره خطرا يحيق بالمصالح السوفيتية . وقدم ليخ فاونسكا Lech Wilesca المتخصص في الكهرباء والذي تخرج من الترسانة اللينينية Lenin Shipyard في جدانسك والذي أصبح رئيسا لمنظمة تضامن ومن خلال سيرته الذاتية تبريرا لسياسات « الثورة المقيدة » كما اسماها آدم متشنك الذي لعب ولسنوات عديدة دور المستشار لقيادة المنظمة المستقلة . وقدمت سيرة حياة فاونسكا رؤى تفصيلية عن العضلات الاستراتيجية والفلسفية للمعارضة الشرق اوروبية في العهد الذي سبق مجيء جورباتشوف فقال :

« الحقيقة انه بدون اتفاق بين الحكومة والشعب ، ستصعب قيادة هذا البلد ، والحقيقة أيضا انه رغم البيانات الرسمية عن المهام القومية ، فان هذا البلد لا يتمتع حقيقة بسيادته بل لا بد ان يعتسرف البولنديون بأن سيادتهم مشروطة بالمصالح القومية والايولوجية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، واخيرا فان الحكومة البولندية الوحيدة التي سيقبلها زعماء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هي الحكومة التي يسيطر عليها الشيوعيون ، وليس هناك ما يستدعي الاعتقاد في ان الأمور ستتغير في يوم وليلة ، ابدأ لن يحدث .

ما الذي يستتبع ذلك ؟ يستتبعه ان أية محاولة يقوم بها النظام ضد ارادة الشعب ستؤدي حتما لكارثة ، وسيتبعه أيضا ان كل محاولة للاطاحة بحكومة الاضرابات البولندية هي ضربة مباشرة موجهة لمصالح اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . هذه هي الحقيقة ويجب على كل فرد أن يدركها .

لقد وجه لى زملاء كثيرون اللوم ، واتهمونى بالتخلي عن المطامح الخاصة بالاستقلال والديمقراطية — والآن أجيب عليهم بصراحة : فى وضعنا الجيوبولتيكى الحالى لا أعتقد بأن الوصول للاستقلال والبرلمانية فى مقدورنا الا اننى اعتقد فى امكانية التخطيط للاستقلال من الداخل ، وبمعنى آخر عندما نصبح مجتمعا أفضل على مستوى التنظيم والفاعلية فاننا سنثرى أوربا وبقية العالم ويمكننا ان نقدم خياراً بديلاً معنيين عن تسامحنا وانسانيتنا . وعندما نقوم بذلك سنكون على درب الاستقلال والديمقراطية .

ان التعددية فى كل مواقع حياتنا ممكنة ، وازالة الرقابة ممكنة ، والاصلاح الاقتصادى المنطقى ممكن ، والسياسة الاجتماعية العادلة ممكنة ، الصحافة والتليفزيون الخاضعان لقواعد المنافسة وبث الحقائق ممكنان ، استقلال العلوم واستقلال الجامعات ممكنان . وسيتبع ذلك تحكم مجتمعى فى الاسعار وشبكة من مجالس المستهلكين يواكبهما محاكم قضائية مستقلة وأقسام للشرطة لا يعذب فيها الشعب .

سنحقق ذلك بالقوة لو لزم الأمر — بل سننتزعه من الحكومة فالحقوق لا تؤخذ ابداً كمنحة . لابد ان نكون حذرين اذا اضطررنا للضرورة لاستخدام العنف كى لا نمزق الدولة اليونانية اربا وكى لا نحرمها من سيادتها التى لها بالفعل (٢٤) .

ان كلام متشنك السابق دعوة لنبذ السلبية ، وتضمنت مهمته التى بدأت اثناء حركة احتجاج الطلبة فى جامعة وارسو فى الستينيات ، تكوين منظمة الدفاع عن العمال ، والمشاركة فى فريق ليخ فاونسا من المستشارين ، ان فلسفة الارتقائية الجديدة كانت محاولة لايجاد مخرج من الورطة التى خلفها نظام ما بعد التوتاليتارية — او فى ضوء النهاية التراجيدية لربيع براغ وعدم اجراء تغييرات اساسية فى مركز الامبراطورية واعتبار الكرملين بلدان اوربا الشرقية امتداداً طبيعياً لامبراطوريته الداخلية أدرك المناضلون ان أية محاولة لتحدى وتغيير شكل السلطة الحالى ستؤدى حتماً للتدخل السوفيتى . ورغم كل الظروف كان لدى المناضلين المدنيين الكثير ليحققوه فى البلدان الأوربية الشرقية المركزية وأهمها انشاء بنى متناسقة من المؤسسات ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لانشاء منظمة كتضامن . ولم تكن المنظمة الجديدة مجرد حركة يقتصر عملها على الدفاع عن مصالح العمال ، بل كانت — كما أشار فاونسا نفسه — صعوداً لشكل جديد من السياسات حيث عارضت الازدواجية التى يمارسها الحكام . وفيما بعد سيتحدث فيتسلاف هافيل

عن سياسة المصارحة وهو المعنى الأعمق الذي يكمن وراء انتصارها على مبادئ السياسة الواقعية " Real politik " ، لقد تحول الحكم لحركة جماهيرية وانتصار للعقيدة الانسانية على البرجماتية البيروقراطية . ويضيف ليخ فاونسا - فى سيرته الذاتية - تجربة تضامن على انها بداية لشكل جديد من السياسات ، وتجربة تضع فى الاعتبار المخاطر القضى التى تتحدى الانسانية وحقوق الانسان . ان السياسات الجديدة لا تصف المجتمع الشعبى بالعصبوية ، وتؤكد على حق كل فرد فى الاختلاف وحق العصيان المدنى . ان أهمية منظمة تضامن يرجع لتجاوزها حدود بولندا ، فكان ميلادها أحد التطورات التاريخية التى رفعت الستار عن فصل جديد فى تاريخ الأمة القومية بل وبشرت بنظام عالمى جديد . وقال فاونسا فى هذا الصدد :

« ان تضامن هي اشارة أخرى تدل على بدء العهد الجديد . وان احوال الماضى قد زالت عن كاهلنا ، وهى تحثنا على البحث عن حلول جديدة ، وتحثنا على تحدى المشكلات المعقدة . اننا - البولنديين - تعرضنا لضغوط من كل الجوانب وكان لزاما علينا ان نختار ، ان نتحقق من التجربة من أجل أنفسنا ، وان نشد من أزر بعضنا البعض وان نستخلص من اعماقنا القوة المعنوية الضرورية للتأثير والتغيير . ورغم اننا كبنا بقيود النظام المتحجر وعواقب حقبة خارج العصر وخارج كوكبنا ، فاننا فى أغسطس ١٩٨٠ قد تجاوزنا كل المخاطر وعجلنا بفجر عهد جديد . ان الأمة البولندية قد حققت ذلك امام أعين العالم وبمنتهى القوة ودون تهديدات ودون عنف ودون دماء ، واننا لم نطرح أيديولوجيات ، ولا نظريات اقتصادية او مؤسسية ، اننا ننشد ببساطة الكرامة الانسانية . وفى كلا المعسكرين الحر وغير الحر ، فان هذا الحدث البطولى قد اعتبر عملا ثوريا . ولكننا لا نرى فيما حدث أى شيء ثورى . اننا شعرنا بالفوضى التى نعيش فيها منذ سنوات طويلة وبدانا نعرف اين نقف » (٢٥) .

ان النظرة الاستراتيجية التى قدمتها الارتقائية الجديدة تضمن ازدهار ثقافة سياسية بديلة فى بولندا دون حدوث صدام مباشر مع الائتلاف الحاكم .

لقد حاولت الحكومة البولندية القضاء على تضامن فى ١٩٨١ لاهتماماتها بمستقبل النظام السياسى وتحولها بقوة سياسية فتية بل وبسبب ضغوط الاتحاد السوفيتى . ويمكن للمرء أن يتصور رد فعل برجنيف وسيسلوف واللينينيين الأرثوذكس الآخرين على صعود نقابة مستقلة فى دولة تقع الى جوارهم .

لقد انتابهم الذعر خشية حول نضامن لعدوى نصيب باقى دول
أوربا الشرقية وربما الاتحاد السوفيتى نفسه . أن اعلان ياروزلسكى
للقانون العسكرى لم يرجع كلية لاحتمال التدخل السوفيتى المباشر فى
شئون الدولة . ان الدليل الواضح على طبيعة سقوط ١٩٨١ الذى
خطط له منذ امد ظهر فى وسائل الاعلام البولندية أثناء الحملة الرئاسية
فى ديسمبر ١٩٩٠ عندما ترك ياروزلسكى الساحة السياسية وانتخب
ليخ فاونسا رئيسا ، وطرح — على الفور — خيار التدخل العسكرى
السوفيتى وتم حظر جميع أنشطة نضامن بعد أن وقعت اتفاقيات
جدانسك فى أغسطس عام ١٩٨٠ وقبل ممارسة الاتحاد السوفيتى
لضغوطه (٢٦) . وفيما بعد وبعد أن تغيرت رؤية الاتحاد السوفيتى
للعلاقات التى تربطه ببلدان الكتلة قرر الكرملين ترك الحرية لكل
بلد ليتبع مسارها السياسى الخاص بها ، وتم استبدال الحدود
الجيوپولتيكية الصارمة والتى فرضت تاريخيا لاحداث العزل التام
للك الدول بغرض افساح المجال للتجريب .

لقد فشل حكام بولندا فى اجراء اصلاح اقتصادى فعم السخط
الاجتماعى واضرب العمال واصيبت الصناعة بالشلل . ان تضامن
استمرت سرا رغم محاولات السلطة لقمعها . ان شبكة الصحافة
السرية المستقلة التى تمتلكها تضامن ساعدت فى عودتها للمسرح السياسى
فجأة باعتبارها ممثلا سياسيا يحظى بمصداقية كبيرة .

وبحلول عام ١٩٨٨ أصبحت القضية تحدى النظام السياسى
نفسه وتفرد النظام بالسلطة السياسية فى بولندا . وساعدت الارتقائية
الجديدة فى تحويل الموقف لعمل ثورى خاصة بعد أن اثبتت الإصلاحات
التي جربت فشلها وعدم جدواها . . ان تجاوز الوضع الراهن من
خلال تنظيم انتخابات حرة كان البديل الوحيد لوقف هذه المعاناة .
وقد علق البريطانى تيموثى كارتون آش Timothy Carton Ash
محرر المقالات السياسية المتمرس قائلا : « ان ما حدث فى الشهور الأولى
من عام ١٩٨٩ فى بولندا والمجر ليس مجرد رتق تقليدى للنظام أو مجرد
تحكم المعارضة فى قواعد اللعبة البالية ولكنه كان — الى حد ما —
دمجا للإصلاح والثورة معا فى خليط استراتيجى فريد انطوى على
تبادل للثقة وقبول الحكومة لشريك — أى المعارضة الديمقراطية —
وهو الشئ الذى كان يعد المستحيل عينه . وراى المعارضة أنها للمرة
الأولى تدخل فى صفة تاريخية يمكن أن تصل بهم الى السلطة » .

ان انقسام الشعب لفريقين « اصلاح أو ثورة » أصبح شيئا مألوفاً
فى بولندا والمجر فى بداية عام ١٩٨٩ :

« ان ما يحدث الآن هو خليط واحد من الاصلاح والثورة : ان « ثور اصلاح » أو ربما « اصورة » . وفي الاثنين هناك مؤثر قوى وجوهري لاجراء اصلاح فدائي وحتمى تقوده الاقلية المستنيرة (اقول الاقلية فقط) في الاحزاب الشيوعية التى مازالت تحكم وتتربع — فى بولندا على قمة القوة العسكرية والبوليس . ان تقدمهم يكمن فى تقهقر للسلطة غير مسبوق ، وشرعوا فى اقتسام السلطة والحديث عن الانسحاب منها فى نفس الوقت اذا خسروا الانتخابات » (٢٧) .

هذا ما حدث فى ثورة عام ١٩٨٩ حيث زالت كل الاعتبارات السابقة الخاصة بالبرجماتية التكتيكية كما رفعت كل الاعباء عن كاهل الشعوب وذلك على اثر هامش المرونة السوفيتى الجديد الذى منحته للدول التابعة .

ان جورباتشوف أقر فى السبعينيات والثمانينيات فلسفته الجديدة الخاصة بالعلاقات الدولية والتى ارتكزت على سيادة القيم الانسانية العالمية ، ولم يكن يخطر لأحد أن استمرار الهيمنة على كل بلد أوربى شرقى يمكن أن يتحطم بمثل هذه الطريقة الراديكالية . وأصبح حتميا على استراتيجىة المعارضة ان تركز على قدشين حقيقة اجتماعية جديدة تختلف عن ذلك الاطار المؤسسى الرسمى الذى يتركز على الاكراه والاكاذيب .

✳ السياسات المضادة للسياسات : كيف بزغ المجتمع المدنى :

ان الكاتب التشيكي المدافع عن حقوق الانسان فيتسلاف هافيل كان افضل من عبر عن الالتزام بسياسة المصارحة . وانضم هافيل — اثناء ربيع براغ — للمفكرين الذين انتقدوا مصلحى الحزب لجبنهم عن اختراق النظام السوفيتى التقليدى ، فحرم الشاب الذى تنتهى اصوله لاحدى العائلات البرجوازية من حقه فى استكمال تعليمه الجامعى وعانى هافيل من سياسة التعصب والتمييز بين الأفراد التى تنتهجها الحكومة، كما اكتشف عدم وجود علاقة تربط بين ديماجوجية النظام والحقيقة الاجتماعية لتشيكوسلوفاكيا ، وعبرت مسرحياته عن ورطة الانسان الذى يعيش تحت نظم معادية للحقيقة والكرامة . ورفض هافيل بعد الغزو السوفيتى لبلده الهجرة واستمر فى النضال من أجل الحصول على الحقوق المدنية فكان عضوا مؤسسا لميثاق ٧٧ ، واحد المتحدثين الرسميين عنه ، واعتقل هافيل عدة مرات بسبب صراعه الذى لا هوادة فيه مع السلطة . وفى عام ١٩٧٩ قرر المنشقون التشيكوسلوفاكيون البولنديون أن يتعاونوا لنشر مجموعة من المقالات بعنوان : « الى الحرية

والسلطة » ، إلا أن الطبعة التي صدرت تضمنت أسهامات تشييكوسلوفاكية فقط عن الموقف السياسي في كسلا البلدين ولكن البولنديين اطلعوا عليها وقدروها حق التقدير . وأشار زيجنيو راجيك زعيم منظمة تضامن وارسو - Warsaw Solidarity للمقال الذي حرره هافيل في هذه الطبعة وكان بعنوان « قوة المقهورين » حيث قدم للمعارضة من خلاله « الخلفية التاريخية ، والأساس النظري لأعمالنا » (٢) . لقد أبدع هافيل عندما دمج وبطريقة مؤثرة الأفكار والآمال والعواطف التي عبرت عنها الجماهير بعفوية وبشكل راق . وقدمت الحركات الجديدة في أوروبا الشرقية تفسيراً نظرياً يقنع الجماهير بشرعيتها السياسية . وتم إعادة طبع هذا الملف من المقالات التي حررها المفكرون المبدعون إلا أن مقال هافيل قدم تحليلاً مركزاً وجامعاً لطبيعة السلطة ، والانشقاق ، والمعارضة في مجتمعات ما بعد التوتاليتارية .

ويتعرض مقال « قوة المقهورين » للأزمات المعنوية العتيقة التي يعاني منها الفرد في المجتمع غداً فيه الإرهاب متفشياً ومتخفياً في آن واحد، بل أنه لجأ لكل أنواع القمع بشكل غير مسبوق . وطرح مقال هافيل استراتيجية لتحرير الفرد كما طرح بديلاً لفلسفة الاستسلام والعجز التاريخيين .

وكان هافيل يؤمن بإمكانية سحق منطق الاندماج وأن الحرية مطلب لا يمكن تمهينه أبداً .

ويصف المقال الموقف السياسي والمعنوي في تشييكوسلوفاكيا المحايدة في عهد هوكسا حيث أصبح التجاهل والتناسي سياسة قومية رسمية ، كما أكد المقال على إمكانية انهيار المجتمع التوتاليتاري الذي يعاني من الاضمحلال .

أن التزام النظام بحد أدنى من المصارحة يعطى الفرصة للأفكار الناقدة كي تأتي في الصدارة وتحدث الأثر الاجتماعي المرجو منها . ويتعامل مقال هافيل تحديداً مع المنطق الاجتماعي والمقدمات السيكولوجية للانشقاق ويحدد السمات التي تميز مجتمع ما بعد التوتاليتارية ، أن مجتمعات ما بعد التوتاليتارية سمحت بأشكال وليدة من التمردات إذا ما قورنت بالأوضاع الستالينية حيث خضعت كل أشكال النقد الحقيقي والبناء للقمع الفظ . أن الجهود الجماعية التي تبذل من أجل التحرر القومي كانت مستحيلة في بلدان مثل ألمانيا ورومانيا ، ذلك لأن أنظمتهم جمعت كل خيوط السلطة في يدها - وصاحب التخلص

من السلطة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا السماح بهامش محدود من الأعمال النقدية . لقد تميز نظام ما بعد التوتاليتارية بسمتين : الأولى اعتماد النظام الفاشي على الأوتوماتيكية (٢٩) والآلية أكثر مما يعتمد على أشكال التعبئة التقليدية للتضامن والتعاون ، والثانية إيمان الفرد بأن أحداث التغيير في الظروف الراهنة لم يعد مستحيلا ، ولم يعد التعاون مع السلطة القائمة هو السبيل الوحيد للبقاء .

لقد أصبح كل فرد - القوى والضعيف - واعيا بالخدع والاساطير القديمة كما جرؤ البعض على التعبير عن رايه علانية . ان الاقلية المحاصرة التي تغلغل عن رايها دون خوف هي البديل لاقامة نظام على أسس متينة :

« إن الشبح يطارد أوروبا الشرقية ، شبح ما يسمى في الغرب « انشقاق » ، إلا أنه لم يظهر للعيان بعد ، إنه النتيجة الطبيعية والحتمية للحالة التاريخية القائمة لهذه الأنظمة . لقد ظهر في الوقت الذي عجز الحكام فيه - لآلاف أسباب - عن اقامة نظام شرعي دقيق وكيفي بالتخلي عن كل العبارات التي تشجب اللا امتثالية او الانشقاقية . وفوق ذلك لقد أصبح النظام متحجرا على المستوى السياسي فلم تعد هناك أية طريقة عملية كيما تنفذ الانشقاقية داخل بناء الرسمية » (٣٠) .

لقد تشربت الحياة - تحت وطأة الأيديولوجية الستالينية - بالأساليب الاحتكارية المستبدة واجبر الفرد على المشاركة في طقوس جماعية من أجل «إثارة الثورة» البطولية ، والتفاني والعنف الشديد ، ومن ثم بدت مؤسسات النظام التوتاليتاري منهارة تماما ، وأصيب أبنائه بالإعياء التام .

وما تزال - بالطبع - الأيديولوجية قائمة ، في مجتمع ما بعد التوتاليتارية إلا انها بقايا من آثار الماضي وعاجزة تماما عن إثارة مشاعر وردود أفعال العامة من الجماهير .

ودلل هافيل على الأيديولوجية التي تتحلف بالاحتكارية والازدواجية بحكاية رمزية يصف فيها بائعا للخضر والفواكه وقد وضع في واجهة محله بين البصل والجزر شعرا يقول : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! » . حقيقة ، ان الخضرى لا يعبر أى اهتمام لاتحاد بروليتارية العالم أو عدمه ، بالاضافة لذلك فهو يدرك تماما ان وضعه للشعار في الواجهة

لم يرفع من شأن قضية الدولية البروليتارية ، وليس هناك شيء أكثر بعداً عن اهتماماته اليومية من الشعار الماركسي الذي ينادى بوحدة عالمية للعمال . والسؤال الذي يجب أن نطرحه هو : إذا كان الخضرى لا يبالى بمحتوى الشعار فلماذا تصرف على هذا النحو ؟ ويجب هافيل بأن الخضرى — بأدائه لهذه الشعيرة — يؤكد للسلطات التى أعطته هذا الملصق أنه يتصرف بمنتهى الانضباط ووفقاً لما تنتظره منه باعتباره جزءاً من الكيان الاجتماعى .

وإذا رفض التاجر أن يعرض الملصق فسوف يهدد تماسك هذا الكيان ويقوض قواعد الامتثالية ويتعرض للخطر . ورغم كل شيء فإن الخضرى سيسأل نفسه ماذا بشأن عهد الوحدة العالمية ؟ ولماذا يجب أن يضع هذا الملصق بين التفاح والجزر ؟

وقال هافيل إن المعنى الخفى وراء تلميح بائع الخضر والفواكه تعود مباشرة لامتثاليته للأيديولوجية : « إن الشعار إشارة تحتوى فى حد ذاتها على رسالة بصعب فهمها إلا أنها محددة . إن الخضرى يقول لنفسه :

« اننى الخضرى فلان أعيش هنا وأعرف ما ينبغى أن أقوم به . اننى أتصرف بالطريقة التى ينتظرونها منى . ويمكن أن يعتمد على وسابقي بعيداً عن أى لوم . اننى مطيع ولذا فلى الحق فى أن أعيش فى سلام » (٣١) .

وإذا رفض الخضرى أن يذعن للشعار فانه بذلك سيمزق السلوكيات السوية التى اقربت اجتماعياً .

إن الفرد فى مجتمع ما بعد التوتاليتارية لن يكون عابداً متحمساً للقائد الأعلى ، ويكفى للمرء أن يصدق على قواعد الإتيقار والاندماج باتباعه لها . إن التزام البائع بأداء هذه الشعائر يعينه على تحمل النظام ، أما إذا واجهنا الخضرى بأن سلوكه يعد سلوكاً ذليلاً وخاضعاً لأوامر السلطة ، فسوف يدافع عن نفسه قائلاً إن عرض هذا الشعار فى واجهة محله لن يضير أحداً . وعلى أية حال فإن هذا الشعار فقد — منذ أمد — كل معنى راق يخلقه ، ولم يعد يلقي أدنى اهتمام . وأن وضع الشعار فى واجهة المحل يضمن للخضرى الاحترام فهو يلتزم بما تريده السلطة ولكن ، دون أن يعترف بأذغانه الأخلاقى كأنه يقول :

« اننى ضعيف ، وخائف ، ومرعوب ولذا فانتى أكذب » ويقول :

« اننى فقط أشايح — ولو بطريقة تجريدية . قضية لا تضر ولا تنفع . اننى أفعل ما يجب أن يكون ؛ لأن تغيير العالم ليس من شأنى » .

ان كشف الزيف الايديولوجي للعبودية هو الدعامة الأساسية لنظام
ما بعد التوتاليتارية .

« وهكذا فان هذه اللافتة تساعد الخضرى على خداع نفسه كي
لا يعترف بأنه ذليل يخضع للسلطة . ان اللافتة تخفى خلف ظهرها
الخارج شيئاً اكبر . هو الايديولوجيا . ان الايديولوجيا ليست طريقة موثوق
بها لزرع الانتماء . ان الايديولوجيا تقدم للفرد وهم الهوية ، والفخر ،
والاخلاق ولكنها فى نفس الوقت تجعل التخلي عنهم امراً يسيراً ،
وباعتبارها مستودع كل شيء موضوعى « يتجاوز الفرد » فانها تكسب
الناس قدرة على خداع انفسهم وتجميل الوضع الحقيقى والتواؤم مع
انفسهم والعالم بطريقة التسويات المهينة . وتلقى الايدولوجيا كل
تشجيع لانها تضى الشرعية على كل شيء . انها موجهة نحو الشعب
ونحو الله . انها الستار الذى يمكن للبشر ان يخفوا وراءه « وجودهم
المساقط » وتفاهتهم وتكيفهم مع الوضع الراهن . ان كل فرد يستطيع
ان يجد عذراً يبرر به فعلة الخضرى الذى يخفى رعبه - خشية فقد
وظيفته - خلف مصلحته المزعومة فى اتحاد عمال العالم ، كما يبرر
الموظف الكبير مصلحته فى البقاء فى السلطة باستخدام عبارات مقتبسة
عن خدمة الطبقة العاملة . ومن ثم فان طريقة التبريرات التى تستخدمها
الحكومة تجعل الناس سواء اكانوا ضحايا الانظمة التوتاليتارية ام من
دعائهم يعيشون فى وهم مفاده ان النظام السياسى فى اتساق مع
المنظومة الانسانية والنظام العالى » (٢٢) .

ان الايديولوجية هى بديل للارهاب الصريح وبديل لغذاء العقل
ويستخدمها النظام للقضاء على اى شكوك قد تنتاب مواطنيه . ان
الايديولوجيا حققت من القيم الانسانية فقدست الهزائم المعنوية وجرمت
البطولة الاخلاقية . ان انشاء المجتمع المدنى فى اوربا الشرقية يتطلب
التمرد ضد الدور الارهابى للايديولوجيا .

ان المجتمع المدنى كان محاولة لجعل المناخ الشمعى معادياً
للايديولوجيا وللخروج من الشكلى السياسى الزائف الذى لجأ للمناورة ليمنع
ممارسة حقوق الانسان . وحاول المجتمع المدنى ان يعيد - دفاعاً عن
« الاهداف الحقيقية للحياة » - تكوين حس اصيل لتحقيق التضامن
الانسانى ، كما رفض ادعاء النظام السياسى العالمية واستعر الصراع
فى كل بلدان شرق اوربا - باسم حق الاختلاف - فى التفكير والعمل -
لتحقيق تحرير المجتمع وعنتقه . وفى الوقت الذى استخدم النظام الإبتثالية
والفرقة كدعامتين له ، نبع المجتمع المدنى من الابداع والاصالة
والتفرد .

ان مضح الزيف الذى يحمله جوهر نظام التوتاليتارى و « الآلية العمياء » التى تضمن تكاثر هذا النظام كان أحد أهداف المجتمع المدنى الصاعد . ولا بد ان نفهم — قبل طرح البديل — سمات النظام القائم ، فقد لجأ للمحاكمات الصورية والارهاب البشع لقهر الشعوب ، وافتقر لأى دعم شعبى أصيل ، كما فشلت أيديولوجيته فى استثارة التوهج الجماهيرى ، وبدد النظام — بفساده وجموده — الطاقة البشرية . لقد شعرت الجماهير بحسها الشعبى — ان النظام أفلس ولم يعد بمقدوره تقديم أى شىء لهم الا ان الأقلية هى التى جاهرت بذلك . ورأى هافل أن سرمدية النظام تكمن فى قدرته على المناورة باستخدام الشعارات والرموز . واللجوء الى التعسف والاكراه أكثر من أى شىء آخر .

« ان النظام التوتاليتارى يطارد أفراد الشعب ، ولكنه يفعل ذلك وهو يرتدى قفازات أيديولوجية ، مما يؤدى الى تفشى النفاق والاكاذيب فى كل جسوانب الحياة : فالحكومة البيروقراطية تدعى أنها حكومة شعبية ، وتستعبد الطبقة العاملة باسم الطبقة العاملة ، واعتبرت تجريد الفرد التام من كل حقوقه هو أقصى تحرر يمكن أن يحصل عليه كما تعتبر حرمان الناس من معرفة الحقائق ، شرًا لها ، وتدعى ان المناورة طريقة للتحكم فى الجماهير ، ويسمى الاستخدام القسرى للسلطة باسم التطوير ، ويعد التوسع فى نشر النفوذ الامبريالى دعما للهيمنة ، ويعد كبت الآراء الحرة اسمى شكل من اشكال الحرية وتتحول مهزلة الانتخابات لاسمى اشكال الديمقراطية ، ويصبح حظر التفكير المستقل هو أكثر الرؤى العالمية علمية ، ويعتبر الاحتلال العسكرى مساعدة أخوية . لقد زيف النظام كل شىء ؛ لأنه كان أسيرًا لأكاذيبه انه يزيف الماضى ، ويزيف الحاضر ، ويزيف المستقبل . انه يزور الاحصائيات ، وينكر ملكيته لأجهزة بوليس كلية النفوذ وغير مسئولة . انه يتظاهر باحترام حقوق الانسان وبعدم لجوئه للارهاب . انه يتظاهر بأنه لا يتظاهر بشىء » (٣٣)

لقد قدم هافل تحليلًا بارعًا وعميقًا للحقبة التوتاليتارية وكشف الأسس التى عمل بها النظام البرجنيفى ورأى انه لم يستخدم الأساليب التقليدية الفظة لارهاب الجماهير ، انه جعل المعاناة أقل وضوحًا للعيان وحاول أن يلغى الحاجز بين الضحايا ومعذبيهم ، فالفارق بين هاتين الطبقتين بتلاشى تمامًا فى ظل نظام يجبر كل شخص على المشاركة فى الكذوبته الكبرى . ان النظام تعلق بالعقيدة الرسمية لأنها مصدر حياته بغض النظر عما تحمله من اكاذيب واضحة للجميع . ان ثقة الائتلاف الحاكم بنفسه تزداد كلما كانت ادعاءاته الأيديولوجية أكثر حبكة وحبطة .

ان الأيديولوجية تنادى بالاقتصاد المخطط وتبرر وضع قيود على حقوق الفرد وتمجد « الدور المقدر » للحزب الشيوعي ، ودونها ينهار النظام تماما . ومع توقف الدعم والتشجيع .

وفى الحقيقة ، فانه فى الوقت الذى يتقدم الاتحاد السوفيتى للائتلافات الحاكمة باعتباره سندها فان الانظمة الشرق أوروبية انهارت مثل بيوت من ورق . وأطلق هافيل على نظام المبادئ الأيديولوجية ، والحظر ، وفرض القيود على كل الحريات « النظام الميتافيزيقى » :

« ان النظام الميتافيزيقى كان أساسيا للينينية الكلية للسلطة ، وهو نظام يفرز شكلا للاتصال يجعل التفسير الداخلى وثقل المعلومات والتعليمات ممكنا ، كما يضمن الاتساق الداخلى لبنية السلطة التوتاليتارية . انه الصمغ الذى يلحم بناها بعضها ببعض ، انه العقيدة والأداة ، ودون هذا الصمغ فان البنية - كبنية توتاليتارية سوف تسقط وتتحول الى جزئيات فردية متضاربة ومتناقضة مع بعضها البعض فى المصالح والسمات - ان الهرم الكامل للسلطة التوتاليتارية والتي تفتقر الى التماسك سوف ينهار ويتحول الى ركام كما لو كان الانفجار من الداخل » (٣٤) .

ان مثل هذه الفاشية الأيديولوجية ليس لها أى أساس منطقى مقنع ، ويجب على الأفراد - من خلال سلوكياتهم أن يصدقوا على شعاراتها رغم عدم ايمانهم بها لزيفها . ان المفاتيح التى استخدمها النظام التوتاليتارى لفرض هيمنته هي : أن تؤمن ، أن تكذب ، واستخدم تعبير « كما لو » تعبيرا عن آلية الخداع التام للنفس .

« ان الأفراد ليسوا فى حاجة للايمان بكل هذه الألفاظ المحيرة ، ولكن لابد أن يؤمنوا بها أو على الأقل يجب ألا يرفضوها أو يلتزموا الصمت ولا بد أن يتواءموا مع من حولهم ، ومن ثم فرض عليهم العيش فى كذبة . انهم ليسوا فى حاجة لأن يقبلوا هذه الكذبة ، انما يكفى أن يتعايشوا معها وداخلها . ويقدر ما يصبح ذلك حقيقة واقعة ويقدر ما يعبر الأفراد عن رضاهم عن النظام يظل هذا النظام قائما » (٣٥) .

ان الارهاب المعنوى للجماهير هو أهم ما تركز عليه السلطة التوتاليتارية . ويكتسب النظام فاعليته طالما قبل المواطنون أكاذيبه ، وكلما ظل المواطن العادى - الخضرى - مصدقا على هذا الهرء الأيديولوجى رغم وعيه بأنها محض أكاذيب سيظل النظام على حاله .

ان القضية ليست نحيدياً لمصدر القمع في الحكومة ولكنها نحيدياً
الكيفية التي كبل بها الأفراد ببنية السلطة . ان الحكام مسئولون
مسئولية مباشرة عن الاجراءات القمعية إلا ان المواطنين كرسوا الوضع
القائم بطاعتهم العمياء ورفضهم للمصارحة بالحقيقة . ورأى هافيل
أن قدرة النظام على تحويل ضحاياه الى شركاء جعل الأنظمة
التوتاليتارية تبدو مختلفة عن الديكتاتوريات الكلاسيكية . وتلاشت فكرة
التغيير الأصلية وحاول الأفراد ان يتوافقوا مع ما يبدو لهم أنه الشكل
الممكن والوحيد للبقاء ، ويتقبلون ديماجوجية النظام وبرددوا شعاره
ومن ثم يدعموها .

ولم يسفر هذا التعقيد عن تردى الروح المعنوية لدى الجماهير
وتفشى اللامبالاة بينهم فقط بل عن يأس تام من التحرر من النظام .

ان النظام التوتاليتارى الشزوفرينى لم ينفذ الى المستويات
المؤسسية والسوسولوجية فقط بل والى الجوانب السيكلوجية
والعاطفية للأفراد ، ان الخضرى - عندما يرفع الشعار المضحك الذى
ينادى بوحدة البروليتارية - فانه يقول للعالم انها الطريقة الوحيدة
للبقاء ، ومن ثم فلا مفر من الامثال للأوامر الرسمية ، ولكننا نقول له
الليبرالية تبدأ من الفرد ؛ لأنها عتق للذات وتحرر من امبراطورية
الأكاذيب وتبدأ بقرار من الفرد أن يعيش الحقيقة . ان العتق والتحرر
من الزيف المتفشى فى كل مكان لا يمنح من الآخرين ولكنه قرار من الفرد
- الخضرى - بأن يضع نهاية لما يرى أنه شكل شاذ من انكار الذات ،
انه قرار من الفرد بأن يعيش وفقاً لمعتقداته ، ومشاعره الحقيقية ،
وان يرفض الأكاذيب ويعيش الحقيقة . وعندما يرفع الخضرى الشعار
من واجهة محله ويرفع صوته بانتقاد مساوئ الحكام ، فانه حتماً
سيستعدى هؤلاء الذين لم يأخذوا قرارهم بعد وما زالوا رهائن
للأكاذيب الرسمية وسوف يزدرونه ويهاجمونه لخرقه القواعد ،
وسيتحول المنشق تجراً ورفض أن يعيش عبداً الى الأبد . ان تمسك
الفرد بانسانيته سمة آدمية حتى لو أدى ذلك للحط من قدره أو الى
لفظه ونبذه .

ان أهمية تمرد الخضرى لا تقتصر عليه كفرد فالنظام سوف
يقتفى ما قد يتركه مثل هذا التمرد من أثر معد على بقية الأفراد
ويقضى عليه .

((ان تمرد الخضرى لم يكن مجرد اهانة وجهها فرد للنظام ولكنه
أكثر خطورة من ذلك ، لأن خرقه لقواعد اللعبة سوف يثير الفوضى

وسيفضح اللعبة • لقد كشف عالم الأكاذيب والمظاهر ، وحطم العماد الأساسي للنظام • لقد قلب السلطة رأسا على عقب بتمزيقه لما تم دمجهم وتوحيده • لقد أعلن أن هذه الحياة عيش في الأكاذيب ، وكشف عن وجه النظام القبيح وفضح ما يركن اليه النظام من دعائم واهية • أن ما قام به الخضرى يعد خطابا موجهًا للعالم • لقد جعل الآخرين ينظرون ويصدقون فيما يجرى وراء الستار ، واثبت للآخرين أن العيش في الحقيقة شيء ممكن • أن العيش في الأكاذيب يمكن أن يمنح الشرعية للنظام عندما يكون نظاما عالميا • أن النظام لا يمكن — تحت أى ظروف — أن يتعايش مع الحقيقة ، ولذا فإن أى شخص يتجاوز الخط المرسوم يعد تهديدا لسلامة النظام وكماله » (٣٦) •

أن تحدى الخضرى السافر للنظام تعبير عن صحوته ورفضه للنفاق الذى هو لب النظام التوتالتيارى • أن كل فرد يعرف تمام المعرفة أن النظام مجرد كذبة واضحة وروتينية إلا أن المكاشفة بذلك تعد جنونا محضا وانتهاكا لكل المحظورات — أن تمرد الخضرى يكرس شكلا مختلفا من السلوك يسمح للفرد بالعيش في الحقيقة ، وهو ما يعنى — بكل المقاييس — الحق في الحياة وذلك لأن العيش في الأكاذيب يعنى تشويه الحياة واجبار الانسان باستمرار على أن يخالف ضميره • مستشعرا ازدراء النظام واستخفافه بذاته •

أن تمرد الخضرى يعد لكل هذه الأسباب عملا مشينا من وجهة نظر النظام لأنه تهديد لاستمراره وثقته في اجبار مشيعيه على الكذب الى الأبد :

« أن النظام لا يرى في عيش الحقيقة ورفض الرياء أى ابعاد إيجابية (أى عودة الانسان لطبيعته الأصلية) أو ابعاد فكرية (الكشف عن الحقيقة كما هى) أو ابعاد اخلاقية (ظهور قدوة للآخرين) • ولكنه يرى أن لها أبعادا سياسية واضحة تماما • وإذا كان العماد الأساسي للنظام هو العيش في كذبة ، فليس من المدهش إذن أن يمثل له العيش في الحقيقة خطرا محققا • ومن ثم فقد لجأ القمع العنيف لاضفاء الحقيقة » (٣٧) •

أن قرار الفرد بخرق الدائرة السحرية التى ضربت حوله فيتحدى السلطة القائمة ويعلن الحقيقة كان مقدمة منطقية لخروج المجتمع المدنى للحياة ، وعندما يقوم كل فرد بذلك يقدم المساعدة للمجتمع كى يحيى حياة مستقلة ، ويستوعب أشكالا متعددة لبدائل ووسائل علاجية •

وسوف يحاول النظام بالطبع أن يمحى هؤلاء ، ويقنع الآخرين بأن هذا السلوك لا ينطوي على أى دوافع نبيلة ، ولكنه ينبع من عقل مشوش .

ان الصراع بين آلة القمع والفرد صراع غير متكافئ بالطبع والقادرون على تحمل المشاق المصاحبة لظروف الانشقاق قللة . ان الموقعين على ميثاق ٧٧ ، كمثال ، والذين قضوا أعواما طويلة في المعتقل عملوا بوظائف وضيعة ولطخت سمعتهم وشوهدت صورتهم في الاعلان الرسمي ، الا أن الفعالية السياسية ، والمشاركة في مبادرة مدنية غير رسمية يعد خطوة للأمام تساعد في بلورة خيار سياسى بديل .

ورغم ان ميثاق ٧٧ لم يشر الى طبيعته التعددية ورفض أن يقر فلسفة سياسية بعينها الا أنه يعتبر خطوة سياسية هي الأولى من نوعها . وفي ذات الوقت فإن معاشية الحقيقة — حسبما رأى هافيل — لا يعنى بالضرورة التزاما سياسيا مباشرا وان الأثر الاجتماعى لرفض الفرد التعاون مع النظام لا يجب أن نبالغ فيه . ان نقطة الانطلاق لهذا الانفصال عن منطق الدمج هي في الواقع قرار بالتوقف عن الكذب ، ان تعبر الفرد عن رأيه الحقيقى ، ورفضه لقبول الوضع الراهن بأوهامه وأساطيره واضراره على حريته الروحية كلها أشكال من العيش في الحقيقة تتعارض — في نهاية الأمر — مع اصرار النظام على احتكاره للسلطة . ان العيش في الحقيقة ليست بالضرورة شيئا خارقا ولا تتطلب — كى تتحقق — أعمالا فدائية أو استشهادا . وقد اشار هافيل الى ذلك قائلا :

((عندما اتحدث عن العيش في الحقيقة ، فمن الطبيعى الا يكون في ذهنى مفاهيم بعينها مثل الاحتجاج أو بيان يكتبه مجموعة من المفكرين . ويمتلك الفرد كما تمتلك الجماعات أدوات ووسائل للتمرد ضد المناورات مثل المنشورات التى يكتبها المفكرون أو اضراب العمال ، أو حجر تلقىه مظاهرة طلابية ، الى مقاطعة الانتخابات المزورة ، أو القاء خطاب صريح في بعض المجالس الرسمية أو حتى الاعتصام . وإذا كان قمع أهداف الحياة عملية مؤقته تستخدم فيها المناورة المتعددة الوجوه ، اذن — وفي نفس الاطار — فإن كل تعبير حر حتى لو كان طبيعيا بالنسبة لأنظمة سياسية أخرى يعد تهديدا سياسيا مباشرا للأنظمة التوتاليتارية)) (٣٨) .

ان رد فعل السلطويين على تحدى المجتمعات المدنية الصاعدة فى السبعينيات والثمانينيات اختلفت من بلد لآخر . ان فرص نمو وتزايد المبادرات المدنية كانت أعظم فى المجر (جانوس كادار وفى بولندا (ادوارد جيريك) عنها فى تشيكوسلوفاكيا (جوستاف هوساك) أو عن

رومانيا (نيكولاى شاوشيسكو) ، ويعد أن تبني جورباتشوف سياسات
الجلاسنوست Glasnost والبيروسترويك Perestroika اعتبر الفاعلون
المدنيون في بلدان حلف وارسو الحركة السوفيتية الحديثة فرصة عظيمة
للنقد صوب اجراء تغييرات كبرى . وغندما زار الزعيم السوفيتى
اتحاد الجمهوريات الالمانية الديمقراطية فى عام ١٩٨٧ هتف له الشباب
الشرق أوربى تغبراً عن اعجابهم بسياسته وسخطاً على الخط المحافظ
الذى ينهجه اريك هونكر Erich Honcker وتابعوه فى قيادة الحزب
الشيوعى . وفى رومانيا حبت تفاخر شاوشيسكو بخلافه مع الاتحاد
السوفيتى وجهت القيادة تقديها الرسمى الحاد لسياسات جورباتشوف ،
وأحكم الحزب الشيوعى قبضته على كل شرائح المجتمع ، ونحسولت
المعارضة فى هذا البلد كجهود فردية بسبب وجود البوليس السياسى ،
وبسبب رد فعل شاوشيسكو المرضى نحو أى شكل من أشكال النقد
حتى لو فى أدنى مستوياته .

ولكن العيش فى الحقيقة لم يكن مستحيلا حتى فى مثل هذا البلد ،
وكان المناضلون مثل رادوفيلبسكو Radu Filipescu (المهندس الشاب
فى بوخارست والذى كان أول من أعلن معادانه لشاوشيسكو ، ودوانا
كورنيا Doina Cornea (المحاضرة الجامعية فى كالى Cluj التى
ارسلت لشاوشيسكو عرائض لا حصر لها تحتج فيها على مسناره
السياسى الذى سيؤدى الى كارثة قومية) ، مثالا يحتذى على التمسك
بإنسانيتهم وحريتهم حتى فى أحلك الظروف . وتعرض هؤلاء وغيرهم
ممن شاركوا فى أعمال المعارضة الجسورة فى رومانيا وبلغاريا لاضطهاد
أسوأ مما تعرض له أندادهم فى الأنظمة الأخرى التى كانت أكثر مرونة .
ان غياب الحركات الحبوبة فى رومانيا مثل حركة تضامن أو حتى
المبادرات الفكرية مثل ميثاق ٧٧ لم تكن تعنى للجماهير أن الحياة
المستقلة للمجتمع قد قمعت للأبد اذ أن انهيار المعارضة التام كان — رغم
كل شيء — مستحيلا ، واندلعت فى البانيا — الحصن الستالىنى
المنيع — المظاهرات الطلابية وغيرها من مظاهر الفعالية السياسية
وذلك بمجرد أن خمد الارهاب التوتاليتارى فى عامى ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ .
ان تناول ملحة المجتمعات المدنية فى أوربا الشرقية بالدراسة
بنطلب دراسة الظروف السياسية التى بذلت فى ظلها الجهود المضنية
لخلق لجان مستقلة . وضمن هذه الظروف نجد «الاستبدادية المستتيرة»
كالتى لدى قادر الى بارانويا الديكتاتورية المركزية كالتى لدى
شاوشيسكو . وقتئذ أصاب هافيل عندما أشار الى أن تتناول تطورات
المجتمع المدنى فى بلدان مختلفة بتطلب أخذ معيارين فى الاعتبار :

أولاً : عند تناول أثر الأنشطة المستقلة لابد ألا نتبع طريقة مقارنة جامدة (إذ كيف نقارن ظروف بلد بآخر) ولكن يجب أن نتناولها في ضوء ظروف كل بلد على حدة .

« أن ما يبدو في دولة ما على أنه استقلال متواضع ومحدود وحذر قد لا يظهر كذلك في دولة أخرى — فإذا أعرب المواطن الروماني مثلاً عن انتقاده للظروف القائمة في بلده ، فإن هذه المحاولة قد تبدو دون المستوى ومتواضعة من وجهة نظر المواطن المجري رغم أن الموقف في رومانيا كان منذراً ، ومن ثم فإن العمل الذي يمسر — في بلد ما وفي لحظة ما — دون أن يتوقف عنده أحد ، قد يبدو مقترفاً ومتاوناً في بلد آخر بل قد يهز المجتمع كله » (٣٩) .

ثانياً : أن المغزى الاجتماعي الحقيقي لمثل هذه الأعمال لا يعبر عنه — بالضرورة — عدد القائمين بها أو المشتركين فيها .

« القضية هي أن هذه الأعمال لها آثار غير ملموسة ، والمغزى الفعّال لا يمكن دائماً وبالضرورة أن ينبع من حجم الظاهرة التي أفرزته . أن الذين وقفوا ميثاق Charter 77 كانوا عدداً قليلاً إلا أن جزءاً كبيراً من المجتمع يعرفهم ويعرف حجم عملهم (أو على الأقل الشريحة العريضة من المجتمع الذي ما زال يهتم بالأمور العامة والذي يمكن أن نقول أنها « تصنع التاريخ » وهم يسمعون عن هؤلاء الميثاقيين من الاذاعات الأجنبية » (٤٠) .

أن الالتزام بقضية أحياء الروح المعنوية للمجتمع لا يعنى بالضرورة تحقيق نتائج فورية ، بل على العكس فإن فكرة التنظيم الاجتماعي الذاتي تتضمن استراتيجية بعيدة المدى أو « المسيرة الطويلة » ضد البنى الرسمية ، ويكون ذلك باتساع مدى المبادرات التي تأتي من القاعدة فتتحول في النهاية لحركات اجتماعية أصيلة .

أن ذلك هو ما حدث في بولندا حيث تكونت لجنة الدفاع عن العمال من مجموعة صغيرة من المناضلين ذوي التوجه المدني الذين عملوا على تحقق توقعات وآمال والهجمات المجتمع بصورة عامة .

وعندما وقع الانفجار الاجتماعي في أغسطس عام ١٩٨٠ بما له من أثر معنوي استطاع أن يمد حركة تضامن بمفاهيم استراتيجية وبخبرات سياسية . ولا نستطيع أن نقلل من شأن القيمة التربوية

لمثل هذه النواة الجماهيرية حيث قرر اعضاؤها أن يعيشوا الحقيقة وذلك لا يعنى أنهم انفصلوا تماما عن المجتمع الرسمى . وطالما أن الدولة هى الوحيدة التى تملك وطالما أن كل أشكال السلوك الاجتماعى من عملية الشراء وحتى التعلم تقع تحت سيطرتها ، فإن من المستحيل أن يشعر الأفراد بالاستقلال التام ويصبح الشيء الوحيد الممكن هو النضال لتوسيع هامش الاستقلالية للفرد ، أو قل لتقليل خضوعه للدولة ، ويقول هافيل فى هذا الصدد :

« لا يمكن أن يقع بلد صغير ذو شعب غير مستقل الى جوار بلدان ذات « شعوب مستقلة » دون أن يحدث بينهم تفاعل . هناك بلد ذو مواطنين « غير مستقلين نسبيا » ويفسحون بالتدريج وبإصرار طريقا « لاستقلالهم النسبى » عبر التحرر الروحى والتحدى المعنوى ليحققوا استقلالهم التام ، لذا فإن توسيع الهامش الضيق من الاستقلال فى هذه البيئات ، هو الشيء الذى يجب تحقيقه والحفاظ عليه » (٤١) .

وعندما تفجر الموقف السياسى عام ١٩٨٩ فى تشيكوسلوفاكيا وبدأت الفوضى التى تتسم بها العلاقات التى تربط الائتلاف الحاكم تتفشى ، أصبح ميثاق ٧٧ ، مغناطيسا يستقطب هؤلاء الذين كانوا قد أجلوا مقاطعتهم للنظام .

ان ميثاق ٧٧ يعد أكثر أهمية بالنسبة « لثورة تشيكوسلوفاكيا التى فاقت نتائجها كل التوقعات » عن الأحلام الإصلاحية للزعماء السابقين الذين خططوا لربيع براغ . ويكمن قصور الدوبتشيكية فى فشلها فى التخلّى عن النموذج اللينينى الرث وانتقال السلطة من ائتلاف الحزب الى المجتمع . وبعد أكثر من أربعين عاما من التعصب والاستبدادية والتشبع بالأكاذيب الأبدولية ، عم المنطقة كلها فقدان ثقة تام وذلك لتأصل عقيدة الاستعباد . وبات واضحا فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٨٩ غياب الضغوط الاجتماعية التى تطالب بتحقيق استراتيجية ذات وجه انسانى وأن توجه الثورة يجب أن يعلى من شأن الأمل العميق فى التحرر ، وأسرع ميثاق ٧٧ — رغم طبيعته المتجاوزة للقوميات — يطرح صيغا سياسية جديدة ومميزة للنظام الذى سبى الشيوعية ومنها صعود المجتمع المدنى .

لقد كان ميثاق ٧٧ تجسيدا لفكرة التسامح والدفاع عن الحوار المفتوح وبرز ذلك فى كتابات هافيل وفى الأنشطة العامة التى جعلت هذا الميثاق أداتيا واكسيته مصداقية على طريق الانتقال السلمى

للتعددية . ان منظمتى مبادرة السلام Initiative for Peace وحقوق الانسان Human Right في جمهورية المانيا الديمقراطية (الحركة التى تمت فى اواسط الثمانينات وجماعة موسكو المعتسدة Moscow Trust Group فى الاتحاد السوفيتى والمعارضة الديمقراطية فى المجر اعتبروا ان ميثاق ٧٧ يرمز لسياسات الثقة والامل والتضامن الانسانى . لقد دب النشاط فى حركة الدفاع عن حقوق الانسان غاصبت النظام فى مقتل ، وامكن للمحكومين ان يدينوا الحكام لسوء سلوكهم ، كما أثرت المراقبة التى فرضها الشعب على الحكومة على ممارساتها (ومن الأسباب الأخرى التى ساعدت فى ذلك الضغوط الدولية) .

وبتحليل الأحداث وتقييم نتائجها نجد ان الأنشطة التى تقوم بها لجنة الدفاع عن العمال وميثاق ٧٧ بدت قوية مناسكة على نحو استراتيجى ومؤثرة على نحو تاريخى ، كما أسفرت عن تغيرات غير عادية فى تلك المجتمعات وخلفت جنيئاً لسلطة الأمة التى كانت على وشك ان تحل محل الانظمة الشيوعية المفككة خلال اجتياح ١٩٨٩ . ان استراتيجية المجتمع المدنى هى رفض ادعاء الحزب الشيوعى بدوره القيادى ، وهدفه هو تشجيع التعددية الأصيلة . ورغم الأعمال البطولية التى قام بها المجتمع المدنى فى أوروبا الشرقية ونزاهتها مع جهود أخرى قام بها كثيرون من أمثال هافيل وبتشك فان بدالات وتوقعات سقوط هذه الأنظمة فى المستقبل المنظور كانت قليلة ، وبينما أعرب تيموثى جارتون آش - المراقب للموقف فى أوروبا الشرقية - عن رأيه فى السيناريو المتوقع لمستقبل المنطقة وأكد على مزيد من التفكك والتحلل للأنظمة القائمة متخذة فى ذلك أشكالا « تركمائية » تنبأ آخرون - مثل ميلان كونديرا - بأن الدور التاريخى لأوروبا الشرقية بالنسبة للعالم سوف يشطب . وعلاوة على ذلك فان المناضلين المدنيين فى المنطقة أدركوا ان رفضهم وشجبهم للشكل الرسمى للممارسات السياسية سوف يثير السلطة وخاصة انهم كرسوا نوعاً جديداً من السياسات ، ان ان احتجاجهم المعنوى كان له مدلول سياسى مدو واستخدموا استراتيجىة « اللاعنف » فى مقاومتهم لمحاولات النظام للحد من الفردية وتحويل الشعب لكيان خاضع وخانع تماماً .

واكد ميثاق ٧٧ أن مطالب الحركات الجديدة لم تكن بالضرورة سياسية وان السياسة لم تكن هدف التضامن غير الرسمى للشعب الذى قرر ان يعيش الحقيقة ويتحدى الديكتاتورية تحدياً مباشراً . بل كانت معارضتهم - أولاً وأخيراً - معارضة أخلاقية : انهم يفضحون لا أخلاقية الحكومة ويكشفون التناقض بين لغتها الطنانة وما تمارسه

في الواقع . ان البند الأول في ميثاق ٧٧ كان احتجاجا على المحاكمة التي دبرت من جانب نظام هوساك ضد مجموعة من موسيقي الروك يدعون « الشعب البلاستيكي The Plastic People of the Universe » ورأت السلطة في الدفاع عن الموسيقيين الشباب الذين رغبوا ببساطة أن يعيشوا الحقيقة الخاصة بهم — (والتي تعتبر بالطبع — مختلفة عن الحقيقة التي تملها السلطة الرسمية عليهم) عملا يعد — على المستوى السياسي — هجوما يدين الحكومة الا ان الوقوف الى جانب موسيقي الروك لم يجد في الدفاع عن حق الابداع الفني . لقد كلن رفضا لما أعطاه النظام لنفسه من حق للحد من الحرية الانسانية، واعتقال المواطنين لمجرد الابداع الفني ، والتدخل في حياتهم ، لقد كانت حربا ضد الحد من الحرية الانسانية ، ومن ثم فان الدفاع عن عازفي موسيقا الروك يعنى الدفاع عن المعنى الاصيل للحرية والكرامة الانسانية . ويمكن ان يقال نفس الشيء عند الدفاع عن أنصار السلام أو المناضلين الأيكولوجيين المضطهدين بسبب معارضتهم للنظام العسكري والتخريب اللا منطقي للبيئة . ان تمرد هؤلاء الضعفاء لم يكن — حسبما رأى هافيل — ذا أبعاد سياسية واضحة . ان السياسات المضادة للسياسات توجد تحديداً في هذه المعادلة الحكيمة الواضحة لاستعادة كرامة الفرد :

« في النظام التوتاليتارى نجد التاريخ الحقيقي للحركات التي اخذت على عاتقها تدريجيا تحقيق معنى سياسى لم يأخذ غالبا شكل مواجهات سياسية علنية بين قوى متناحرة ومقاهيم سياسية . لقد تعمقت هذه الحركات — في أغلب الأحيان — بشكل « سابق على السياسة » حيث « العيش في كذبة » يجابه « العيش في الحقيقة » ، أى حيث الصراع الخاص بالنظام التوتاليتارى مع الأهداف الحقيقية للحياة . . مثل هذا الصراع يتطلب شخصية سياسية وذلك ليس لأن الأهداف المطلوب تحقيقها ذات طبيعة سياسية في المقام الأول ولكن ببساطة لأن النظام التوتاليتارى المعقد المناور يغير كل تصرف أو تعبير انساني حر وكل محاولة لأحياء داخل الحقيقة تهديداً سافرا » (٤٢) .

ان صيغ السياسات الرسمية بصيغة شعائرية وفقدتها لشرعيتها من خلال التزييف المستمر للحقائق وفرض أحلاف مخادعة مزعومة تصل للسلطة بمعايير تتغلق بالانقياد ، والمواعة ، والتكيف ، والطاعة أكثر مما تنطق بالخيال والذكاء والشرف وهي الأشياء التي سقطت من قاموس الحزب السياسى .

وتعد السياسة فى النظم التوتاليتارية ، مهنة تناسب الخائعين ،
أما هؤلاء الذين يقدرّون الحريات الانسانية فسوف يلجئون لكل شيء من
الموسيقا وحتى الايمان بالقوى الخفية ، ومن البوذية وحتى التكبير
ومن الجاز وحتى التأمل والالهام للحصول على حرياتهم . ان الأمر يبدو
كأن السياسات قد أقرتها القوى الشريرة الى الأبد ولا يتوقع أحد من
السياسيين المحترفين أن يقدموا شيئا أفضل بينما رأى زعماء الحركة
المنشقة من كتاب وشعراء وفيزيائيين ، وفلاسفة ان إعادة خلق
السياسات يجب أن تتم خارج حدود السياسات التى رسمتها السلطة .
ورغم أن الاحياء الأخلاقى المعنوى الذى أسماه هافيل « المناخ الحقيقى
للسياسات » أثر على النظم التوتاليتارية فان الممارسات السياسية
التي تتطلب رموزا منفصلة ومتحررة من الضبابية الايدلوجية هو أمر
يجب أن يتم خارج دائرة السلطة المحافظة الفاسدة .

ان السياسات المعادية للسياسات التى طالب بها منشقو شرق
أوربا ترفض النظر الى مبدأ الحقيقة الثابت على أنه مغفوض بحث .
وكتب الكاتب المجرى جورجى كونراد الذى ألف عددا من الروايات
الرائعة منها « الخاسر The loser » قضية عامل « The case worker »
ومقال مهم بعنوان « ضد الممارسات السياسية » وهو المقال الذى استفز
السلطة الحاكمة .

« ان معاداة الممارسات السياسية نشاط سياسى يمارسه هؤلاء
الذين لا يريدون أن يكونوا سياسيين ويرفضون أن يشاركوا فى السلطة .
ان معاداة السياسات حالة طارئة لمتديات مستقلة توجه اتهاماتها
للسلطة السياسية ، انها ضد السلطة ولكنها لا تستطيع أن تأخذ السلطة
ولا ترغب . ان السلطة - هنا والآن - لها بالفعل ثقلها الأخلاقى
والثقافى .

ان كلا من الأنشطة المعادية للسياسات والحكومة يعملان فى
اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان المعادين للسياسات
والحكومة يعملان فى اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان
المعادين للسياسات لا يؤيدون الحكومة ولا يعارضونها ، انهم يكونون
شبكة تراقب السلطة السياسية ، ويمارسون ضغوطا انطلاقا من
وضعهم الثقافى والأخلاقى بل ومن منطلق الشرعية الانتخابية - انه
حقهم وواجبهم ، ولكنه - فوق كل شيء - دفاع عن أنفسهم » (٤٣) .

ان كلمات كونراد تحمل فى طياتها الى حد ما روح السخط الذى
يجتاح أوربا الشرقية وفبه وصفت الممارسات السياسية بالامبريالية

أو بأنها محاولة لتسييس أجواء الحياة . ويرى كونراد ان ممارسة السياسات المضادة ، وفن المعارضة الديمقراطية يجب أن تجرى في ضوء مستوى تدخل الحكومة في الشؤون الخاصة للأفراد . ان المجتمع المدني هو استراتيجية من أجل استعادة أشكال التعاون والتواصل الانساني المتحررة من قهر وسيطرة الدولة .

« ولأن فيضان السياسة قد اجتاح كل زاوية وكل شق في حياتنا تقريبا ، فأننى أحب أن أرى هذا الفيضان يتراجع . اننا يجب ان نسيب حياتنا ونبتعد عن الممارسات السياسية مثلما نبتعد عن مرض معد . يجب علينا أن نحرر ممارساتنا اليومية البسيطة من الاعتبارات السياسية . واننى اطالب بأن تتولى الدولة الأمور التي من شأنها تجديد عملها ، الا انها لا يجب أن تتولى الأمور التي هي من شأن المجتمع وحده . ومن ثم فأننى لن اصف المعارضة الديمقراطية بأنها سياسية ولكن بأنها « ضد سياسية » طالما ان نشاطها الرئيسى هو العمل من أجل اللادولية » (٤٤) .

ان معاداة السياسة تصبح عاملا مساعدا للتفاعل وجهدا جماعيا للحد من قبضة الدولة على المجتمع واستعادة حقوق الفرد كقيمة عليا وهو شئ لا يقبل المساومة .

« ان ايديولوجية المعارضة الديمقراطية تؤمن - كالاديان - بأن كرامة الشخصية الفردية تعد قيمة أساسية لا تتطلب مزيدا من الايضاح . ان استقلالية البشر وتضامنهم هما قيمتان أساسيتان تكمل احدهما الأخرى ومنهما تتواصل الحركة الديمقراطية مع قيم أخرى ... ان التراث الثقافى للاحتجاجات المستقلة اهتم بعدم وضع أية مؤسسة فوق كرامة الانسان الفرد . وعندما تتحول الدولة أو بعض قوى الكتلة أو السوق العالمية لقيمة مطلقة، فإن ذلك يثير التقاليد الأوربية التي تعتقد أن حقيقة القيمة العليا المزعومة أبعد ما يكون عن العالمية بل انها في الحقيقة مجرد مصلحة خاصة ينفر من الحكام .

ان ذلك تحديدا هو النقد الموجه للايديولوجية والذي يقدم للمعارضة الديمقراطية الشرق أوروبية طريقا للإسهام في ثقافة حق الفرد وحق الأفراد والأمم والقارات ككل في تقرير مصيره » (٤٥) .

✽ الانشقاق في المجتمعات التوتاليتارية :

اذا كانت معارضة الدولة أصبحت قيمة مطلقة وحتمية فمن هؤلاء المنشقون الذين جرؤوا على تحدى النظام وطرحوا انساقا أخرى تعلى

مبادئ احترام الحقيقة والكرامة الانسانية ؟ ان مصطلح المنشق قد ابتكره الصحفيون الغربيون ، الا أن كثيرين من النقاد في مجتمعات الكتلة السوفيتية قد أعربوا عن تحفظهم حول دلالة هذا اللفظ وصلته بالموضوع . ولو اعتبرنا أن أناسا مثل فيتسلاف هافيل Vaclav Havel وجان باتوكا Jan Patoka في تشيكوسلوفاكيا ، وجورجي كونراد أو ميكلوس هارتسي في المجر وبول جوما أو دورين تيودوران Dorin Tudoran في رومانيا وروبرت هافمان Robert Havemann أو ولف بيرمان Walf Biermann في جمهورية المانيا الديمقراطية أو آخرين مثل ميلوفان دجيلاس في يوجوسلافيا نماذج تحتذى ؛ لأنهم شاركوا في الانشقاق باعتباره حركة دولية ذات توجه برجماتي فان المنشقين ، وأغلبهم مفكرون أدركوا أن الخضوع لممارسات النظام والسكوت على جرائمه هو اشتراك فيها . ويمكن تعريف المنشقين — حسبما رأى هافيل — وفقا للمعايير التالية :

« أولا هم هؤلاء الذين يعبرون عن وجهات نظرهم الناقدة بطريقة متكاملة ومنسقة ، « داخل الحدود الضيقة جداً المتاحة لهم ، ولذلك فان الغرب يعرفهم جيداً . ثانياً لقد تمتع المنشقون بسبب مواقفهم الأخلاقية وخاصة رفضهم لانكار الحقوق الأساسية للانسان ، باجلال خاص من العامة ورغم أن الشعب لم يظهر احتراماً لهم في مواقف عادية الا نادرا ، فان السلطات كانت واعية تماما بمدى شعبية المنشقين وتجنبت التورط في قمع وحشي ضدهم إذ أن قيامهم بأي اجراء ضد المنشقين سوف يسفر عن مشاكل سياسية وتعقيدات على صعيد العلاقات الدولية » . وثالثا وكما رأينا فان المنشقون هم اناس يميلون للتعبير عن افكارهم في شكل مكتوب أي انهم ينحون منحى فكريا . انهم « يكتبون » وقائي الكلمة المكتوبة بالنسبة لهم في المقام الأول ان لم تكن اهتمامهم الوحيد — ويدعو المنشقون للوسطية السياسية وهو ما لفت اليهم الانتباه خاصة في الخارج » (٤٦) .

وفي كتابه السجن المخملي The Velvet Prison قام ميكلوس هراتسي وهو واحد من طليعة المفكرين المجريين المنشقين بشرح أسلوب تحويل المفكرين الى منشقين . ويعد كتابه هذا ذا أهمية كبيرة إذ أنه يتناول تجربة كادار الخاصة « بالديكتاتورية الناعمة » . ورأى هراتسي أن جوهر التسوية الكادارية كان معاهدة صامتة بين كادار والمجتمع ، إذ منح الشعب مكاسب مادية وهامشا محدودا من الاستقلالية شريطة ألا يبدى المجتمع احتقاره للامتيازات الأبوية التي ورثها النظام بما في ذلك حقه في مصادرة ذاكرة الأمة ، وتشويه سمعة ثورة ١٩٥٦ ورفضه

لأية مناقشة حول طبيعة العلاقات المجرية السوفيتية . ولستسحرية
الأقدار ، ، فإن صدى وجهة نظر هراتسى عن الفنان المختار التى تناولها
فى كتابه كانت موضعاً للشكوك ، اذ يقول ان الرومانتيكيين العتاة هم
فقط الذين يستطيعون أن يشاركوا فى معارضة مباشرة للنظام وذلك
بسبب سياساته الخاصة بممارسة القمع الناعم وإبادة كل مصدر
للفعالية الناقدة ولذا ، فإن المنشقين يبدون كعناصر شاذة فى بيئة تهيمن
عليها الامتثالية والخضوع .

« هذه الطيور النادرة هى فى الواقع نتاج لفكرة حضارة منقرضة،
وترك وعدها بالديمقراطية ، والفردية ، والافكار الناقدة أثراً كان
محسوساً رغم خفوته . انهم اهل هذه الثقافة الجديدة ولم يعرفوا عن
الثقافة القديمة الا صورها السيئة . ان ولاء السلطويين للقديم ووقوفهم
بعناد ضد الحديث يعد خيانه لأصولهم الحقيقية . . هؤلاء اللقطاء لم
يجنوا سوى زوالهم وانقراضهم ، انهم عمالات بطلت وعجزت عن تقديم
نفسها للعالم الجديد الذى اعتبرها منقرضة » (٤٧) .

لقد كان كتاب هراتسى — قبل ظهور منظمة تضامن — صوتاً
يعبر عن مشاعر الاغتراب ، واليأس ، والاحباط التى تعاني منها
الأقليات المنشقة المحاصرة فى أوربا الشرقية .

ومن خلال السوداوية التى اتسم بها كتابه نستطيع أن نستشعر
خوف الكاتب الذى يحذر من الطاعة العمياء للأيديولوجيا الرسمية
بنفاقها وطنانيتها .

« ان امثاليتنا الأيديولوجية لا تمنعنا بالطبع من الإيتسام عندما
نصطدم بالعقيدة وغالباً ما يضجك البيروقراطيون والفنانون معا . ولائذا
مستثيرون — فائنا نعتبر النظر الى الشعائر الدينية على أنها دليل على
ضيق الأفق ، وتطرف طفولى اذا ما قورن بما غرس
فينا من نسق أخلاقية تشرينها منذ الطفولة ، الا ان هذا التصور ليس
له أثر على سلوكياتنا . وما تزال الماركسية الأساس الأسطوري لأفكارنا
الخاصة بالمسئولية المدنية . انها الأسطورة التى تهيب لنا ان
افكارنا عن خدمة الشعب أفكار مشروعة ، ان لها وقعا مثل وقع قصة
طائر الرخ المشهورة على عقول الأطفال » (٤٨) .

ان كتاب « فنان الدولة » لهراتسى تجسيد للعالم المغلق الجامد
الذى لا حركية فيه ولا احساس بالانزعاج ، كل شئ يجرى كما لو ان
الحزب قد أرسى هيمنته الى الأبد وأية معارضة تعد نوعاً من أحلام
اليقظة والدونكشوتية (غير المسئولة) ، ولم تؤثر مرونة كادار

ومحاولته لتغيير حقيقته النظام من طبيعته ، فالسلطة ما زالت تكمن في أيدي الطبقة الحاكمة الشيوعية الذين تعلموا — في مثل هذه الحالة تحديداً — أن يتملقوا المفكرين ويزرعوا فيهم النرجسية ، وفي هذا الصدد قال الأيديولوجي جورجى اتزيل Gyorg Aczel :

« ان احكام قواعد اللعبة ، والأوضاع الجوهرية ، والقوة الاستثنائية الشرعية (استخدام حق الفيتو في امور معينة) تظل دائما في مقدور الدولة الاشتراكية » (٤٩) .

ان المعارضة لا تبدو ذات قيمة تحت ظروف التوحيد العالمى المزعوم ، وهنا نتساءل : كيف يكون للفرد اذن أية استقلالية ؟ ووفقا للصورة الخيالية لفنان الدولة كما تخيلها هراتسى فقد كان الفنان مسنعداً لتبرير تسوياته الخاصة بإنكار معنى الأشكال البديلة للتواصل :

« فى حضارتنا هناك نوعان فقط من المنشقين : أبطال سدج وفنادون شاردون • والنوعان حكم عليهم باللاعلاقية » (٥٠) .

وعلاوة على ذلك فان تعليقات هراتسى الحزبية لم تكن رفضا لسلوك المنشقين .

واعترف المؤلف بعد عدة سنوات من تأليف هذا الكتاب :

« آمل ألا اضطر للدفاع عن رأيى فى المنشق الذى دونته فى هذا الكتاب • اننى أنوى منذ البداية أن يكون الكتاب رفضا لمبالغات المنشق المتعمدة • وآمل أن يكون نشره دليلا يدفع اليأس الذى يضى القناعة على كلماته ، ولهذا السبب اخترت أن استخدم فى أغلب الأحوال ضمير الغائب للتعبير عن فنان دولة ولم أحاول أن أضع الزملاء فى فريق يعانى من الفردية الرومانتيكية » (٥١) .

لقد حاول مفكرو الدولة الذين رضوا عن ذواتهم وتعايشوا تماما مع النظام القائم وتمتعوا بامتيازاته النيل من مكانة المنشقين .

ورأى الكيان المؤسساتى الذى تمثله ثقافة الدولة ان المنشقين أناس يثيرون المشكلات معتنقين الأفكار المنطوية على مفارقة تاريخية خاصة بالحرباء الفردية ، ويجب أن يظلوا على هامش المجتمع ، لأن المدنية الحديثة لا تستطيع ولا تأمل فى التعاون معهم . ويمكن أن تستغل السلطة بعض أفكار هؤلاء المنشقين وتدمجها فى العقيدة الرسمية ،

ولكنها بالتأكيد ستسلبها كل معانيها ودلالاتها . ومثال على ذلك هو استيلاء أيديولوجية الحزب في الاتحاد السوفيتي على مصطلح الجلاسونست وهو شعار للحركة الديمقراطية . وبنفس الطريقة عرفت النظم التي تشبه نظام كادار الاصلاحى كيف تستولى على بعض المصطلحات ، مثل التعددية ، الحوار ، المصارحة وغيرها من المثل الشامخة التى أعلى المنشقون من شأنها وتستغلها لمصلحتها ومن ثم تضعف مدلولها .

« ويرى أحد المجرمين لو أن سولزيفنتسين Solzhenitsyn قد عاش في المجر لكانت السلطة عينته رئيسا لاتحاد الكتاب . ومن ثم لن يكون هناك من يكتب « أرخبيل جولاج The Gulag Archipelago » وإذا فعل أحدهم ذلك فإن سولزيفنتسين كان سيصوت على طرده وترحيله . فهذا اذن هو المناخ الذى يسود ثقافة ((الرقابة التقدمية)) . ونحن نعتبر الدولة التى تعجز عن الاصلاح والفنان الذى يعجز عن التكيف كليهما تطرفا غير مقبول » (٥٢) .

ان هاراتسى. يحول الفكر الى خدام للدولة ويرى فى رفض المنشقين للاذعان للدولة — رغم نبذه — علامة على التشويه السيكولوجى الشديد . ان الصناعة الثقافية لاشتراكية الدولة قد وضعت المنشقين على الهامش ومن ثم انكرت عليهم حقهم فى الاختلاف كلية مع النظام بينما تحفظ الدولة لنفسها حقها فى اضطهادهم وعقابهم بل وحقها فى « اعادة اعتبارهم » تغييرا واقعا فى « خط الحزب » ويأتى الزعيم الجديد للسلطة بمجموعة مختلفة من الوعود . ويعتبر هاراتسى — الذى لا تعد افكاره أفكار مؤلف — المنشقين « ضرورة » لتكملة النظرة الجديدة للشيوعية فى العهد التوتاليتارى :

ان عهدا جديدا من الكرم العظيم على وشك أن يزرع نجره . وكما فى الامبراطوريات القيمة الصامدة فان كبار موظفى الدولة الخائفين يقيمون أديرة طاوية . وبالمثل تعتبر الدولة الاشتراكية الحديثة المنشقين المبدئين كأفراد فى قطيع وحشى مشنوم . . . وفيما بعد سوف « يصاد اكتشاف » بعضهم و « رد اعتبارهم » ومثل تلك القرارات كانت فى وسع السلطات المركزية ، وسوف يعلن العقو العام عندما يمين حاكم جديد . وغالبا ما يحول كل المنشقين على أن يصبحوا جسرزا من البرنامج الرسمى عنبما يبين وقت التنديد باسقاطات السلالة الحاكمة السابقة » (٥٣) .

عندما كتب هراتسى هذا الكتاب فى أوائل الثمانينيات بدت المجر أكثر الدول تقدما فى الكتلة السوقية فيما يتعلق بهامش الليبرالية الداخلية . وبالمقارنة بالأوضاع فى رومانيا والمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا فان الدولة تعاملت مع المنشقين مرتدية قفزات ناعمة رغم أن آلة الدولة لم تأل جهدا لتبديد محاولات المنشقين التى يبذلونها للانفصال عن الجيتو السياسى ولشق روافد اتصال مع المجتمع الكبير . ونقب البوليس عن الصحافة السرية وتم إستجواب المنشقين بل وتم القضاء عليهم ، وعلى أية حال ، فان النظام تجنب اتخاذ اجراءات صارمة ضد كثيرين منهم . ونظرا لتدهور الوضع الاقتصادى وتحقيق الاتحاد السوفيتى لأقصى آماله السياسية فى التعبير فان مجر كادار لم تعد أكثر ثكنات المعسكر الاشتراكى حصانة ، . لقد غدا شيابها راديكاليين وأصبحت المعارضة الديمقراطية قوة سياسية قومية ضاربة . وأصبح المنشقون بما فيهم هراتسى المهندسين المخططين لعملية الانتقال لأنظمة تخلف الشيوعية . والحقيقة أن حاشية هذا الكتاب كتبت فى ١٩٨٧ واعترف هراتسى بأن التغييرات التى قام بها جورباتشوف فى توظيف النظام السوفيتى وكذلك الموجة الجديدة المعادية للستالينية جعلت بعض تنبؤاته السوداوية تبدو بلا مصداقية ، الا أنه أصر فى نفس الوقت ان الجورباتشوفية تمثل انتهاج ائتلاف الحزب لنفس التكنيكات التى ضمننت النجاح الجزئى لتجربة السجن الناعم والتى تقدمها المجر تحت قيادة كادار :

« لقد وصفت هذا النموذج بأنه ما بعد الستالينى او « التحول الناعم » او « المبنى » للحكم الشيوعى فى تناقضه مع النموذج « الستالينى » او « الجاف » او « العسكرى » . ان النموذج المجرى ربما يمثل جيداً تحولا أكثر منطقية وأكثر معيارية وأكثر صلابة للثقافة الموجهة . ولا بد ان يدرك جورباتشوف ان اقامة مجتمع ناجح حقيقة بنظام اقتصادى جديد يتطلب ضرورة رفع معنويات الانتلجنسيا الحكيمة باعصابها الحرة الى المحيط للمسيبيل » (٥٢) .

هوامش الفصل الرابع :

(١) الجيوبولتيكي : مجال دراسة تأثير البيئة الطبيعية والعوامل الجغرافية على الخصائص والظواهر والمؤثرات والتطورات السياسية للشعوب والدول وعلى تفاعلاتها وعلاقاتها بعضها ببعض - (المترجمة) •

Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (٢)
(Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985),
p. 157.

Samstvennoye izdotelstvo. (٣) اختصار روسي لكلمة :
وتعني النشر والسري •

See Robert Kostrzewa, ed., *Between East and West* : (٤)
Writings from Kultura (New York : Hill & Wang, 1990).

In an illuminating essay on Gorbachev, Kenneth Jowitt (٥)
used this Weberian term to explain the rise of Solidarity as a
resurgence of Poland's long-repressed civic culture. See Daniel
Chirot, ed., *The Crisis of Leninism and the Decline of the Left* :
The Revolutions of 1989 (Seattle : University of Washington Press,
1991), pp. 74-99.

Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Re- ..* (٦)
volution (New York : Vintage Books, 1983), p. 10.

J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Durham, (٧)
N.C. : Duke University Press, 1988), p. 197.

For an excellent analysis of this organization, see Jan Josef (٨)
Lipski, *KOR : A History of the Workers' Defense Committee in
Poland, 1976-1981* (Berkeley : University of California Press,
1985).

Jacques Rupnik, *The Older Europe : The Rise and Fall of* (٩)
Communism in East-Central Europe (New York : Schocken Books,
1989), pp. 258-59.

William Echikson, *Lighting the Night : Revolution in Eas- (١٠)
tern Europe* (New York : Morrow, 1990), p. 161.

Lipski, *KOR*, p. 68 . (١١)

Echikson, *Lighting the Night*, p. 160. (١٢)

Ledzek Kolakowski, "The Intelligentsia" sn Brumberg, (١٢)

(١٤) الأوليغاركية : حكم القلة وهو أحد أشكال إدارة الدولة الاستغلالية ، تعود في
ظله كل سلطة الدولة الى حفنة صغيرة من الأغنياء - (المترجمة) .

Ibid., p. 68. (١٥)

Michnik, *Letters from Prison* (note 1 above), p. 136. (١٦)

Ibid., p. 137. (١٧)

Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism : Its Origins, Growth and Dissolution* , vol. 111, *The Breakdown*, (New York : Oxford University Press, 1978), pp. 526, 530. (١٨)

(١٩) الحريات المدنية : ذلك الجانب من الحقوق المدنية الذي يحدد القطاعات التي
لا تتدخل فيها الحكومات ولا سيما ما يتناول حرية الحديث والنشر والاجتماع والمعتقد.
الديني - (المترجمة) .

Michnik, *Letters from Prison*, p. 142. (٢٠)

Ibid., p. 144. (٢١)

Ibid., p. 147. (٢٢)

Michnik, "A Year Has Passed — 1981", in *Letters From Prison*, p. 124. (٢٣)

Adam Michnik quoted in Lech Walesa, *A Way of Hope : An Autobiography* (New York : Henry Holt, 1987). (٢٤)

Ibid., p. 2. (٢٥)

See Stephen Engelberg, "As Jaruzelski Leaves Office : A Traitor or Hero to Poles," *New York Times*, December 22, 1990. (٢٦)

Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), p. 309-10. (٢٧)

Steven Lukes, "Introduction," in Vaclav Havel et al. *The Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. : M. E. Sharpe, 1990), p. 12. (٢٨)

(٢٩٨) الأوتوماتيكية (أو الذاهركية) : مذهب يقول بأن جميع نشاطات الحيوان والإنسان تتحكم فيها عوامل فسيولوجية والمقصود هنا أن الأنظمة السلطوية تعتمد على السيطرة على شعوبها وتحريكهم بشكل إلى وتسليهم إرادتهم - (المترجمة) .

Vaclav Havel, "The Power of the Powerless," in *ibid.*, (٢٠)
p. 23.

Ibid., p. 28. (٢١)

Ibid., pp. 28-29. (٢٢)

Ibid., pp. 30-31. (٢٣)

Ibid., p. 32. (٢٤)

Ibid., p. 31. (٢٥)

Ibid., p. 40. Emphasis in original. (٢٦)

Ibid. (٢٧)

Ibid., p. 43 (٢٨)

Havel's contribution in Vaclav Benda, Milan Simecka, Ivan (٢٩)

M. Jirous, Jiri Dienstbier Vaclav Havel, Ladislav Hejdanek, and Jan Simsa, "Parallel Polis. or an Independent Society in Central and Eastern Europe : An Inquiry," *Social Research*, 55. nos. 1-2 (Spring-Summer 1988) . 235.

Ibid., p. 236 (٤٠)

Ibid., p. 237. (٤١)

See Havel, "Power of the Powerless," p. 48. (٤٢)

George Konrad, *Antipolitic* (San Diego and (New York : (٤٢)
Harcourt Brace Jovanovich, 1984), pp. 230-31.

Ibid., p. 228. (٤٤)

Ibid., pp. 123-24. (٤٥)

Havel, "Power of the Powerles ," p. 57. (٤٦)

Miklos Haraszti, *The Velvet Prison : Artists Under State (٤٧)
Socialism* (New York : Basic Books, 1987). p. 10.

Ibid., pp. 142-43. (٤٨)

Ibid., p. 146. (٤٩)

Ibid., p. 150. (٥٠)

Ibid., p. 162. (٥١)

Ibid., p. 156. (٥٢)

Ibid., p. 158. (٥٣)

Ibid., p. 162 (٥٤)

الفصل الخامس

روح المجتمع المدني

« ان السياسات المعادية للسياسات نافضت لوضع الأمور فى نصابها ، وجهدت لثقل بعيدة لا تتجاوز أبدا حدود عملها الخاص بالدفاع عن صقل المجتمع المدنى . . والمجتمع المدنى هو نقيض المجتمع العسكرى » .

جورجى كونراد

ان تطوير المجتمعات المدنية فى دول الكتلة ارتبط بوجود منارات الفكر المستقل — ان العيش فى الحقيقة — رغم ان البعض اعتبرها مثالية اخلاقية ذات مغزى اجتماعى محدود — قد أصبحت القوة الدافعة التى تكمن وراء خلق طرق بديلة للتفكير والعمل . ان حجر الأساس للمجتمع المدنى المتمرد كان قرار الفرد بالمطالبة بحقه أو حقها فى الاستقلال ، وقال هافيل فى هذا الصدد :

« ما هى الحياة المستقلة للمجتمع ؟ ان أشكالها وصيغها انتشرت على نحو تلقائى وشمل أرجاء واسعة . انها تشمل كل شئ من التعليم الذاتى والتفكير فى كل ما يجرى مرورا بالنشاط الحى الخلاق واتصاله بالآخرين الى أكثر المبادرات المدنية الحرة تنوعا بما فيها محاولة المجتمع المستقل لتنظيم ذاته » (١) .

ان السياسات الجديدة تعتمد على مبادرات المواطنين غير الرسمية كترىاق يشل حركة عمالقة البيروقراطية ، وتشجع التجارب والمبادرات الحقيقية وتشكل براعم حركة الفعالية . ان الحفاظ على هذا التغيير يعد ضروريا لأنه كان حركة دعوى نبعت من الجماهير وليس تغييرا فرض من أعلى أى من السلطة وهو ما أسفر عن صعود المجتمعات المدنية فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وبادئ ذى بدء لا توجد ضرورة للمطالبة بتحطيم الأصنام الحاكمة أو اجبارها على التغيير ، لأن الموقف تطور وقام الشعب باستثمار

مثل هذه المبادرات المستقلة ، وأصبح المجتمع المدني الممثل الشرعى على المسرح السياسى ، ومما أدهش البيروقراطية الشيوعية أن المجتمعات وجدت من يمثلها ويتحدث عنها رسميا فى المنشقين الذين طال اضطهادهم ورفضوا العرض الذى قدمته لهم الحكومة بالتعاون معها . ان استراتيجية المجتمع المدنى قد كرست الاعتقاد بأن عودة الحياة المستقلة للمجتمع هى الضمان الوحيد للانتقال السلمى الى النظام الديمقراطى ومثل هذه الاستراتيجية نذهب لابعدها من البرجماتية المبسطة التى ينادى بها هؤلاء المطالبون بسيادة السياسات التقليدية :

« هناك أوقات يتحتم فيها أن نضع النظر فى ماساتنا لنفهم الحقيقة وبمجرد أن ننزل الى قاع البئر سنرى النجوم فى وضع الشهاب . وأنشور ييشو لى أن هذا البرنامج « الاقلى » و « المصفر » و « السلبى » - أى برنامج الدفاع البسيط عن الناس - هو البرنامج الأمثل الأكثر ايجابية لأنه يجبر السياسات القائمة على العودة الى نقطة بدايتها وبمعنى أدق تجبرها على تجنب كل الأخطاء القنينة ومن ثم العودة لطبيعتهم كأفراد » (٢) .

ان نواة الانشقاق بدأت فى بلدان مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية حيث كانت النظم أكثر قمعية فى شكل مجموعات صغيرة من الأفراد تفكر بنفس الطريقة حيث أعلنوا نمردهم وقرروا أن يقاوموا ما يرتكب من انتهاك لحياة المواطن الشخصية . واحتجوا على أى شكل من أشكال خرق حقوق الانسان المتفق عليها عالميا وعبر هافيل عن ذلك قائلا :

« فى « الحركات الانشقاقية » للكتلة السوفيتية عادة ما يتخذ الدفاع عن الشعوب شكل الدفاع عن الحقوق الانسانية والمدنية وهذه الحقوق قد تم التأكيد عليها فى كثير من الوثائق الرسمية منها الاعلان العالمى لحقوق الانسان الى العهد الدولى لحقوق الانسان وكذلك فى نصوص مؤتمر هلسنكى الخاصة بالشؤون الفردية . وقد انطلقت هذه الحركات من أجل الدفاع عن أى شخص يتعرض للاضطهاد اتبنيه روح هذه الحقوق . لقد حملت هذه الحركات نفس الروح وذلك بالاصرار دوما على أن النظام لا بد أن يقدر هذه الحقوق الانسانية ويحترمها ويحدد لها لمناحي الحياة التى لا تسود فيها هذه الروح » (٣) .

لقد أعلنت الحركات المنشقة موقفها المعارض للعنف والارهاب ورأت أن اعادة بناء حياة مستقلة لا يمكن أن يتم باسم السخط أو الانتقام ولكن باسم مبادئ التضامن الانسانى التى قمعت على نحو

مخز وهو ما اشار اليه آدم متشكك في مقال كتبه في المعتقل عام ١٩٨٢ :

« ان جوهر البرامج التي تطرحها الجماعات المعارضة .. يمكن في محاولة اعادة بناء المجتمع واستعادة الوشائج الاجتماعية بعيدا عن المؤسسات الرسمية » (٤) .

لقد رفضت الحركات المنشقة منطق العنف باعتباره معاديا للانتاجية ومتعارضا مع الاهداف المثالية لتلك المبادرات الآتية من القاعدة الشعبية .

وبينما اتسم النظام بالعنف في بنيته الخاصة وفي كل هياكله الوظيفية ، اعترفت المعارضة بأن سيادتها المعنوية انبثقت تحديدا من رفضها مشاركة الحكام في منطقهم العسكري . وشرح متشكك على نحو جلي مستنير هذا المفهوم في مقالة الذي كتبه في سجن جدانسك في عام ١٩٨٥ :

« ان هؤلاء الذين يدعون بأن استخدام القوة في الصراع من اجل الحرية شيء لا بد منه يجب عليهم ان يثبتوا ذلك . وعليهم ان يثبتوا ايضا ان استخدام القوة في موقف معين سيكون فعالا وان يثقل فكرة الحرية السياسية لنفيضها ، لن يستطيع احد في بولندا ان يثبت ان المنصف سيساعد في اجلاء القوات السوفيتية عن بولندا وازاحة الشيوعيين من السلطة . ان مواجهة اتحاد الجمهوريات السوفيتية بمسألة من قوة عسكرية ضاربة يعد شيء مستحيلا لا يمكن تصوره وذلك لأننا لا نملك أسلحة وفي اعتقادنا أن البرجماتية لا تنفصل عن المثالية بل تزاوجها . لقد تعلمنا من دروس التاريخ لذلك فنحن تشكك في أن استخدام القوة للعصف بسجون الباستيل يعنى أننا نبني — دون أن ندري — باسئيل جديدا ، وليس حقيقيا أن التغيير الاجتماعي يتم باعتباره نتيجة لتناحر عنيف بين قوى عدة . وعلاوة على ذلك ، فإن التغييرات الاجتماعية تأتي بعد تحد ومجابهة لأخلاقيات متنافرة وارؤى النظام الاجتماعي . وقبل أن يصطدم عنف الحكام بعنف المحكومين ستصطدم القيم ونسق الجمال داخل العقول الانسانية » (٥) .

ان المجتمع المدني يعارض أى اغراءات تقدمها له الديكتاتورية الحاكمة ويبدى تشككه بصدد هؤلاء الذين يدعون امتلاك حلول واجابات مثلى جاهزة لكل المصاعب والاسئلة التي تواجه بنى الانسان ، ويعتبر

الفروق الأيديولوجية التقليدية بين اليمين واليسار ليس لها صلة بالموضوع في الظروف القائمة .

وقال متشكك في كلمة له حول تلك القضية ، خاصة في ضوء تطورات ما بعد عام ١٩٨٩ في أوروبا الشرقية :

« ان المرء يستطيع أن يرى أن حماسة الحركات المنشقة المثالية تحصل أكثر من بذرة للتفكير الناهض » .

ان الديكتاتورية التوتاليتارية تجاوزت مجرد اثار الانقسامات الأيديولوجية الغثة ، ووجب على الليبراليين ، والمحافظين ، الانسانيين المدنيين والقوميين الراديكاليين ان يطرحوا خلافاتهم جانبا لأن لديهم عدوا واحدا مشتركا هو النظام الشيوعي ، وذلك لا يعنى أنهم تخلوا عن عقائدهم . وفي عام ١٩٨٥ ، عندما بدا ان النظام أكثر تصميما من ذي قبل على التثبيت بسلطته ، فان طرح متشكك بدا مقنعا تماما اذ قال :

« اننى اعنقد ان الصراع فى بولندا بين اليمين واليسار يرجع الى الماضى . لقد اعتاد هذا الصراع ان يقسم مجتمعا تتنافر فيه الصراعات من أجل الحريات البرجوازية ، والحقوق المتفق عليها عالميا ، واستصلاح الأراضي ، واللاعقائدية ، وساعات عمل ، والرفاهية ، ونظام مدرسى عالى ، ودمقرطة الثقافة . ان التمايز يطفو على السطح فى منطقة الديكتاتوريات التوتاليتارية فيما بين مؤيدى المجتمع المفتوح ومؤيدى المجتمع المغلق . وفى الماضى قام النظام الاجتماعى على الحكم الذاتى والاتفاقيات الجماعية ، ولاحقا سيحكم النظام من خلال القمع والانضباط » (٦) .

ان ميثاق ٧٧ فى تشيكوسلوفاكيا كان محاولة للتغلب على الانعزالية الأيديولوجية من خلال طريقة جديدة تحترم حقوق الانسان وهى اهم الأسس لبناء مجتمع حر . وأعلن الخبراء فى وثيقة اعلان ميثاق ٧٧ ان مسئولية حفظ الحقوق المدنية لا تقع فقط على الحكومات ولكن « على أى وكل فرد » . وبسبب ايمانهم باقتسام المسئولية اتحدوا وتوحدوا فى جمعية مفتوحة تكون ملتزمة بالدفاع عن حقوق الانسان ومتجاوزة لأى فوارق أيديولوجية ودينية أساسية قد يحملها الموقعون على هذا الميثاق :

«ان ميثاق ٧٧ حر ، غير رسمى ، وهو كميونة مفتوحة تضم العديد من القناعات والحيانات وفيها تعايش بين كل التمايزات . ان

اعضاءها جمعتهم الرغبة في العمل جماعة وأفرادا من أجل الحقوق الانسانية والمدنية في تشيكوسلوفاكيا والعالم أجمع وهو ما تبنته الاتفاقيات الأخيرة لمؤتمر هلسنكي ١٩٧٥ وغيرها من المعاهدات الدولية المعادية للحرب والعنف والقهر . ومن ثم فإن ميثاق ٧٧ يرتكز على التضامن والصداقة بين الشعوب ويؤكد في بعض نصوصه على مثل بعينها» (٧) .

ان صياغة الميثاق الفضفاضة أشارت لمعاداتها للبناء الهرمي والسلطوي ، وأكدت وثيقة الاعلان على ان الميثاق ليس منظمة :
« وليس له تشريعات ولا جرائد ثابتة ناطقة باسمه ، ولا عضوية مسجلة . كل شخص يوافق على الأفكار ويعمل من أجلها يجنى ثمارها » (٨) .

وأوضح الميثاق أنه لا يعتبر نفسه بديلا للسلطة القائمة او ضربا سياسيا يسعى للحصول على السلطة ويتبع استراتيجيات خاصة به . ان انكار الشخصية السياسية للميثاق يتعلق بالطبع بقلق السلطة من أى شكل من أشكال النقد . ويعد أى شكل من الفعالية السياسية فى ظل « الاشتراكية النظامية » فى تشيكوسلوفاكيا عملا « هداما » ، ويتم اعتقال كل من يمارسها . وعبر الميثاق عن فهم للممارسات السياسية باعتبارها مجالا يعمل فيه المواطنون معا ، من أجل المصلحة العامة . وبهذه الطريقة أدرك السلطويون أن الحركة الجديدة لن تتدخل فى الممارسات السياسية الرسمية الفاسدة والمشوهة ، الا انها لن تألو جهدا لاستعادة كرامة المبادرات المستقلة ، وتعد هذه المقولة رمزا للفلسفة المعادية للممارسات السياسية والتي تعد تأكيدا جديدا على أهمية الحقوق المدنية وشكلا من أشكال مقاومة فساد الممارسات السياسية فى دولة ما بعد التوتاليتارية .

« ان ميثاق ٧٧ لا يعد معارضة سياسية منظمة . انه يدافع فقط عن المصلحة العامة كما تفعل منظمات أخرى مشابهة فتناصر المبادرة المدنية فى كل من الشرق والغرب . ولم يكن فى نية الميثاق تحديد برامج راديكالية معينة تهدف للإصلاح السياسى والاجتماعى وبدلا من ذلك حاول تحديدا لفت الأنظار للانتهاكات التى ترتكبها السلطات ضد الحقوق الانسانية والمدنية وطرح حلول وتقديم اقتراحات عامة لضمان احترام مثل هذه الحقوق فى المستقبل كما عملت كوسيط فى النزاعات بين المدنيين والدولة » (٩) .

ان ميثاق ٧٧ — مثله مثل لجنة الدفاع عن العمال أو المعارضة المجرية المنشورة — رأى أن المعارضة العنيفة للنظام الشيوعى هى

الخط الذى لا يجب تجاوزه . وحاولت هذه الحركات استغلال أنظمة ما بعد التوتاليتارية المزعومة ، للدفاع عن قضية حقوق الانسان وتعميقها لايعد هدى : وصعد المجتمع المدنى مرة أخرى باستخدام الثغرات الموجودة فى بنية النظام ، وتحدوا الحكام وطالبوهم بتحمل نتائج وعسودهم وتعهداتهم . وأقرز هذا الصراع أشكالاً جديدة من الوحدة وأشكالاً جديدة من الجماعات بما فيها جماعات السلام المستقلة والجماعات الايكولوجية ودور النشر السرية والجماعات الطائفة وكل اشكال التعبير الأخرى . وهو ما أسماه المنادون بحقوق الانسان التشيكيوسلوفاكيون « الثقافة الثانية » . ولم يكن غريباً أن يقابل النظام هذه الحركات برودود أفعال عنيفة ولجئوا لاستخدام القمع . وفى نفس الوقت أدرك كل المشاركين فى هذه الأنشطة أن جهودهم لن يكون لها أى مردود اجتماعى إلا اذا تواصلت البنى المتوازية واخترقت وأثرت على مثيلاتها « الرسمية » وقال هافيل فى هذا الصدد :

« سنكون مخطئين تماماً اذا فهمنا ان البنى المتوازية والممارسات الشكلية المتوازية نوع من الارتداد أو العزلة ولا تليق إلا بهؤلاء الذين يعيشون فى رفاهية وقخلوا عن مثل هذا المسار ولا يبالون بالآخريين . . ولا يستطيع أكثر اشكال السياسات المتوازية تضججا ورقيا ان تبقى — على الأقل فى ظروف ما بعد التوتاليتارية — الا عندما يتخلى الفرد — فى نفس الوقت — عن البنية الرسمية (السابقة) اذ تربطه بها ألف علاقة فهو يشتري ما يحتاجه من متاجرهم ويستخدم نقودهم ويطيع قوانينهم » (١٠) .

ان المنشق سواء اكان رجلا ام امرأة يتحدى ما هو سائد من العقائد والعادات والمحظورات وشتى أنواع الاجحاف ويطالب بأن يتغلغل الاحساس بالكبان الانسانى فى مفهوم المسؤولية ، واذا كان هدف النظام هو اقناع الفرد بأن ما هو قائم هو الحقيقة الوحيدة الممكنة فان الحركات الجديدة رفضت ذلك قائلة بأنه لا يوجد شئ يقرر مصير الانسان ، كما لا توجد أية حتمية آلية تستطيع ان تجبر الفرد على قبول الوضع الحالى ولا أن تجعله يسلك مسلكا عبوديا . وفى أحد خطاباته التى أرسلها لزوجته أولجا Olga كتب فيتسلاف هافيل :

« ان مشكلة الكيان الانسانى ظلت دائما فى بؤرة تفكيرى عندما تشغلنى شئون الانسان ، ولا أستخدم كلمة « الكيان » لأننى أؤمن بأنها تفسر أى شئ عن سر الوجود الانسانى بل استخدمتها عندما كنت أطور مسرحياتى أو عندما كنت أفكر فيهم فيما بعد لأنها ساعدتني فى تجسيد موضوعاتهم ونتائجها . وأجد ان « أزمة الكيان الانسانى »

هى اهم ما شد انتباهى ، وتتناول كل مسرحياتى هذا الموضوع اى
الخط من احادية الفرد والتخلص من كل شئ يعوق اعطاء الوجود
الانساني معنى واستمرارية وحلولا فريدة . وفى نفس الوقت . . . نما
فى تأملاتى أهمية مفهوم المسؤولية الانسانية . لقد بدا يظهر بوضوح متزايد
كقضية جوهرية تشق منها كل الكينونات وبها تصمد او تسقط ، انها
اساس ، وجذر ، ومركز الجاذبية أنها ابدا البنائى أو محور الكينونة ،
و ((الفكرة)) من الأشياء التى تقرر مستوياتها وشكلها . انها حجر
الرحى الذى يربطها دما وعندها تجف تبدأ الكينونة ايضا على نحو
انقلابى فى التفتت وتتحول الى اشلاء)) .

واستطاع هافيل باعادة اكتشاف العلاقة بين الاتساق الخاص
بالشخصية وروح الواجب المدنى ان يصل لهذا الاستنتاج الجديد :
((ان سر الانسان هو سر مسئولية)) (١١) .

وهكذا كانت الحركات الجديدة نقيضا للرؤية الرسمية للممارسات
السياسية ، فبينما كانت الأحلاف الشيوعية منفردة بالحكم ، ملتزمة فان
المجتمع المدنى كرس مفاهيم الصراحة ، والحوار والسماحة . وفى عام
١٩٨٦ قدم هافيل ردا على الاستفسارات التى أرسلت له من الصحفى
التشيكى المنفى كارل هافزدالا Karel Hvizdala اجابات عميقة كانت
خلاصة تجاربه الفنية والسياسية .

واسفر هذا التبادل للأراء عن مذكرات رائعة ، وكتاب القى
الضوء على مغزى الانشقاق كخطوة أولى فى اعادة بناء مناخ شعبى
يرتكز الى الثقة والتضامن . وكتب هافيل مشيراً الى الطبيعة
الأيولوجية لميثاق ٧٧ :

((ربما يتحتم على ان اضيف شيئاً آخر عن التعددية فى الميثاق ،
فالميثاق لم يكن شيئاً يسيراً على الجميع ، فكان لابد ان يتجاوز كثيرون
خلافاتهم الداخلية القديمة الا ان الجميع استطاعوا ان يفعلوا ذلك
لأننا شعرنا بان تاريخنا أصبح شيئاً جديداً تماماً : ان جنين السماحة
الاجتماعية الاصلية (وايضى مجرد الاتفاق بين البعض للاطاحة
بالآخرين ، كما كان الحال مع حكومة الجبهة القومية National Front
بعد الحرب العالمية الثانية) - سوف ينه الذاكرة القومية ، وستبقى
فى الذاكرة كتحد استطاع ان يكسب الدعم فى أى وقت واى موقف
ويجذب اليه الاهتمام)) (١٢) .

ان دور الحركات الجديدة هو إقناع المواطن العادى (الخضرى)
الذى يدعم النظام بطريقة جامدة ، لأنه لا يتصور وجود بديل له . ان التفسير

ممکن حتى فی ظل هذه الظروف السيئة التي يعيشها الجميع فی دولة
ما بعد التوتاليتارية .

« لا يجب أن تتخلى عن الأمل » تلك هي الرسالة التي تنقلها هذه
الحركات لهؤلاء الذين شاركوا فی إعادة بناء المجتمعات المدنية فی أوربا
الشرقية .

« ان الأمل ، بهذا المعنى العميق الفعال ، ليس هو نفس البهجة
التي نتقنا عندما تكون الأشياء على ما يرام ، أو عندما تستثمر
مشروعات ستشقق طريقها الى النجاح ، ولكن الى حد ما ، القدرة على
العمل من أجل شيء ما لان هذا الشيء جيد وليس لأن لديه فرصة
للنجاح . وكلما كان الموقف لا يشير بالخير كان الأمل أعمق . ان
الأمل لا يعنى التفاؤل ، انه ليس قناعة بأن شيئا ما سوف يقلب الأمور ،
ولكنه احساس مؤكد بأن شيئا ما سوف يحدث ويكون له وقع كبير دون
الأخذ فی الاعتبار كيف سيظهر . وباختصار فأننى اعتقد بأنه أكثر
اشكال الأمل عمقا وأكثرها أهمية وهو الشكل الوحيد الذى يحافظ على
بقائنا فوق سطح الماء دون أن نغرق ويلج علينا ويحثنا كي نؤدى عملا
جيدا ، والمصدر الحقيقى والوحيد لايجاد متنفس للروح الانسانية
وجهودها . انه الأمل الذى يمدنا قبل كل شيء بالقوة لنبقى ونستمر
ونجرب الأشياء الجديدة باستمرار حتى ولو بدت الظروف من حولنا
لا أمل فيها ، هنا والآن » (١٣) .

يجب على المرء أن يسترجع الظروف التي جرت فى أوربا
الشرقية فى العام الأول من تولى جورباتشوف السلطة ، حيث لم يكن
هناك أى امارات تدل على أن الزعيم السوفيتى يمكن أن يتورط فى أى
شئ سوى عمله على أن يجعل النظام الجديد فعالا ومتدفقا . ولم
يستطع معظم المحللين للشئون السوفيتية التنبؤ بالتغيرات الدراماتيكية
التي ستحدث لفهم الاتحاد السوفيتى عن التضامن فيما بين دول
الكتلة . وأشارت الدلائل التي جاءت من موسكو الى اهتمام الكرملين
باستبدال الزعماء الأوربيين القدامى بأخرين جدد لتجديد وضخ دماء
جديدة فى الإحلاف الشيوعية . واستنتج معظم الناس أن التوجه
السوفيتى الجديد كان يقدم الدعم والتشجيع للمصلحين
الشيوعيين (١٤) .

واعترف كثيرون مثل آدم متشنك فى بولندا وجانوس كسى فى المجر
وهافيل فى تشيكوسلوفاكيا بأن التغيرات التي تجرى فى الاتحاد
السوفيتى وتأثيرها على الموقف المحلى فى كل بلد شرق أوربي كانت

شديدة الأهمية والخطورة . وما زال المفكرون يرغبون تعليق كل آمالهم على النوايا الطيبة لإمبراطور مستقبلي . ان النعيريات لابد ان تتجاوز — اذا كانت جوهرية وصانقة — الوضع القائم للسلطة ، ومن ثم يجب ان تعاد الصحو للمجتمع من جديد وذلك بممارسة الضغط الجماعي الذي تقوم به الجماعات والحركات المستقلة وكذلك بما تقوم به أجنحة معينة داخل الائتلاف الحاكم ، وبالتخلص من هؤلاء الذين يقبضون على السلطة المطلقة ويطلق العنان للتحديث الاجتماعي . وأصر هافيل ردا على هؤلاء الذين بنوا آمالهم على نية جورباتشوف في تحديث النظام والسماح بإجراء اصلاحات عميقة، على ان هذه التغيرات لن تكون أصيلة وصحيحة ولن تسفر عن مجتمع لا شمولي الا اذا شارك المجتمع نفسه في المسؤولية . وبدا واضحا للجميع أن الصراع بين الحمامة والصقر أو بين الليبراليين والمحافظين في المكتب السياسي سيسفر عن التعددية السياسية ، وعارض هافيل ومفكرون شرق أوروبيين آخرون اعاقا رؤية المجتمع المدني وعرقلة حركته التي لم يعد في الامكان احتواؤها . ان النية الحسنة لأفضل سكرتير عام لا تكفي لتغيير النظام ، انها تجعله وتجعله محتملا .

لقد اكتشف هؤلاء الذين يعتقدون بأنهم قد خولوا من قبل التاريخ لحكم وقمع الآخرين أي لاستخدامهم كأدوات لهم دون أن يتعرضوا لأي محاسبة مدى جدية وصدق الممارسات السياسية الجديدة ، ومن ثم أصبحت الأرض ممهدة كي يبرز مجتمع مدني ناضج وواع يشبارك الحكومة مهام الحكم .

« اننى اترك لمن هم اكثر قدرة ومسئولية تقرير ما يمكن ان نتوقعه من جورباتشوف و « من القمة » أي ما يمكن ان يحدث في اجواء السلطة الا اننى لا اعلق على ذلك أي آمال ، واهتم اكثر بما يحدث في « القاعدة » وما يمكن توقعه من « القاعدة » . وما يمكن تحقيقه من مكاسب لما تدافع عنه . ان السلطة في يد شخص ما وهو يستجيب لحكم العقل والسلوك هؤلاء الذين يحكمهم وذلك غالبا ما يحدث دون قصد ، بل ان سلوك السلطة يعد انعكاسا لما يحدث في « القاعدة » اذ لا يمكن لاحد ان يحكم من فراغ » (١٥) .

ان المجتمع المدني ملا هذا الفراغ بفهم جديد للممارسات السياسية وذلك بتحديثه ومقاومته للأجهزة القمعية السلطوية . فنجد هوساك وجاكسي في تشيكوسلوفاكيا — كمثال — قد خرجا عن سياستيهما المتبعة لحو ذكرى ربيع براغ ولزوع الاحساس بالقصور التام في نفوس الجماهير ، كما ساهمت مبادرات مثل ميثاق ٧٧ والأعمال المدنية في صحو

المجتمع مرة أخرى . ولم يكن المنشقون — بما لهم من « دراية بالنفس والتحرر الذاتى » هم وحدهم الذين عارضوا النظام القائم بشكل مباشر بل شاركهم الجماعات والاتحادات ، كما عارضوا « المنطقة الرمادية » بين الحكومة والمعارضة معبرين عن صعود الفعالية الاجتماعية التى لم ينتبه اليها الا القليلون رغم دلالتها .

« ومرة بعد مرة تصيينا الدهشة الشديدة والعجب مما يحدث كل يوم ومن المخاطر العظيمة التى خاضها الشعب بشجاعة ، كما اصابنا الذهول لمقدار الحرية التى تصرفوا بها ، ومقدار تعطشهم العظيم والكامن لمعرفة الحقيقة ، وتعطشهم لسماع كلمة حق والقيم الأصيلة » (١٦) .

لقد تحررت عشرات الآلاف من الجماهير من قيودها ، وتكونت فرق الجاز رغم وجود الفرق الرسمية ، وانطلقت المظاهرات الضخمة للدفاع عن حرية العقائد الدينية . لقد كشفت الأحداث التى جرت فى النصف الثانى من الثمانينيات ، مدى عجز دولة ما بعد التوتاليتارية عن احتواء الضغط المتزايد من القاعدة الجماهيرية . وعندما تكونت مجموعة غير رسمية تدعى فينر Vons (لجنة الدفاع عن المضطهدين) صنفتها الحكومة ضمن « المنظمات المعادية للدولة » واعتقلت زعماءها بما فيها هانيل . ان الانشطة المتنامية على نحو مفاجئ والتى تميزت بالاستقلالية كشفت عن الرأى العام الذى زيف وكمن وراءه الخوف واليأس .

ان هذه الانشطة تدل على السخط الاجتماعى العميق والكامن تحت السطح الخارجى لدولة ما بعد التوتاليتارية :

« قد لا تبدو هذه التغيرات للمراقب الخارجى شيئا ذا دلالة . اين العشرات والملايين من نقابتك القوية ؟ لماذا لم يتفاوض معك هوساك ؟ لماذا لا تهتم الحكومة بعروضك وتصرفاتك الطيبة ؟ الا ان هذه التغيرات تعنى كل شيء بالنسبة لآى شخص هنا ، انها الوعد الحقيقى للمستقبل ان انه قد تعلم — منذ زمن بعيد — الا يقبلها من اى مكان آخر » (١٧) .

وتقدم المجتمع المدنى على نحو أسرع وأقوى فى المجر وبولندا عنه فى بلدان أخرى مثل جمهورية المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وتستحق حالة المانيا الشرقية بساساتها البروقراطية وأرثوذكسيتها الجامدة أن نعيدها اهتماما خاصا ، الا اننا لا يمكن أن نفهم بسهولة أسباب انهيار نظام هونكر فى سقوط ١٩٨٩ دون الرجوع لتاريخ الانشقاق

الديمقراطى ودون الرجوع لتاريخ المعارضة فى ذلك البلد . لقد طالبت
جمهورية المانيا الديمقراطية بعد قيامها بمبارحه من ستالين وذلك فى
أكتوبر ١٩٤٩ أن تكون الدولة الألمانية الأولى للعمال والفلاحين . لقد
كانت البلد الأوربى الوحيد الذى اعتمد وجوده على افتراض ايدلوجى
مفاده ان الطبقة يعجز ان تقرر فصل امه الى دولتين . وفى أغسطس
عام ١٩٦١ قرر والتر برخت - خليفة هونكر - الستالينى المتشدد أن
يشيد سور برلين للفصل بين الالمانيين ولمع النزيف الديمجرافى الذى
قد يسفر عن كارثة . ويعد هذا القرار اتباع الحزب الاشتراكى
الديمقراطى الحاكم SED سياسة وضع الحدود والفواصل
Abgrenzung لحفظ وتعزيز سياسة العزل بين البلدين . وسعت
الدولة الشيوعية كى تؤكد شرعيتها الى الاستيلاء على التقاليد الانسانية
« التقدمية » للثقافة الألمانية . واصرت الدعاية الرسمية على أن
جمهورية المانيا الديمقراطية التزمت بالدفاع عن السلام الا أن هذه
الطنانة التى تخدم مصالح السلطة فشلت فى اقناع شعب المانيا
الديمقراطية . لقد تأكد الشعب بما لا شك فيه ان النظام متورط حقا
فى مسار عسكرى . وفى نفس الوقت فان الأوضاع الأيديولوجية الجامدة
التي يفضلها زعماء الحزب أدت الى اضطهاد مستمر ومنظم لهؤلاء
النقاد الذين حاولوا ان يقدموا بديلا للخط الرسمى . وتفرد زعماء المانيا
الشرقية بانتهاج سياسة متعنتة فيما يتعلق بالاصلاحات التى لا مثيل لها
فى أية دولة شيوعية أخرى باستثناء رومانيا ، شوشيسكو . وبدا أن
هونكر فى سنوات حكمه الأولى . يتبنى منهجا جديد أكثر مرونة فيما
يتعلق بالشئون الاجتماعية الدولية ، بل انه عبر عن اهتمامه بالحوار
مع مبدعى الحزب وأخذ فى التمرد - تدريجيا - على دوجماتية النظام .
وفى ما بعد وخاصة بعد ١٩٨٠ رفض هونكر ابداء أى تساهل مع
المعارضة ، الا أن زعماء الحزب الالماني لم ينسوا ثورة يونيو ١٩٥٣
التي قامت بها الطبقة العاملة .

ولمجابة ازدياد وتكاثر الأفكار الاصلاحية الديمقراطية أكد النظام
على التزامه برؤية محافظة تماما للاشتراكية . وعندما جاء جورباتشوف
للسلطة واطلق حملته المعادية للستالينية فان زعماء جمهورية المانيا
الديمقراطية لم يخفوا استياءهم نحو ما اعتبروه نهج (مغامر) خطر .
ولسخرية الاقدار فان القطر الذى سمح بوجود قواعد عسكرية على
ارضية تحتلها قوات سوفيتية تبلغ ٤٠٠.٠٠٠ جندي تقوم حكومته
بحظر توزيع أى منشورات سوفيتية تطالب باصلاح المسار الاشتراكى
وساءت العلاقات بين الزعماء السوفيتيين والالمان الشرقيين وخاصة

بعد أن أعرب السوفييتيون علانية عن نيتهم في التخلي عن المنهج الطبقي في العلاقات الدولية . وقيل السناسينيون الموسميون في المكيب السياسي الألماني الشرقي مذهب ياكوفليف شيفرنادزة . . Yakovlev Shevardnadze الذي يؤكد على تفوق القيم العالمية مثل السلام وحقوق الإنسان في العلاقات الدولية بالاستياء والامتعاض وكان أهم حدث جرى في الاحتفال بالذكرى السبعين لتأسيس الحزب الشيوعي الألماني KPD في ديسمبر ١٩٨٨ هو رفض أريك هونكر الاقتراحات الخاصة بتعديل سياسات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم بها يتناسب مع رياح التغيير التي تهب من موسكو .

« ليس لدينا سبب لتقليد الممارسة السياسية لهذا البلد أو ذاك من البلدان الشقيقة رغم أن ذلك يعد ، حقيقة ، بمثابة انكار سافر للتعالم الأساسية للماركسية . السلام تحفظه سياستنا الخارجية ، وتصونه السياسة العسكرية ، ويدعمه تلقين الأجيال الصغيرة ، ويحميه الدعم الشامل من الأرض الأم للاشتراكية » (١٨) . وفي محاولة لدعم تواجدته في الحياة القومية أكد النظام - يائسا - على الكينونة القومية الألمانية الشرقية ، فحاول - أولا - أن يحقق لنفسه هبة وجماهيرية من خلال التوحد مع الأيدلوجية الرسمية لرموز وأفكار بعينها والتي ترتبط باللحظات المهمة في تاريخ الأمة الألمانية ، كما أصر ثانيا - على أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية تمثل الدعامة الرئيسية للنظام الشيوعي والمعنى السامي « للدولة الاشتراكية » . وهذا الزعم الثاني أوشك أن يفقد معناه بعد حلول عام ١٩٨٧ عندما تساءل هونكر وزملاؤه عن جدوى سياسات جورباتشوف الجديدة .

ولسنوات طويلة خطط الحزب الاشتراكي الديمقراطي لاستئصال الشظايا التي تطلتها الحركة المنشقة على الجسد الاجتماعي وبعد عام ١٩٨٠ واجه الحزب جهودا متنامية لتحقيق الاستقلالية كما شهد بداية حركة جماعية لمعارضة المسار العسكري . وعلى الصعيد السياسي أدركت حركة السلام المستقلة الألمانية الشرقية أن الدولة التوتاليتارية - وهي ما يطلق عليها اسم الكتلة الشرقية - لن تدخل في حوار مع قوى بديلة . ووجدت الجماعات الجديدة في الكنيسة الانجيلية مصدرا للدعم والتشجيع ، وذلك بسبب وضعها الخاص والمتجاوز للمستوى السياسي ومن ثم قدرتها على دعم الحركة المستقلة الصاعدة بدرع قوى يحميها . ورغم أن العلاقات بين موظفي الكنيسة وممثلي الجماعات المستقلة وحقوق الإنسان لم تكن تتسم دائما بالانسجام ، فإن المؤسسات الدينية تحولت لحلف مهم جدا بالنسبة للمناضلين المضطهدين .

وحاولت الجماعات الجديدة ان تشق قناة تصب فيها جهود هؤلاء الذين يؤمنون بإمكانية دمج الألمانيّتين وهو ما أدى الى اخفاق هذه الجماعات في جذب مزيد من الجماهير من بين هؤلاء الذين ظلوا على اعتقادهم بأن الحزب مجرد دخیل شاذ وغير شرعى . وفيما بعد اتضح ان التعهد بإقامة كيان دولة ألمانية شرقية سوف يصبح بعقبة كؤودا في سبيل الجماعات المعادية للسلطة والتي ستقود الصراع ضد نظام هونكر في سقوط عام ١٩٨٩ . لقد رفض السلطويون تقبل الحقائق الواقعة وفهم الاشارات التي تبعث بها الجماهير كما هاجموا الجيل 'الأصفر اذى وجد في الصرح الايديولوجى للاشتراكية الألمانية الشرقية كذبة سمجة . ان الشاعرة ومؤلف الأغاني ساشا اندرسون Sascha Anderson هاجر الى الجمهورية الفيدرالية في أغسطس ١٩٨٦ ، وقد ولد لعائلة مبدعة عام ١٩٥٣ ومن ثم كان ينتمى للجيل الذى رفض ان يعتبر الجمهورية الألمانية الديمقراطية « الأرض الأم » ، كما رفض الايمان بأى أوهاى تتعلق بالفضائل الانسانية للشيوعية . وفي هذا الاطار فان وجهات نظره اختلفت راديكاليا عن تلك التى تبناها الماركسيون المثاليون مثل البرفسور الفيزيائى روبرت هافمان Ropert Hvemarin المحارب السابق المعادى للنازية والذى اُصيب بالتدريج بالاحباط الشديد اثر الطغيان البروقراطى الذى يمارسه الحزب الاشتراكى الديمقراطى بسبب هؤلاء الذين تغفوا بالقصائد المعادية للوحدة ، ومنل ولف بيرمان Wolf-Biermann الذى نفاه النظام فى أواخر السبعينيات . وينتمى اندرسون لجيل من النقضاد اللاراديكاليين المتحررين من الأوهام والافتتان ، واعتبروا النظام حزبا من الدجالين وفرصة للأوغاد السياسيين للحصول على الامتيازات وفرض سلطة لا حدود لها على رعاياهم الخائعين . ورأى اندرسون وانداده أن محاولة تحسين النظام تبدو مضيعة للوقت ، واتسم سلوكهم بالرفض التام للسلطة الا انه لم يكن رفضا حاسما :

((اننى لم اهتم أبداً بالنظام . . ولم اهتم بتقويض هذا النظام من الداخل . بل اننى ام اُرجب في أن اعمل وفقا لمطالب النظام)) (١٩) .

ان معظم المنشقين ، على أية حال ، لم يرفضوا النظام الاجتماعى القائم قدر ما رفضوا تشويه الحزب الاشتراكى الديمقراطى للمبادئ الماركسية . وفى هذا الاطار كانت المعارضة الألمانية الشرقية بالتأكيد تتأثر بآراء خلف حركات مشابهة في بولندا والحر والتي تخلت عن آمالها التعديلية الخاصة باحداث التغير داخل النظام . ان حالة هافمان ترمز لما هو قائم من اوضاع فهو معارض مطلق للديكتاتورية

السياسية وكان مقتنعا بأن النقد الماركسي يمكنه أن يؤثر بشكل قاطع على الممارسات السياسية للنظام التوتاليتارى . ورأى هافمان ومؤيدوه فى المعارضة الديمقراطية الصاعدة ، أن الحل هو إعادة التأكيد على الانسانية الفاعلة للاشتراكية ، ورأى أن اليوتوبيا الشيوعية التى تركز على مساواة حقيقية بين المواطنين هى المهمة الأولى لهذا العهد الجديد :

« لا بد من القضاء على هؤلاء الناس الذين يتمتعون بكل الامتيازات سواء أكانوا طبقات أم جماعات ، إذ لا بد لكل واحد ، وكل شخص أن ينال نفس الفرصة ونفس الامتياز ، ونفس الامكانيات ، ويجب أن تربطهم جميعا علاقات تقوم على المساواة والندية » (٢٠) .

أن النظام تصرف مرة أخرى بطريقة دراكولية فيما يتعلق بالتحدى الانسانى الذى أعلى من شأنه المفكرون أمثال هافمان ولقى الكتاب فى حركة الانشقاق معاملة فظة من السلطة فمنعتهم من نشر كتبهم ووضعهم تحت مراقبة البوليس الدائمة ، وغالبا ما اجبرتهم على الهجرة .

وفى مثل هذه الظروف كان لا بد من انتهاج استراتيجية جديدة سخيلة . وكانت إعادة بناء المسيرة النقدية وإعادة التفكير فى الامكانيات المتاحة من أجل حركات اجتماعية مستقلة ضد تيار سلطوى قوى لفرض الهيمنة على تلك المناطق التى لم تجتهد كلية افكار أو مبادئ ضرورة ملحة . أن الحل الوحيد أمام هؤلاء الذين يرغبون فى عمل أى شىء داخل جمهورية ألمانيا الديمقراطية بدا أنه يتجاوز مجرد المعارضة الفكرية التى كانت تعتبر بطولية رغم أنها بدت هامشية ومعزولة . ومن ثم تم طرق قضايا جماهيرية ملحة بما يتوافق مع الالهامات والتوقعات والحاجات الشعبية وبما يتوافق مع وجهة نظر المفكرين النقاد فى ألمانيا الشرقية . وكانت القضايا الحسوبة التى طرحت هى المناورة التى تلجأ اليها الدولة فى مواجهة فكرة السلام وعدم اهتمامها بالتدهور البيئى .

وفى يناير ١٩٨٢ أعلن روبرت هافمان « عريضة برلين » الوثيقة التى ميزت ميلاد حركة السلام الألمانية الشرقية ووقع العريضة التى كتب أصلها راينر إبلمان Reiner Eppelmann الوزير اللوثرى ببرلين الشرقية والمشارك فى العمل الشبابى وآلاف من الجماهير (٢١) . وكانت القضية الرئيسية لعريضة برلين هى تحدى دعاية النظام العسكرى . وأعيد رفع الشعار القائل «كلما كانت الاشتراكية أقوى ، كان السلام مضمونا» فى اللصقات الألمانية الشرقية الرسمية ورد الموقعون على « عريضة برلين » على ذلك قائلين :

« اننا نقترح اقامة مناظرة كبيرة حول قضية السلام في جو من التسامح واقرار حق حرية الحوار واطلاق وتشجيع كل تعبير شعبي تلقائي يعبر عن الأمل في السلام » .

واقترح الكتاب العديد من القضايا التي يمكن أن تكون موضعاً للمناقشة والحوار . وبانكار ما قد يكون للحكم العسكري من فضائل طرحوا الاسئلة الآتية :

(أ) يجب أن نوقف الانتاج ، والبيع والتصدير لما يسمى بلعب الحرب ؟

(ب) يجب أن نقدم في مدارسنا دراسات عن السلام بدلا من التعليم العسكري ؟ .

(ج) يجب أن نسمح بالعمل الاجتماعي من أجل السلام بدلا من الخدمة العسكرية لهؤلاء الذين يرفضون حمل السلاح لأسباب اخلاقية ودينية ؟ .

(د) يجب أن نوقف كل العروض العامة للقدرة العسكرية وبدلا منها نقدم الاحتفالات الجماهيرية التي تعبر عن أمل الأمة في السلام ؟
(و) يجب أن نوقف ما يسمى بالتدريبات الدفاعية المدنية ؟ ولأنه لا يمكن تحقيق أى عمل مدنى عظيم في الحرب النووية فان هذه التدريبات تجعل الحرب النووية تبدو أكثر جدية . افلا يعد ذلك نوعا من الاعداد النفسى للحرب ؟ (٢٢) .

ومن الواضح أن جمهورية المانيا الديمقراطية كانت حصنا للدولة كى تواجه التحديات القادمة من القاعدة : ان الروح المعنوية للجماهير لم تكن عالية ، ومن ثم فان السخط تفشى بين الطلاب والمفكرين أكثر من العمال اذ انهم لم يميلوا الى الانشقاق وفضلوا ان يقبلوا عرض الحكومة برفع مستوياتهم المعيشية عوضا عن السلام الاجتماعى . ومن ناحية أخرى كانت معلومات مواطنى جمهورية المانيا الديمقراطية عن حجم الفساد المتفشى فى الحزب الحاكم ضئيلة جدا رغم قرب وقوع الانهيار . ن عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٠ . وأيا كانت نظرة الشعب الى هؤلاء الزعماء من أمثال السكرتير العام للحزب اريك هونكر فان رئيس النقابة العمالية هارى ترش Harry Trisch ورئيس البوليس السرى ايريك مليك Erich Mielke فلم يشك أحد فى أن الشيوعيين فى المانيا الشرقية نوى المظهر الاسبرطى الشجاع ، والواعظين المتقشفين ، ورواد سجون هتلر ومعسكرات الاعتقال كانوا يمتلكون

العربيات الفارحة واكواخ الصيد الفخمة وحمامات السباحة ، وهم فى ذلك يختلفون عن نظرائهم من القادة السوفيت تحت قيادة برجنيف . وفى أوائل الثمانينيات كان هؤلاء الذين جرءوا على انتقاد الحزب الاشتراكى الحاكم لعدم اهتمامه بالمواطنين الحقيقيين أقلية تم عزلها تماما وكان من اليسير فصم عراهم وأعاقة حركة الانشقاق لولا دعم الكنيسة لهم بسبب ايمانها الشديد بأن الحركة الاجتماعية من القاعدة قد بزغت لتعبر عن اهتمامات وآمال شرائح عريضة من الجماهير وظهر ذلك فى فوران تلقائى من العنف والغضب ، وشاركت الكنيسة حركة السلام فى الهموم الخاصة بالتدخل السافر للدولة فى الشؤون الشخصية . رأى أنصار السلام فى ألمانيا الشرقية أن فكرة تحويل « السيوف لشفرة محراث Schwerlez Zupfugshoren كانت أكثر من مجرد تشبيه بلاغى إذ كانت رمزا لقرارهم بالتمرد ضد العسكرية ، والرقابة ، والمناورة العسكرية والقمع الذى تمارسها السلطة - لقد كانت الطريقة الوحيدة لمقاومة محاولة النظام للاتجار بكل أشكال العمل السراقى ونشويها . ان حركة السلام المستقلة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانت أولا وأخيرا مؤشرا للازمات الأخلاقية المتفشية التى أثرت على شرائح عريضة من شباب ألمانيا الشرقية فى بحثهم عن قيم ثابتة وفى سخطهم على الديماغوجية الثورية التى تتبناها الحكومة .

أن التغيرات السياسية التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى وفى اقطار أوروبا الشرقية بعد وصول جورباتشوف للسلطة فى ١٩٨٥ جعلت المناضلين من أجل السلام وحقوق الانسان أكثر راديكالية ، وأدرك أنصار السلام بعد أن تعرضوا للقمع الرسمى بأنهم فى حاجة لجدول أعمال أكثر توسعا وقرروا منذ بداية عام ١٩٨٥ أن يحددوا العلاقات بين السلام وحقوق الانسان فى منظومة . واطلقت مجموعة من قيادات المناضلين بما فيهم المتمرسون المحفكون فى حركات السلام غير الرسمية من أمثال راينر إبلمان Reiner Eppelmann ورالف هرتش Ralf Hirsh وولفجانج تمباين Wolfgang Templin مبادرات لاقرار حقوق الانسان ، ووقع أكثر من ثلثمائة شخص عريضة موجهة لهونكر مطالبين بتنفيذ اعلان الأمم المتحدة العالمى لحقوق الانسان ، كما طالبت العريضة بالتخلى عن الحياة الاجتماعية العسكرية وخلق خدمة مدنية بديلة لتحقيق أهداف واعية وأدانت أيضا القيود المفروضة على السفر وطالبت بحرية التعبير وإلغاء الرقابة إلا أن الحكومة تظاهرت بتجاهل المذكرة . وفى يوليو ١٩٨٥ أرسلت عريضة أخرى لمنظمة الشباب الرسمية مغلقة الهدف الرئيسى لحركة السلام المستقلة وهو احياء المجتمع المدنى .

ونصت العريضة على أن الجمعيات السلمية والمبادرات والمنظمات والنوادي والأحزاب السياسية لا يجب أن تعمل على الأحزاب السياسية الحاكمة . وأن قيام المجموعات المستقلة بمباشرة عملها دون قيود سوف يحمي المجتمع من :

«الانزلاق في نظام إداري جامد يكبت الإبداع بين مواطنيها» (٢٣) .

وفي هذا الإطار يدرك المرء فلسفة الارتقاء الجديد التي حركت صراعات المعارضة البولندية وأنشأت الأيديولوجية العامة للمناضلين الديمقراطيين في دول قلب أوروبا الشرقية . وفي نفس الوقت فإن التصميم على العلاقات الحيوية بين السلام وحقوق الإنسان كان جزءاً من رصيد الحركات المعادية للدولة التي كانت قد نمت في بلدان الكتلة السوفيتية . وهنا يجب أن نذكر مقال هافيل المشهور « اختراق الصمت » الذي كتبه في أبريل عام ١٩٨٥ وفيه ناقش المنشق التشيكي الاتفاقيات الرئيسية بين المناضلين المنادين بحقوق الإنسان الأوروبي الشرقي وممثلي الحركات المعادية للنووية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ويرى هافيل أن قضية سباق التسلح والحرب لا تكمن في الحصول على الأسلحة ولكن في استخدامها من أجل أغراض توسعية . أن الأوروبيين الشرقيين لا يتعاملون مع السلام وحقوق الإنسان كقضيتين مختلفتين أو منفصلتين ، لأنهم تعلموا من تجربتهم الخاصة أن الحكومات التي تحط من قدر حقوق مواطنيها لا يمكن أن تكون محل ثقة عندما تقدم على التزامات دولية .

« بدون مواطنين أحرار ، يحترمون أنفسهم ، ومستقلين لن يكون هناك أمم حرة أو مستقلة . وبدون السلام الدولي بين المواطنين وبين المواطنين والدولة ، لن يكون هناك ضمان للسلام بين الدول : أن الدولة التي تتجاهل رغبة وحقوق مواطنيها لن تستطع أن تقدم أي ضمان على أنها تحترم رغبة وحقوق الشعوب والأمم والدول الأخرى . أن الدولة التي ترفض مواطنيها وترفض حقهم في الرقابة العامة على ممارسة السلطة لن تقبل الرقابة الدولية . أن الدولة التي تنكر على مواطنيها حقوقهم الأساسية تصبح خطراً داهماً على جيرانها أيضاً : أن الحكم الجبري الداخلي سوف ينعكس حتماً في علاقات خارجية جبرية عدم المصادقية في بعض المناطق يثير خوفاً له مبرر من عدم المصادقية في كل المناحي وكل الأمكنة . أن الدولة التي لا تتردد في الكذب على شعبها لن تتردد في الكذب على الدول الأخرى . كل ذلك يقودنا لاستنتاج مفاده أن احترام حقوق الإنسان هو الوضع الأمثل والضمان الأوحد والأصيل لسلام حقيقي .

ان قمع الحقوق الطبيعية للمواطنين والشعوب ان يضمن السلام بل على العكس سيكون خطراً عليه « (٢٤) .

ان وجهة نظر هافيل كانت فى الواقع ردا على النقد وسوء الفهم الصامت الذى تفشى بين السلميين الغربيين فيما يتعلق باتجاهات المنشقين التى يشوبها الشك نحو الحملات الدولية المعادية للحرب .

ان الفلسفة الجديدة الخاصة بعدم انفصال السلام عن حقوق الانسان كان لها اثر قوى على الجماعات الغربية المعادية للأسلحة النووية ، والتى شاركت تدريجيا فى الأنشطة الخاصة بتدعيم قضية الحركات المعادية للتوتاليتارية فى الكتلة السوفيتية . وكان هافيل محقا عندما قال :

« لقد أصبح جليا ان هذا الانعكاس على التجارب اليومية المرة للمواطنين فى الدولة التوتاليتارية يؤدى منطقيا الى نفس النقطة وهى مزيد من التقدير لأهمية حقوق الانسان والكرامة الانسانية والحرية المدنية . ان ذلك هو جوهر ملاحظاتي وجوهر كل الانعكاسات الخاصة بالسلام . ان المتطلبات الأساسية للسلام والتى تحققت بعد ان دفعت الجماهير ثمنا غاليا وتميزت بالحماس الشديد والجديد ، هى أكثر الاسهامات أهمية لأنها جعلت الناس فى هذا البلد يفكرون باستقلالية، ويصلون لما وصلنا اليه اليوم من وعى عام (٢٥) .

ان العلاقة الوثيقة بين السلام وحقوق الانسان أصبحت فكرة مهيمنة على منشورات حركات السلام المستقلة الصاعدة فى المانيا الغربية ، وادرك المتحدثون الرسميون عنها ضرورة تجاوز جدول اعمال السلام المحدود ومعالجة قضية التغيير السياسى . وهذا لا يعنى أن السلميين الشرق اوروبيين قد تخلوا عن مشروعهم الأصلى ولكنهم - الى حد ما - أدركوا أن السلام الداخلى لن يتحقق دون حوار أصيل بين الحكام والمواطنين من مختلف التوجهات السياسية ، ولا بد أن يكفل الدستور والقانون الحريات السياسية وخاصة الحق فى حرية التعبير والتوحد . وقرر المعارضون فى المانيا الشرقية بسبب التغييرات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى والأبعاد الجديدة للفعالية السياسية التى خلفتها سياسة الجلاسونست الانضمام للانشقاقات الشرق اوروبية ووقعوا فى اكتوبر « الاعلام المشترك لأوربا الشرقية » احتفالا بالذكرى السنوية الثالثة عشرة للثورة المجرية .

وقد وقع الوثيقة مائة وثلاثة وعشرون من المناضلين السياسيين فى أربعة من بلدان الكتلة السوفيتية هى : تشيكوسلوفاكيا ، المانيا

الشرقية ، المجر وبولندا مطالبين باستعادة تقاليد وتجارب الثورة المجرية التي قامت في عام ١٩٥٦ لتكون ارثا شعبيا والهاما لجهودهم الحالية :

« اننا نستنفر العزيمة الشعبية للتناضل من أجل الديمقراطية السياسية في بلداننا ، من أجل الاستقلالية والتعددية التي تقوم على مبادئ الحكم الذاتى ، ومن أجل وحدة سلمية لأوروبا المتحدة ومن أجل التكامل الديمقراطى ومن أجل حقوق الأقليات » (٢٦) .

ان المعنى العظيم للاعلان المشترك — كمستجمع للامطار تهطل فيه أشكال التعاون بين المثقفين في كل البلدان — لم يخف على القيادات الالمانية الشرقية ، فعادوا للتهديد وتوعدوا الموقعين على الاعلان وحقروا من شأنهم ووصف وكلاء الدعاية الرسمية الثورة المجرية بأنها « تمرد فاشستى » ، ورغم ذلك لم تأفل جهود السلميين والمدافعين عن حقوق الانسان ، واستمروا في جمع زحمهم . وفى نوفمبر ١٩٨٧ نظمت الحكومة حملة بوليسية على كنيسة زيون zion في برلين الشرقية ، فخرجت للوجود « الحدود » Grenzfall كنشرة اخبارية تتحدث باسم حركة السلام وحركة حقوق الانسان .

وفى يناير ١٩٨٨ اتخذت السلطة اجراءات انتقامية جديدة ضد هؤلاء الذين طالبوا باصلاحات فورية ، وتم نفي نقاد كثيرين بما فيهم الرسام باربيل بولى Barbel Bohley ، وستيفان كروسكى Stefan Krawczyk الا ان الدولة سمحت لكروسكى بالعودة بعد ستة أشهر .

وبرز بوهلى Bohley أثناء اجتياح ١٩٨٩ الذى اطيح بحكم هونكر كواحد من زعماء المنبر الجديد New Forum وهو جمعية سياسية تدافع عن المجتمع المدني في ألمانيا الشرقية . وساهمت السلطة بما أبدوه من عنت تجاه الجماعات ذات التوجه الاصلاحى ، فى تقطيع اوصال أية قوة فاعلة على الصعيد السياسى وذلك للحفاظ على كيان دولة ألمانيا الشرقية فى حالة الانفتاح السياسى الاصيل — وبدا الأمر وكأن هونكر يريد أن يتأكد من أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية لا يمكن أن تظل قائمة دونه ودون مساعديه الستالينيين المغرورين . ان الاعضاء البارزين فى حركة السلام وحقوق الانسان ساءلوا بالآثر المحبط للاعتداء الرسمى على بناهم الوليدة . ومع حلول نهاية ١٩٨٨ أدرك معظم الألمان ان توقع اجراء القيادة المسرفة فى المحافظة التى يرأسها هونكر لآى تغيرات لم يعد ممكنا — ان خنق الانشقاق بشكل وحشى والافتقار الى القدرة على التنبؤ بنمو حركة حبوية مثل تضامن

في بولندا عمقت الاحساس بالاحباط السياسى خاصة فيما بين الشباب وهو ما يفسر افتقار الجماعات والأحزاب التي أصرت على الاحتفاظ بكيان المانى شرقى منفصل الى الجماهيرية وذلك بعد نوفمبر ١٩٨٩ . وعلى أية حال نستطيع أن نقول ان المجتمع المدنى فى ألمانيا الديمقراطية ساهم — رغم هشاشته — فى فضح الرأى العام الزائف الذى يرتكن الى الاجراءات السلطوية . ولم يكن فى مقدور دولة ألمانيا الديمقراطية — استنادا لرؤيتها الأيديولوجية — التخلّى عن التعذيب الجسدى السافر . ووضعت السلطة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية المواطنين أمام خيارين : إما أن يبقوا فى منازلهم مع تقديم أدنى حماية اجتماعية لهم أو الرحيل ، وأثر أغلبهم الخيار الثانى . وكانت الجماعات الألمانية الديمقراطية السلمية وجماعات حقوق الانسان افرازا لمرحلة معينة من اضمحلال النظام الألمانى الشرقى .

وقد ساهمت هذه الجماعات فى أفول نجم سلطة النظام المزيفة وغدت متحدثة باسم الهموم القومية والسياسية التى طال كبته . ورغم ان جدول أعمال هذه المجموعات كان محدودا ، فان النظام بدأ فى اسقاط تلك الجماعات التى وسعت من نطاق أهدافها القومية للالمانيين .

* من مجتمع مدنى الى تعددية سياسية :

لا يمكن انهاء هذا الفصل دون تحديد دور المجتمع المدنى فى التدمير الذاتى للمجتمعات الشيوعية . لقد بزغ المجتمع المدنى أثناء مرحلة معينة من اضمحلال النظام البيروقراطى السلطوى فى دول الكتلة السوفيتية بما فيهم الاتحاد السوفيتى نفسه .

ونظراً لغياب التقاليد السياسية واقتدار الائتلافات الحاكمة لعنصرى المرونة والتسامح فان نمو المجتمع المدنى فى بعض البلدان تقدم بخطى وثيدة عن بعضها الآخر ، وعلى أية حال ، فقد ساهمت عملية التمايز الاجتماعى وتكوين جماعات ذات مصالح متعددة — لحد كبير — فى خلق جو عام من الاستقلالية أو شبه الاستقلالية فى علاقة هذه البلدان مع الحكومة السوفيتية . ولم ترحب الأنظمة البيروقراطية بهذه التطورات وحاولت وأدها الا أن محاولاتهم قد منيت بالفشل . ان ما كتبه المؤرخ موسى ليفين Moshe Lewin فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى يعد نرسا لبلدان أوروبا الشرقية حيث قال :

« لم يعد أحديهم يهتم بهذا التزييف السياسى لمسألة الوحدة الكلية . ان الشبكات الحضرية المعقدة تشكل الأفراد وتدحض وجهات

النظر الرسمية . وتخلق خضبا واسعا من الأعمال العفوية . وتخلي الزعماء المحافظون الذين أصابهم الاضطراب عن محاولة السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه وعم سوء الإدارة والتخطيط ولم يسفر تحويل المسار عن تحسين حالة الإنكماش الذى أصاب النشاط التجارى ووضع النظام الدولة كله تحت ضغط أصابها بالشلل . ان التنام جروح المجتمع المدنى القادر على العمل وعلى صنع القرار هو أهم ما يميز بدايسة المرحلة الجديدة ولم يعد هناك أى احتمال للتراجع « (٢٧) .

ويمكن اعتبار المجتمع المدنى نوعا من المبادرات المتسقة والتلقائية والملا حكومية (رغم أنه لم يكن - بالضرورة - معاديا للحكومة) ، وتتحدد معالمه فى المبادرات التى نأتى من القاعدة فى النظام ما يعد التوتاليترية نتيجة لارتقاء سيطرة الدولة وتدهور القيود الأيديولوجية التى تفرضها الأحزاب الحاكمة . ان منظمة الدفاع عن حقوق العمال فى بولندا أو ما سعى فى الآونة الأخيرة « بالبديل البرتقالى » ، وكذلك ميثاق ٧٧ فى تشيكوسلوفاكيا وغيرهما من أشكال الأنشطة المنشقة فى الاتحاد السوفينى ، « ومبادرة السلام وحقوق الانسان » فى جمهورية المانيا الديمقراطية وكل الأنشطة المستقلة الخاصة بالسلام وبحقوق الانسان بما فى ذلك الصحافة السرية ، والمنشورات ، والجامعات الطائفة ، كما وجدت فى الثمانينيات وخاصة فى المجر وتشيكوسلوفاكيا . كل هذه المنظمات يمكن اعتبارها عناصر المجتمع المدنى النامى الذى قوض احتكار حزب الدولة للسلطة وذلك بتمجيده للالهامات الاجتماعية واستمر المجتمع المدنى فى بولندا حيث تمثل الكنيسة الكاثوليكية بديلا قابلا للتطبيق لزيف الدولة الأيديولوجى وظل قائما حتى فى أوج الحقبة الستالينية القمعية الا أن ذلك ظل فى حدود ضيقة . وفيما بعد وبعد موت ستالين وبداية التحررية ، انتشرت دوائر ونواى المناقشة فى بولندا والمجر وأدت الى اخضرار سياسى وثقافى فى عام ١٩٥٦ . وكانت الجماعات التى قاومت التدهور الايكولوجى وطالبت بحماية التراث التاريخى جزءا من الظاهرة الصاعدة التى نسميها المجتمع المدنى . .

ولا يجب ان نعتبر المجتمع المدنى نقىضا لسلطة الدولة ولكنه جهد يبذل للسيطرة عليها وللمحد من مسارها التوسعى . وقد أصاب موثنى لبون عندما وصف المجتمع المدنى بأنه :

« حاصل الشبكات والمؤسسات التى لا هى منعزلة فقتصرف على نحو مستقل عن الدولة ولا هى تنظيمات رسمية قادرة على تطويع

وجهات نظرها التلقائية فيما يتعلق بالقضايا القومية والمحلية فتفرضها على أعضائها وعلى الجماعات الصغيرة وأخيراً على السلطات « (٢٨) .

ان مرونة المؤسسات الرسمية واستعدادهم لاحتضان وتبنى المطالب الشعبية واستعدادهم لتوجيه الانتقادات الى قرارات الحكومة ، تتوقف — بلا شك — على درجة ما تبديه السلطات من تسامح ومرونة . وظهرت في رومانيا — المفردة في الستالينية تحت حكم نيكولا شاوشيسكو — تيارات معارضة داخل المؤسسات الموجودة ، فنجد — كبثال — اتحاد الكتاب الذى انشأته السلطة ليكون أداة تسهل سيطرة الحزب على المجتمع الثقافى قد أخذ في التحول فوجه النقد لتدخل القيادة الحاكمة فى الحياة الثقافية واحتج على الشوفينية الرسمية ، الا أن الكتاب البرومانيين عجزوا — لوجود القلاقل بينهم — عن تنظيم أى مؤتمر قومى بعد الشغب الذى حدث فى ربيع ١٩٨١ . وحدثت تغيرات مشابهة فى عام ١٩٨٩ داخل الاتحاد الرسمى التشيكوسلوفاكى حيث قرر أعضاؤه — ممثلين وكتاب دراما — أن يشجعوا النقد الموجه لنظام جاكس Jakes وظهر ذلك فى ميثاق ٧٧ وفى تكوين جماعات أخرى منشقة .

واستمر تصاعد المجتمع المدنى فى مراحل شتى ، ورغم أن الفكرة الأولى للمبادرات المستقلة — تحت الحكم الستالينى — كانت شيئاً لا يمكن التفكير فيه حيث حقرت الستالينية من شأن هذه النواة اللارسمية للمقاومة والمعارضة . وعملت كل نظم الدعاية والبوليس السرى بأقصى طاقة لها لخلق وحدة تسمح للحزب ببناء ما أسماه كل من الفلاسفة السياسيين المجريين أمثال أجنسى هيلر ، وفرتز فير ، وجورجى ماركوس Gyorgy Markus « بالديكتاتورية المفروضة على الحاجات » (٢٩) . ان فشل الأنظمة الشيوعية فى كسب الدعم الشعبى منذ أن بدأ الارهاب فى الانحسار ومنذ تآكل الأسس الأيديولوجية أظهر قصور النموذج البرجماتى ، وأصبح واضحاً أن أشكال المقاومة لما أسماه كارل فريدريش فريدرتشتش Carl Friedrich وزبجنيو برزسنسكى « ادعاء التوتاليتارية بالشمولية التامة » (٣٠) ظلت موجودة حتى فى أسوأ ظروف القمع والارهاب . ولا بد أن نقول لهؤلاء الذين رغبوا فى إقامة نواة تعمل من أجل الاستقلال كنوع من المقاومة المضادة للسمات الجوهرية للنموذج التوليتارى أن النموذج يتعامل مع ما يحاول الحكام أن يحققوه أكثر مما يتعامل مع أدائهم فى الواقع . ورأى روبرت س توكر Robert-C-Tucker أن الجماعات التابعة للنظام هدفت الى هدم تام للطبيعة الانسانية باسم الأيديولوجية العالمية . وأصبح من المستحيل على النظم القائمة أن تحتفظ

بحماستها التبشيرية بمجرد أن بدأت في التشكك في بعض العقائد
الأيديولوجية - وساهمت الكوارث الأيديولوجية فيما أسماه توكر بدكاه
« معاداة تحويل النظم الماركسية للرايكانية » وفي تشبعها التدريجي
بالفرقة الدنيوية (٣١) . علاوة على ذلك لم تستبعد أكثر التفسيرات
التوتاليتارية تفاؤلا احتمال القضاء على ما سمي بالخضوع الأبدى ،
إلا أن مصادر الثورة المضادة للتوتاليتارية - وفقا لهانا آرنديت -
تزامنت تحديدا مع تلك البؤر التي تشير لاحتمالية صعود التوتاليتارية
في المجتمع الحديث أي صعود الحزب ، ومن ثم الاغتراب واليأس .
ولا تستطيع المناورة الأيديولوجية تحقيق الانتصار الأبدى على الطلب
الإنساني من أجل كرامة فردية ، وفي هذا الصدد قالت هانا :

« الهيمنة التوتاليتارية ، مثل الاستبداد ، تحمل داخلها الجرائم
التي نبينها ذاتيا ، ولأن الخوف والعجز اللذين ينبعان من الارهاب
هما مبدآن معاديان للسياسة ، ويلقيان بالرجال داخل موقف منافي للعمل
السياسي ، فإن الاغتراب والوحدة والاستدلال الأيديولوجي المنطقي - وهو
الأسوأ - يمثلون موقفا مضادا للاشتراكية ويكرسون مبدأ هداما لكل
الحياة الإنسانية » (٣٢) .

وفي الواقع فإن الدرس المستفاد من إعادة بناء المجتمع المدني في
الدول الشرق أوروبية الشيوعية ينلخص في أن دولة البوليس والعالمية
الأيديولوجية لا تستطيعان الحط من شأن الحاجة الإنسانية للاستقلال
وتأكيد الذات إلى الأبد .

ولا يمكن فصل المجتمع المدني عن أفول نجم الدولة السلطوية
الأيديولوجية ، فمنذ ارتكاز الأنظمة الشيوعية على اكدوبة احتكار الحزب
الحاكم للسلطة باعتباره العالم بكل شيء ، فإن النسق القمعي الذي تبنيه
حطما وجعلها تمر بسلسلة من الكوارث الجسام . انهم يحاولون أن
يجعلوا عقائدهم متسقة مع الواقع ولكنهم يرفضون تجاوز التغييرات
المحدودة في النظام السلطوي ، فكانت الاصلاحات التي اجروها تعززها
الحماسة وينقصها الاتساق . ونرى مثل هذه التجارب في نموذج
الخروتشوفية في الاتحاد السوفيتي نموذج الكادارية في المجر ، باعتبارهما
أكثر التراجم الأوروبية الشرقية وضوحا (٣٣) . وقام الكاتب المجري
ميكلوس هراتسي الذي يعد واحدا من زعماء ائتلاف الديمقراطيين
الأحرار Alliance of Free Democrats وعضو البرلمان المجري
بتصنيف مثير لأراحل ثورة المجتمع المدني :

١٠ في المرحلة الأولى تتزامن مع تحررية دولة الحزب وبداية ظهور أشكال من الأنشطة الانشيقاقية المتفرقة . وفي هذه المرحلة ظلت المعارضة بدائية ولم تطرح برنامجا بديلا يعبر عن مطالب المجتمع . ويدعو هراتسى هذه المرحلة بمرحلة ما بعد الستالينية ويرى أن جوهرها يكمن في الصراع ضد الخوف وتباعد المبادرات المستقلة ووجهات النظر المستقلة والنشاط الإجتماعى متحررين من دولة الحزب وفي المرحلة الثانية التى يسميها هراتسى بمرحلة ما بعد التوتاليتارية صعد المجتمع المدنى بأكمل معانيه كجهد جماعى للحد من القيود المفروضة والامتيازات التى ترنخ فيها الدولة السلطوية . وقد تناول هافيل ومنشنيك هذه المرحلة بالتحليل فى كتاباتهم عن خلق البنى المتوازية و « الارتقائية الجديدة » . ان النظام فقد ثقته بنفسه وفسدت أخلاقياته ولم يعد قادراً على مواجهة السخط الشعبى المتنامى كما تقدم الاقتصاد - تحت رايته - بخطى متثاقلة . ان النظام السياسى القديم أخذ فى الانهيار والنحول لأشلاء وبدأ البحث عن آخر بديل يكون فى مستوى المبادرة الاجتماعية .

ان الأيديولوجية - الدعامة الرئيسية للتوتاليتارية الشيوعية لم تعد سوى طقوس فقدت معناها ولم تعد الرموز السائدة نال ثقة الحكوميين :

« ان الديمقراطية تحل محل الليبرالية كقضية أساسية للممارسات السياسية ، وبينما تضع الأخيرة ارادة وجدول أعمال دولة الحزب الواحدة ، فإن الديمقراطية تعبر عن الرأى العام المتصاعد . ان النظام هو موقف دفاع ، وتوجد محاولة لاقامة الاقتصاد على أساس برجماتى ومن ثم نشب صراع ضد الليبينية القديمة داخل المنشأة التجارية الحكومية ان المجتمع يخوض معركة التشريعية ومعارك أخرى فى صراعه من أجل ديمقراطية الحياة اليومية والفردية والتعددية ، ومبادئ التمثيل الشعبى وحقوق الأقليات . ان الخوف من الاشتراك فى انشطتنا تبسدت واكتسبت جماهير عريضة القدرة على اعلان معارضتها وكذلك القدرة على اكتشاف امكاناتها الخاصة آخذين فى الاعتبار ما يجرى من صراعات » (٣٤) .

والمرحلة الثالثة التى دعاها هراتسى بمرحلة ما بعد الشيوعية حيث سقطت دولة الحزب تماماً وأقيم نظام متعدد الأحزاب . ان ما طرحت الكاتب المجرى فى مقاله عام ١٩٨٨ كان - فى وقتسه - مجرد فروض الا انه كان عاملاً مؤثراً فى التطورات التى جرت فى تلك الدول حيث هب المجتمع المدنى ووصل لدرجة عالية من النضج :

((لقد فقدت معنوياتها ، فلا بد لدولة الحزب الواحد أن تنهار
ومعها بناها الضخمة . حقيقة ان الديمقراطية نبزغ ونقام على ركائز
من طاقات وتجارب التعددية التي تشكلت بالفعل في المجتمع المدني .
اما القضية الثانوية فهي التساؤل عما اذا كانت هذه العملية تتم تبعاً
لنهج خوان كارلوس Juan Carlos في اسبانيا كانتقال سلمي ام من
خلال صدمات ثورية اصفر او اكبر . ولم يعد مهما اذا وقع هذا
الانتقال في اطار اعادة تنظيم اوريا او كان سابقاً عليه . ويدرن بصاعد
ثورة المجتمع المدني في المرحلتين السابقتين لا يمكن ان يكتب لهذا
الانتقال النجاح)) (٣٥) .

ان انهيار الدولة الشيوعية في بلدان مثل بولندا والمجر
وتشيكو وسلوفاكيا حيث بلغ المجتمع المدني اقصى تطور له ، حيث لم يعي
نظراً سريعاً عنه في بلغاريا ورومانيا ، وذلك بسبب تفجر العنف فيهما حتى
بعد التخلص من دكتاتوريتي النظام السابق امثال جيفكوف وشوشيسكو في
نهاية ١٩٨٩ .

وقد تفاقم الصراع في بلدان ، الصف الشرقي ، ، من أجل دولة
القانون التي يكون لها حق مناصرة الحكومة وتفضل السلطات وذلك
بسبب فقر التقاليد السياسية الخاصة بالفعاليات المستقلة خلال مرحلة
المجتمع المدني . وبعد ثورة ديسمبر ١٩٨٩ كانت رومانيا قد فقدت
معظم رموزها التاريخية المهمة التي تمثل الرأي العام القومي امثال
فيتسلاف هافيل .

الا ان القضية الحقيقية لم تكن في غياب دور الأفراد الاستثنائي
ولكن في غياب البنى السياسية ، بالمقارنة بتلك التي انهارت في
ضوء ميثاق ٧٧ . وبمعنى آخر ، فان رومانيا تحت قيادة شوشيسكو
لم تمر بتجربة الانتقال لمرحلة ما بعد التوتاليتارية ولكنها شرعت بعد
عام ١٩٧١ في تقوية سيطرة دولة الحزب الواحد وعودة التفسير
التقليدي للتوتاليتارية التي تشمل - لحد ما - الحفاظ على طائفة
الحكام والثار من أي شكل من أشكال النقد والمعارضة . ولم يمر
الرومانيون بتجربة الرخاء تحت راية السلطوية الكادارية المستنيرة ولاحق
من خلال تجربة نظام ياروزلسكي العسكري ، رغم اصلاحاته الاقتصادية .
ان استراتيجية المجتمع المدني اقترنت على أساس التدريجية واللاعنف
والتربية الاجتماعية من خلال المشاركة في أنشطة تلقائية وعفوية .

هوامش الفصل الخامس

- Vaclav Havel. "The Power of the Powerless", in Vaclav Havel et al., *The Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. : M. E. Sharpe, 1990), p. 65. (١)
- Ibidem*, p. 69. (٢)
- Adam Michnik, *Letters from Prison and Older Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985), p. 28. (٤)
- Ibid.*, pp. 86-87. (٥)
- Ibid.*, p. 91. (٦)
- Hans-Peter Riese, *Since the Prague Spring : Charter 77 and the Struggle for Human Rights in Czechoslovakia* (New York Vintage Books, 1979), pp. 13-14 ; for one of the most informative and authoritative analyses of the rise of democratic movements from below in Czechoslovakia, see H. Gordon Skilling, *Charter 77 and Human Rights in Czechoslovakia* (London : George Allen & Unwin, 1981). (٧)
- Riese, *Since the Prague Spring*, p. 14. (٨)
- Ibid.* (٩)
- Havel, "Power of the Powerless," p. 80. (١٠)
- Vaclav Havel, *Letters to Olga* (New York : Knopf, 1988), p 145. (١١)
- Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with Karel Hvizdala* (New York : Knopf, 1990), p. 139. (١٢)
- Ibid.*, p. 182. (١٣)
- (١٤) لقد ناقش سيورين بيلار Sweweryn Blaler وتشارلز جاتي Charles Gati وكارسين دويتشا Karin Dawisha على نحو متميز استراتيجية جورباتشوف للتخلص من الأحلاف البرجنيقية المستبدة ، وتشجيع الفرق الابداعية والاصلاحية التوجه والبرجماتية أو حتى التكنوقراطية . لقد انقلب الوضع وأعيد النظر في رؤية القيادة السوفيتية وتم تشجيع المحلية أو التراث القديم كما أدانت موسكو - خاصة بعد عام ١٩٨٨ - (المعتقد البرجنيقي الخاص « بالهيمنة المحدودة » ودحضت المفهوم الذي طال اعتناقه عن الامبراطورية الخارجية . وفي هذا الصدد ، بدا أن جورباتشوف أدرك الوضع في الدول الشيوعية السابقة - انظر :

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

Eppelmann (٢١) بعد انهيار النظام الشيوعي في عام ١٩٨٩ أصبح ايلمان
عضوا نشطا في المجموعة السياسية الحديثة النشأة والتي تسمى : الصحوة الديمقراطية
"Democratic Awakening

(٢٢)

A. Wynton Jackson, "Introduction" to "GDR : Appeal on (٢٣)
the Occasion UN Peace Year," *East European Reporter* 2, no. 1
(Spring 1986), p. 61.

Vaclav Havel, "An Anatomy of Reticence," in *Crosscur- (٢٤)
rents : A Yearbook of Central European Culture* (Ann Arbor .
University of Michigan Press, 1986), p. 18.

Ibid. (٢٥)

For the full text of the statement, see Vladimir Tisma- (٢٦)
neanu, "Dissent in the Gorbachev Era — A Documentation,"
ORBIS, Summer 1987, pp. 243-43.

Moshe Lewin, *The Gorbachev Phenomenon : A Historical (٢٧)
Interpretation* (Berkeley : University of California Press, 1988),
p. 147.

Ibid, p. 80. (٢٨)

See Ferenc Feher, Agnes Heller, and György Markus, *Dic- (٢٩)
tatorship Over Needs* (New York : St. Martin's Press, 1983).

Karl Friedrich and Zbigniew Brezinski, *Totalitarian Dicta- (٣٠)
torship and Autocracy* (Cambridge, Mass. : Harvard University
Press, 1965), p. 27.

Robert C. Tucker, *The Marxian Revolutionary Idea* (New (٣١)
York : Norton, 1969), pp. 172-214.

Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (San Diego : (٣٢)
Harcourt Brace Jovanovich, 1973), p. 478.

"Kharism as the Modern State of" Khrushchevism", in (٣٣)
Agnes Heller and Ferenc Feher , *From Yalta to Glasnost : The
Dismantling of Stalin's Empire* (New York : Basil Blackwell,
1990), pp. 129-45.

Miklos Harszti, "The Beginnings of Civil Society : The (٣٤)
Independent Peace Movements and the Danube Movement in
Hungary." in Vladimir Tismaneanu, ed., *In Search of Civil So- ty:
Independent Peace Movements in the Soviet Bloc* (New ... :
Routledge, 1990), pp. 85-86.

Ibid, p. 86. (٣٥)

الفصل السادس

انتصار المقهورين :

أصول وديناميات الاحتياج الشرق أوروبى

« ربما يبدو شيئاً دراماتيكياً أن أصل لهذا الاستنتاج واضعه على هذا النحو ولكن أقسم أنتى أعنيه — وهو أنه من الأفضل ألا تحيا على الإطلاق من أن تحيا بلا شرف »
فيتسلاف هافيل

ان العوامل التى أدت الى الاحتياج الشرق أوروبى والى انهيار الكتلة السوفيتية لا يمكن أن نحصرها فى عامل واحد فريد من نوعه ، فهذا الاحتياج أثر على تاريخ العالم وأقرن العديد من القضايا التى تفاعلت خالقة مجموعة من الظروف جعلت من التغيير شيئاً ملحاً وحتمياً أول هذه العوامل هو اختفاء خيال المائة السوفيتى اذ مثل الخطر الواضح للتدخل العسكرى السوفيتى لقمع القلاقل الداخلية فى البلدان التابعة عقبة خطيرة فى طريق ظهور الحركات الجماهيرية الفاعلة . ان عدم التخلّى عن ما سمي بارث يالطا ، وما قامت به القوى العظمى من اتفاقيات ثولية عام ١٩٤٥ جعلت اية حركة مقاومة فى الكتلة السوفيتية ضرباً من الدنكشوتية محكوماً عليه بالفشل الذريع ، وهو ما أعاق نمو الحركات الجماهيرية والمعارضة وما ظهر منها كان ضعيفاً هشاً . أن ادراك السوفيتيين لعجزهم التام عن الهيمنة على أوربا الشرقية باستخدام الصياغات الستالينية العتيقة أدى بهم الى اعادة النظر — خلال حقبة جورباتشوف — فى النظام السيناسى داخل الكتلة واعادة تقييم شرعية الأنظمة الشيوعية المفروضة من الخارج فيما يسمى بالامبراطورية الخارجية .

وفى مناسبات عديدة أوضح مؤيدو الجلاسونست بها فيهم الأعضاء المفضلين لدى جورباتشوف مثل جورجى شاخنزروف Georgy Shakhnazarov ، رئيس القسم الدولى فى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى CPSU ، الذى أصبح أحد المستشارين المقربين للزعيم

السوفيتي ان المفهوم القديم للاشتراكية والذي بنى على الاكراه وجبركم الفرد واحتكار قلة بيروقراطية للسلطة لم يعد لوجوده اى تبرير اخلاقى او سياسى . لقد كان ذلك هو المقدمة النظرية للتخلى عن النموذج البرجنىفى وانتهاج مسار جديد فى العلاقات السوفيتية مع الاقطار التابعة سابقا . وعندما ادانت أعلى سلطة فى الكرملين استخدام القوة والقهر لم يعد هناك ما يدعو السوفيتيين للاتصاق بأساطير الثورات الشعبية والتي زعم بأنها اتت بأحزاب أوربا الشرقية الى السلطة فى الفترة التى توسطت الحرب العالمية الثانية . وبمجرد ان اعلن السوفيتيون قرراهم باعادة النظر وتفحص مسلماتهم الاستراتيجية واعادة التفكير فى الدعائم الأيديولوجية لما سمي بالنظام الاشتراكى العالمى ، بدأ الخوف المتفشى بين مواطنى الكتلة يتبدد وينقشع .

ويعد اعلان الفهم السوفيتى الجديد للاشتراكية الذى طرحه جورباتشوف وحلفاؤه المقربون بما فيهم الكسندر ياكوفليف Alexander Yakovlev عضو المكتب السياسى والمنظر الرئيسى للبيروسترويكس لم يعد هناك مجال للشك فى ان ما قامت به دبابات حلف وارسو نحو ربيع براغ كان قمعا . وحقيقة ، لقد ادرك كثيرون فى بلدان أوربا الشرقية ان مصلحى براغ قد دفعوا ثمن البحث عن الاشتراكية الانسانية التى يطالب بها الآن مؤيدو البيروسترويكس فى موسكو . ان ديناميات الاصلاح فى الاتحاد السوفيتى وضعت الزعماء انشيوعيين بأوربا الشرقية فى وضع لا يحسدون عليه فأخذت نماذجهم السوفيتية التى يقعون خلفها فى الانهيار تدريجيا . وكانت الأرثوذكسية الأيديولوجية تعتبر فى ذلك الوقت مجرد اثر للماضى الستالينى :

« فى الماضى كان هناك دائما من يسمى « بالاشتراكى- » وهو يعنى كل فرد فعال ، والآن يقول السوفيتيون ان الفاعلية العملية ، اى كيفية تسير الأمور ستكون هى المعيار للاشتراكية التى يمكن تطبيقها فى الواقع وهذا بدوره يفند النقطة المرجعية السوفيتية الثابتة والتى كانت موضعا للجدل فى الداخل عن طبيعة الفاعلية وعن الأشياء التى يجب الإبقاء عليها . والحقيقة ان الاتحاد السوفيتى الذى كان نموذجا للاشتراكية أصبح وبذفس القدر نموذجا للاصلاح السياسى يمتدئ به لقد أصبح نموذجا لتحقيق الاصلاح الاقتصادى من اجل الجلاسونست ، ومن اجل الديمقراطية ، ومن اجل الدور الشعبى الشرعى للمفكرين ومن اجل الجماعات التى قمعت حتى الآن بما فيها الجماعات القومية ومن اجل تجريب صيغ جديدة للمناظرة السياسية والعمل السياسى . وكما لم تعد الستالينية نموذجا فقد أصبح فشلها وعدم فاعليتها وطفيلانها

شيئاً من الصعب تبريره بل ويجب النظر اليهم في ضوء المصداقات القومية « (١) •

أن الانتقال السوفيتي المتنوع من التدهور الى التغير كان كافياً للتأكيد على التفكك السريع للأنظمة الشيوعية في دول الكتلة •

ان الانتقال لما بعد الشيوعية ارتبط بتدهور ثقة الاحلاف الشيوعية بنفسها وهو ما كان انعكاساً للأزمات الأخلاقية والأيدولوجية التي تعاني منها هذه الأنظمة • ان وجود مجموعات وحركات سياسية كان له أثر كبير في نجاح الانتقال ، اذ شاركوا في الهموم الاجتماعية وطرحوا بدائل اقتصادية وسياسية للممارسات السياسية الشائنة التي تبتز الجماهير • وقد أثرت المعارضة في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبقيدر أقل في جمهورية المانيا الديمقراطية - على الظروف والتحديات التي أدت الى تقطيع اوصال الأنظمة الشيوعية ، كما ظهرت المجموعات الإصلاحية التوجه في المجر وبولندا داخل قيادات القمة وعلوا من شأن الرؤى المشابهة لتلك التي احتفى بها جورباتشوف وجماعيته في الاتحاد السوفيتي •

ودفعت التغيرات التي تجرى في الاتحاد السوفيتي ودول شرق اوروبا بالقوى الديمقراطية في كرواتيا Croatia وسلوفينيا Slovenia لاطلاق حملات شعواء من أجل الإصلاح ومن أجل التأكيد على هويتهما القومية ، ذلك بالرغم من أن يوجوسلافيا هي البلد الوحيد الذي لم يتوحد رسمياً مع الكتلة السوفيتية •

وكان القمع في رومانيا وبيلغاريا أكثر تخطيطاً بينما كانت المعارضة أقل تنظيماً ، الا أنها توحدت في مرحلة مبكرة مع وجود المجتمع المدني الصاعد • ووقعت المجتمعات المدنية في تلك البلدان فريسة لحملات السلطة فاصيبت لفترة طويلة بالشلل والذعر • وتعد البانيا أكثر الدول الشرق اوروبية انعزالا وبدأت متمسكة وبصاف يستالينية انور خوجة الراديكالية ، وظل خليفة خوجة ، رامزي عليا ، سكرتيراً عاماً وقضى فترة خدمته كشيوعي مخلص ، كما أبقى على تكسمجي ، أرملة الزعيم السابق ، كرئيس للمنبر القومي National front وظلت طائفة الزعيم الراحل كما هي كاملة لا تمس • واثناء أحداث ١٩٩٠ عندما تكونت أحزاب المعارضة بالبانيا بموافقة الشيوعيين الحكام بدأ أن هذا القطر لن يستطيع الانفلات مما بجتاح اوريا الشرقية الشيوعية كلها من حركات إصلاحية •

ان المجتمعات الأوروبية الشرقية تأثرت بالتغيير الذى طرأ على علاقات الاتحاد السوفيتى باقطار الكتلة ، وتخلص الاوروبيون الشرقيون من خوفهم من الأزمات البنيوية التى عانت منها هذه البلدان ، خاصة بعد تزايد ادراك المؤيدين للنظام والموالين له بأن أى اصلاحات فى اطار النظام القائم لم تعد قادرة على التخفيف من حدة التوترات المتنامية ، وان الاشتراكية على الطراز السوفيتى استهلكت كل مصادرها الداخلية لتحقيق التكاثر وبدأت مبتذلة تماما ، وبدأت أى جهود تبذل لحفظ النظام مجرد وصفة أطالت عذابات المجتمع المدنى . ان المجتمع لا يرقى فى غياب اجماع الرأى حول الأهداف الرئيسية والقيم المرجوة ، وفى أوروبا الشرقية كان هذا الاجماع غائبا تماما خاصة بعد عام ١٩٨٨ ، وينطبق نفس الشيء على يوجوسلافيا - البلد الذى لم يندمج مباشرة فى بنية الكتلة . ان السرعة التى تمت بها الاصلاحات السوفيتية كان لها اثر معد فى أوروبا الشرقية ، مما عجل بالاندفاع فى اتجاه الاصلاحات التى اجتاحتها ، كما استفحلت الصراعات بين المحافظين والليبراليين وهى الصراعات التى غالبا ما تخفت تحت اسم التوترات بين الاحلاف الكرواتية السلوفينية الأكثر تعددية والزعماء الصربيين الأكثر سلطوية .

اما العامل الرئيسى الذى أدى لهذا الاجتياح فهو الضغوط التى مارستها الدول الأوروبية الغربية على الأنظمة الحكومية وغير الحكومية كى تفى بتعهداتها الدولية خاصة فى مجال حقوق الانسان ، ولعبت هذه الضغوط دورا مهما فى شد ازر المعارضة الداخلية ، خاصة بعد عام ١٩٧٥ عندما وقعت اتفاقيات هلسنكى الا ان الغرب زاد من تلك الضغوط بعد عام ١٩٨٠ فطالب الاتحاد السوفيتى بالتخلى عن استراتيجيته الامبريالية . كما لعب التحرك الراسمالي وازدياد حاجة الاتحاد السوفيتى للمساعدة الغربية أدوارا مهمة فى قلقله الأسس التى تقام عليها الأنظمة الشيوعية . ان سياسات العزلة الثقافية والسياسية التى تمارس عادة من جانب الحكومات الشيوعية والرقابة المنظمة على المراسلات والتشويش على محطات الاذاعة الغربية ، هدفت جميعا لقطع الروابط بين جماعات حقوق الانسان الصاعدة فى الكتلة السوفيتية ومؤيديهم فى الغرب ، اذ ان شعور هؤلاء الذين يناضلون من أجل حقوق الانسان داخل الكتلة بأن هناك من يساندتهم ويمد لهم يد المساعدة خارج بلادهم وبأن الغرب لبس صامتا عن الانتهاكات التى ترتكبها هذه الأنظمة ، كان عاملا مهما فى تطوير المجتمعات المدنية . ان فهم أسباب سقوط هذه الأنظمة السباسبية فى أوروبا الشرقية يستدعى فهم الدور الذى لعبه الغرب فى الاجتياح الشرقى

أوربى وهو ما لا يمكن تجاهله ، وبمعنى آخر فان اثر الغرب على مدى وسرعة التغيرات فى اوربا الشرقية لم تكن اقل أهمية عن ذلك الاثر الذى تركه أسلوب جورباتشوف فى قيادة الدفة السوفيتية ، فقد تعاوننا فى خلق بيئة دولية فضحت جمود البيروقراطيات الشيوعية فى أوريسا الشرقية باعتبارها بقايا لماض مشين ومخز . وبينما شجع الغرب صعود القوى التعددية والديمقراطية التى تهتم بالتغيير المنظم وعلى نطاق واسع فان الكرملين علق آماله على اجراء اصلاحات محلية تشمل تجديدا للآليات الاقتصادية والسياسية القائمة دون التخلي منها .

✽ جورباتشوف التعدبلى :

عندما تولى جورباتشوف السلطة فى مارس ١٩٨٥ كان نموذجا للحزبى الملتزم . اذ لم يكن فى تاريخه الوظيفى ما ينبىء عن نزعسات ليبرالية جادة بل لقد ايد السكرتير العام السابق يورى اندريوف Uri Andropov ولم يرفض الشيوعية بسبب ليبراليته ولكن لاعتقاده بأن الاشتراكية لا بد أن تجدد من خلال العودة للقيم البلشفية الحقبة التى لطختها محاباة الأقارب والفساد المفرط المتفشى فى الأجهزة الحكومية خلال السبعينيات وأواخر الثمانينيات . لقد نبعت بيانات وتصرفات جورباتشوف من عقل شيوعى حزبى برجماتى منظم . وأعلن الزعيم الجديدة فى السنتين الأوليين من حكمه تحديه السافر للعقائد الأيديولوجية الحصينة ، وتقدمت حملته المعادية للستالينية ببطء شديد ، يصاحبها العديد من الارتدادات ، الا انه تجنب — مبدئيا منح دعمه المباشر لمناصر الليبرالية الحقة ، وظل اندرى سخاروف Andrei Sakharov الفيزيائى المشهور المناصر لحقوق الانسان معتقلا فى منفاه الداخلى بمدينة جوركى Gorky ، الا أن المراقبين استطاعوا — فى سنوات حكم جورباتشوف الأولى — استبيان بعض المرونة فى طريقة معالجته للقضايا النظرية والثقافية ، كما اشارت الدلائل على أن كثيرين فى بطانة السكرتير العام قد عادوا مرة أخرى الى محاولات خروتشوف لمعاداة الستالينية وهى المحاولات التى اخفقت فى الماضى .

وادرک فريق جورباتشوف الحاكم — بتحديثهم الجمود البيروقراطى — أن الاصلاحات البنائية التى تؤثر على دعائم النظام الكائن هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الفساد السائد واطلاق الطاقات الاجتماعية التى طمس قمعتها : أن الهجوم على المؤسسات القائمة بدءا

بمعاداة البرجنيفية • وهاجم جورباتشوف فى مؤتمر الحزب السابع والعشرين والذى تم فى فبراير ١٩٨٦ (بعد ثلاثين سنة كاملة من المؤتمر العشرين التاريخى عندما أدان خروتشوف تأليه شخص ستالين) سياسة « النظام التنفيذى الموجه » وطالب باصلاحات جريئة فى كلا المجالين الاجتماعى والاقتصادى • وكشف جورباتشوف - بعد ان أطلق حملته - عن المصالح السياسية للبيروقراطية السوفيتية من الجيل الأوسط وعن مصالح مجموعة بعينها من المفكرين الحزبيين وعبر عن استيائه من الفساد وعدم الكفاءة والعجز التى اتسمت بها حقبة برجنيف • وقد أشاد جورباتشوف بالقيم التى تبناها جيل من القادة السوفيت الذين اعتنقوا قيم المؤتمر العشرين بما فيه من أفكار تنادى بالاصلاحات السياسية والاقتصادية والتعايش السلمى مع الغرب والتخلص من راديكالية البرنامج الماركسى اليوتوبى • وفى المرحلة الأولى وجه جورباتشوف نقده للفساد الروتينى والافتقار الى الابداع على الصعيد السياسى فيما يتعلق بسياسة صنع القرار • وفى ذات الوقت أصر جورباتشوف على دور الجماهير كمنبع للابتكار السياسى وسمح بقيام الآلاف من المنظمات غير الرسمية فى الاتحاد السوفيتى •

ان محاولة القيادة الجديدة للتحديث قد استلهمت من آخر كتابات لينين السياسية والاقتصادية • ونادى جورباتشوف - فى ضوء وجهات نظره عن السياسة الاقتصادية الجديدة - باللامركزية وبتخفيف سيطرة الحزب وقبضته الحديدية على المجتمع الا أن الاصلاح كان لا بد أن يهبط من القمة ولا بد أن يحتفظ الحزب الشيوعى بدوره القيادى فى المجتمع • وقد وجه المفكرون السوفيتيون ، الذين طالبوا بانفصام راديكالى عن الماضى النقد لهذه الاستراتيجية ، واعتبروا الليبرالية مجرد استمرار للنظام القديم بكل عيوبه وأوصلوا بدمقرطة كل المؤسسات بما يسمح للأفراد بالتعبير عن وجهات نظرهم السياسية كاملة • ونظرا لاستيائه من سيطرة الحزب أعلن الكاتب المسرحى المعروف الكسندر جيلمان Alexander Gelman المناصر الصلب للديمقراطية فى أحد اجتماعاته باتحاد السينمائيين Cinematographer Union عن رأيه فيما يجرى قائلا :

« ان الديمقراطية تعطى فرصة لاعادة توزيع السلطة واستعادة الحقوق والحريات ، وخلق عدد من الأبنية المستقلة للإدارة والمعلومات . والليبرالية هى التى تحافظ على كل دعائم النظام الإدارى ولكن فى شكله المعتدل ، وهى أيضا قبضة حرة الا أنها يمكن أن تطبق على المجتمع مرة أخرى وفى أية لحظة • وأحيانا تذكرنا الليبرالية - فى

**الظاهر فقط — بالديمقراطية ولكنها في الحقيقة الواقعة اغتصاب
سياسي لا يحتمل » (٢) .**

لقد استغرق جورباتشوف بعض الوقت ليدرك استحالة التخلص
التام من تراث الستالينية واعتقد الفريق الضاخم — في البداية — انه
سيتمكن من اصلاح النظام بالتخلي فقط عن بعض سماته ورتق الباقي
منها . ان الحقبة التي كانت سمتها التعجيل والتدفع بالاضمح — لم
تستمر طويلا . وأدرك جورباتشوف ومؤيدوه أن المشاكل لن تحل دون
زج الجماعات الاجتماعية العريضة داخل الصراع السياسي ودون
مراجعة العقائد الحزبية الجامدة . وأكد الجورباتشوفيون ومن بينهم
هؤلاء الاقتصاديون المؤثرون والعلمانيون السياسيون والاجتماعيون على
أن اجراء تغييرات حقيقية على الصعيد الاقتصادي لن يحدث دون اجراء
اصلاحات سياسية تكون مواكبة لها ، وان المصالح الراسخة للنظام
العسكري الصناعي المعقد ومصالح اللوبي ومنها وكالة المخابرات
السوفيتية KGB والبيروقراطيات الحزبية تعد عوائق رئيسية ، لاي
محاولات لتحديث النظام الاقتصادي ، وكننتاج لتنامي الوعي بمدى
صعوبة حل التناقضات الكائنة داخل النظام القديم تولدت سياسة
البيروسترويكا .

ان السماح للجماهير بالمشاركة في التغييرات وتحويل سياسة
الجلاسونست (المكاشفة والعلانية) لحقيقة واقعة هو ما سيضمن
النجاح للبيروستريكا . وما يضاف لرصيد جورباتشوف أنه سرعان
ما سلم بضرورة اجراء تغيير دراماتيكي كامل للنظرة السوفيتية
للاستراكية وأدرك ضرورة اعادة تخطيط النظام السياسي كله والحد
من الامتيازات المخولة للحزب ومن السلطات المخولة لأجهزته القمعية .
ان البحث عن دور للقانون وخلق نظام محاسبة وتحقيق التوازن في
الاتحاد السوفيتي أصبح له الأولوية في جدول أعمال القيادة وكان
الاختبار الحقيقي والتحدى الصعب للجورباتشوفيين هو التخلي عن
انفراد الحزب بالسلطة ، والاقرار بالحاجة الملحة للمبادرات الاجتماعية
وضرورة اقامة حوار مع المعارضين للنظام القائم وهو ما يتجاوز بالفعل
حدود اللينينية .

وبينما أبدى الجورباتشوفيون استعدادهم للتخلي عن ارث
الستالينية ، فانهم عزفوا عن الخوض في نقد مغامر للينينية .

لقد انعكست الأوهام الخروتشوفية الخاصة بإمكانية اصلاح
النظام من الداخل دون حدوث اصابات جوهرية في مجالات شتى رغم

أن الهدف كان اجراء تغييرات ثورية ، الا أن جورباتشوف وفريقه فضلوا
- مع وجود جبهات تعارض التغييرات الدراماتيكية - الوقوف في
منتصف الطريق .

ان خطابات السكرتير العام تارجست بين الالتزام بالصفة
الراديكالية والخوف من أن تسفر هذه الاصلاحات عن بلبلة النظام ،
وما يعنينا هنا أن جورباتشوف كان لديه الرغبة في اعادة النظر في
العقائد الأساسية وفي القيام باعادة تعريف المفاهيم الأولية للاشتراكية،
واعتنق - رغم ترددده وتخوفه - المفهوم التعديلى للاشتراكية ذات
الوجه الانسانى . ومثل أسلافه امرى ناجى بالمجر والكسندر دويتشيك
بتشيكوسلوفاكيا أكد جورباتشوف على العلاقة الحميمة النى لا تنقسم
بين الاشتراكية والديمقراطية .

وقد توجه جورباتشوف خاصة بعد المؤتمر القومى التاسع
عشر للحزب الشيوعى في يونيو ١٩٨٨ صوب اعادة النظر في التراث
التارىخى للاشتراكية في هذا المقعد ، كما أكد على أن القيم الانسانية
العالمية تتجاوز المصالح الطبقيّة المحددة والمحدودة ، كما
وافق أيضا على أن الأمر (الدكتات) الامبريالى يمكن ادانته أخلاقيا
وان السياسة الخارجية السوفيتية يجب أن تعاد صياغتها مرة أخرى،
ورغم أن استراتيجيّة جورباتشوف تنم عن يأسسه من تحقيق أهدافه ،
الا أنه لم يتجاهل أن النظام السوفيتى تجابهه تناقضات عويصة وحاول
مواجهة المكن دون تخل تام عن العقائد الرسمية . وحاول الزعيم
السوفيتى أن يحصر - مثلما حدث في ربيع براغ - الكوارث في نطاق
ضيق ، وأن يتخلى عن خطه الخاص بارجاء التكرار للسيتالينية .

وفي نفس الوقت ساهمت اصلاحاته في صحوة كل من القوى
الاجتماعية والعرقية التى أمكن التحكم فيها بصعوبة دون استخدام
العنف ، الا أن سياسة البيروستريكا بكاملها قد تعرضت لاضطهاد
دكتاتورى حين طالبت باستخدام وسائل شرعية لحل الأزمات السياسية
والقومية . ان أزمة نظام جورباتشوف - كما لخصها زيغنيو بريجنسكى
على نحو واف - هى فشل القيادة السوفيتية فى التخلّى عن الأسطورة
اللينينية الأيديولوجية كلية وهو ما يعد عقبة كؤودا فى طريق الديمقراطية:

« ان العقبات السياسية فى طريق البيروستريكا كبيرة بل من
الصعب تذليلها إذ يتطلب التخلص من الارث اللينينى اعادة تعريف
جوهرى لطبيعة الحزب الحاكم ولدوره التاريخى ولشرعيته ، كما
يتطلب الانفصام الحقيقى التخاص من التبسيط الكلى المخل أى التخلص

تحديدا من مقولة ان النظام الاجتماعي يكامله يمكن ان يتكون من خلال قرار سياسي يجيز خضوع المجتمع لسلطة الدولة العليا ويتصرف كعميل للتاريخ عالم بكل شيء . وسوف يتطلب الامر قبول مقولة ان معظم التغيرات الاجتماعية تتم على نحو غير متوقع وغالبا بشكل تلقائي مع اخذنا في الاعتبار ان التعقد الاجتماعي لا يمكن ان ينسجم مع العبادة الأيديولوجية « (٣) » .

ان الجهود الأولى التي بذلها جورباتشوف لانقاذ النظام من خلال القضاء على رذائله قد تناولها آدم متشنك ، في عام ١٩٨٧ في رؤيته « للاصلاح المضاد » ومشيرا لتطبيق ليتسك كولاكفسكى لمفهوم « الاصلاح المضاد » كحركة سياسية وأيديولوجية ترفض النقد الاصلاحى (المضاد) ، بل ولا تشجع ولا تهضم بعض النظريات الاصلاحية الخاصة بضمان تكيف البنى القائمة مع الظروف المتغيرة . وبمعنى آخر ، ان وجهة نظر الاصلاح المضاد هي محاولة لتغيير القيم والمؤسسات من داخل النظام ، انها جهد مبذول لتوحيد الأفكار الناقدة داخل آلية وظيفية للنظام القائم كي يكف عن العدائية والتدمير فقال :

« لو قبلنا هذه المنظمة ، « تضامن Solidarity » كحركة اصلاحية عظيمة داخل حدود العالم الشيوعى فان جورباتشوف يستحق اذن اسم « المصلح المضاد الأعظم Great-Counter Reformer » وهذا معنى « الاصلاح القادم من اعلى » . ان الاصلاح المضاد هو اصلاح الهدف منه انقاذ النظام الشيوعى « (٤) » .

ان فهم رغبة جورباتشوف في اصلاح النظام دون التخلي عن اسسه الأيدلوجية بدءاً من المبادئ اللينينية الخاصة بدور الحزب الشيوعى المهيمن لم يكن معناه القول بأن البروسترويك كانت مجرد واجهة دعائية ، بل على العكس فان فهم المعنى الحقيقى للتغييرات السوفيتية التى بادر بها جورباتشوف تتطلب اخذ كل المحددات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاستراتيجية فى الاعتبار وهى المحددات التى سببت هذا الانهيار الدراماتيكى الحتمى :

« ان سياسة ميخائيل جورباتشوف كانت افرازا لصراع الأجيال داخل الهرم الحزبى السوفيتى ، انها نتاج للتخلف التكنولوجى وسنوات الحرب الطويلة فى افغانستان Afghanistan ، وهى أخيراً حصيلة الخوف من المجابهة العسكرية والموقف الذى اتخذه الرئيس الأمريكى ريجان وهو موقف حاسم لا يقبل المساومة . ان جورباتشوف لم يكن ممثلاً فى مسرحية انه اصلاحى مضاد « (٥) » .

وعندما يجابه المركز مثل هذه التغيرات الضخمة المفاجئة ، وعندما تصبح لغة المنشقين لغة مقبولة لدى الأجهزة الأيديولوجية لانتحول الى عقيدة الحزب الرسمية ، وعندما تعرف الاشتراكية في ضوء قدرتها على خلق دولة القانون ، فان هامش الفعالية السياسية للحركات الشرق اوروبية المستقلة يتسع على نحو كبير :

« ان الاصلاح المضاد في موسكو يمكن أن يفسح الطريق لتفكير جديد في فلسفة خاصة بتسوية سياسية . انها تعلمنا ان نستخدم التسوية لضبط الصراعات الدولية والصراعات الاجتماعية داخل البلدان التي تحكمها الشيوعية بالفعل . واليوم فان الأمر يستلحق الاعتماد على هذا الشكل من التسوية ، ويجب ألا ننسى ان الدعامة التوتاليتارية للمؤسسات السوفيتية ظلت على ما هي عليه » (٦) .

وبعد عام ١٩٨٨ فقدت القيود التي تفرضها الحركات الديمقراطية على نفسها في اوربا الشرقية كل مبرر لوجودها فتحررت وانطلقت . ولان الاتحاد السوفيتي أصبح أكثر مرونة فيما يتعلق بالفعالية السياسية الداخلية وغير الرسمية المستقلة فان دواعي الاعتقاد بأن جورباتشوف سيأخذ - آليا - جانب الأحلاف الشيوعية التي ضرب عليها الحصار في اوربا الشرقية وذلك في وقت الاضطراب السياسي والاجتماعي الخطير قليلة . ان الاصلاح السوفيتي المضاد فتح الطريق لثورة حقيقية في اوربا الشرقية .

ان الانفصال عن الستالينية في موسكو كان بمثابة الضوء الأخضر للتخلي عن اللينينية التي تتبناها وارسو وبودابست وبرلين الشرقية وأدرك جورباتشوف تدريجيا أن مجرد التحرر سوف يؤدي به وبمؤيديه الى نفس الورطة التي وقع فيها خروتشوف : ولم يكن لدى جورباتشوف قاعدة شعبية يهتم بها عندما أبدى أعضاء الحزب كرههم نحوه ، وهذا يفسر قراره بجعل النظام السياسي نظاما مفتوحا لخلق برلمان حقيقي والحد من سلطة الحزب على نحو دراماتيكي وذلك بعد عام ١٩٨٨ . وبمواجهته بمنطق الصراع السياسي والتحدى المضاد والعلنى من الفئة البيروقراطية التي تقف حجر عثرة في طريق التقدم ، اعترف السكرتين العام بأن الديمقراطية هي الضمان الوحيد لبقائه السياسي . وفي عام ١٩٨٩ أيقن جورباتشوف رغم تردده وشكوكه - ان دور المجتمع المدني كشكل مضاد للنظام السياسي الجامد في حاجة شديدة للتغيير ، وهو ما أكد عليه بوريس يلتسن Boris Yeltsin احد النقاد الرئيسيين لجورباتشوف داخل الحزب (وحتى استقالته من الحزب الشيوعى السوفيتي في المؤتمر الثامن والعشرين في عام ١٩٩٠) .

ونظرا لتفاقم الصراع السياسى فى قمة البيروقراطية السياسية ،
جدا جورباتشوف متفهما لضرورة تمزيق العباءة الحديدية للايديولوجيا ،
وتخريك نفس الرجل الذى أبدى - حتى نوفمبر ١٩٨٧ - استعداد له لدخ
فضائل العقيدة الماركسية اللينينية بجرأة تجاه إعادة صياغة التفسير
الأساسية للثقافة السياسية السوفيتية . لقد تطورت المناظرات التاريخية
والنظرية الى درجة غير مسبوقة . ان نداءات البيروستريكيين امثال
الكسندر تسبكو Alexander Isipko ويورى أفانزيف Youry Afanasyev
كانت كلها تساؤلات عن الارث الذى خلفته الاشتراكية التى على الطراز
السوفيتى . وبعد عام ١٩٨٨ تغير مفهوم العداوة فى العقيدة السوفيتية
الرسمية فلم تعد تسببه الغرب بالشتيطان الذى يحبك المؤامرات
باستمرار ضد السوفيت ، ولم تعد الاشتراكية تساوى هيمنة
البيروقراطيات الحمقاء على الجماهير المسلوقة الارادة ، وأعيد النظر
فى المصالح السوفيتية الدولية فى ضوء « البيت الأوربى المشترك » .
ان الفلسفة الشمولية للشيوعية - كما وجدت لأكثر من سبعة عقود -
تعانى من أقول سريع نظرا لادراك الاتحاد السوفيتى للفشل التاريخى
للنظام ، ولم يؤثر انتصار فلسفة التعديلية فى الكرملين على
الامبراطورية الداخلية فحسب بل على الامبراطورية الخارجية أى كل
الدول التى عرفت لأمد طويل بالكتلة السوفيتية واتسع صدر السوفيت
للتجريب السياسى فى أوربا الشرقية على نحو له دلالة . وما استخدم
ليكون لعبة من وجهة نظر السوفيتيين تحت قيادة برجنيف - وأعنى فكرة
الاشتراكية ذات الوجه الإنسانى - قد أصبحت خاصة بعد عام ١٩٨٨
الخط السوفيتى الرسمى وقال بريجنسكى فى هذا الصدد :

ان ما تضمنته تعديلية السكرتيز العام فى الكرملين كانت شديدة
الخطورة ، اذ أشعلت جدلا عنيفا مس كل مجالات الحياة داخل الاتحاد
السوفيتى وأحيت التعديلية الشرق أوروبية ، بينما اكثرت الايديولوجية
الكائدرائية التى حرمت الانشقاقات العقائدية على الخطر الداهم الناتج
عن التخلي عن الجوهر العام للعقيدة الماركسية واللينينية والشيوعية
العالمية . وباختصار ، فإنه لابد للتعديليين فى موسكو - حتى المتواضعين
منهم - أن يعجلوا بالانفصال السياسى والخسوف العقائدى للشيوعية
مما يجعلها ظاهرة تاريخية فريدة « (٧) » .

أتذكر كيف حاول جورباتشوف منذ البداية أن يحافظ على كل من
الامبراطوريتين الداخلية والخارجية ؟ لقد فضل فى سنوات حكمه الأولى

أن ينظم علاقاته مع بلدان أوروبا الشرقية وجعلها أكثر فاعلية ، كما
فضل إقامة علاقات أكثر قرباً مع مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة
CMEA وتنسيق الأعمال الدولية . ورمى جورباتشوف بانئسفاله
بالمسيرة الجديدة داخل الاتحاد السوفيتي الى الإبقاء على أوروبا
الشرقية بعيدة عن الاضطرابات واهتم بالحوار مع الزعماء الشباب ذوي
التوجه الاصلاحى فى تلك البلدان ومن ثم لم يشجع القيام بتغييرات
فورية . ووصف سيورين بيلار Seweryn Bialer توجه جورباتشوف
الأول نحو أوروبا الشرقية على أنها سياسة متشددة شاملة تضمنت
« مزيداً من الاصرار على الارثوذكسية السياسية خاصة فى بولندا
والمجر وعلى الإجراءات الصارمة التى تتخذ ضد المنشقين وفنسب
الحصار الفكرى وتشجيع حملات الدعاية الشرسة المعادية للسررب ،
والمقاومة العنيدة ضد التجريب الاقتصادى ، واتخاذ اجراء سريع ضد
الاضطراب الاجتماعى والسياسى أو ضد أية اشارات تبيدها الدول
التابعة للحصول على استقلالها » (٨) .

الا أن هذا الاتجاه التدميرى والامبريالى لم يستمر لمدة طويلة .
ولم يستطع جورباتشوف أن يفصل التطورات فى الاتحاد السوفيتي عن
تلك التى تتم فى الأقطار التابعة .

ان موجات الجلاسونست كانت بمثابة قوة دافعة لفلول المعارضين
السياسيين فى كل البلدان الشرق اوروبية . وكمثال على ذلك نجد
المناضلين من أجل السلام وحقوق الانسان فى المانيا الديمقراطية قد
اتخذوا من الجلاسونست شعاراً لهم تحدوا به القيادة المحافظة تحت
قيادة اريك هونكر . وفى بولندا كانت حركة تضامن قوة دافعة ، وفى
المجر بدأت المعارضة الديمقراطية فى تنظيم نفسها فى صورة حزب
سياسى خاصة خلال عام ١٩٨٨ . لقد أدرك كل من السلطويين
والمعارضين فى أوروبا الشرقية ان جورباتشوف بتعريفه الجديد للاشتراكية
قد بدأ مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وتغيرت صورة الاتحاد
السوفيتي كشرطى دولى يحرس ارثوذكسية القيادة المحلية حال مطالبة
الزعيم السوفيتي فى المؤتمر التاسع عشر للحزب فى يونيو ١٩٨٨ بأن
يشجب بلده « كل شئ شوه الاشتراكية فى الثلاثينيات وأسفر عن
الركود فى السبعينيات » (٩) .

ولمّا بعد وفى ديسمبر ١٩٨٨ توسع جورباتشوف أكثر فى
فلسفته الجديدة الخاصة بالعلاقات الدولية . وفى خطابه فى دورة الأمم
المتحدة أقر السكرتير العام بحقوق الأمم فى الدخول فى الصراعات من
أجل الديمقراطية .

ان صراحته في شجب الادعاءات السوفيتية الدولية عن ضرورة المنافسة الايديولوجية مع الغرب تشير الى أن حديثه لم ينزلق الى الرطانة . ورغم أنه لم يتخل عن مفردات اللينينية في لُغته . فان جورباتشوف فهم النظريات اللا لينينية على انها لا تحبذ اقامة علاقات بين الدول التي تخضع للاعتبارات الايديولوجية :

« اليوم ، يعد الابقاء على أى نوع من المجتمعات « المغلقة » شيئاً مستحيلاً . وهذه دعوة لاعادة نظر راديكالية في الأساليب الخاصة بمشاكل التعاون الدولي كعامل اساسي في الأمن الدولي اذ أن العهد الجديد يتطلب أيضا علاقات لا أيديولوجية بين الدول . انشا لم نتخل عن معتقداتنا أو فلسفتنا أو تقاليدنا ولا نطالب الآخرين بالتخلي عنها » (١٠) .

ان هذه العبارة — رغم أنها تعد تمثلا من وجهة نظر اللينينيين العقائديين — كانت قاطعة في اصرارها على ادانة ودحض منطق الحرب الباردة

ان فكرة تقسيم العالم وفقا لفواصل ايديولوجية ووفقا لطريقة ستالين بل ولينين في التعامل مع الشئون الدولية ، خضعت لمفهوم جديد يسمح لكل دولة ان تقرر مصيرها . وما يضاف لرصيد جورباتشوف هو ادراكه ان الوجود السوفيتي في اوربا الشرقية أصبح على المستوى الاستراتيجي أقل أهمية في زمن الوحدة الأوروبية European Integration ان دول شرق اوربا التي اتحدت — بالفعل — عسكريا ضد الاتحاد السوفيتي كانت تتحرك بخطى ثابتة لتجاوز خلافاتها السياسية ولخلق كتلة لها قوة اقتصادية لم تشهدا اوربا من قبل . ومع تفوق المستويات المعيشية في اوربا الشرقية على مثيلاتها في الاتحاد السوفيتي الذي كان في طريقه للتحديث متجنباً مزيداً من العزلة ومنافسا لأوربا الموحدة اضطر السوفيتيون الى التخفيف من أعبائهم الامبريالية . ولم يعد هناك مبرر للاستمرار في حماية البيروقراطية الشيوعية المحلية من الحركات الاجتماعية المتنامية القادمة من القاعدة ، بل على العكس فقد كان من مصلحة موسكو أن تبدو كمناصر للتغير والتقدم من أن تتصرف « كأخ أكبر » (استنادا الى التاريخ) يكون دائماً على أهبة الاستعداد لاستخدام قواته لاعادة الامتيازات للطغاة المحليين .

لقد انبثقت الرغبة الجديدة في التغيير السياسي في اوربا الشرقية لان الاتحاد السوفيتي أدرك أن ثمن الحفاظ على الامبراطورية الخارجية كان باهظا — بما في ذلك العبء السيكيولوجي — اذا ما قورن

بفوائده ، فقد أدى هاجس لينين حول الصدود الغربية الى قيام الروس بالتوسع البعيد المدى في أوربا وهو ما غرس بذور الثورات الشعبية . وفي نوفمبر ١٩٨٨ لاحت بوادر انفجار هذه السلسلة من الثورات :

« ان معظم الشعوب في هذه البلدان الثماني في أوربا الشرقية والتي صيغت بالصيغة الشيوعية لم ترغب في أن تحكمها هذه الحكومات الشيوعية ، ولم ترغب في أن يحدد لها السوفييتون ما يجب أن تكون عليه . وادت أربعون عاما من الحجرة المزدوجة التي ابتدها موسكوف — لأن ماركس يعلم أفضل ، وروسيا تعلم ماذا يعنى ماركس حقيقة — الى شق قنوات للتمرد الشرق أوروبى » (١١) .

ان المنهج الجديد الذى اتبعته روسيا في أوربا الشرقية كان حقيقة نتاجا لمناقشات طويلة داخل مطابخ الفكر السوفيتى . ويجب أن نذكر أيضا أن جورباتشوف اختار عددا من المحررين السابقين لنشر الماركسية العالمية ومقرها براغ ليكونوا من بين مستشاريه الذين أبدوا تعاطفهم مع حركة دوبتشيك التجديدية في عام ١٩٦٨ ، وشجبوا التدخل السوفيتى الذى قضى على هذه الحركة الاصلاحية .

ان وزير الخارجية السوفيتى ادوارد شيفرنادزه Edward Shevardnadze وهو واحد من أقرب المقربين لجورباتشوف في المكتب السياسى كان له عظيم الأثر على عملية صنع القرار الذى أدى الى التخلي عن منطق الكتلة ، وقد أدانه النقاد المحافظون بعد استقالته من منصب وزير للخارجية في عام ١٩٩٠ لدوره « المشين » في انهيار القوة السوفيتية الدولية .

وفي يونيو ١٩٨٨ قدم السوفييتيون في المؤتمر التعليمى السوفيتى الأمريكى الذى أقيم في الاسكندرية Alexandria وفرجينيا Virginia ورقة عمل هي خلاصة عمل جماعى لفريق من الاقتصاديين العاملين في احدى اكبر المؤسسات في النظام الاشتراكى العالمى World Socialistic System برئاسة الاكاديمى اوليج باجوميلوف Oleg Bagomilov ورغم أنها ورقة شبه رسمية الا انها اشارت وبوضوح الى وجود تغيرات جوهرية في المنهج السوفيتى تجاه أوربا الشرقية ، وأوضحت الورقة — بعيدا عن مسألة ازالة الخلاف الخاص بالمادامات الثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية في أوربا الشرقية — أن النموذج الاشتراكى السوفيتى الذى مفروض على بقية دولة الكتلة : « لم يصمد لاختبار الزمن ، ومن ثم فقد فشل اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا » .

واقرت الورقة ان الحاجة لاجراء اصلاحات راديكالية تؤدي لخلق نموذج اشتراكي جديد يكون انساني الطبيعة باتت ملحة . وقدمت الورقة تحليلا للبسات الرئيسية للسوفيتية كنظام بيروقراطي عسكري قام على دعامين هما الدمج والاكراه :

((لقد بدأ نظام القوة السياسية في اوربا الشرقية يتخذ البروسترويكيا مرشدا له . ان النموذج القائم في الاتحاد السوفيتي سدد تشكل خلال الثلاثينيات والاربعينيات ، وقد تآثر هذا النموذج على نحو عميق بمعتفسدات ستالين الحمقاء عن طبيعة الآليات السياسية للاشتراكية وتأثر كذلك بحالة المجتمع السوفيتي الرثة الذي افتقر الى التراث الديمقراطي والثقافة السياسية وفرض النظام الاداري الموجه الذي بدأ في الاتحاد السوفيتي على بقية الدول الاشتراكية واتسم هذا النظام بالمركزية المفرطة ، والاحتكار المطلق لصنع القرار والتفكير المنفرد ، والتحقيق من شأن الجماهير (التي اعتبرها النظام مجرد « جماعات تأفهة ») وادوات في يد السلطة) ، والعزلة عن العالم الخارجي . وهدفت المؤسسات السياسية الى تأمين الاستقرار السياسي بالقمع والارهاب والحد من النزاعات . لقد قوض هذا النظام الذي طالب شعوبه بالطاعة العمياء دعائم الديناميات المجتمعية وقابليتها للحياة)) (١٢) .

ولن يخطيء القارئ لأعمال امري ناجي التي كتبت فيما بين عامي ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ عن برنامج عمل الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الذي انتهج في عام ١٩٦٨ نزوعه الى التوجه الاصلاحى . لقد اعتنق الدارسون السوفيتيون نفس الأوهام التعديلية بأن التغير في اوربا الشرقية يمكن أن يتحقق داخل حدود النظام ودون الخروج عليه ، واقتصرت قضيتهم على بناء نموذج جديد للاشتراكية .

ولم يجدوا اجابة شافية للسؤال المطروح وهو : هل كانت الدول في تلك المنطقة مهمة بتجريب نظام جديد ام لا ؟

والخلاصة عام ١٩٨٨ ، شارك السوفيتيون جزئيا في الزيف التعديلى التقليدى وهو ان الاشتراكية سيكون لها مستقبل في اوربا الشرقية اذا استطاعت التخلص من بيروقراطيتها الآخذة في التزايد واطلقت الطاقات الاجتماعية والابداع الذين قمعوا اثناء الحقبة الستالينية ، ورأى التخيليون في عامي ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ ان حل هذه الأزمة يكمن في العودة الى العقيدة الماركسية الأصلية . لقد تم التشويش على مثالا للاشتراكية من انحرافات وذلك بالاعتقاد الزائف والمطلق في امكانية استرجاع مزايا الاشتراكية :

« يمكن تعريف جوهر النموذج الجديد للسلطة بأنه منح السلطة المحلية والعمال والجماعات تفويضا للاضطلاع بالمسئولية ، وتوسيع هامش التعددية في الحياة العامة ، ودمقرطة المؤسسات بما في ذلك الحزب الطليعى بهدف خلق ضمانات أكثر فاعلية ضد احتكار طائفة المديرين والسياسيين المحترفين للسلطة أى ضد الأجهزة البيروقراطية » (١٣) .

وفي صيف عام ١٩٨٩ وجه جورباتشوف خطابا للجلسة البرلمانية للمجلس الأوربي بستراسبورج Strasbourg وفيه تجاوز المؤلف فيما يتعلق بتأييده ودعمه للنموذج البرجنيفي للهيمنة المحدودة ، واعترف بأنه لا يوجد نظام اجتماعي لا يقبل التغيير، والمخ الى أن مثل هذه الانقادات يمكن أن تتم في أوروبا الشرقية أيضا . ان كلمة جورباتشوف في ستراسبورج قد حللها المراقبون على نطاق واسع واعتبروها الضوء الأخضر للمصلحين في أوروبا الشرقية لبيذلوا جهودهم للتحرر تجاه نظام تعددي وتجاه اقتصاد السوق . وراى جورباتشوف :

« ان الادعاء بأن دول أوروبا تنتمى الى نظم اشتراكية متباينة هي حقيقة واقعة ، وادراك هذه الحقيقة التاريخية وابداء الاحترام نحو حق السيادة لكل شعب وحقه في اختيار نظامه الاجتماعى جعل مبدأ حق الاختيار من أهم المحددات اللازمة لمسيرة أوربية طبيعية . ان النظام الاجتماعى السياسى في بعض البلدان تغير في الماضى ويمكن تغييره في المستقبل أيضا واعتبر ذلك شأنا من شئون الشعب نفسه يتوقف على رغبته . . . وائ تدخل في الشئون الداخلية وأية محاولات للحد من سيادة الدول - سواء اكانوا اصدقاء ام حلفاء ام أى شيء آخر - لا يمكن الاعتراف بها او ايجازها » (١٤) .

ان معنى خطاب ستراسبورج لا يمكن أن يخطئه الممثلون السياسيون الشرق أوروبيين سواء اكانوا حكاما ام معارضين . وفقد السبب الذى اعتادت الحكومة الشرعية ان تقدمه لتبرير التخطيط لاتخاذ اجراءات صارمة ضد المنشقين لتجنب التدخل السوفيتى كل معنى له .

لقد تم بالفعل اجراء تغييرات كبيرة في أوروبا الشرقية في الشهور التى تلت هذا الخطاب . ففي فبراير وافق الشيوعيون المجريون على التحرك تجاه النظام المتعدد الأحزاب وهو القرار الذى لم يجرؤ أحد - منذ عام واحد فقط - أن يشارك فيه ، وفى بولندا نظمت الحكومة والمعارضة اجتماعا مشتركا في أبريل أسفر عن توقيع اتفاقية تعترف

يشرعية المنظمة التي حلت وبموجب الاتفاقية منح الشيوعيون ثلث مقاعد المجالس الشعبية كما وافقت الحكومة على اجراء انتخابات حرة لمجلس النواب . ان الاتفاقية البولندية كفلت أيضا سيطرة الحكومة الشيوعية على الأجهزة العسكرية والأمنية وظلت الرئاسة الفعلية للجمهورية في يد الجنرال ياروزلسكى .

ان الحركات الإصلاحية في أوروبا الشرقية لم يكن في الامكان احتواؤها ، وكان منطق التغيير داخل الأنظمة السلطوية يطرح كلما قدم السلطويون تنازلات أكثر وكلما ظهرت مطالب جديدة للمعارضة تعبر من آمال الجماهير المرجوة ، وأدركت الحكومة انها ان لم تستجب لهذه المطالب ، فسوف يزداد الاضطراب الاجتماعي ويصل الى أقصى مدى له فتضطر الى تقديم مزيد من التنازلات . وراقب جورباتشوف تلك التغييرات ولم يبد أي رفض تجاهها .

وفي أبريل عام ١٩٨٩ استقبل جورباتشوف الزعيم الشيوعي المجري كارول جروتز ، وبعد مناقشة تجارب عامي ١٩٥٦ ، ١٩٦٥ ، عندما سحق السوفييت المحاولات التي بذلت من أجل الديمقراطية في المجر وتشيكوسلوفاكيا قال لضيفه :

« يجب توفير كل الضمانات الممكنة التي تكفل عدم تدخل أي قوى خارجية في الشؤون الداخلية للأقطار الاشتراكية » (١٥) .

ان النهج السوفيتي الجديد كان له أثر كبير في أوروبا الشرقية ، ونال من قوة المحافظين بدءا برومانيا والمانيا الغربية وانتهاء بتشيكوسلوفاكيا والمجر ، الا ان المحافظين المتشددين في موسكو رفضوا التصديق على السياسات الستالينية الجديدة . وفي يوليو ١٩٨٩ عقدت قمة حلف وارسو في بوخارست ، وفي هذه المناسبة بشد في جورباتشوف الائتلاف المتشدد داخل الكتلة عندما طالب بتحويل الحلف من حلف عسكري سياسي الى حزب سياسي عسكري ، ورفضت الورقة الختامية للاجتماع فكرة وجود نموذج اشتراكي كوني ، وبعد القمة أعلن وزير خارجية المجر جولا هورن Gyula Horn ان الوقت قد حان من أجل ممارسة اشتراكية ملائمة للعصر ومراكية للتغيرات في العالم الحديث . وقد عبر عن موقفه من المنحى الإصلاحي داخل الكتلة قائلا :

« اننا أيضا نسير في هذا الاتجاه وأرى ان ذلك امر شديد الأهمية وان الزمن الذي تدخلت فيه كثير من الدول والأحلاف تحت أي سبب

وباية وسيلة فى الشئون الداخلية لعضو آخر قد قات ، وأن الحقبة التى تؤكد على ما سمي بالنموذج البرجنىفى قد ولت الآن والى الابد « (١٦) .

والخلاصة ان المحاولات التى بذلت فى البدء لبناء تلاحم جديد داخل الكتلة قد تبعها تحرك رادىكالى من جورباتشوف لتبنى منهج متسامح لتحقيق الوحدة داخل الكتلة واقرار حق الاختلاف فى الرأى وتشجيعه عمليا .

لقد ارتبط التعديل فى سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه أوروبا الشرقية تحديدا بالصراعات الداخلية فى موسكو . ولا بد أن نذكر هنا ما حدث أثناء المؤتمر التاسع عشر للحزب فى مارس ١٩٨٨ عندما نشر خطاب نينا أندريفا Nina Andrey Jevo المشهور . وعندما انتقد المحافظون السوفيتون ما اعتقدوا أنه سياسة التنازلات غير المبررة للغرب . لقد كانت هناك علاقة مباشرة بين التصميم المتبادل على الديمقراطية الداخلية وعدم التورط فى مغامرات خارجية (وهو ما ينظر اليه عادة على أنه دفاع عن الغزاة « البروليتاريين » كما فى حالة غزو المجر وتشيكوسلوفاكيا) . فقد وجهت أندريفا الأستاذ المحاضر من ليننجراد اتهاماتها للبروسترويكما وهو ما أثار سخط وحنق الائتلافات الصاعدة من القوميين الستالينيين والقوميين الروس كما عنفت بشدة الجورباتشوفيين بسبب اعلانهم من شأن ما رآته مسارا خطرا جدا فى العلاقات الدولية فقالت :

« لقد أصابتنى الحيرة فى الفترة الأخيرة تجاه المفاجأة التى ألقت بها احدى الطالبات بأن الصراع الطبقي من المفترض أنه مجرد مصطلح مثله مثل الدور القيادى « للبروليتاريا » وكان الأمر سيهون لو أنها الوحيدة التى ادعت ذلك فقد اندلع جدال عنيف حيث أكد أحد الاكاديميين المحترمين بأن العلاقات الحالية بين الدول التى تنتمى لنظامين اجتماعيين اقتصاديين تفتقر بوضوح لآى محتوى طبقي ، واعتقد أن الاكاديمى لم يهتم بشرح لم هى كذلك ؟ — رغم أنه ظل لعقود طويلة يكتب العكس — وقد قال تحديدا ان التعايش السلمى ليس الا شكلا من اشكال الصراع الطبقي الذى يحدث على المسرح الدولى . والآن يبدو أن الفيلسوف قد نبذ وجهة النظر هذه — ولكن لا عليك فكل الناس معرضة لأن تغير رأيها ولكن يبدو لى أنه ممن الواجب على هذا الفيلسوف على الأقل أن يشرح لهؤلاء الذين درسوا وما زالوا يدرسون كنبه : ماذا يجرى اليوم ؟ هل طبقة العمال الدوائية لم تعد تعارض

الراسمالية العالمية بوضعها الحال وبما لديها من أدوات سياسية ؟ « (١٧) •

والحقيقة أن أندريفا لم تكن الوحيدة التي رثت نهاية الحقبة
الأيديولوجية والتوحد والتعصب والنظامية العمياء ، بل أن بعض الزملاء
العاملين في مكتب جورباتشوف السياسى — خاصة خصمه القديم
يوجور ليغاتشيف Yegor Ligachev — بدأ لهم أن التفكير الجديد فى
السياسة الخارجية هو « اذعان » للضغط الغربى .

ولم يذعن جورباتشوف لتحذيرات ناقيديه واستمر فى الدفع لاجراء
مزيد من التغييرات فى بنية الكتلة ، بهدف مساعدة الاصلاحيين داخل
الأحزاب الشيوعية الحاكمة لى قولى السلطة والتخلص من المأجورين
الستالينيين ، وبنى جورباتشوف حساباته الاستراتيجية على ايمان عميق
بأن الزعماء التعديليين فى أوربا الشرقية سوف يصلون للسلطة وسوف
يتبنون رؤيته السياسية عن الاشتراكية التى تحترم القانون وحرية
الأفراد ٠٠ وأصر وزير الخارجية ادوارد شيفرنادزه فى خطابه الذى
القاءه فى مجلس النواب فى ٢٣ أكتوبر أن « التغييرات التاريخية الكيفية
التي تجرى فى أوربا الشرقية تتطلب انفصالا تاما عن الوصفات
القديمة الجاهزة :

« أن قوى جديدة بديلة تدخل الساحة السياسية فى بعض هذه
البلدان » (١٨) •

وأصبح واضحا — كما قال المتحدث السوفيتى الرسمى جينادى
جيراسيموف Gennady Gerasimov — أن العقيدة البرجنيفية قد تم
استبدالها بحق كل قطر فى أن يكون له « طريق خاص » (١٩) ،
ومن ثم فإن البعض قال أن ذلك يعد ايدانا بميلاد « عقيدة سينترا »
« Sinatra Doctrinel » . وهو الاسم الذى أطلق على قرار الاتحاد
السوفيتى بالسماح لكل دولة شرق أوربية بأن تقوم بما يناسبها من
اصلاحات •

وساهم التخزين فى الموقف السوفيتى فى الاسراع باجراء تغييرات فى
النظام السياسى والاقتصادى وتشجيع الاصلاحات فى بلدان حان
وارسو واحياء الاتجاهات التعديلية التى طال قمعها داخل الأحلاف
الحاكمة فى تلك البلدان ، كما ساهم فى جعل الحركات الاجتماعية فى
القاعدة حركات راديكالية وهو ما كان واضحا تماما فى بولندا والمجر ،
وهما البلدان اللذان تقدما الى أبعد مدى فى تجريب السياسات

الليبرالية • ان ما بادر به جورباتشوف من استراتيجيات جديدة شجعت فيما بين عامى ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ العصب الليبرالية داخل الأحزاب الحاكمة على أن يكون لها الغلبة فتبادر باصلاحات اقتصادية سريعة وتجعل النظام السياسى منفتحاً وتسمح بالمزيد من الفعالية الاجتماعية ، بما فى ذلك تكوين جمعيات وجماعات مستقلة . ان الأرض التى ستولد عليها الاستراتيجية الجديدة المختلفة راديكاليا عن رفض برجنتف العنيد لآى تحررية فى الكتلة السوفيتية هى بولندا .

صعود تضامن وسقوط الشيوعية البولندية :

ان الخروج — بدون عنف — عن النظام السلطوى الذى بنى على اساس الديكتاتورية الايديولوجية للحزب الشيوعى كان ممكناً فى بولندا نظراً لان البعض داخل الحلف الحاكم وكذلك المعارضة أدركوا مدى الحاجة الى الوصول لتسوية ما ، وادى نضج مثل هذا الاتجاه خاصة بين هؤلاء الذين غادروا البلد دون أى تفسير وظلوا بعيداً عن وطنهم لعقود طويلة وأدركوا مدى تأزم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الى ضرورة الوصول بالمجتمع الى مشروع محكم والا سيزداد الموقف سوءاً . ورغم أن نظام ياروزلسكى حاول منذ امد أن يكتسب شرعية قومية ، فقد اعتبرته شرائح عريضة فى المجتمع حكماً عسكرياً • وفى عام ١٩٨٨ وكاشارة تنم عن الرغبة فى المصالحة والنية الحسنة ، فان ياروزلسكى عين ماتزسلو راكوفسكى الصحفى والسياسى المتمرد رئيساً للوزراء • وفى عام ١٩٨٩ خفف ياروزلسكى من سطوته كزعيم للحزب وأكد أن جورباتشوفية راكوفسكى تسمو فوق أى شك وأنه سيكون خليفته . الا ان الوقت كان متأخراً جداً على اجراء مثل هذه الاصلاحات فى بولندا .

وأدت موجتان من الاضطراب فى أبريل واغسطس ١٩٨٨ الى اجبار ياروزلسكى على ادراك صعوبة احتفاظه بالمحكم رغمًا عن المجتمع ، وعجز النظام عن قمع الاضطراب الاجتماعى المتزايد دون الاستعانة بأداة جديدة للقمع رغم أن الجورباتشوفيين حرصوا على اجتناب العنف ، فجرب الحل العسكرى فى أوائل الثمانينيات الا أنه فشل فشلاً ذريعاً • وقوبلت كل محاولات النظام لاستقطاب المفكرين البارزين داخل بنية السلطة للتخلص من خطر احياء حركة تضامن بالرفض التام .

وبدا أن الدخول فى حوار مع ممثلى حركة تضامن والاعتراف بضرورة مشاركتهم فى السلطة فى أوقات الازمات الاجتماعية الدراماتيكية

والأزمات الاقتصادية هو البديل الوحيد للمد في عمر الهيولى الحاكم ،
الا أن التوصل لتسوية مع هؤلاء الذين اعتبرتهم السلطة أعداء للأبد
اعتبره المتشددون الشيوعيون « اذعانا » ، وقاوم الدجماتيون من
قيادات الحزب مسألة شرعية الاتحاد المستقل الجديد مقاومة عنيفة
وكان ذلك فى يناير ١٩٨٩ ، مما جعل ياروزاسكى وثلاثة من مستشاريه
المقربين يهددون بتقديم استقالتهم اذا رفض الحزب قبول الحوار مع
تضامن (٢٠) .

وفى نهاية الأمر اعترف كلا الجانبين — الحكومة وتضامن بأن
الاجتماع حول المائد المستديرة والتفاوض هو البديل الوحيد للخروج
بالأمة من تلك الأزمة .

وبدأت المحادثات فى فبراير من عام ١٩٨٩ وأسفرت عن اتفاقية
سياسية وقعت فى الخامس من أبريل حيث اعتبرت كسل من منظمة
تضامن وكذلك تضامن فلاحى القرى The Farmer's Rural Solidarity
ولجنة الطلاب المستقلة Independent Student's Association
وعناصر أخرى من المجتمع المدنى البولندى منظمات شرعية ، وحدد الاتفاق
اطارا مؤسسيا للحكومة يضمن أن يكون لرئيس الدولة سلطات محدودة ،
كما نص الاتفاق على انتخاب مجلس للشيوخ انتخابا حرا وكذلك انتخاب
هيئة تشريعية (Sejm) يكون لها الحق فى الغاء نيتو مجلس
الشيوخ ضد القوانين التى تشرعها الهيئة بثلثى عدد الأصوات ، وحصل
الائتلاف الشيوعى (حزب العمال البولندى المتحد وأحلافه) فى الجولة
الأولى من الانتخابات على ٦٥٪ على الأقل من مقاعد الهيئة التشريعية
وظل الشيوعيون قابضين على وزارتى الدفاع والشئون الداخلية ،
وحصلت المعارضة على حق اصدار صحف ناطقة باسمها كما تم الحد
من البرامج الاذاعية والتلفزيونية التى توجهها الحكومة .

وقد دخلت بولندا — اذا ما قورنت ببلدان أخرى فى أوربا
الشرقية — مرحلة جديدة من تاريخها وخرج المناضلون السياسيون
المضطهدون من مخابئهم وتهللوا للمسودة للقومية . وفيما يتعلق
بالاصلاحات الاقتصادية فقد نهض الاتفاق بأعباء الانتقال الى اقتصاد
السوق دون تقديم تنويه واضح للاستراتيجيات التى ستتبع . واستمر
الصراع بين الحكومة والنقابات المستقلة حول المؤشرات المبدئية للأجور
فى الشهور التى تلت هذه الاتفاقية .

وامتدح ليخ فاونسا Lech Walesa رئيس منظمة تضامن
الانفغائية على انها بداية الطريق الى بولندا حرة وديمقراطية ، وأصر

على أن التسوية هي الحل الوحيد لضمان انتقال الأمة الى النظام الديمقراطي دون عنف :

« ان ممثلينا في مجلس الشيوخ والهيئة التشريعية يمكن أن يكونوا قاعدة تقف منها الى الحرية والاستقلال » (٢١) .

وفي الجولة الأولى من الانتخابات في يونيو ١٩٨٩ ، دعم البولنديون بقوة مرشحي تضامن ورفضوا حتى مجرد الالتزام بموقف الحياد من فوز المرشحين الشيوعيين . ان الانتخابات باعتبارها أول انتخابات حرة في تاريخ الكتلة الشرقية ، جاءت بأول هزيمة تاريخية للشيوعيين البولنديين وأصبحت تضامن قوة سياسية ضاربة وكان الموقف في بولندا الأول من نوعه في تاريخ الشيوعية فهناك برلمان حصلت فيه المعارضة اللاشيوعية على ٩٩ مقعدا من مائة في المجلس التشريعي ودبت حركة سياسية نشطة على نحو متزايد ضمت تضامن والشيوعيين كما ضمت الأحلاف السابقة على الحزب الشيوعي والتي عادت الحياة فجأة وناضلت المعارضة لاقرار استقلاليتها وكف الجميع عن تقديم العون الآلى للشيوعيين . وبناء على هذه الترتيبات البرلمانية ضمنت تضامن هيمنتها كعضو له شرعية كاملة وهو ما كان أمرا مستحيلا منذ عدة سنوات .

وبسبب الأحداث التي اندلعت تدريجيا في أوروبا الشرقية أثناء اجتياح ١٩٨٩ استمر تقهقر وتراجع الشيوعيين البولنديين ، وكان جوهر التسوية هو الوعي بأن الشيوعية البولندية تلقى حتفها السياسي ولم تعد قادرة على الاحتفاظ بأي دعم اجتماعي جاد .

وفي أغسطس ١٩٨٩ أحرزت بولندا خطوة جديدة عندما قرر ياروزلسكى الذي أعيد انتخابه كرئيس للدولة بدعم من تضامن ان يعين تادوتز مازوليسكى المفكر الكاثوليكي البارز والمستشار الأول لتضامن رئيسا جديدا للوزراء ، ومن المعروف أن هذا القرار قد سبقته محادثة تليفونية من ميخائيل جورباتشوف للزعيم الشيوعي ماتزلسو راكوفسكى عبر فيها عن استعداد موسكو (وقل رغبتها) لقبول حكومة تضامن الحالية مع اقلية شيوعية (٢٢) .

ولم يكن أمام الشيوعيين خيار آخر غير قبول هذه الصفقة ، والا سيكون هناك عودة للآزمات السابقة مع مزيد من الغضب الاجتماعي، والاضرابات وانسداد العنف في الشوارع . ويرى الشيوعيون أن الحكومة الائتلافية حيث كان ممثلو تضامن مسئولين عن التخطيط الاقتصادي والشئون الاجتماعية كان مكسبا سياسيا ، حيث ألقوا بعبء

العلاج والشفاء الاقتصادي ، والقرارات الخاصة بالاصلاحات الجريئة على كاهل تضامن بينما ظلوا هم صمامات للسيطرة على المجتمع من خلال وزارتي الدفاع والداخلية وأصبح تادوتز مازوليسكى في ١٢ سبتمبر أول رئيس وزراء غير شيوعي لبلد من بلدان حلف وارسو .

لقد امتدت الثورة البولندية لمدة عشرة اعوام طوال من النضالات البطولية ، والأحلام الرومانسية والقمع الفظ والبزوغ الفذ لمجتمع مبدع وثاب . ومنذ عام مضى لم يجرؤ أى مراقب على الإشارة الى سرعة وعمق التغيرات التي كانت على وشك الحدوث في هذا البلد حتى اجتاحت السلطة بعد مفاوضات مضمّنية مع هؤلاء الذين اسماهم ياروزلسكى بأعداء الشعب واعتقلهم بعد اصداره للقانون العسكري، وأصبح أعداء الشعب فيما بعد المهينين على اقتصاد البلد وأخذوا يستعدون للجولة القادمة من الصراع لاحراز الانتصار التام على الصعيد السياسي . ان التسوية البولندية بدت محدودة ومقبولة بل وعادية اذا ما قورنت بما حدث في الشهور التالية في بلدان أخرى بالكتلة الشرقية الا أنها كانت آنذاك أى في خريف ١٩٨٩ تعد — من وجهة نظر السلطة — تغييرا ثوريا . ولابد ان نذكر ان اللينينية كعقيدة رفضت اقتسام السلطة ورات ان الدور القيادي للحزب الشيوعي أى احتكاره للسلطة مبدأ مقدس . ان ما حدث في بولندا نتج عن ادراك تام وغير مسبوق من قبل الشيوعيين بأنهم خسروا معركتهم مع المجتمع ، وفيما بعد ستتعالى بعض الأصوات بالنقد لموافقة تضامن على تولي رئيس شيوعي حكم بولندا وسماحهم للشيوعيين باحتلال مواقع حساسة في الحكومة ولكن هذه الادانة لتضامن ، لم تأخذ في اعتبارها تعقد الموقف البولندي والدولي في صيف ١٩٨٩ حيث كان السوفييتيون اول من أعاد النظر في التزامهم تجاه وجود جمهورية المانيا الديمقراطية ، بينما كان الشيوعيون البولنديون على أتم الاستعداد لخوض صراع حياة أو موت للاحتفاظ بمواقعهم في الجيش والشرطة . وقد اشار تومشى كارتون آش في كتاباته الى ان بلدان مثل بولندا والمجر عانت من مصاعب خاصة بالانتقال السلمي وتنبع هذه المصاعب من ضرورة قبول الحكام بالهزيمة السياسية .

« ان التكهن أصبح أصعب من أى وقت مضى ، وانشفل أفضل . والمع الناس في كلا الجانبين في بولندا بالخوض في مغامرة عظيمة وخطرة . » (أتعلم) « ان واحداً من أكثر زعماء الحزب البولندي تألقا قال لواحد من أكثر زعماء المعارضة البولندية ايداعا أثناء فترة الراحة فيما بين جولات المائدة المستديرة Roundtable بأن « كل الكتب وصفت لنا مسدى

**صعوبة الحصول على السلطة ولكنها لم تصف لنا مدى صعوبة التخلي
عن السلطة « (٢٣) » .**

ان التخلي عن السلطة لا يمكن ان ينفصل عن الازمات المعنوية
والأيديولوجية للأحلاف الشيوعية حيث اصطدم الشيوعيون البولنديون
بالفشل التاريخي للنموذج السياسي والاجتماعي الذي فرضوه على
المجتمع . ان اللينينيين خسروا اللعبة ، وحاول الاصلحيون
ان ينقذوا ما يمكن انقاذه من التراث اليساري . وفي يناير
١٩٩٠ وفي المؤتمر الذي عقده حزب العمال البولندي المتحد قرر
الأعضاء استبدال هذا الاسم بحزب الديمقراطية الاجتماعية
Party of Social Democracy وتولى قيادته زعيم جديد هو الكسندر
كوفاسنسكى Alexander Kwasneski ، وصعد نجم إحدى العصب داخل
الحزب الجديد تحمل اسم الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي
Social Democratic Union بزعامة شيوعي أصلاحي وعضو سابق
في المكتب السياسي وزعيم حزب جدانسك Gdansk . وهو تادوتز فيترباخ
Tadeusz Fiszbach . ان فهم سقوط الشيوعية في بولندا يتطلب مقارنة
عضوية حزب العمال المتحد في ١٩٨٦ عندما بلغت نحو ٢ مليون عضو
بعضويتها التي لم تتعد ٦٧٠٠٠ (٢٤) في مارس ١٩٩٠ .

واعترف الحزب الذي أعيد تشكيله بمسئوليته عن الجرائم التي
ارتكبت خلال سنوات الحكم الستاليني ، وعن مأساة بولندا الاقتصادية،
الا ان انتقاد الذات لم يكن كافيا لاستعادة الحزب لهيبته .

ويمكن أن نقول ان نهاية الشيوعية البولندية حدثت بسبب
افتقارها لرصيد أخلاقي وسياسي محسوس ، اما هؤلاء الذين استمروا
في منح الوعود للقيام بتجارب ذات رؤى مفتعلة عن الاشتراكية ، فان
الغالبية العظمى من البولنديين ردت عليهم بأن الاشتراكية في نظرهم
هي الخط من شأن الفرد ، واهدار البيئة ، واضطهاد الفكر الحر
والسلب المعنوي لقوة المجتمع وعطاءاته . ولم يكن في بولندا أية رغبة
شعبية لاعادة بناء الحزب الشيوعي ، ولم يرغب البولنديون في عودة
الاشتراكية بل أرادوا التخلص منها بلا رجعة . ولعب وعي الجماهير
بعد استنفاد الحكام السلطويين لكل أسلحة الحفاظ على النظام واستمراره
بما في ذلك اصدارهم للقانون العسكري ، دورا مؤثرا في انهيار
الشيوعية في بولندا .

وفي اللحظة التي قدم فيها الشيوعيون البولنديون تنازلاتهم وقبلوا
الحوار مع المجتمع حتى لو كان ذلك متحققا ذلك بهدف أنه لا لخدمة

أنفسهم وبطريقة ميكافيلية ، حطموا الدعامة الأساسية لديكتاتوريتهم
وهي احساس الجماهير بأن النظام لا يمكن تغييره ، وأن أى شكل من
أشكال المعارضة سوف يسفر آليا عن تهميش واضطهاد المنشقين .

ان ادانة القانون العسكرى فى بولندا هى بداية التفكك التام
للشيوعية فى أوروبا الشرقية ، وبينما أدرك الشيوعيون ضرورة
استخدام العنف السافر ضد عشرة ملايين من الجماهير
التي نظمت نفسها فى اتحاد مستقل ، اكتشفوا أن طبيعة سلطتهم
لن تفيدها اقامة حكومة من الطبقة العاملة . لقد تم فضح النظام
باعتباره ديكتاتورية بيروقراطية ومعادية للبروليتاريا . وبسبب توالى
الازمات فى الكرملين والموقف السوفينى السلبى تجاه الأحداث التي
تجرى فى أوروبا الشرقية لم يعد هناك أى أمل فى التدخل الخارجى الذى
يمكن على أثره انقاذ النظام . وتعلق ياروزليسكى ومعاونوه بأهداب
السلطة عندما عبروا عن شجبهم للزيف الأيديولوجى واعترفوا حينئذ بأن
الأيديولوجية لم تكن سوى وهم وهرطقة ، وأن التشدد بالألفاظ استخدم
لاضفاء الشرعية على السيطرة التي تفرضها اقلية صغيرة متعصبة على
المجتمع كله . ان العقد الطويل الذى بدأ بتدشين منظمة تضامن فى أغسطس
١٩٨٠ توج بانهيال الاحتكار الشيوعى للسلطة فى بولندا فى صيف
١٩٨٩ . وتطلبت استراتيجية « الارتقاء الجديد » تقويضا بطيئا
ومستمرًا لسلطة الحكومة وصعود القوى المضادة فى شكل جماعات
وحركات لا رسمية تكاثرت فى الثمانينيات رغم اجراءات النظام
القمعية .

ان توتاليتارية بولندا الفاشلة أصبحت نظاما سلطويا زائلا ، رغم
ان حكامه راوا أن الأزمة لن تستمر للأبد . وفى نفس الوقت تطلبت
استراتيجية المائدة المستديرة أن يكون لدى كل من دعاة الوسطية داخل
المعارضة ، والمصلحين داخل الحكومة الرغبة لقبول الصفقة التي وصفها
آدم مئشنك - المؤرخ المنشق - أفضل وصف حين قال : « رئيسك ،
ورئيس وزرائنا » . ومنذ هذه اللحظة فصاعدا كان الانتقال لنظام ما بعد
الشيوعية ممكنا رغم أن المواقع الرئيسية فى الحكومة ما زالت تحت
سيطرة هؤلاء الذى أقروا القانون العسكرى . ويمكن أن نلاحظ أن
الانظمة العسكرية التي فرضت فى ديسمبر ١٩٨١ قد حققت من شأن
الحزب الشيوعى كمركز لصنع القرار ونقلت السلطة الى زمرة
تكنوقراطية لا تلتزم علنيا بالأيديولوجية . وبالطبع استمر الحزب فى الوجود
وفى أدائه لوظائفه الشعائرية الا أنه فقد قدرته على الاحتفاظ بهيمته
على المجتمع لأمد طويل . وفسر ميهالى فاجيدا الفيلسوف الاجتماعى

المجرى انهيار الشيوعية على أنه أقول الأسطورة القائلة بمعصومية النظام من الخطأ واحتكاره العلم :

« ان قوة النظام ارتكزت على تفرده بالعلم ورصده لأي شكل من أشكال العصيان ليقابل بالمثل وعندما أدرك النظام عجزه عن تطبيق هذا المبدأ ، بدأ يستجيب بدرجة ضئيلة لمطالب المجتمع ، ومن ثم انتهى سلطانه السحري وانهار بالفعل - رغم ما تظاهر به من قوة - في عام ١٩٨٩ . ان القانون العسكري في بولندا كان حقيقة نوعا من التسوية غير المعترف بها . وكان الحل « المعتاد » لأي تمرد هو التدخل السوفيتي والحل الأمثل هو تدخل جيوش الاحلاف في حلف وارسو ، الا أن الاتحاد السوفيتي أدرك عجزه عن المخاطرة بالخوض في حرب أهلية في وسط أوروبا فقبل القانون العسكري كحل رغم ادراكه التام بأن الجيش البولندي سوف يقمع المجتمع بالعنف وهو ما كانت السلطة تعتبره البرهان على قوة نظامها . ومن ثم كان القانون المدني - من وجهة نظر النظام - فشلا وضربة أصابته في مقتل » (٢٥) .

ولتوضيح هذه النقطة قال فاجيدا عن ٣١ ديسمبر من عام ١٩٨١ انه اليوم الذي أدانت فيه المعارضة الديمقراطية المجرية القانون العسكري وأصدرت جريدتها بتسلو Bszelo :

« في ذلك اليوم أصبح جليا أن النظام كان عرضة للانهيار ولم يعد مخلداً . وبعد ٣١ ديسمبر ١٩٨١ ، لم يكن هناك سبيل آخر أمام النظام سوى اتباع سياسة تكون مقبولة على الأقل من جانب العقلية الأوروبية - لذا فإن النظام تغير ولم يعد كما كان » (٢٦) .

ان الانفتاح البولندي في ١٩٨٨ و ١٩٨٩ كان له اثر جوهري على المنطقة كلها ، ان نهضت الشعوب في المجر ، فبدأ النظام في التراخي في السنوات الأخيرة ، وفي تشيكوسلوفاكيا حيث بدأ الناس ينظمون احتجاجات شعبية ضد القمع الذي مارسه السلطة على المناضلين المعارضين . ولم تفقد التغيرات التي وقعت في المجر معناها الثوري بل أثرت على رومانيا / شوشيسكو الذي حاول يائسا أن يقنع زعماء حلف وارسو الآخرين بمنع تشكيل حكومة بقيادة تضامن بأية وسيلة حتى لو كانت التدخل العسكري ، ويبدو ذلك مثيرا للسخرية إذ أن الرجل الذي اعترض في أغسطس عام ١٩٦٨ على سحق حركة براغ الاصلاحية هو نفسه الذي يطالب عام ١٩٨٩ بقمع فوري لتجربة بولندا نحو الديمقراطية ، ولكن محاولات شوشيسكو المسعورة للحفاظ على الستالينية الجديدة لم تقنع أي أحد . ان أي

تحرك تجاه الاصلاحات فى اوربا الشرقية قد تطلب شروطا خاصة ، منها كف السوفيتيين عن تدخلهم المباشر ومن ثم أصبحت هذه الاصلاحات حتمية ولا سبيل لمنعها . وبزغت تضامن فى أوائل الثمانينيات كحركة قومية حقيقية أخذت على عاتقها بناء مجتمع متعدد الاحزاب واطلقت العنان لاصلاحات دراماتيكية بأمل حل أزمة بولندا الاقتصادية على وجه السرعة .

ومنذ اللحظة التى تشكلت فيها حكومة بقيادة تضامن أصبح واضحا أن الحركة لن تستطيع الاستمرار فى انكار طبيعتها السياسية وأصبح حتميا عليها أن تبني نفسها كحزب سياسى منظم وربما تبني أحزابا سياسية متعددة يمكنها أن تظهر على الساحة السياسية بعد الانهيار الحتمى للشيوعية لأسباب ايدىولوجية . ان منظمة تضامن قد تصرف كجسد واحد فى تحديها للعدو المشترك المتمثل فى دولة الحزب الشيوعى بكل أجهزتها القمعية العديدة . والآن وبعد أن أدركت هذه الدولة فشلها واضطلعت تضامن بعبء الشفاء الاجتماعى والاقتصادى للدولة ، فان التمايزات والعصبوية التى كانت بين مجموعات عديدة داخل الحركة والتى طال تجنبها لمواجهة العدو المشترك طفت على السطح ، وولى زمن التأخى وتخطى الخلافات .

ان المقاومة البطولية المضادة للشيوعية نجحت من خلال اعادة بناء رؤى سياسية متسقة ، ومتنوعة - لقد أصبح ليخ فاونسا الذى لم يكن معروفا فى البداية وظل بعيدا عن مجريات الاحداث الخاصة بالممارسات السياسية الجديدة العلامة البارزة لحركة تضامن . ومنذ أن شارك العديد من المستشارين السابقين والمناضلين البارزين بتضامن فى الأعمال المدنية وفى الحكومة عرفوا بالطبقة السياسية الجديدة .

اختراق المجر لحصون العدو :

وكما ذكرنا آنفا ان الاتفاقية الكادارية ارتكزت على الزام المعارضة السياسية بموقف الحياد والحفاظ على النظام القائم مع مزيد من المرونة وقبول النقد وهو ما يعد أفضل ما تم من صفقات فى ظل الظروف القائمة - وتعتبر الكادارية أزمة سياسية وستظل كذلك حتى تنتعش الأوضاع الاقتصادية المتردية أو تقترب على الأقل من المستوى المعيشى فى الدول الشيوعية الأخرى .

وفى عام ١٩٦٨ بادرت المجر بتجربة اقتصادية جريئة فى مجال التجارة اللامركزية ووضعت حدودا على الدور الاجبارى للتخطيط

المركزي وازدادت استقلالية المشاريع ويكونت طبقة إدارية متحررة من الأوهام الأيديولوجية ، وتم تشجيع المبادرات الخاصة . وإذا اتبع الاصلاحيون أسلوبا ثابتا ، فإن قوى السوق ستحرر، وربما وإنتها الظروف لاستقطاب الاستثمار الغربي . إلا أن العناصر الجامدة في القيادة المجرية الشيوعية والنمى تدعمها موسكو هيمنت في آخر الأمر على الاصلاحيين وتم التخلي عن الآليات الاقتصادية الجديدة . وكان جانوس كادار نفسه - أحد الحزبيين ذوي الخيال السياسي المحدود - معارضا للتورط في اصلاحات يمكن أن تقوض أسس النظام الذي اعتبره الأفضل من وجهة نظر طبقة العمال . ورأى اللينينيون الذين أرقهم شبح البطالة بأن الاصلاحات السياسية سوف تخلق توترات اقتصادية متفجرة ، وفضلوا أن يبقى النظام على ما هو عليه واتهموا الليبراليين بعدم المسؤولية .

وهناك شيء واحد لا يسد من توضيحه وهو : أن الدوجماتيين المجرين يختلفون في الطراز عن نظرائهم الرومانيين والالمانيين الشرقيين والتشييكوسلوفاكيين ، لأنهم رأوا أن أساس أية حكومة هو اجماع الرأى المبني على تسوية تكتيكية بين الحكام والمحكومين . ولم يكن كادار أو رئيس وزرائه جينوفوك Jenö Fock أو الأيديولوجى الرئيسى جورجى اتزيل Gyorgy Aczel يؤمنون بالاشتراكية على طريقة شاوشيسكو . . أو هونكر أو هوساك ، لأنها طريقة جامدة متصلبة إلا أنهم لم يبدوا فى الوقت ذاته أى استعداد لتبنى تخاصم راديكالى مع القواعد التقليدية للعبة ، ونظروا للحزب الشيوعى باعتباره مركزا للحياة السياسية وتجسيدا للفهم السامى للمعقولة التاريخية ، ومن ثم كان طبيعيا أن يحقروا من شأن المحاولات التى قام بها الليبراليون لجعل النظام انفتاحيا ولتشجيع تواجد قوى تعددية فى الحياة الاقتصادية . وقد استبعد الزعيمان الحزبيان رتزوناييرز وبيللا بيتزكو Bela Biskku من المكتب السياسى فى أوائل السبعينيات لما عرف عنهما من تبنى وجهات نظر اصلاحية .

ان الاستعانة بالعقائد اللينينية فى المجال الاقتصادى لا يعنى على أى حال اللجوء الى الارهاب السياسى . وقد ظلت المجر حتى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات أقل بلدان حلف وارسو ممارسة للقمع ، وارتكزت هذه المرونة أساسا على الارتباط الهش بالمصالح الاجتماعية المتضاربة وهو ما ظهر بقوة فى الثمانينيات وكان التردى الاقتصادى ، والسخط الواسع الانتشار بسبب عجز الحكومة وفشلها قد ترك البلد فى حالة من الاضطراب العام . لقد فقد كادار الزعيم الذى وضع ثقته

فى نظام سياسى حكم المجر فى ظروف سيئة لولا أنه استطاع أن يجعل منها أكثر ثكنات المعسكر الشيوعى حيوية وهىبة بمجرد أن ثبتت ادانته واعتبره الشعب - وعلى نطاق واسع - نموذجا للفساد والبيروقراطية الشاذة بل وعقبة رئيسية فى طريق تجديد الحزب رغم ما حققه للبلد من تقدم .

وساءت الأحوال السياسية والاجتماعية فى الثمانينيات عندما بدأت مجموعات اجتماعية كبيرة فى استجواب الحكومة عن مدى فعالية سياسات كادار . ولم تعد مناورات الزعيم العجوز تقى بالدين وبمجرد أن أعطى جورباتشوف اشارة ابدء للبرالية الجديدة وشجع البحث عن مزيد من الاصلاحات فى بلدان الكتلة وجد كادار نفسه بعيدا عن الاتجاهات الجديدة فواجه تحديا من المعارضة بل ومن داخل الائتلاف الشيوعى نفسه . ان غرائزه السياسية والتي أثبتت صدقها فى حقبة برجنييف لم تساعد فى عهد جورباتشوف . وبدأ واضحا أن المجر تتحرك سريعا نحو الديمقراطية السياسية ، ولم يكن كادار هو الرجل الذى يسمح لمثل هذه المسيرة بالتقدم . ولأن الرجل هو الذى دبر وأشرف على قمع ما بعد عام ١٩٥٦ ولان الوضع الاقتصادى كان آخذا فى التدهور بدأ الشعب يسترجع دوره فى قمع ثورة بودابست .

وفى وثيقة سياسية نشرتها المعارضة الديمقراطية عام ١٩٨٧ بعنوان رمزى هو « العقد الاجتماعى The Social Contract » ، تم شرح فشل الكادارية فى ضوء الأفول الاقتصادى للنظام السياسى . ورفضت القيادة القديمة ادراك مدى قوة الأزمة الاجتماعية التى هزت بالفعل كيان النظام المجرى . ورأى كتاب هذا البرنامج السياسى الذى نشر فى جريدة بئسلو Beszelo أن ارتقاء المجتمع فى الثلاثين عاما الأخيرة والذى تبعه قمع للاجتياح الثورى لعام ١٩٥٦ جعل الاستمرار فى اجراء تسوية جوهريتها انصاف الحقائق والأخيلة الذاتية شيئا مستحيلا ؛ ان اجماع الرأى الذى جسده الكادارية كف عن ضخ الثقة والدعم بين الشعب . وتقول الوثيقة ان :

« جانوس كادار كان رمزا للوسطية الذهبية فى المجر ، وهو فى تضاده مع راكوسى لم يحاول أن يفرض على الشعب برامج مبالغا فيها من اجل الاصلاح الاجتماعى ولم يرغب - على عكس امرى ناجى - فى قبول فرض قيود على حكم الحزب الشيوعى . وباحكام قبضته على السلطة واحتكارها تجنّب ناجى أى انتهاكات لمصالحه قد تقوم بها أى جماعة قادرة على التعبير عن استيائها ، وقد عوض كل فرد عن خسارته أينما كان ذلك ممكنا . ان البلد .. الذى استحسن سياسة

التعزية التي انتهجها كادار كان متشوقا لحياة آمنة وسائلة . وقبلت الدولة أن يحكم الحزب الحاكم باسم الشعب وأن تحكم الأجهزة الحزبية باسم جمهور الحزب . وهذا ما يسمى بإجماع الراى « (٢٧) .

لقد قاد كادار البلد الى حقه السياسى والاجتماعى ، وبدأت المعارضة الديمقراطية فى المطالبة بالرحيل الفورى لرجل ارتبط اسمه على نحو لا ينقسم بهذا النظام ، الا أن التخلص السياسى من كادار لم يكن كافيا . وبدلا من تكرار السياسات التى مارسها كادار ومعاونوه . أعاد الحزب بناء علاقات جديدة مع المجتمع .

أن سياسة اجماع الراى الزائف كان لا بد أن تقلع من جذورها من خلال استراتيجية التسوية القومية ، وتحقيق هذه التسوية يتطلب صحة المجتمع الفورية من سباته الطويل ليبدأ فى تنظيم نفسه وكانت حفنة من المبدعين المغامرين تكفى لتحدى هيمنة الحزب الشيوعى كما شاركت شرائح اجتماعية عريضة بما فى ذلك بعض ممن فى داخل الجناح الاصلاحى فى الحزب الذين يقع عليهم ضغط من جانب الأعضاء الآخرين فى النقد الموجه من القاعدة ، مما دفع بهم لاتخاذ مواقف راديكالية فى مقاومتهم للدمج البيروقراطى . وترى المعارضة الديمقراطية أن السلطة لا تدخل حوارا. الا اذا وجدت أن المعارضين ليسوا وحدهم أطراف المفاوضات. لقد كان لزاما على المفكرين أن يتخلوا عن نرجسيتهم لصالح البناء المنظم لبوادر الفعالية المدنية ، وتعد هذه البوادر النواة والعمود الفقرى للمجتمع المدنى الصاعد لأنها ستطالب بانتقال النظام الى الراديكالية وبطرح جدول أعمال بعيد المدى وآخر قصير .

وعلى المدى البعيد فانهم سيستعيدون ارث اكتوبر ١٩٥٦ وذلك بالمطالبة بالتعددية السياسية والديمقراطية ، وحكم الذات فى مواقع العمل ، والحكومة المحلية المستقرة ، وتقرير المصير القومى والتزام الحياد فى السياسة الخارجية . ولأن هذه المطالب قد بدت راديكالية جدا بالنسبة لظروف عام ١٩٨٧ فقد أقدمت المعارضة الديمقراطية على تسوية حددت العلاقة بين بنية السلطة والمجتمع . ورفعت صحيفة بتسلو شعارات المرحلة القادمة الرئيسية بما فيها من نهوض سياسى وهى :

« رقابة دائبة على حكم الحزب ، هيئة قومية لها سيادة ، حكومة تراقب وتحاسب ، حرية الصحافة التى يكفلها القانون ، وقانون لحماية الموظفين ، تمثيل المصالح ، تحرير الجمعيات ، الأمن الاجتماعى وسياسة رخاء اجتماعى منصف ، واخيرا المطلب الذى تم اجماع عليه وهو الحقوق المدنية » (٢٨) .

وفي المرحلة الأولى من الجورباتشوفية لم يعلن الكرملين عن موقفه من الحقائق السياسية الشرق أوروبية ومن ثم أكد « العقد الاجتماعي » مثله في ذلك مثل الارتقاء الجديد لمتشذك على اعتبار أي تحد للدور القيادي للحزب الشيوعي محاولة ستحرز النجاح ، ومن ثم أصبح الهدف هو الحد من ذلك الدور ، ووضعه تحت رقابة شعبية والحصول على ضمانات تشريعية تمنع البيروقراطيات الشيوعية من الاستمرار في بذاءاتها . الا ان الأحداث استمرت في جمع زخمها ، وبعد عدة شهور من نشر هذه الوثيقة المدوية قدمت جماعات مؤثرة داخل الحلف الشيوعي رؤيتها لاعادة تعريف دور الحزب في المجتمع . ان الصراع العصبوي داخل القيادة والصعود الشهابي لأمرى ناجى كرمز لرؤية مجرية للجورباتشوفية عجل بسقوط الكادارية .

لقد أتت الحقبة الكادارية لنهايتها في مايو ١٩٨٨ عندما استبدل مؤتمر الحزب القومي بالسكركتير العام قيادة رباعية مكونة من رتزوناييرز القوة المحركة التي تكمن وراء الاصلاح الاقتصادي الذي تم اجهاضه في أواخر الستينيات وكورولى جروتز الذي أصبح السكركتير العام الجديد المسئول عن المتابعة اليومية للعمل الحزبي وكان عضوا حزبيا لا لون له وعينه كادار خليفة له ، والعضوان الآخران للرباعي كان أحدهما المصلح المتوهج أمرى بوتزجاي والأيدولوجي الجامد جانوس برمز Janos Berecz الذي تبنى فجأة مبدأ التعددية .

وفي البداية أظهر جروتز ميلا نحو فرض هيمنته على الأجهزة الحزبية وحاول أن يضع الموقف تحت سيطرته التامة ، ولكنه لم يستطع أن يفرض هيمنته في الواقع ، ومثلما فعل كادار فقد دعم جروتز القمع المضاد للثورة بعد عام ١٩٥٦ ، كما تسلى السلم الوظيفي كبيروقراطي حزبي مطيع . وقد تحدى جروتز بالتدريج أعضاء الجناح الاصلاحى الراديكالى داخل الحزب الشيوعي المجرى برئاسة روتزناييرز وأمرى بروتزجاي . وانتقد بروتزجاي قيادة الحزب بسبب رفضها إمباطة اللثام من حقيقة ثورة ١٩٥٦ وتحجيرها لناجى وكل ضحايا الارهاب الكادارى ، وأصر على ضرورة وضع الشيوعيين حدا لما يقومون به من ممارسات قمعية اذا أرادوا الاستمرار في المشاركة في النظام السياسى المتعدد الاحزاب . واستمر في الدفاع عن مثل الاشتراكية التي رأى أن الممارسات الستالينية قد شوهتها .

وظل بوتزجاي — مثل جورباتشوف — متمسكا بمعتقداته الماركسية بينما رسم خطا قاطعا للتمييز بين الاشتراكية والتوتاليتارية

الستالينية ، الا أن هذا الاتهام للنظام القائم كان أكثر راديكالية عن كل ما قاله الزعيم السوفيتي من قبل عن التغيرات النظامية : .

« تلك هي أزمة الستالينية . لقد أصبحت ستارا داكنا ، ولا يمكن لهذا النظام أن يعيد تشكيلها لأنها فشلت وأثبتت عدم ملاءمتها للاضطلاع بالتجربة ودعم مشاعر الحرية لدى الشعب . لقد فشل هذا النظام في خلق قوى داخلية محركة من الافراد والمواطنين وقضى على مبدأ التضامن بين افراد شعبه وحطم التعاون بين المنتجين . وتحت هذه الظروف فإن القرار الوحيد الذى يمكن أن نتخذه هو حل هذا النظام الستالينى الشامل والتخلص من أيديولوجيته . ولا اعتقد أن جوهر هذه الأيديولوجية فى الماركسية أو فى الماركسية المحرفة لأنه ليس هناك شيء يمكن أن نقوم به حيال الماركسية » . (٢٩) .

وبعد أقل من عام واحد طرد كاداز نايرز ، الديمقراطى الاجتماعى السابق ، الذى وصف على نطاق واسع بأنه رجل الكياسة وبعد النظر واستبدل به جروتز زعيما للحزب . وفى أكتوبر ١٩٨٩ عقد مؤتمر الحزب الشيوعى المجرى (واسمه الرسمى حزب العمال الاشتراكيين) وتقرر فيه تغيير هذا الاسم الى الحزب الاشتراكى المجرى وشجب الأيديولوجية البلشفية بما فى ذلك الادعاء بدور الحزب القيادى المضمون بشكل ثابت فى المجتمع . ورفضت جماعة منشقة على رأسها جروتز وبروتز قبول هذا التغيير ، وتمسكوا باسم الحزب القديم بينما تولى بوتز جاي ونايرز ورئيس الوزراء ميكوبس نيمث Mikbs Nemeth عن طريقتهم فى اقناع الراى العام بأنهم اخذوا — حقيقة — بمبادئ التعددية الحزبية . (٣٠) .

وفى نفس الوقت نظمت المعارضة نفسها ، وبزغ العديد من الأحزاب الرئيسية فى المجر خلال عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ . ووضع المنبر الديمقراطى Democratic Forum — الجماعة الشعبية المحافظة — فى اعتباره التدهور التراجيدى الذى أصاب الريف المجرى تحت الحكم الشيوعى أولا ، ثم افول القيم الأخلاقية وتجاهل الشيوعيين لمصير الأقليات المجرية فى الخارج ثانيا .

ان الديمقراطيين الأحرار Free Democrats كانوا أساسا منظرين للحزب وقد أشادوا بآليات الاقتصاد الحر والمجتمع الليبرالى ، كما انخرطوا فى المعارضة الديمقراطية فى نهاية السبعينيات والثمانينيات التى نظم زعمائها المفكرون حملة معادية للثقافة الشيوعية خلال عقود السبات الاجتماعى واللامبالاة السياسية تحت حكم الكادارية . ومن بين زعمائهم كان لاسلو راجيك المهندس المعمارى المناضل فى سبيل حرق

الانسان الذى شئق والده فى محاكمة بودابست الصورية فى عام ١٩٤٩ ، وجانوس كسى الذى كتب عددا من المقالات هى الاولى من نوعها عن استراتيجيات المعارضة فى المجتمعات التى على الطراز السوفيتى ، وميكولوس هراتسى الذى ألف العديد من الأعمال كان أشهرها عامل فى مدينة العمال A worker in a Workers' State والسجن الناعم Velvet prison وجاسبر ميكولوس تامس Gaspar Miklos Tamas الفيلسوف الذى ولد فى ترانسلفانيا Transylvania والذى هاجر للمجر فى ١٩٧٨ والتحقيق بالمعارضة ، وقد أصدر هؤلاء جميعا صحيفة مستقلة متواضعة هى بتسلو .

وفى صيف ١٩٨٩ نظمت المعارضة المجرية اجتماعا لاجراء محادثات مع الحكومة التى يسيطر عليها الاصلاحيون من الشيوعيين ، حيث تم الاتفاق على اجراء انتخابات حرة فى ١٩٩٠ . ان الانتقال للنظام المتعدد الاحزاب أصبح أمرا حتميا لابد ان يقبله كلا الجانبين أى أحزاب المعارضة ، والحزب الاشتراكى المهيمن ، الا أن العلاقة بين أحزاب المعارضة لم تكن دائما علاقة منسجمة . وفى الحقيقة لقد عبر الديمقراطيون الأحرار عن استيائهم من ممثلى المنبر الديمقراطى لأنهم أجروا مفاوضات مبكرة ويائسة مع بوتز جاي ومعاونيه دون دعوة المجموعات السياسية الأخرى ، وتم عقد اجتماع فى مونور Monor حيث طرح بوتز جاي وزعماء حركة المنبر الديمقراطى الصاعد الامكانيات المتاحة لاقامة حوار فى المستقبل .

وفى صيف ١٩٨٩ فان الساحة السياسية فى المجر كانت فى حالة من التناحر والتأرجح بين الشيوعيين البرجماتيين الذين التفوا حول كارولى جروتز والاصلاحيين الذين أقروا الحوار وأيديولوجية الديمقراطية الاجتماعية (نايرز وبوتز جاي) والديمقراطيين الأحرار والمنبر الديمقراطى . ان الحزب السياسى المجرى الفريد من نوعه — وهو اتحاد الديمقراطيين الشباب FIDESZ كان التشكيل السياسى الوحيد الذى ظهر للوجود فى ربيع ١٩٨٨ وأقام مؤتمره فى خريف ذلك العام بعد رفض الاستبدادية للوضع القائم ونبذها المتعجرف لأى تسويات مع الجيل الجديد . واثناء مؤتمره الأول حدد اتحاد الديمقراطيين الشباب السن المطلوبة للعضوية ، وأجاز لهؤلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين والخامسة والثلاثين فقط الانضمام للحزب . وأعلن الاتحاد فى برنامجه السياسى عام ١٩٨٨ ضرورة انضمام المجر للكميونة الأوروبية . ولأنه اضطلع على نحو متزايد بدور نشط فى المجتمع المدنى المجرى ، فان اتحاد الديمقراطيين الشباب تحسب لأية مؤامرة تستهدف

حله ، ومن ثم كانت الحركة جزءا من موجة شرق أوروبية صاعدة
تناضل في سبيل الحقوق المدنية وترفض أن تختزل الصراع الى مجرد
صراع سياسى بحت :

« ان اتحاد الديمقراطيين الشبان ينأى بنفسه عن مقولة أن
النوبة المرضية التي انتابت السلطة كافية لخلق الديمقراطية • اننا
لا نعتقد بأن أى تنظيم جديد يرغب في الفوز بالسلطة سوف يضمن
احترام المبادئ الانسانية وحقوق الانسان • ان حماية الديمقراطية ،
واقصى ضمان لها بل وضماتها الوحيد بعيدا عن سيطرة الدولة يتمثل
في مجتمع ذى ثقافة ديمقراطية سياسية ، ونعتقد أن وجود الأحزاب
التي تتنافس من أجل الهيمنة على حياة الأمة ضرورة ولكنها ليست ضمانا
كافيا • لا يجب أن نتمسك بالسلطة ولكن لابد أن يكون لنا هدف من
وراء التنظيم المبشر لأنفسنا بأمل أن يكون المجتمع الذى ولد من جديد
والذى يتكون من كوميونات قادراً على انتخاب حكومته » •
وأعلن الاتحاد ، تأكيداً على التزامه بفكرة البنى الجديدة ، رفضه لأى
شكل من أشكال العنف أو الطرق الديكتاتورية الارهابية :

« لقد وصلنا لنقطة لا بد أن ننظم فيها دفاعاتنا وبسرعة ودون
تغيير موقفنا من الممارسات السياسية للسلطات التي هي عدو للمجتمع •
ونحن نعترف بأن أكثر الأدوات فاعلية ضد السياسات الظالمة التي تخدم
مصالح السلطة هي الطريق الديمقراطي فى التفكير والتنظيم وفى عملنا
من أجل مجتمع قادر على بناء نفسه وخلق سلطته الحاكمة التي
ستقف خلف خطوط دفاعية وهي الاستقلال الخارجى والمعتقدات الأخلاقية
وكذلك التضامن - الذى لا يمكن فصله - مع بعضنا البعض وهو شىء
أصبح فى متناول أيدينا » •
وانعكاسا للفلسفة الأخلاقية لحركات المعارضة البولندية عبر
اتحاد الديمقراطيين الشبان عن اعتقاده بأنه :

« ليس هناك هدف اجتماعى ذو قيمة أعظم من هدف ضمان حياة
سلمية وحرّة ومستقلة للمواطنين » (٣١) •

وإثناء الاحتفال باعادة تأيين امرى ناجى فى بودابست ، برز ممثلو
اتحاد الديمقراطيين الشبان عن كل الرموز السياسية الأخرى بموقفهم
الثابت المعادى للشيوعية ورأى فرنك كوتزج Frenc Kötzig
المتخصص فى علم الاجتماع والذى كان محرراً فى جريدة بتسلو وأصبح
أحد الأعضاء التسعة فى قيادة ائتلاف الديمقراطيين الأحرار أنه لا يجب

اعتبار الحزب مجرد ناد يلتقى فيه المفكرون وقال كوتزج فى أحد حواراته الذى أجرى فى يناير ١٩٨٩ :

« صحيح أن بعض المفكرين المشهورين أعضاء مؤسسون للاتحاد ولكننا قادرون دائماً على استقطاب أناس آخرين ، وعمال مؤهلين وعلى سبيل المثال ... فان عضويتنا بلغت ثلاثة آلاف الا انها اخذت فى التزايد خلال المشهور القليلة الماضية منذ ان بدأنا فى طرح برنامجنا السياسى على الجماهير - ان الديمقراطيين الأحرار هم الممثلون الرئيسيون للمعارضة الديمقراطية التى حظيت باحترام الناس لأنهم وجهوا النقد للنظام القائم . وأريد ان أقول ان الديمقراطيين الأحرار هو حزب للمفكرين الراديكاليين كما انه حزب للجماهير الفاضلة ، وحزب لهؤلاء الذين ياملون حقيقة فى التمتع بانجاز التغييرات الراديكالية التى تبدو بعيدة المنال » (٣٢) .

ويعتقد كوتزج ان قوة المنبر الديمقراطى اخذت فى التزايد بين الطبقة الوسطى العريضة فى المدن الاقليمية ، خاصة بين هؤلاء الذين أنكرت عليهم الدولة ترقياتهم الاجتماعية بسبب رفضهم للالتحاق بالحزب الشيوعى ، الا انهم كانوا بلا شك جزءاً من البناء الاجتماعى .

✽ انهيار جمهورية المانيا الديمقراطية : مرحلة انهيار الشيوعية التشيكوسلوفاكية :

لقد اتخذت الحكومة المجرية فى سقوط ١٩٨٩ خطوة غير مسبقة عندما سمحت للأسياح الألمان الشرقيين بالمرور عبر النمسا Austria وهم فى طريقهم لوطنهم ، ومن ثم نكث النظام المجرى بوعده ونقض معاهدته مع المانيا الشرقية بعدم السماح للمواطنين من جمهورية المانيا الديمقراطية بمغادرة المجر لبلد غربى وبالتالي فتح الطريق لتنزيف ديموجرافى سوف يحطم الاقتصاد الألمانى الشرقى ، ومع تواجد مائة ألف سائح المانى شرقى على أرض المجر اعتبر قرار حكومة نييث بازالة حواجز الاسلاك الشائكة فى نقطة العبور مع النمسا ضربة قاضية لسياسة النظام الألمانى الشرقى فى انكاره حق شعبه فى الهجرة .

لقد أصبح الموقف أكثر تعقيداً عندما تجمهر معظم السائحين من الشبان الألمان الشرقيين أمام سفارة المانيا الغربية فى براغ ، ولأن تشيكوسلوفاكيا كانت واحدة من البلدان القليلة التى يمكن للألمان الشرقيين عبور حدودها دون جواز سفر ، أصبحت براغ مدينة تستقطب الشباب الألمانى الشرقى الساحطين : وأبدى نظام جاكسى - على

عكس المجريين — تعاطفا مع الحكومة الألمانية الشرقية وهي تواجهه هذا المأزق ولكن لم يكن بيده عمل شيء لوقف هذه الموجة العاتية من الجناهير الألمان الشرقيين الذين اندفعوا أفواجا لسفارة ألمانيا الغربية في براغ ، ونظمت مواعيد خاصة للقطارات التي ستقل الألمان الشرقيين عبر ألمانيا الديمقراطية لألمانيا الفيدرالية التي واجهت قيضا غير متوقع من النازحين الجدد الذين يعدون — وفقا للدستور الألماني الغربي. مواطنين ألمانا لهم حقوق وامتيازات المواطن الألماني الغربي .

ولسخرية الأقدار، فإن هذه الأزمة تزامنت مع الاستعدادات التي اتخذها نظام هونكر للاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة عشرة لقيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فكان واضحا أن النظام يمر بأزمة حقيقية وعميقة . ولقد قوضت النزاعات مع الاتحاد السوفيتي ومعارضة التورط في إصلاحات محدودة دعائم السلطة الشيوعية . ورأى هونكر ومعاونوه أن التعامل مع التغييرات التي تتم في موسكو كانت أكثر صعوبة من التعامل مع ما يجري من أحداث في بقية بلدان أوروبا الشرقية بسبب اعتماد ألمانيا المباشرة على الدعم السوفيتي العسكري والاقتصادي .

وقد واجه هريق هوكسا وجاكس في تشيكوسلوفاكيا مأزقا شبيها بمأزق هونكر ؛ لأنهم وصلوا للسلطة كنتيجة مباشرة للتدخل السوفيتي في هذا البلد في أغسطس ١٩٦٨ .

ومنذ أن تغيرت نظرة السوفيتيين لربيع براغ فإن الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين وجدوا أنفسهم معزولين سياسيا ، ومحرومين من الدعم الداخلي والخارجي ، ومن ثم تمكن زعماء الحركة الإصلاحية الذين تم استبعادهم من العودة للمسرح السياسي ثانية كأبطال لاستراتيجية الاشتراكية ذات الوجه الإنساني وكان الكسندر دوبتشيك واحدا من الذين قضوا سنوات النفي خارج البلاد ، ورفض الالتحاق بحركات الحقوق المدنية السرية ، وقد أكد في حديث له أجرته الصحيفة الإيطالية الشيوعية اليومية ليونيتا L'Unita في يناير ١٩٨٨ على المبادئ الأساسية لحركة الإصلاح التي قمعها السوفيتيون وامتدح علانية سياسية الجلاسونست التي يتبنها جورباتشوف كما أكد على وجود تشابه بين المصادر الأساسية للإلهام في حركتي الإصلاح وقال : « لو أن جورباتشوف كان في السلطة في عام ١٩٦٨ لما فكر في اللجوء للتدخل السوفيتي » (٣٣) .

وفي أبريل عام ١٩٨٩ وقع حدث عرضي إذ بث التلفزيون المجري الذي تسيطر عليه الحكومة على الهواء مباشرة حديثا لدوبتشيك السذي

لا يعتبر رسميا شخصية مهمة في وطنه حيث ناقش مرة أخرى حقائق أزمة ١٩٦٨ التي تكمن في جمود برجينف ومعاونيه في بلدان حلف وارسو الأخرى .

ان مغزى المقابلة التي أجريت مع دويتشيك عبر شاشة تليفزيون بودابست تكمن في حقيقة أن المجر قد مارست عملا عسكريا ضد حكومة تشيكوسلوفاكيا الشرعية في أغسطس ١٩٦٨ وهي الآن بصدد إعادة النظر فيه .

وتحدى دويتشيك الخط الرسمي لنظام هوساك وجانوس الذي ادعى أن التدخل الأجنبي كان لا بد منه بسبب تصاعد القوى المعادية للثورة تحت قيادة دويتشيك :

« لم يكن هناك شيء مضادة للثورة بل لم يكن هناك أية قوى يمكن أن تمثل خطرا حقيقيا على الاشتراكية مهما كانت ، وإذا وجدت فأننا نعلم أن أسوأها هي دوجماتية برجينف . أنها الخطر الوحيد على الاشتراكية والتي تضعف مواقف الحزب والحركة والدولية الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية والأحزاب الاشتراكية اليسارية . ولماذا ؟ كي تخدم الخط الحزبي الذي لم يكن منسجما مع مصالح الديمقراطية والاشتراكية والشعب » (٣٤) .

ان رد فعل الحكومة تجاه اصلاحي ربيع براغ اعتبره المستفيدون من الاحتلال العسكري لتشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ فالأسيئا ، وقد كان كذلك كما سفهت وسائل الاعلام التشيكوسلوفاكية الرسمية محاولة عودة دويتشيك للساحة السياسية ، حيث وصفته بأنه سياسي مبتز ومغامر ومرتد .

لقد هاجم الدوجماتيون في جراج دويتشيك هجوما شديدا بسبب الرعب الذي أصابهم ، لأنهم توقعوا أن يعيد الاتحاد السوفيتي النظر في قرار ١٩٦٨ الخاص باستخدام القوة العسكرية ضد حركات الإصلاح التي تشبه — جوهريا — ما قام به جورباتشوف نفسه ، وقد اعتبرت رود برافو Rude Pravo صحيفة الحزب اليومية ظهور دويتشيك على المسرح السياسي وهما وجنون عظمة لسياسي فاشل ولم ترد فيها أية إشارة بأن الزمن يتغير وأن السوفيتيين انفسهم تخلوا عن الوهم الدولي الذي برروا به النهاية المروعة لربيع براغ :

وما زال دويتشيك يعتقد بأنه يستحق ان يوصف في كتب تاريخ بلدنا كاصلاحي مستنير للاشتراكية وان طرده من الحزب كان خطأ فادحا ويرى ان الوقت قد حان لتصحيح هذا الخطأ . وعلى أية حال فان تزيف

التاريخ يعد شيئا محتملا ولكن تغييره شيء مستحيل • ان عهده الذى يسجله التاريخ سيظل يوصف على انه نظام راسه رجل شجب المبادئ العامة للماركسية اللينينية وضرب بالمبادئ والاشتراكية عرض الحائط وخان مصالح شعبه • وسيظل والى الأبد مجرد رجل قاد حزبنا وامتنا لحافة الهاوية » (٣٥) •

ورغم نبذة الصلف التى اتسمت بها هذه التحذيرات فان المحافظين فى براغ أدركوا ان زمنهم قد ولى ، وتبخر اجماع الراى فى حلف القمة التشيكوسلوفاكى نظر لتداخل وغموض الاشارات التى قدمت من موسكو ، بل ان رئيس الوزراء السابق ليوبومير ستروجال Lubomir Strongal الذى كان واحدا من واضعى سياسات ما قبل ١٩٦٨ الخاصة بالحيادية طالب باجراء اصلاحات عاجلة ، واشار خلفته ليديسلاف ادامك Lydislav Adamec الى الحاجة لتجديد قيادة الحزب واستيعاب دروس الماضى والاستفادة من اخطائه .

وفى اكتوبر ١٩٨٩ كان اعتماد نظام المانيا الشرقية الوحيد على الدعم التام الذى قدمه الزعيم الشيوعى نيكولا شاوشيسكو الذى شارك فى الاحتفالات التى نظمت فى برلين الشرقية لتمجيد انجازات نظام هونكر الا ان الزعماء التشيكوسلوفاكيين واجهوا معارضة علنية متزايدة • وفى بلغاريا حاول تيودور جيفكوف يائسا أن يبقى على السلطة ، بينما كان زملاؤه يدبرون بالفعل مؤامرة بيزنطية لازاحته بشكل مشين فى غضون شهر واحد ، أما جورباتشوف فقد ذهب الى برلين الشرقية ليخبر هؤلاء الذين يتلكأون فى تحقيق الاصلاحات بأنهم سوف يدفعون ثمن محافظتهم غاليا •

وبدا واضحا ان اللجنة المركزية تواجه - رغم المسيرات والمواكب المبالغ فيها تحديا من حركة الغضب والسخط المتزايدة التى استمدت قوتها من جماعات غير رسمية ، سلمية ، ايكولوجية ، ومدافعين عن حقوق الانسان كانت الحكومة قد اضطهدتهم الا أنهم احتموا بدرع واق ممثلا فى الكنيسة اللوثرية الألمانية الشرقية Lutheran Church وكان النظام ما زال قادرا على استخدام القوة ضد المسيرات التى تتزايد فى الشوارع ، وفى يونيو ١٩٨٩ كان اريك هونكر ونيكولاي شوشيسكو هما فقط الزعيمين الشرق اوروبيين اللذين قدما التهنئة للشيوعيين الصينيين لردعهم مظاهرة الميدان السماوى Tienanmen Square ، وبما عرف عن هونكر من عنف وصلف فقد تم التحذير من خطر اراقة الدماء فى جمهورية المانيا الديمقراطية . وفى برلين الشرقية

اصطدم المتظاهرون في مدينتي دبشك ودرسدن بقوات البوليس .
واستخدم البوليس الهراوات لتفريق المتظاهرين وهددهم بخزاطيم
المياه . ورغم الرعب الذى حاول النظام بثه فى قلوب المتظاهرين ، فقد
استمروا فى اعلان احتجاجهم ضد الديكتاتورية الشيوعية . وقد عمت
الفوضى بين الجماهير لوجود جورباتشوف فى الاحتفالات الرسمية
واختلطت شبعاراتهم التى رددوها عن الحرية بنسائهم « جوربى
جوربى ! » ونظمت العديد من المظاهرات ووقف البوليس لدهشته
مكتوف الأيدى ازاء تصاعد الغضب الشعبى . لقد تكون المنبر الجديد
New Forum — الحركة التى رأسها منشقون سابقون — لتعبر عن
المطالب الرئيسية للشعب ، ولأن الاتحاد السوفيتى لم يشجع استخدام
العنف لردع الاضطراب فقد كان واضحا ان الحزب الحاكم لم يكن أمامه
أى بديل سوى التضحية بالمتشددى وجزل الوعود باطلاق العنان
لاصلاحات فورية .

واستمرت الحركة الشعبية المطالبة بحقوق الانسان والقضاء
التام على النظام السياسى فى جمع زخمها ، وبلغت حقبه تاريخية
بأكملها نهايتها وذلك فى ١٨ أكتوبر عندما عزلت اللجنة المركزية الستالينى
أريك هونكر وانتخبت ايجون فرنز Egon Frenz الذى كان بيروقراطيا
حزبيا لواحد وعشرين عاما متتالية ، وكان الساعد الأيمن السابق لهونكر
ليحل محله . لقد كان اختيار اللجنة لفرنز اختيارا أحمق وغير مقنع ؛ لأن
الجميع كانوا يعرفون أن فرنز كان مسئولا مسئولة مباشرة عن الحملات
المضادة للانشقاق فى الأعوام السابقة كما قام أيضا بتزوير الانتخابات
المحلية التى أجريت فى مايو ١٩٨٩ . وفى البدء حاول فرنز أن يسكن
الغضب الشعبى بالقاء اللوم على الأزمات الجارية وعلى فشل القيادة
السابقة فى القيام باصلاحات شافية . وفى أول خطاب جماهيرى له
كسكرتير للجنة المركزية أعلن فرنز :

« لقد اتضح اننا لم تكن واقعيين عندما اسانا تقدير التطورات
الاجتماعية التى حدثت فى بلدنا فى الشهور الأخيرة ، ولم نتوصل
للاستنتاجات الصحيحة وبسرعة كافية . اننا نعلم خطورة الموقف .
ولكننا أيضا نشعر ونذكر الفرصة الأساسية التى اعطيناها لأنفسنا
لتحديد سياسات الحوار مع مواطنينا ، السياسات التى سوف تحملنا
الى اعقاب مرحلة جديدة » (٣٦) .

ولكن كلمات فرنز المسكنة جاءت متأخرة وكان لها صدى
هيوقراطى وذلك لأن صحوة المجتمع اخذت فى التزايد على نحو أكثر
سرعة وأكثر راديكالية من أى اصلاحات شيوعية يمكن توقعها .

ونظراً لما أصابهم من رعب وارتباك فإن زعماء اللجنة المركزية لم يستطيعوا مواكبة راديكالية الجماهير المستنيرة .

ان ما حدث في جمهورية ألمانيا الديمقراطية أثار دهشة حقيقية اذ بدت الأمة منذ شهور قليلة فقط وكأنها أصيبت — سياسياً — بالشلل ، مع قليل من المعارضة التي حاولت تحدى جهاز البوليس الضخم ، ونشرت جريدة غربية في أغسطس ١٩٨٩ مع بداية الهجرة الجماعية التي أدت الى تأزم الموقف فى ألمانيا الديمقراطية هذه المقالة :

« نستطيع أن نقول ان وجود ألمانيا الغربية يساعد في تدعيم وتقوية الأنظمة البالية . لقد كان من السهل دائماً على الألمان الشرقيين أن يبعثوا بالمتشقين ومثيرى المشاكل الى الغرب للتخلص من معارضتهم لأنظمة بلادهم ، لذا لم توجد معارضة داخلية نشطة فى ألمانيا الشرقية ، ان النقد الشعبى الوحيد للنظام — وان كان حذراً — قامت به الكنيسة البروتستانتية Protestant Church والتي قدمت الماوى لحفنة ضئيلة من الجماعات الصغيرة فى المدن الكبرى ، الا انها لم تكن تحلم بتحدي النظام » (٣٧) .

لقد بنى الوجود الفعلى للبلاد ، على أسطورة أيديولوجية وأى محاولة لتغيير هذا الأساس سوف يدمر مستقبلها . واذا كانت الجبر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا أصلحوا من انفسهم لدرجة التخلي عن الاشتراكية ، الا ان ذلك لم يكن يعنى فناءهم التام . اما جمهورية ألمانيا الديمقراطية فقد رأت أن احتضان مثل هذه الاصلاحات سيفنى دولتها لانها استمدت كيانها من تقسيم العالم لكتلتين متناحرتين .

وعندما تحولت الحرب الباردة لعمل بال فقدت جمهورية ألمانيا الديمقراطية كل مبرر لوجودها . ان هذا الموقف الفريد لم يختصره أحد الأيديولوجيين الأفذاذ ، وهو أوتا رينهولد Otta Reinhold مجرد مصطلحات سياسية ، ففى عام ١٩٨٩ أجرى أوتا حديثاً مع إحدى محطات ألمانيا الشرقية اوضح فيه أن قضية الكيان الاشتراكي كانت قضية جوهرية بالنسبة للوجود الأول لجمهورية ألمانيا الديمقراطية كدولة منفصلة تقع فى قلب أوروبا ، ورأى — مثل اللجنة المركزية — ان جمهورية ألمانيا الديمقراطية « مجرد بديل للجمهورية الفيدرالية Federal Republio وهو البديل العادى للفاشية والاشتراكية » (٣٨) .

وقد أبدت اللجنة المركزية معارضتها للوصايا السوفيتية الخاصة باتباع نهج اصلاحى حتى بدأت أزمة أكتوبر ورفض هونكر فى ديسمبر ١٩٨٨ كل الاقتراحات الخاصة ، بمحاكاة حزبه سياسية الجلاسونست

السوفيتية ورأى انه لا يحتاج لأى بروترويكاً في جمهورية المانيا الديمقراطية كما رفض مجدداً الدعوة « للانحراف عن نهجنا ومسيرتنا الى الاستبدادية » (٣٩) . وفى خطابه الى الجماهير ، نبذ الأيديولوجى الرئيسى للجنة المركزية كيرت هاجر Kurt Hager فكرة اتخاذ الاصلاحات السوفيتية كنموذج يحتذى « لان تعليق خيرانك لورق حائط جديد لا يعنى انه يجب عليك تقليدهم » (٤٠) . وفى أبريل ١٩٨٩ بذل هاجر الذى خدم النظام عقوداً طويلة ككاتب حراسة للأرثوذكسية اللينينية أقصى جهده لاقتناع جمع من مؤرخى الحزب والعلماء الاجتماعيين بضرورة التأكيد على خصوصية نموذج الاشتراكية الذى تتبناه المانيا الشرقية وكانت كلمته التى انتقد فيها « التفكير الجديد » السوفيتى بصدد السياسة الخارجية التماساً عاطفياً مؤثراً للحفاظ على استقرار النظام الألمانى الشرقى مقال :

« ان تاريخ الاشتراكية في جمهورية المانيا الديمقراطية يؤكد على ان النظام الاشتراكى الاجتماعى يتمتع بمزايا مهمة ، واذا تحدثنا عن « الاشتراكية فى جمهورية المانيا الديمقراطية » فان هذا يعنى أننا نتبع طريقاً فريداً خاصاً بنا او يعنى تطبيقنا للماركسية اللينينية وفقاً لظروفنا ، وان الاشتراكية فى المانيا الديمقراطية قد اكتسبت سمات متسقة مع عاداتنا ومقدماتنا وتجاربنا وامكاناتنا . واذا تحولنا لعصا فى يد اشتراكية تستخدم لتحقيق سياسة امبريالية واذا تحدثنا الوضع الامبريالى لالمانيا ، فس نجد انفسنا نخوض صراعاً فريداً من نوعه » (٤١) .

وفى نفس الفترة ، فان مارجوت هونكر Margot Honecker زوجة السكرتير العام ووزيرة التعليم الشعبى لم تخف استياءها من نهج جورباتشوف الجديد الذى اعتبرته تهديداً مباشراً لمستقبل الاشتراكية . ورأى ائتلاف اللجنة المركزية ضرورة الابقاء على الاحساس بالخطر القومى القادم من الشرق والغرب حتى لا يتزعزع استقرار الوضع القائم . وعبرت مارجوت عن القلق المتزايد المتفشى بين شريحة عريضة من الأعضاء الحزبيين فى جمهورية المانيا الديمقراطية فى خطاب مشتمل (وتحذيرى) فى الكونجرس البيداجوجى فى المانيا الشرقية فى يونيو ١٩٨٩ :

« حقيقة ان كل القوى المعادية للاشتراكية قد برزت ثانية — وسوف يفعلون ذلك مرة تلو الأخرى لعرقلة مسيرة الاشتراكية بل ولتخطيها — وهذا ما يجب ان يفهمه شبابنا . لا بد ان نبصرهم بذلك حتى يفهموا ان الوقت لم يحن لانهاى جيوشنا ، وان زمننا هو زمن ملء

بالصراع وأنه بحاجة لشباب يقاتلون في سبيل الاشتراكية ويعملون من أجلها ويدافعون عنها بالقول والفعل وإذا لزم الأمر بالسلاح « (٤٢) .

ولقد تورط كرنز نفسه في كل الحملات السابقة المعادية للإصلاح وحاول أن يحول دون صعود الحركات الجماهيرية التي تطالب بالديمقراطية ولكنه يبدو الآن كاصلاحي جديد وعدو لحدود الفساد ومحافظ على القيادة السابقة ، كما وعد بتحرير ليرالي فوري ولكنه أعلن مؤكداً أن الاشتراكية « لا تفاوض عليها » ولا مساومة .

وكان واضحاً بالنسبة لكرنز وكل قيادة اللجنة المركزية أن التنازلات الجوهرية التي ستسمح بإجراء مفاوضات حرة ستؤدي بالنظام وبجمهورية ألمانيا الديمقراطية . وعبر أحد الصحفيين من ألمانيا الغربية عن رأيه في هذا الصدد قائلاً :

« ان الاشتراكية البروسية Prusso هي فقط التي تستطيع دعم مطالبة برلين الشرقية بدولة منفصلة . دعها تمر ، ولن يكون هناك أي مبرر لبقاء ألمانيا الشرقية . اسمح بإجراء انتخابات حرة اليوم لتحفل بالوحدة مع ألمانيا الغربية غدا » (٤٣) .

وظلت كل القوى في حركة دائبة تستلهمها من إصلاحات جورباتشوف والتغيرات التي تتم في الاستراتيجية السوفيتية الدولية ومن التخلي عن عقيدة برجنيف ، مما وضع زعماء ألمانيا الديمقراطية أمام خيار وحيد لابد أن يتبعوه وهو تخفيف الضغط على الجماهير وإدراك حق المجتمع في المشاركة في الحكومة ، وكلما استجابت الحكومة لمطالب المحتجين ، أصبحت المظاهرات أكثر جرأة وراديكالية .

وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩ خرج مئات الآلاف إلى شوارع ليبزج Leipzig مطالبين بإجراء تغييرات ديمقراطية ، بما في ذلك جعل الحركات المعارضة واتحادات العمال المستقلة جماعات رسمية ، ومطالبين كذلك بفصل السلطات بما فيها فصل الحزب الشيوعي عن سلطة الدولة . وفي نوفمبر خرج نصف مليون برليني شرقي في مظاهرة سلمية نظمها اتحاد الممثلين Union of Actors تطالب بحرية الرأي وبيانات حرة ، ووضع نهاية « للدور القيادي » للحزب الشيوعي والتخلي عن البوليس السري البغيض Stasi حيث أطلق المتظاهرون الصفيير والنكات الساخرة عندما حاول جونثر شابوفسكي Gunther Schebowski عضو المكتب السياسي ورئيس اللجنة المركزية في برلين الغربية أن يلقي عليهم خطاباً ، وما بدأ في أكتوبر

• كتمرد جماهيري تلقائي ضد الطغيان والظلم تحول الى ثورة سياسية
أعربت بوضوح عن رغبتها في التخلص التام من النظام القائم .

• ان انفجار الغضب واليأس بألمانيا الشرقية لم يكن في الامكان
احتواؤه فقدم المكتب السياسي في ٧ نوفمبر استقالته ، وفي ٩ نوفمبر
وقع حدث هائل عندما حطمت الجماهير سور برلين ، واحتفلت العامة
بإنهاء عهد الخوف والشك والرعب وغمرت الجماهير فرحة ونشوة
عندما وجه المستشار هيلموت كول Helmut Kohl خطابه لجمع غفير من
مواطني برلين الشرقية وبرلين الغربية الذين تجمعوا خارج ساحة مدينة
برلين الغربية حاملين أعظم المشاعر فقال لهم :

« اريد ان اصرح في كل جمهورية ألمانيا الديمقراطية بأننا نقف في
جانبكم لقد كنا وما زلنا أمة واحدة ، اننا ننتمى لبعضنا البعض » (٤٤) .

وحاول كرنز بعد فتح الصدود وازالة الحرس القديم في اللجنة
المركزية تغيير جلده والتلون بما يناسب رياح التغير فأعلن عن عزمه
اجراء اصلاحات جوهرية وأعلنت اللجنة المركزية في احدى جلساتها
الكاملة الأعضاء برنامج الحزب الجديد الذي تضمن انتخابات حرة
ديمقراطية وباقتراع سري ، وتوجه الاقتصاد نحو آليات السوق ،
وفصل الحزب عن الدولة ، ومراقبة برلمانية على أمن الدولة ، وحرية
الاجتماع ، وقانون جديد للصحافة والاعلام (٤٥) . وأخذت جمعيات
وجماعات جديدة في التشكل ودخلت الحياة السياسية في ألمانيا الشرقية
مرحلة جديدة من الاختمار الرائع وتخلصت الأحزاب الديمقراطية
والديمقراطية الليبرالية التي لم تستقل بذاتها أبداً — من زعمائها
المتعاونين مع العدو ، كما أكدت على استقلالها عن اللجنة المركزية .
وفي نفس الوقت التف عدد قليل من الاصلاحيين داخل اللجنة المركزية
حول زعيم حزب درسدن Dresden Party هانز مودرو Hans Modrow
ودفعوا في اتجاه تعديل كل من زعامتي الحزب والحكومة مرة اخرى .

وفي ١٣ نوفمبر أصبح مودرو رئيس الوزراء الجديد . وفي محاولة
يائسة من اللجنة المركزية لاستعادة مصداقيتها أطلقت العنان لبرنامج
اصلاحي شامل . الا ان المظاهرات استمرت هذه المرة ، اثر الكشف
عن المستويات المعيشية العالية والبدخ التي تمتع بهما فريق هونكر واثر
فضح فساد الطبقة السياسية التي طالما وعظت الجماهير بفضائل
التقشف الاشتراكي ، وكشفت الصحافة الألمانية الشرقية الليبرالية فجأة
طبيعة الحياة المترفة التي عاشها هونكر والزعماء السابقون ، وكان
هذا الاكتشاف من اشد الصدمات التي تلقاها الألمان الشرقيون قسوة

لأنهم اعتقدوا بأن وسائل دعاية النظام السابق التى تخدم مصالحه قد التزمت — رغم كل شيء — بقيم التعاونية والتكافؤ الاجتماعى . ورغم علم الجماهير بعداء زعماء اللجنة المركزية للحرية والديمقراطية الا أنهم كانوا على جهل تام بالامتيازات الهائلة التى تراكمت لصالح الاعضاء الحزبيين فى اللجنة المركزية . وتم الكشف عن ما يسمى وندلitz Wandlitz وهى مجموعة تتكون من ٢٣ منزلا تحت الحراسة المكثفة يتمتع فيها الزعماء السابقون بحمامات السباحة ويستهلكون سلعا ليست متاحة لعامة الشعب وغيرها من وسائل الترفيه المبالغى فيها ولم يكن فى مقدور رعاياهم الا ان يحلموا بها فقط . ونشرت معلومات عن كهف الصيد الذى يملكه رئيس النقابة السابق هارى تتشه Harry Tisch وعن تورط عضو المكتب السياسى السابق جوثر ميتاج Guther Mittag فى مخالفات مالية سرية وهو ما استنزف ارباح العملة الصعبة من شركات ألمانيا الشرقية وعن تصدير آثار قيمة للغرب (٤٦) .

لقد اميط اللثام عن الصورة الحقيقية للقيادة الشيوعية التى أرهبت الألمان الشرقيين لعقود طويلة ، واكتشفت الجماهير مدى استهتارها وهو ما أثار الكرب والرعب والاحتقار بينهم .

وفى ٣ ديسمبر وتحت وطأة هذه الفضائح المخزية قدم قرنز ومكتب اللجنة المركزية استقالة جماعية . وبعد أسبوعين تم فضح الكوارث الاخلاقية والسياسية للجنة المركزية فى المؤتمر الطارئ الذى انخرط فيه المفاوضون بتجريم القيادة التى فرضت عليهم . وفى هذه المناسبة اتهم البروفسير ميخائيل تشومان Michael Schumann المؤيد للاصلاح وعضو اكاديمية العلوم الزعماء السابقين بخيانة ثقة الحزب قائلا :

« ان بيروقراطى المكتب السياسى ادانوا ثورة الشعب على انهاء مضادة للثورة وارادوا ان يقمعوها بالعنف والحقيقة ان البيروقراطيين هم الذين كانوا معادين للثورة » (٤٧) .

ولأن المناخ العام فى جمهورية المانيا الديمقراطية عزز من شأن اعادة الوحدة بين الالمانيتين ، فان الشيوعيين وجدوا أنفسهم فى مأزق حرج ولم تكن لديهم أية نية رغم تبنيهم لاكثر الاصلاحات دراماتيكية فى الاستمرار فى هذه الاستراتيجية . وبعد أن افترض أمر القيادة السابقة وافشيت أسرار فسادها شوهدت صورة الاشتراكية المثالية حتى فى عيون هؤلاء الذين آمنوا بالماركسية اللينينية وبأضلوا من أجل الحفاظ على جمهورية المانيا الديمقراطية . وكان الحل الوحيد بالنسبة للحزب هو تغيير اسمه والقيام بتطهير كامل لأجهزته . فأصبح اسم الحزب

الجديد هو حزب الوحدة الاشتراكية للحزب الألماني الاشتراكي الديمقراطي Socialist Union Party of German-Party of Democratic Socialism وهو ما يشير بوضوح الى أن قيم الاشتراكية ذات الوجه الانساني هي ما سوف يتبناه الشيوعيون في ألمانيا الشرقية في نهاية الأمر . ان الاسم الجديد كان انتصارا أخيرا وحاسما للتعددية داخل التشكيل السياسي الذي كان يعارض أي شكل من أشكال الديمقراطية . وانتخب مؤتمر الحزب جريجور جياسى Gregor Gysi المحامى الذى يبلغ من العمر واحدا وأربعين عاما كرئيس جديد للحزب ، وبدأ جياسى فى ممارسة مهام منصبه فى بداية شهر ديسمبر ، عندما اختير لرئاسة لجنة أقامها الاصلحيون فى اللجنة المركزية السابقة ؛ لتقضى حقائق الجرائم التى ارتكبها الزعماء السابقون . لقد أهله تاريخه النزيه لموقع قيادى فى الاحزاب الديمقراطية الصاعدة فى هذا البلد ان كان جياسى الابن الأكبر لأحد المتربين الحزبيين والذى خدم فى الستينيات كوزير للثقافة وعرفه جيدا بدعمه الصامد دائما للمعارضة ، كما شارك - باخلاص - فى هيئة الدفاع اثناء محاكمة المنشقين والمعارضين نوى الضمائر الحية ومثل المنبر الجديد New Forum لجماعة المعارضة عندما كانت الجماعة تنشد اعترافا رسميا بها فى شهرى سبتمبر وأكتوبر بعد أن اعتبرت السلطة « عدوا للدولة » وأتى جياسى بكل مكانته وهيئته ، مطالبا بالتعددية وحقوق الانسان فتحمل عبء تحسين صورة الحزب التى شوهت . ولكن لماذا قبل جياسى هذه المهمة الانتصارية ككابتن لسفينة الاشتراكية الألمانية الشرقية التى توشك على الغرق ؟ الا أن الاجابة ظلت لغزا ، والتفسير الوحيد هو أن جياسى نفسه كان منتهى أمله كيسارى مخلص انتاذا ما يمكن انتاذه من الأخلاقيات التى تحولت لنفايات مع حكم الحزب الشبوعى .

وفى الشهر التالى على تصدع سور برلين تقلصت عضوية اللجنة المركزية من ٢٣٠.٠٠٠ الى ١٨٠.٠٠٠ وظهر اتجاه عام يرمى الى حلها . ورأى جياسى أن اللجنة المركزية لا بد لها حقيقة أن تتخلى تماما عن الارث الستالينى وتلزم نفسها بمبادئ التعددية والديمقراطية كما نادى باجراء تغيير حقيقى فى كيان الحزب كى يصبح « البيت الطبيعى للاشراكيين الديمقراطيين وليس حزب الطبقة أو حزب الجماهير » . أن هذه الفلسفة كانت النقيض تماما للمفهوم البلشفى عن الحزب الشيوعى، الحارس الأمين الذى يملأ على الجماهير خياراته الأيديولوجية الخاصة دون أى اعتبار لحاجات الجماهير وعذاباتهم الحقيقية ، وقبل جياسى أيضا مبدأ المنافسة مع الاحزاب السياسية الأخرى كأحد

المكونات الطبيعية لاجتمع مفتوح . وكنتيجة لهذه التنازلات الجوهرية حدا الأمل بالحزب الاشتراكي كى يحسن صورته ، ويبقى قوة سياسية مؤثرة حتى فى الفترة التى تلت الانتخابات الحرة .

ان السخط الجماهيرى ، على أية حال ، كان فعالا فتحوّلت الدعوة لاعادة الوحدة بين الالمانيتين فى غضون أشهر لدعوة قومية ، وطالبت أحزاب المعارضة بالاسراع نحو التغيير . وأجرى هانز مودرو رئيس الوزراء الشيوعى الذى افترق لأية رؤية سياسية اصلاحات فى النظام ولكن دون حماس ، ومن ثم فشل فى اقناع الالمان الشرقيين بأن الدولة الألمانية الاشتراكية المنفصلة ما زالت لديها المبررات الكافية لذبقي على ما هى عليه بل ان المجموعات البديلة مثل المنبر الجديد والتى فضلت التقارب التدريجى بين الالمانيتين عن وحدة سريعة فقدوا ثقة الجماهير الألمانية بهم . ان غضب الجماهير نما فى شكل يتناسب مباشرة مع التسويف والماطلة التى قامت بها حكومة مودرو بصدد التخلص من البوليس السياسى السرى . لقد أدى تفجير الغضب الشعبى الى العصفاء برؤساء البوليس السرى Stasi . وانهارت الشيوعية فى المانيا الشرقية غير مأسوف عليها ، وحددت اقامة مونكر ومعاونيه انتظارا لحاكتهم بتهمة التورط فى جرائم سياسية واقتصادية .

ثورة تشيكوسلوفاكيا البيضاء التى فاقت بنجاحاتها كل التوقعات :

لقد ابتهجت الجماعات والحركات غير الرسمية فى تشيكوسلوفاكيا لسقوط الدولة البوليسية فى المانيا الشرقية ، واصطبغت المعارضة بالصبغة الراديكالية حتى يناير ١٩٨٩ عندما نظمت مظاهرات للاحتفال بذكرى زعيم الطلاب جان بالاخ Jan Palach الذى ضحى بنفسه منذ عشرين عاما سابقة وبذكرى اعتقال فيتسلاف هافيل وعشرات المدافعين عن حقوق الانسان فى محاولة من النظام لسحق الانشقاق الصاعد . وفى يونيو ١٩٨٩ نشر هافيل ورموز اخرى من المعارضة عريضة بعنوان « قليل من الكلمات » طالبوا فيها بالانتقال الفورى الى الديمقراطية . ونظراً لتزايد نفور الجماهير وعد نظام هوساك — وجاكسى باصلاحات اقتصادية محدودة ولكنهم رفضوا الدخول فى حوار مع جماعات المعارضة التى تنتشر انتشار النار فى الهشيم . ان الموقف فى تشيكوسلوفاكيا كان فريداً من نوعه ، ونظراً لخلو الطبقة الحاكمة من الاصلاحيين الذين يمكنهم الدخول فى مفاوضات قوزية مع المعارضة ونظراً لتفتت سلطة الحزب ، فان التوقعات باندلاع الاضطرابات كانت كبيرة . وفى نوفمبر

استخدمت الحكومة العنف لردع مظاهرة الطلاب وتحول رد السلطة
العنيف على شكل من أشكال الاحتجاج المدني السلمى لشرارة أشعلت
الغضب الشعبى . وعمت الاضطرابات والاحتجاجات أرجاء الوطن .

ونظرا لغياب دعم الاتحاد السوفيتى - بل انه لم يبد حتى مجرد
التعاطف تراجع الزعماء الشيوعيون فى تشيكوسلوفاكيا وتخلوا عن
حيارهم الوحيد - أى الشروع فى اصدار أوامر عسكرية عليا بالتدخل
والقمع للابقاء على السلطة وذلك لما عرف عنهم من قصر نظر وعجرفة
الا ان البيروقراطيين أدركوا ان استخدام القمع سيسفر عن اراقعة
بحوز من الدماء قد تثير السخط على الصعيد الدولى ، ولم يحذ زعماء
تشيكوسلوفاكيا حذو شوشيسكو فى رومانيا عندما استخدم منذ شهر
مضى الجيش والبوليس لقمع المتظاهرين المجريين من السلاح فى
تميشوارا وبوخارست Timisoara and Bucharest ولم يلجأ زعماء
تشيكوسلوفاكيا الى العنف لانهم يدينونه ، ولكن لانهم أدركوا انه يتناقض
مع الرؤية السوفيتية الجديدة .

لقد خسر فريق هوساك وجاكس ومعاونوهم السلطة التى وصلوا
اليها باسم العقيدة البرجنيقية وانتهوا باعتبارهم اثرا من آثار « عقيدة
سيناترا » ، وقرر الاتحاد السوفيتى السماح لكل دولة فى أوروبا الشرقية
ان تتبع طريقها الخاص فى الإصلاح . ونظراً لما واجهوه من تحقير قدمت
القيادة الشيوعية استقالتها علانية فى ٢٥ ديسمبر ، واستبدل المتشدد
ميلوس جاكس بكارل أربانيك Karel Urbanek رئيس الحزب السابق
فى بوهيميا Bohemia الذى يبلغ من العمر ٤٨ عاماً . وفى الحال أعرب
رئيس الوزراء لاديسلاف أدامز ، الذى شارك فى المفاوضات مع زعماء
المعارضة عن نيته لتقديم استقالته . ولأن التغييرات التى أجراها حلف
وارسو لم تقنع أحدا لأنها كانت مجرد تجميل ، تجمع مئات الآلاف مرة
أخرى فى ميدان ونسناس Wenceslas Square ليسمعوا خطاب هافيل
وديسك حيث شجبا محاولات الستالينيين الحدد للحفاظ على السلطة
« ان القيادة الجديدة كانت حيلة لاحداث الارتباك » (٤٩) . وكتعبير آخر
عن نضج فى المجتمع المدني رغم القمع الفظ الذى واجهته مظاهرات الطلاب
قامت المعارضة بتكوين ائتلافين هما : المنبر المدني Sivic Forum فى براغ
والشعب السلوفاكى ضد العنف Slovakian Public Against Violence
فى براتسلافا Bratislava . لقد قام زعماء ميثاق ٧٧ المحتفى بهم أمثال
فيشنلاف هافيل وخبرى دينستبير Jiri Dienstbier ، وكذلك المفكرين
الذين ينتمون للثقافة الرسمية بذور بارز فى انشاء المنبر المدني ، وأعلنوا
فى وثيقة برنامجهم الذى صدر فى ٢٦ نوفمبر عن رغبة المنبر المدني فى

إعادة بناء النظام السياسى والاقتصادى التشيكوسلوفاكى ، وفى فصل السلطات وتطوير اقتصاد السوق وتحريره من التدخل البيروقراطى ، وحماية البيئة ، وتعديل السياسة الخارجية مما يسمح لتشيكوسلوفاكيا باستعادة موقعها المهيب داخل أوروبا والعالم :

« اننا نطالب بتغيرات جوهرية ودائمة فى النظام السياسى فى مجتمعنا . لا بد لنا ان نعيد تقييم ، او تجديد المؤسسات ونستخدم آليات ديمقراطية تسمح بمشاركة حقيقية للمواطنين فى الشؤون العامة وفى نفس الوقت تصبح روادع فعالة ، تمنع السلطة السياسية والاقتصادية من ارتكاب أية حماقة . ان كل الأحزاب السياسية القائمة والأحزاب الحديثة التأسيس وأية جمعيات سياسية واجتماعية أخرى لا بد ان يكون لها الحق فى المشاركة على قدم المساواة فى الانتخابات الحرة للحصول على مقاعد فى الحكومة . وهذا يتطلب ، على أية حال ، تخلى الحزب الشيوعى عن دوره القيادى الذى يكفله الدستور داخل مجتمعنا وكذلك التخلي عن احتكاره وسيطرته على وسائل الاعلام . وغدا لن يكون هناك ما يمنع حدوث ذلك » (٥٠) .

وفى ٢٧ نوفمبر وقع اضراب عام اصاب البلد بالشلل التام ولم يكن أمام الحكومة خيار آخر سوى قبول مطالب المعارضة . ولم يعد فى مقدور الزعماء المحاصرين تحمل الضغط الشعبى فى تشيكوسلوفاكيا . وكاشارة الى تفكك تلاحم المجموعة الحاكمة اعربت رود برافسو Rude Pravo الصحيفة اليومية عن أسفها لما اصاب اللجنة المركزية من عجز كما رثت « المياوات السياسية » التى كانت تعوق انفتاح النظام السياسى ولفقت الجريدة الانتباه للحوطة جورباتشوف وألحت على الحزب للأخذ بمبادئ التعددية والاستعداد لاجراء « انتخابات ديمقراطية حرة » .

وفى ٢٩ نوفمبر ألغت الجمعية الفيدرالية Federal Assembly النص الدستورى الذى يكفل الدور القيادى للحزب الشيوعى . ان ذلك فقد انفتح الطريق أمام التخلي التام عن البنية الهشة للسلطة التى فرضتها الدبابات السوفيتية فى عام ١٩٦٨ . وأصبح فيتسلاف هافيل بما عرف عنه من فطنة سياسية واضحة بطلا قوميا ، لقد وجدت الأمة بغيتها فى كاتب مسرحى بعيد عن الأضواء وسجين سابق أتى به المد التاريخى الى مقدمة الاجتياح الثورى ، انه نفس الرجل الذى اعتقل لمطالبته باجترام حقوق الان ان ولدفاعه عن هؤلاء المضطهدين ظلما وعدوانا ، وأصبح الآن الشريك الرئيسى فى المفاوضات مع هؤلاء الذين

زجوا به في السجون . وبعد اجراء تعديلين وزاريين تشكلت في ١٠ ديسمبر حكومة ائتلافية غالبة اعضاءها غير شيوعيين . وفي ٢٩ ديسمبر انتخب فيتسلاف هافيل مؤسس المنبر المدني ومهندس « الثورة الناعمة » رئيسا لتشيكوسلوفاكيا .

وفي ذات الوقت عقدت قمة حلف وارسو في ٤ ديسمبر بموسكو ، واعترف الكرملين وحلفاؤه رسميا بأن التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا في أغسطس ١٩٦٨ كان عملا غير شرعي . وكانت الوثيقة الختامية للقمة تحمل معنى التخلي النهائي والجاد عن عقيدة برجنيف واعطاء الضوء الأخضر للقوى الثورية في الاقطار التابعة السابقة ؛ لتتطلق في طريق الاصلاحات واصبحت قضية تشيكوسلوفاكيا والمجتمعات السوفيتية الأخرى هي التخلص من آثار النظام السياسي والاقتصادي الذي فرض على الفرد اناوة كبيرة دفعها من حريره . وأكد هافيل في خطابه الذي ألقاه بمناسبة العام الجديد على ضرورة اعادة بناء الديمقراطية ، على أسس اجتماعية تنبذ الفساد والجمود ، كما شجب الخطاب الفساد الاقتصادي وتحطيم مشاعر الثقة الانسانية والتضامن والخط من قدر البناء الأخلاقي للمجتمع واعتبرها عللا سببتها الشيوعية وتراثها المشؤم .

« لقد بتنا مرضى على المستوى الأخلاقي فقد اعتدنا على قول شيء والتفكير في شيء آخر . ان مفاهيم مثل الحب ، والصداقة ، والعاطفة ، والتواضع والعفو قد فقدت كل معنى لها ، اذ اعتبرها كثيرون منا دون مستوى الطبائع السيكولوجية لأنها فقدت منذ زمن طويل ما كانت تلاقيه من استحسان وهو شيء يثير الضحك في عصر المركبات الفضائية والكمبيوتر . ان اقلية ضئيلة منا هي التي استطاعت التمسك ولم تصرخ باكية عندما ترى من لا يستحق يصل الى السلطة وعندما ترى المزارع الخاصة التي تزرع محاصيل خالية من الأمراض من اجل الحكام فقط ولا ترسل بانتاجها للمدارس ، وملاجيء الاطفال والمستشفيات ، ولأن الحال كان كذلك ، فان مزارعنا لم تكن قادرة على مد افراد الشعب بمنتجاتها الجيدة . ان النظام السابق - المسلح بالأيديولوجيا المتعجرفة والمتشددة، اختزل الانسان الى طاقة تنتج، واختصر العالم الى فائض من الانتاج . كما اختزل الموهوبين الذين يتمتعون بالارادة الحرة التي تمكنهم من حكم بلادهم ، الى تروس في آلة كبيرة صاخبة ذات رائحة بغيضة ، تهدف الى حرمان الجميع من التمتع بأي نوع من الخصوصية ، وكانت هذه الآلة قادرة على أن تدور بسرعة فائقة بلا رحمة وبدون ببطء حتى يلبت تروسها » (٥١) .

وبسبب الارث النظرى والسياسى الذى خلفته التجربة فيما يتعلق بالديمقراطية ، فقد رأى هافيل ان بلده يمكن أن يكون مكانا متاليا لتجريب ممارسات سياسية مختلفة . وأشار هافيل لأفكار توماس مزاريك عن الحياة السياسية المبنية على الاحترام المتبادل ، وعلى الحب لا على الصراعات التافهة والتشاحن الذى لا نهاية له :

((ان مزاريك بنى سياساته على الاخلاقيات . دعنا نحاول التأكيد على هذا النوع من الممارسات السياسية الجديدة فى هذه المنطقة المثالية . دعنا نعلم انفسنا ونعلم الآخرين أن السياسات لا بد أن تكون تعبيرا عن الأمل فى الاسهام فى خير الكميونة أكثر مما هى تعبير عن ضرورة خرق هذه الكميونة . دعنا نعلم انفسنا والآخرين أن السياسات يمكن أن تكون فن يمكن أن تكون أكثر من مجرد فن الممكن ، خاصة اذا كان ذلك يعنى فن التوقعات والحسابات ، والخديعة والصفقات السرية ، والنفعية . دعنا نعلم انفسنا والآخرين أن هذه السياسات يمكن أن تكون فنا لاصلاح انفسنا والعالم)) (٥٢) .

ان هذه النصيحة التى تستنهض الهمم من فيلسوف ومؤلف للمسرحيات أصبح رئيسا للجمهورية برسم خريطة لمسار جديد يسمح بابتكار سياسات جديدة لأوروبا الشرقية ، وتنصح الشعب باعادة بناء طبيعة انسانية متوافقة مع وصايا التضامن والثقة والأمل ، وتشير لضرورة تجاوز الأزمات الاقتصادية والأحلاف للنظام والثقة وتجاوز ارث الشك وعدم الثقة المتفشى فى الممارسات السياسية وأشار الى ضرورة زرع الساحة الاجتماعية بالمبادئ الأخلاقية .

ان الثورة ضد السوفياتيين قد استعرت لهيبتها باسم المفهوم العالمى لحقوق الانسان ومن ثم افترض هافيل أن السياسات الجديدة فى تشيكوسلوفاكيا ستختلف عن الممارسات السياسية التقليدية بما تتسم به من مكائد وتناحرات . ان آداب السياسة ذات معنى يحمل قليلا من المثالية ، ولكن من المهم أن نذكر ان الاجتياح الشرق اوروبى قد بدأ باسم حقوق الانسان المقدسة والتى تتجاوز المستوى السياسى الا أن الأمل فى اذابة نهر الجليد الستالينى فى يوم واحد كان بعد المنال ، وكتب تشيسلوميلوتز متنبئا :

« ان هذه البلدان تبدو وكأنها اهم جزء فى العالم كله وليس فى أوروبا فقط . واذا ادعيتنا ان الايمان الجديد New Faith (الماركسية اللينينية) سوف ينتشر فى كل أرجاء الأرض فإن هذه المناطق تعد من

أكثر التجارب إثارة خارج الاتحاد السوفيتي بل وتعد الأولى من نوعها .
وإذا افترضنا أن المركز سوف يخسر ، فإن النماذج الاقتصادية والفكرية
التي ستبرز تبعاً في هذه البلدان ستكون بالتأكيد حديثة إذ أن هذه
التجربة وهذا الانعطاف نحو الوضع الحالي ليس له مثيل في
التاريخ (٥٣) .

حقيقة ، وكما سنناقش في الفصل السابع ، فإن الانفصام عن
الشيوعية واستعادة القاعدة الشعبية الحرة لم يكن ناتجاً عن مجرد
الاحياء للعادات السابقة على الشيوعية بل أن الأشكال الجديدة كانت
توليفة من التوق إلى الماضي والتجارب الجريئة الجديدة التي تهدف
لبناء المجتمع . أن المرء لا يستطيع أن يمحو - ببساطة - أربعة
عقود من الهيمنة الشيوعية بما في ذلك تلقين الجماهير وغرس مشاعر
الخوف ، وعدم الأمان لدى الأفراد وقمع الاستقلالية الشخصية ، ومن
الصعب - ولكنه ضروري - أن تقام الدولة على أساس القانون بعد
أن قضى معظم السكان حياتهم خاضعين تحت وطأة أنظمة غير
شرعية . وليس معنى ذلك أن السياسات الجديدة ستكون تصفية
لحسابات مسنمة وغير مجدية ولكنها ستعيد توليد قاعدة اجتماعية
من خلال رد الاعتبار للطبائع الأخلاقية للمواطنين ، وهذا يمكن أن
يتحقق داخل اتحادات وجماعات وأحزاب حديثة النشأة ، تضمن وضع
قيود على سلطة الحكومة وتخلق بيئة جديدة ، تؤدي إلى التأكيد على
حقوق المواطنين . وعبر هافيل عن الحلم الكبير الخاص بالمعتق
الأخلاقي والسياسي للأمم أوربا الشرقية التي ظلت لأمد طويل ضائعة
حين قال :

((ربما تتساءل : ما هو نوع الجمهورية التي أحلم بها ؟ وأجيبك :
أني أحلم بجمهورية مستقلة ، حرة ، ديمقراطية ، ومنتعشة اقتصادياً ،
ومنظمة اجتماعياً ، باختصار ، أحلم بجمهورية إنسانية تخدم الفرد
وبالتالي أتوقع من الفرد أن يخدمها)) .

ولاستنبات هذه الروح في الضمير المدني أعلن رئيس جمهورية
تشيكوسلوفاكيا جدياً :

((إنها الشعب أن حكومتكم عادت إليكم)) (٥٤) .
وبينما كان هافيل يتحدث في يناير ١٩٨٩ عن عودة الحكومة
الشرعية في تشيكوسلوفاكيا ، كانت حكومة المجر تلقى القبض على
ثلاثة من زعماء حركات الحقوق الإنسانية الصاعدة ، في الوقت الذي
ادعى النظام - شفوياً - تبنيه لاصلاحات كتلك التي تجرى في الاتحاد

السوفيتي ، استغلت المعارضة ما أبداه النظام من دعم رسمي للبروسترويك ، لتكوين اتحاد يتفانى في الاستعانة بالجلانست الا ان القمع في رومانيا قد بلغ أقصى مدى له وفاق أية دولة أخرى في حلف وارسو . وسواء أكان في بلغاريا أم رومانيا أم خارج حلف وارسو في البانيا ويوجوسلافيا ، فان الجهود التي بذلها المتشددون لنوحيد مقاومتهم لم يكن من المستطاع — على المدى البعيد — ان يكتب لها النجاح . لقد كانوا جميعا يدافعون عن زمن سياسي عتيق ، انهم الديتوصورات الستالينية التي فشلت في منع تقدم التيارات الناقدة داخل مجتمعاتهم ، وكلما رفضوا ضرورة التغيير ، ازداد رد فعل الجماهير المتهورة قوة ، وتضاءلت قدرة الأحلاف الشيوعية على الاحتفاظ بأقل قدر من المصادقية في لحظة الانفجار الثوري .

القناع البلغاري : الضربة المعادية لجيفكوف Zhivkov

لقد ظل الزعيم البلغاري تيدور جيفكوف لعتود طويلة من أكثر الزعماء طاعة لأحلاف موسكو وموضع ثقتهم . وقد حاول يائسا ان يتجنب انفتاح النظام السياسي ليحتفظ باحتكاره للسلطة . وفي مناسبات عدة ، وخاصة بعد عام ١٩٨٦ ، تورط في هجمات هوجاء ضد الدوجماطيقية ، والمحافظة ووعد بأن يقتفي أثر البروسترويك السوفيتية . والحقيقة ان جيفكوف استغل هذ المقولات الجامدة ؛ ليبقى قابضا على أجهزة الحزب وللتخلص من المصلحين ذوي التأثير داخل القيادة .

وقدمت السلطة — أمام ضغط موسكو المتزايد من أجل الليبرالية — تنازلا مهما : فصدق المكتب السياسي البلغاري في أغسطس ١٩٨٧ على حل رموز الدولة الذي يتطلب من بين أشياء أخرى التخلص من صورة جيفكوف وإزالة تمثاله من بزافيتس Praveis مسقط رأسه . وفي مارس ١٩٨٨ استعادت معظم المؤسسات (مثل قصر الشعب للثقافة ، ومسرح الشباب ، ومؤسسة الدراسات البلقانية) التي سميت على اسم آخر بنات جيفكوف ليودمبلا Lyudmila وزبرة الذقافة السابقة وعضو المكتب السياسي أسماءها الأصلية (٥٥) . وفي ديسمبر ١٩٨٨ وفي إشارة هيوقراطية أخرى كان الهدف من ورائها استرضاء الاتحاد السوفيتي وعرقلة جهود معارضييه في الداخل ، أعلن جيفكوف أمام اللجنة المركزية بأن الوقت قد حان ، للقيام بثورة تنبع من القاعدة والقمة معا ولأجراء إصلاحات سياسية شاملة .

وفي ١ فبراير ، ١٩٨٩ أجبر رئيس الوزراء الاصلاح، جورجى اتناسوف Georgi Atanasov على تقديم استقالته ، وخطط جيفكوف لسحق

المعارضة داخل الحزب . وهى نفس الوقت ، جابه نظام جيفكوف المنعوت عددا من المبادرات المدنية التى جاءت من القاعدة وسميت بحلقات المناقشة ، وكانت الجمعيات ضرورية لتحدى السلطة تحديا سافرا وهو ما ميز نهاية السلبية السياسية فى بداية تنظيم المعارضة السياسية لنفسها ، ومن بين هؤلاء الذين تورطوا مباشرة فى الأنشطة المبكرة للفعالية السياسية تزليو زيليف Zhelyu Zhelev الفيلسوف الذى طرد من الحزب الشيوعى فى الستينيات بسبب أفكاره التحررية ونقده العلنى للشمولية . وفى عام ١٩٨٨ أصبح زيليف عضوا مؤسسا « لنائى مناصرى الجلاسندوست والبيروستريكا » وهى جمعية غير رسمية ، كما كرس زيليف جهوده من أجل الديمقراطية . ورغم جهود المناضلين المدنيين ، فقد كان لدى الجماهير فى بلغاريا شعور عام بأن نظام جيفكوف ما زال لديه القوة ، على تجريد المعارضة من أسلحتها وكبح جماح أى جهود اصلاحية أصيلة فتفشى الفرع بين البلغاريين ، كما عم « شعور بأن أيا من التغيرات التى تجتاح أرجاء الكتلة الشرقية لن تطولهم فى القريب » (٥٦) .

ان الاحساس بجمود النظام البلغارى لم يكن - على أية حال - محددا ، اذ كان من الواضح أن هناك تحت السطح الخارجى لقيادة الحزب الذى يبدو مناسكا تكمن توترات شديدة . وبحلول شهر نوفمبر خرج خمسة آلاف فى مسيرة الى مبنى مجلس النواب National Assembly فى صوفيا Sofia للاحتجاج على التلوث البيئى . الا أن التعطش من أجل التظاهر كان سياسيا فأعلنوا استيائهم من عجز الحكومة عن ادارة اقتصاد البلد . وفجأة ، وفى نفس الشهر ، قام تحالف بين الحزبين قوى العقول الاصلاحية بقيادة بيتر ميلادينوف Peter Mladenov وجنرالات الجيش برئاسة عضو المكتب السياسى المتمرس ووزير الدفاع دوبرى دزروف Dobri Dzhurov ، وأجبروا تيودور جيفكوف الرجل الذى ساس الحزب الشيوعى البلغارى من أبريل ١٩٥٤ على الاستقالة . وما حدث فى بلغاريا كان مختلفا عن التغيرات الثورية فى المجر وبولندا والمانيا الشرقية ، حيث كان لا بد من التحالف الشيوعية من أن ترخى قبضتها على السلطة بعد مجابهات مع المعارضة تراوحت من حيث الشدة من بلد الى آخر . وحاول الشيوعيون البلغاريون أن يكسبوا شعبة الشعب بادانتهم لجيفكوف والتخلص منه ، كما حاول كسب رصيد جماهيرى باطلاق العنان لاصلاحات راديكالية . ونظرا لما كان يربط الجنرال دزروف من علاقات بموسكو ، فاندنا نفترض

أن دوره المهم فى المؤامرة كان له أثر كبير على الاستياء الذى أبداه
الكرملين نحو بلاده وخمنق جيفكوف .

وخلف جيفكوف فى زعامة الحزب بيتر ميلادينوف البالغ من العمر
ثلاثة وخمسين عاما ، والذى خدم خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة
كوزير للخارجية . ولان ميلادينوف لم يصل للسلطة بفضل الصفوة
العليا من البيروقراطيين الحزبيين ، فقد بدا أن نموذج الخلافة التقليدى
قد كسر . وأعلن ميلادينوف أن الإصلاحات الجريئة لن تعاق بعد الآن
ونعهد بأن يصبح بلغاريا تحت القيادة الجديدة ((بلداً حديثاً ، ديمقراطياً ،
وقانونياً)) (٥٧) وألغت الحكومة القانون الذى يدين الأنشطة السياسية
السلطوية وخفضت الرقابة على وسائل الاعلام . أما جيفكوف فقد
خضع لقرار المكتب السياسى وأملا فى انقاذ ماء وجهه (أو على الأقل
لانقاذ جزء من امتيازاته) اعترف رسميا بمسئولته عن الفشل فى إعادة
الحيوية للنظام .

وتبع التخلص من جيفكوف اندلاع مظاهرات كبيرة فى شوارع
صوفيا والمدن البلغارية الأخرى ، ونظمت اللجان الأهلية للاحتجاج
التي رفضت الاحتفاظ بديكتاتورية الشبوعيين وطالبت بإنشاء مورى
لنظام متعدد الأحزاب . وفى ١٣ ديسمبر قررت اللجنة المركزية للحزب
الشيوعى أن تجرد جيفكوف من رتبته . ورأى أندريه لوكانوف
Andrei Lukanov ، عضو المكتب السياسى الذى رأس لجنة التحقيق
فى جرائم السلطة ، التى ارتكبها جيفكوف ورفاقه أن طرد جيفكوف من
الحزب يعنى انفصالا مطلقا عن الممارسات الفاسدة التى ارتكبت فى
الماضى . ((اننا لا نقول وداعا لشخص اننا نقول وداعا لسياسته)) .
هكذا أعلن لوكانوف . وكما حدث فى جمهورية المانيا الديمقراطية فقد
أدى الكشف عن الحياة المترفة التى عاشها جيفكوف الى اندلاع غضب
الجماهير المكبوت وطالبت الجماهير على نحو متزايد بالقضاء القبض عليه ،
لانتهاكاته السافرة للشرائع والقوانين ولحقائمه فى إدارة
السلطة (٥٨) .

وفى نفس الاجتماع ، استسلمت اللجنة المركزية لضغط الجماهير
وأيدت دعوة ميلادينوف التى وجهها للحزب الشيوعى ، كى يتخلى عن
احتكاره للسلطة السياسية المكفولة له دستوريا . وفى أوائل شهر
ديسمبر اجتمعت المعارضة تحت مظلة واحدة سميت اتحاد القوى
الديمقراطية Union (UDF) of Democratic Forces . وانتخب زليو

زيليف رئيسا للجنة الائتلافية . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩ وبعد المظاهرات الجماهيرية التى قام بها الاتراك Turks العرقيون تعهدت الحكومة الجديدة واللجنة المركزية للحزب الشيوعى البلغارى بشجب الممارسات السياسية المشابهة لممارسات جيفكوف ، الا أن بذور القومية كانت قد اقتلعت تماما على مر عقود سابقة، وبعد مظاهرات الاتسراك خرج الآلاف من البلغاريين العرقيين سُتوارع المدينة الشمالية كردجالى Kurdjali مطالبين باستفتاء شعبى حول القضايا الشائكة المطروحة . وبعد اقرار مجموعة من القوانين التشريعية التى تسمح لأعضاء الأقلية التركية باستعادة أسمائهم الأصلية وإعادة فتح المساجد ، شكل القوميون البلغاريون « لجنة الدفاع عن المصالح القومية » Committee For Defence of National Interests عززت التمثيل التركى المعارض فى البرلمان .

وتبع طرد جيفكوف وتجريده من رتبته أن سيطر على الحزب الشيوعى ثالوث مكون من بيتر ميلانوف السكرتير العام واندرية لوكانوف ، والكسندر ليلوف Alexander Lilov الأعضاء فى المكتب السياسى . وفى يناير ١٩٩٠ حددت اقامة جيفكوف بتهمة « إثارة عداوات عرقية بين البلغاريين والأقلية التركية وبتهمة سوء استخدام الممتلكات والأموال العامة » (٥٩) .

وعقد الحزب الشيوعى مؤتمرا طارئا عاصفا استمر من ٣٠ نوفمبر وحتى ٢ فبراير ١٩٩٠ ، وفى هذه المناسبة خلف الكسندر ليلوف بيتر ميلانوف كزعيم للحزب . وكان انتخاب ليلوف على قمة الهرم الحزبى الشيوعى ، يعنى أن أعضاء الهرم الحزبى القديم لن يقبلوا الهزيمة ولن يقفوا مكتوفى الأيدي .

ورغم تهميشه من قبل جيفكوف بعد عام ١٩٨٣ ، فقد ظل ليلوف الأيديولوجى المخلص للحزب وتمتع بعلاقة وطيدة مع ابنة جيفكوف ليودميلا (٦٠) .

وفيما يتعلق بمصير جيفكوف ، فقد وجه فى يوليو خطابا للبرلمان رفض فيه مواجهة الهيئة التشريعية ، مجادلا بأنه لم يكن يرغب فى أن يستغل كأداة لتحقيق الطموحات السياسية لمجموعات وشخصيات بعينها ، ورفض التهم التى وجهت له لأنها لا تستند لأى أساس قانونى : « اننى قد ارتكبت العديد من الأخطاء ولكنى لم ارتكب أية جرائم ضد الأمة » . إذا ، فإن مسئوليتى السياسية تقتصر على تلك الأخطاء » (٦١) .

وحاول الشبوعيون بعد أن أصابهم الارتباك والفوضى أن يفصلوا أنفسهم عن تجاوزات نظام جيفكوف وإعادة التأكيد على تقاليد الحزب

السابقة على الشيوعية . وفي عام ١٩٩٠ غير الحزب اسمه الى الحزب الاشتراكي البلغاري Bulgarian Socialist Party ، تجسيدا لانفصاله عن العقائد اللينينية .

حصار القلعة الرومانية :

وفي رومانيا ، بلغ الموقف أقصى درجات الدراماتيكية والغموض ، وذلك لان سياسة نيكولا شوشيسكو بلغت حداً كبيراً من الاحتكارية غير المقيدة للسلطة السياسية التي تجمعت في يده . وعندما انسحب سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي الروماني في مارس ١٩٦٥ ، اجزل شوشيسكو وعودا بتبني الليبرالية ، وبارخاء سيطرة الحزب على الحياة الثقافية واتباع السياسة الخارجية المستقلة التي بدأها سلفه جورج جورجيو دجي . وفي المرحلة الاولى من توليه الحكم فيما بين عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧١ طالب شوشيسكو بقيادة جماعية وانتقد سنوات القمع الستاليني وعارض السياسة السوفيتية التي تسعى لنوحيد الكتلة داخل مجلس الاتحاد الاقتصادي المتبادل CMEA . وبدأ انه يؤيد الخط القومي الذي بدأه تيتو في يوجوسلافيا . وكعضو في حلف وارسو ، ناوم شوشيسكو المطالب السوفيتية الخاصة بالانضمام لمانورات عسكرية وأصر على ان كل جيش قومي لا بد ان يخضع للقيادة الداخلية ، ونحدي التفسير السوفيتي للأمة الاشتراكية ورفض ان يقنفسى اثر خطوات موسكو فيما يتعلق بأزمة ١٩٦٧ في الشرق الأوسط ، اذ كانت رومانيا البلاد الوحيد من حلف وارسو الذي أقام علاقات دبلوماسية مع دولة اسرائيل . وفي عامي ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ انتقد شوشيسكو على الملا الحماقات التي ارتكبها البوليس السري Securitate في عهد ستالين وتعهد بأن مثل هذه الفضاعات لن تتكرر ابداً . وفي أبريل ١٩٦٨ قامت جلسة اللجنة المركزية الكاملة الاعضاء برد اعتبار لوكريتو بترسكانيو وزير العدل الأسبق وعضو المكتب السياسي والذي نفى بتهم ملفقة . وفي نفس الوقت ، اسنمرت رومانيا في الابقاء على موقفها الحيادي فيما يتعلق بالصراع القائم بين الصين وموسكو .

وفي أغسطس ١٩٦٨ وصل شوشيسكو لذروة جماهيريته الداخلية عندما أدان علانية وبعنف التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا ، الا أنه قام بذلك - تحديداً - لأنه أراد أن يستغل الدعم الشعبي الذي يتلقاه من أجل اطلاق العنان لنهج مستقل ، بهدف الكسب الشخصي ومن أجل توسيع نطاق سلطته الشخصية ، وبناء حكم استبدادي لا يعلى عليه أي حكم آخر في الكتلة .

ولم يكن الدافع وراء استيلاء شوشيسكو من سياسة برجنييف ،
التي تهدف للتدخل فى الشئون الداخلية لأوربا الشرقية ، ميوله الاصلاحية
بل على العكس ، فان الزعيم الرومانى أدرك ان التسامح الداخلى
ساهم فى صحوة محدودة : ولكن متزايدة - للثيارات النعديه العليديه ،
فقرر ان يضع حدا لهذه الفترة الليبرالية . وفى يونيو ١٩٧١ غام
شوشيسكو بزيارة الصين وكوريا الشمالية North Korea وأخذ بما
يمارس من شعائر لثأليه الحاكم والتي رآها تحيط بماوتسى تونج وكيم
السونج Kim Il Sung . وأثناء تلك الرحلة صحبته زوجته الينا
Elena التي كان تأثيرها على زوجها وعلى الحياة السياسية فى
رومانيا ، يتناسب تناسبا طرديا مع تدهور المناخ الاجتماعى ، وتزايد
الافراط فى عبادة الفرد الشاذة . وأصبحت الينا فى ١٩٧٤ عضوا كامل
العضوية فى الجسد الحاكم للحزب الشيوعى وهى الأمانة السياسية
التنفيذية .

واستمرت رومانيا فى السبعينيات فى اتباع سياسة خارجية مخلفة
عن تلك التى تتبعها موسكو ، تلك السياسة التى جعلت شوشيسكو
يبدو وكأنه معارض للامبريالية السوفيتية وهو ما استحسنته وسائل
الاعلام والسفارات الغربية . وفى نفس الوقت ، استعاد شوشيسكو
سلطة البوليس السرى ، وحول بيروقراطية الحزب الشيوعى لآداء
لتنفيذ قراراته التى كانت تتزايد غرابة ، وخروجا عن المألوف ، كما قطع
اتصاله بالمجموعة السياسية التى ساعدته فى دعم سلطته أثناء
السنوات الأولى من توليه السلطة . وكان أى شكل من أشكال النقد
داخل حلف القمة يعد عملا تحريضا ، أما اذا جرؤ أحد على المساءلة عن
حدود سلطة شوشيسكو فانه يتم التخلص منه فورا واستبعاده من القباة
الحاكمة . وأحد هؤلاء الذين عبروا عن تحفظاته فيما يتعلق باطلاق
شوشيسكو العنان للستالينية الجديدة وذلك فى صيف ١٩٧١ عندما
عاد من رحلته الآسيوية ، كان ايون اليشكو Ion Iliescu
الذى كان آنذاك سكرتيرا للجنة المركزية ، والمسئول الأول عن
الأيديولوجية ، الذى اعتبر على نطاق واسع محميا من الرئيس ويل
ووريثه الشرعى . وفى أثناء جلسة اللجنة المركزية التى
اليشكو اللوم من شوشيسكو بسبب الليبرالية والعقلانية
المزعومتين . وبعد ذلك خدم اليشكو كسكرتير مسئول عن الدعاية فى
لجنة الحزب فى مقاطعة Timis County party Committee ، وفى
الثمانينيات أصبح رئيسا للجنة الدولة للاشغال العامة For water

State Party ، وفيما بعد وحتى ثورة ديسمبر ١٩٨٩ قام بإدارة مؤسسة النشر التقنى Technical Publishing house فى بوخارست .

ومنذ السبعينيات تطور دور الينا ونما لحد غير معقول اذ أصبحت شرعيا الشخص الثانى فى الهرم الحزبى . وكرئيس لأمانة اللجنة المركزية المسئولة عن التعيينات وكذائب لرئيس الوزراء هيمنت الينا على الساحة السياسية الرومانية ، كما تحكمت فى اعداد كل مقابلات زوجها وكذلك ترتيب جدول مواعيده . لقد كانت هى التى شجعت غرور الرئيس المرضى واحاطته بحائط من الأخيلة والتأليه والأسطوري . وليس معنى ذلك اننا نقول ان شوشيسكو بدون الينا كان يمكن أن يصبح ليبراليا . لقد نما شوشيسكو فى الدهاير السرية للحزب الشيوعى الرومانى وبسبب تعقد مسألة الشرعية فى الحزب ، نما لدى شوشيسكو شعور بالاضطهاد يميز الفصائل الصغيرة المتأمرة . واطافة الى ذلك فقد تورط شوشيسكو مباشرة فى قمع الفلاحين والفكرين فى الخمسينيات . ومع الينا التى تحتل المرتبة الثانية فى الحكم ومع الأعضاء الآخرين فى عصابة شونيسكو بما فيهم نيكولا Nicu ابنه الأصغر وقائد أول اتحاد للشباب الشيوعى Communist Youth Union ورئيس لجنة الحزب فى مقاطعة سيبيو Sibiu County Party Committee ونائب فى اللجنة السياسية التنفيذية ، فان نجاح خطة توارث الحكم بدا مؤكدا .

ان شكل القيادة الفردية والتى تطورت فى رومانيا بعد عام ١٩٧١ جعل من المستحيل أن تضع حاشية الحاكم أى قيود مهما كانت قليلة على أعمال الحاكم وتصرفاته . ولم تكن هناك معارضة سواء داخل القيادات الحزبية أو خارجها ، اذ سحق المناخ القمعى على نحو غير منصف أقل مبادرة نقدية (٦٢) . ان سيكولوجية شوشيسكو لعبت دورا كبيرا فى الكارثة الضخمة . وكتب مراقب ثاقب الرؤية من الشيوعيين فى رومانيا قائلا :

((ان العامل الأعظم والوحيد فى الانهيار الداخلى المذموم لرومانيا كان مزاج شوشيسكو المتقلب . ولا يوجد زعيم أوربى فى النصف الثانى من القرن العشرين جسد الآثار والعوامل التى تسببت فى ضعف السلطة أكثر مما فعل هو . رجل ذكى ، دعوب فوق العادة ، وطامع . ليس قاسيا على المستوى الشخصى (مثلما كان مائيساكس واكوسى فى المجر أو كما كان ستالين) ربما كان يقصد ذلك وربما ظل كذلك الا أن اسمه ظل مقترنا بالارهاب التاريخى)) (٦٣) .

وبعد أن أتى جوربانثوف للسلطة وجد شوشيسكو نفسه معزولا تماما . ومنذ أن تغير الاتحاد السوفيتي وفقد حلف وارسو ولعه بالعنان ، فإن مجداً المحلية الرومانية الذي امتدح كثيراً لم يعد يجد قبولا لدى الغرب . وفي نهاية الأمر اعتبرت معاداة شوشيسكو للمستالينية ضرباً من الستالينية نفسها أكثر مما هي نوع من الإصلاحية . وعلى عكس يوجوسلافيا تحت قيادة تيتو ، حيث صاحب الاستقلال الخارجى ليبرالية داخلية محدودة ، فإن شوشيسكو استغل الإدراك الدولى للمسار نصف المستقل فى السياسة الخارجية كى يفرض نظاما سلطويا دراكرليا يعتمد على افراط بين فى القومية واحتفاظ بالمؤسسات الستالينية الرئيسية بما فى ذلك البوليس السرى المرعب الذى سحق كل أشكال المعارضة . وفى صيف ١٩٧٧ أضرب عمال الفحم بواى جيو Jiu Valley ، إلا أن السلطة سحقته واعتقل زعماء الاضراب أو قل اختفوا . والمنشقون أمثال الكاتب بول جوما ، والمؤرخ فيلاد جورجيسكو Vlad Georgescu والشاعر دورسين نبودران ، أجبروا جميعاً على ترك بلدهم بعد مضايقات لا حصر لها ونفس الشيء حدث للرياضى ميهاي بوتز الذى جرؤ على نقد النظام من منطلق قناعاته المتعلقة باحترام حقوق الانسان . وآخرون أمثال الشاعر ميرشيا دينيسكو Micrea Dinescu والناقد الأدبى دان بتريسكو Dan Petrescu والاستاذة الجامعية دويينا كوريتا . خضعوا جميعاً لمراقبة بوليسية محكمة . وكان الأمل ضعيفاً فى أن أى شيء يمكن أن يأتى من الصفوة العليا للحزب الشيوعى ، حيث كانت هيمنة شوشيسكو مسألة لا تقبل النقاش .

وتحت وطأة الخوف من أى شكل من أشكال الضغط الخارجى القوى ، بذل شوشيسكو جهوداً خارقة كى يسدد ديون بلده الخارجية التى كانت أكثر من ١٢ بليون دولار ، ونجم عن ذلك حظر شبه تام على استيراد السلع بما فى ذلك قطع الغيار ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للصناعة الرومانية . وفى نفس الوقت فإن الانتاج الزراعى استغل فى التصدير من أجل زيادة احتياطي البلد من النقد الأجنبى . أما الأعباء التى وقعت على كاهل الجماهير وخاصة بعد شتاء ١٩٨٤ فكانت تفوق التصور، إذ كان على الناس أن يتجمدوا فى منازلهم بسبب قرار الحكومة بمنع امدادات الطاقة عن الاستهلاك المحلى ، واعتاد الرومانيون أن يتندروا على ذلك قائلين ان الفرق بين هتلر وشوشيسكو أن الأول كان يقتل الناس بأشغال الجاز بينما الثانى يقتلهم بقطعه عنهم . ان رومانيا الموطن الأصلى ليوجين ايونيسكو Eugene Ionesco كاتب المسرحيات

الهزلية الذى يقيم فى فرنسا بدت أرضا تفضل فيها الوضاعة على الرقى .

وكما لو كانت كل هذه الاجراءات غير كافية لاثارة الغضب والحنق بين الجماهير التى يزايد شعورها بالخزى يوما بعد يوم ، فان شوشيسكو امر بهدم اركز النمساوى لعاصمه الامة فى بوخارست وفى مكانه شرع فى بناء مركز ادارى جديد يضم « مجلسا للشعب » House of Public يفوق قصر المرساي Versailles Palace حجما . وكانت الاستبدادية الشيوعية فى حاجة لرموز كى تخله نفسها فلم يتردد شوشيسكو فى انفاق قدر كبير من الأموال على بناء نصب تذكارية تمجد شخصه واجبر العمال على انشائها . ومنذ ان بدأ الحكم يلعب بورقة القومية فى دعائنه نظر للأقليات العرقية على أنها وباء خطر حامل اقبم دخيلة . ومن بين الأقليات الرومانية كان هناك نحو ٢ مليون مجرى أصبحوا هاجسا يؤرق شوشيسكو ، فقد نظر اليهم على انهم أجنبى خطرون وعلى انهم حصان طروادة Trojan horse الذى يهدد وحدة الامة الرومانية . والقى الزعيم خطبا رنانة ضد هؤلاء الذين لا يقدررون اهمية بناء امة منسجمة العناصر . وفى آخر الأمر قرر الآلاف من المجريين أن يتركوا بيوتهم ويعبروا على نحو غير شرعى الحدود الى المجر . ولسخرية الاقدار فقد اصطحبهم العديد من الرومانيين أنفسهم الذين فضلوا مغادرة وطنهم الأم ، عن المعاناة من جراء استبدادية شوشيسكو . وبادر شوشيسكو أيضا بتوطين اجبارى لجماهير القرى فى المدن الحضرية كدليل على تقدم البلد السريع نحو الشيوعية وبعقليته الستالينية ، أراد الزعيم أن يزيل كل الفروق بين مناطق الحضر والريف باقتلاع ما يربو عن سبعة آلاف فلاح من جذورهم . وهذا العمل الذى حاولت الدعاية الرومانية أن تقدمه للجماهير على أنه خطوة نحو (التمدن) أثار غضبا قوميا كبيرا . وكان الرومانيون فى كل أرجاء البلد فى حالة غليان تام .

وكان الصدع الأولى المرنى فى حصن رومانيا الستالينية الذى لا يقهر هو المظاهرات الشعبية فى براسوف Brasov المركز الصناعى فى رومانيا وذلك فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٨ . ورغم أن النظام الحاكم حاول أن يحقر من شأن هذا السخط الشعبى ، فقد أذاعت محطات الراديو الغربية ما يحدث من قمع فى براسوف ، وإدرك الناس أن العمال من مصنع العلم الأحمر Red Flag المخلق بسبب الاضراب لم يتظاهروا من أجل أهداف اقتصادية فقط ، وانما رفعوا أيضا الشعارات المعادية

للدكتاتورية . ان تمرد براسوف حيث نقب المتمردون في المقرات المحلية للحزب ، واحرقوا صور نيكولا والينا شوشيسكو - كان اول عمل للثورة الرومانية ولكن الطبقة الحاكمة الرومانية البليدة لم تفهم وحتى آخر لحظة بأى رد فعل لمنع القمع العنيف للحركة .

وكلميا همت الحركات الاصلاحية في استجماع زخوها في البلدان الأخرى . ازداد توتر شوشيسكو فبدأ فى توجيه النفد العسكى لجورباتشوف لتخليه عن المبادئ الأساسية للماركسية اللينينية . وبما قامت به وسائل الاعلام تحت حكمه بالتوليف بين التزامه بالشيوعية المتشددة واصرار المتزايد بأن الجذور القومية (الرومانية) كانت فى خطر بسبب المؤامرات الخارجية والعملاء المتسللين الذين نم زرعهم بين الأقليات العرقية ، لم يكن شوشيسكو الوحيد من نوعه ، ففى بلغاريا المجاورة كان تيودور جيفكوف ، الضحية الأخرى للبروسترويكما التى تتوسع وتنتشر ، يقوم بتكثيف حملاته ضد الأقلية العرقية التركية . وبمواجهة خطر حركة الاصلاح التى تشجعها قيادة موسكو التعديلية عادت القيادات الشيوعية الرومانية والبلغارية لاستخدام الأسلوب القديم التقليدى وهو البحث عن كبش فداء . ان عداا الأجنب الذى ميز الزعماء الشيوعيين المعادين للاصلاح أخذ اشكالا علنية تارة وخفية تارة أخرى ، وكان ذلك يتوقف على درجة الاستقلال الذاتى الذى يتمتع به النظام فى علاقاته مع موسكو . ان المحاولة اليائسة التى قامت بها الأحلاف الستالينية للابقاء على وجودهم بالسلطة من خلال التلاعب بالمشاعر والاحباطات العرقية وصفت على انها « الشيوعية المصابة بمرض عداا الأجنب » . لقد كانت محاولة من أجل تجنب التحديت والاصلاجات ، ولخلق احساس عام بالخطر القومى ، واستعادة الاصولية الوطنية أكثر من استعادة الماركسية التقليدية :

« ان الشيوعية المصابة بداء معاداة الأجنب ، تحاصر الشيوعية بحثا عن أحقر قاسم مشترك عام قومى ، والهدف وراء ذلك هو تعبئة المجتمع وهو ما تفاضل من أجل تحقيقه وذلك باثارة الغضب القومى . وبينما كانت هذه الدعوة جديدة بكل المعانى على الشيوعية ، فسان ما خلق الشيوعية المصابة بداء معاداة الأجنب Sui generis حقيقة هو ان أعداءها الأيديولوجيين لا يمكن تمييزهم عن أعدائها القوميين » (٦٤) .

حقيقة ، ان الشيوعيين المصابين بمرض عداا الأجنب اعتبروا ان أى دعوى للاصلاح هى محض خيانة للمصالح القومية . ان هلع شوشيسكو الهستيرى مما اسماء التسلل الأجنبى الذى أوشكل على

الانفجار في خطابه الأخير في ٢ نوفمبر ١٩٨٩ يمثل ترجمة كاملة للتوليفة غير المتسقة بين القومية والستالينية .

ورغم الدعاوى المعادية للأجانب ، كان هناك حتى داخل رومانيا من يطالب بالتخلص من الأساليب الدكتاتورية للقيادة وبالوصول لسياسة الانفتاح : وفي بداية مارس ١٩٨٩ وجه ستة من رموز القيادة السابقة في الحزب الشيوعي الروماني خطاباً مفتوحاً للرئيس نيكولاي شوشيسكو ، حيث هاجموا ممارسات شوشيسكو التي جلبت الدمار هجوماً شديداً . وطرحوا بديلاً سياسياً لجعل رومانيا بلداً ديمقراطياً ولأنهم حذروا سياسة الجلاسnost ، فإن الموقعين على هذه العريضة والذين كان من بينهم كثيرون ممن تقلدوا منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي الروماني ، قد هاجموا شوشيسكو لتسببه في فقدان الصورة الاشتراكية لمصادقيها . ودون شجب مباشر لاحتكار السلطة من قبل عصاية الرئيس ، فقد طالب الأعضاء الستة البارزون في «الحرس القديم» Old Guard بإقامة دولة القانون من خلال مراقبة محكمة على الدستور . وقد اعتبروا «المنهج» الذي أمر بها شوشيسكو هي إهانة موجه لكل المواطنين الرومانيين ، كما شجبوا بعنف عزلة رومانيا عن الشرق والغرب والتي تنذر بالسوء . وقد أجمل أول سطور الخطاب جو الإرهاب الذي نعم رومانيا بحت حكم شوشيسكو :

« لأن الاشتراكية الأصلية التي حاربنا من أجلها قد فقدت مصداقيتها بممارساتك السياسية التي عزلت وطننا عن أوروبا ، قررنا أن نتكلم . اننا واعدون تماماً بأن القيام بذلك يجعلنا نخاطر بحريتنا بل وحتى بحياتنا ، ولكننا نشعر بواجب مطالبتك بقلب النظام الحالي قبل أن يفوت الأوان » (٦٥) .

وقدور إذاعة محطة بي بي سي العالمية BBC World Service الخطاب ، حددت إقامة الشيوعيين الستة وخضعوا لاستجوابات البوليس السري ، ولكن اعتقالهم لم يوقف الغضب المتأجج في رومانيا .

وفي مارس ١٩٨٩ نشرت الصحيفة اليومية الفرنسية « الحرية Liberation » حواراً مع مرشياً دينيسكو ، الشاعر الذي يبلغ من العمر ٣٨ عاماً والذي يعتبر على نطاق واسع واحداً من أكثر كتاب بلاذة شهرة .

وبعد أن شبه الرومانيين بجنائز التحربة الشيوعية التي يقوم بها دكتاتور مصاب بالبرانويا ، حدد دينيسكو الآمال العظمى للرومانيين

والأوروبيين الشرقيين وهو ما كان أثرا من آثار ممارسات جورباتشوف السياسية للجلاسونست والبروستريكا فقال :

« في المقام الأول ، كانت رومانيا دائما تنظر الى الغرب بتوجس وخوف وهو ما يمكن تفسيره تاريخيا ، اذ أنها أمة وقعت على حافة امبراطورية . وفي المقام الثاني ان الستالينية لم تهبط علينا من هونولولو Honolulu ولكنها قذيفة أيديولوجية ألقتها علينا الكرملين ولأعوام طويلة ظل يهمس تارة وبعلانية تارة أخرى بأن الدب الشرقى Eastern Bear قد منع النظام من أن يصبح أكثر ليبرالية وصديق الشعب ذلك . » ان القوات السوفيتية تقوم بمناورات على الحدود الرومانية « هذه هي المقولة التي ترددها السلطات في كل مرة يحاولون فيها أن يخاطبوا عقولنا . ولا أدري اذا كان شعب الاتحاد السوفيتي ينظر لجورباتشوف على أنه قيصر صالح أم لا ، ولكن في بولندا والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا فإن الملايين الذين رزحوا تحت وطأة الذل لسنوات طويلة كان يرونه مبشرا « بالأخبار الحسنة » ويسوع الاشتراكية ذات الوجه الانساني » .

وبمجاوبة الضغط الخارجى والاضطراب الداخلى العارم ، فان الزعيم أصبح أكثر شراسة في رفضه لآى شكل من اشكال الاصلاح . وقد ادعى أن رومانيا قد انتهجت منذ أمد سياسة اصلاحية وأن النظام السياسى فى بلده لا يحتاج لآى ضبط . وحقيقة ، فان شوشيسكو كان أكثر زعماء حلف وارسو تعبيراً عن رفضه التام لمبادرات جورباتشوف . وفى مناسبات عدة قال ان الجورباتشوفية تعود الى تزايد مد الجناح اليميني داخل الدولية الشيوعية وظل على عهده بأن « بناء الاشتراكية لا يمكن ان يتم من خلال الاصلاحية » .

وفى هذا المجال لم يكن هناك اى اختلاف بين مواقف شوشيسكو ووجهات النظر الستالينية التى يعلنها رامن عليا زعيم البانيا المنبوذة والذي شجب المسار الاصلاحى فى الاتحاد السوفيتى والمجر وبولندا . لفتحهم الطريق للملكية الخاصة والشرور الأخرى التى تتصافر مع الرأسمالية (٦٧) ، وفى اكتوبر ١٩٨٩ رفضت سينيتيا Scintea ، المحلة الرسمية للحزب الشيوعى الرومانى ، بوضوح الدعوات التى تطالب بالنظام المتعدد الأحزاب ، باعتبارها دعوات تقوض النظام الاشتراكى :

« ان الحزب الشيوعى الرومانى يعتبر ان هذه الاطروحات التى تتعلق بالعودة الى النظام المتعدد الأحزاب فى الاشتراكية هى الشر

يعينه إذ أنها تمهد الطريق لعودة أشكال الاستبداد التي يمارسها النظام
السياسي الرأسمالي . ان المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي
البولندي أكد على أن وجود الحزب الواحد للطبقة العاملة وتقوية
وحدة الشعب حول الحزب ، تحت الظروف التي وجدت يعد احتفاء بالصبغات
المتفاحرة ، لهو مطلب تاريخي موضوعي « (٦٨) » .

وفي السابع عشر من نوفمبر وفيل أسبوع من مؤتمر الحزب
الشيوعي الروماني الخامس عشر ، وقبل دخول دول أخرى من الحدة
السوفيتية في آتون من الاضطرابات ، فان صحيفة سينتيا وجدت
أنه من المناسب إعادة طبع المقابلة التي أجريت مع الشيوعي المتشدد
يوجور ليجاتشيف Iegor Ligachev ، والتي عبر فيها عن وجهات نظر
مشابهة لتلك التي عبر عنها شوشيسكو فيما يتعلق بالحاجة الى نظام
احادي الحزب . وفي مؤتمر الحزب استعرض شوشيسكو مرة أخرى
ترسانته المدججة ، لاقتناع الجماهير الساخطة بأن رومانيا
ستكون قادرة على مقاومة التغيير فأطلقت صيحات الفرح
والتهليل من قبل المشاهدين الخاضعين لسيطرة الحزب وتدين له
بالطاعة والولاء . وشجب شوشيسكو المكائد الدولية المرسومة
ضد استقلال الدول الصغرة . وبالإشارة الى قمة مالطا Malta
التي عقدت بين الرئيس بوش Bush والسكرتير العام جريباتشوف .
المح شوشيسكو الى خوفه من أن ذلك يمكن أن يؤدي الى سيادة
متكافئة للقوتين العظميين على العالم وكان شوشيسكو هو الوحيد الذي
طالب بأن يظل حاملا لمسئوليته في المستقبل المنظور كحارس لطهارة
الماركسية اللينينية وللإشتراكية الأوتوقراطية :

« منذ نحو ستين عاما مضت انضمت لهذا الحزب ، وفي المستقبل
سوف اكون دائما في صفوف الحزب الشيوعي الروماني » (٦٩) .

وأثناء مؤتمر الحزب كانت عزلة رومانيا قد أصبحت واضحة
لغياب الوفود الموضوعة للأحزاب « المتأخية » من المجر وإيطاليا ، الا ان
غياب الوفد الممثل لجمهورية المانيا الديمقراطية هو ما أثار فزع
شوشيسكو ، اذ منذ أقل من شهرين كانت المانيا الديمقراطية هي المؤيد
الوحيد لشوشيسكو في رفضه العنيد لقبول الاصلاحات . وفي نفس
الوقت كانت قيادة هونكر قد استبدلت نتيجة لتصاعد موجة الاحتجاج
الشعبى . وفي المانيا الديمقراطية نجد المدافعين عن حقوق الانسان
والجماعات السلمية التي طالما قمعتها السلطة قد تقدمت الثورة ، مؤكدة
على طبيعتها السلمية .

وكان سقوط نظام هونكر يعد بانسبة لشوشيسكو ضربة قاضية . ومع الهجوم الشرس الذى شن على جيفكوف داخل الحزب البلغارى ، رمع مئات الآلاف من هؤلاء الذين خرجوا للشوارع فى براغ وبرايسلافا ، ومع استسلام الحكومة الالمانية الشرقية للضغط القادم من القاعدة ، وجد الزعيم الرومانى نفسه معزولا تماما داخل حلف وارسو . وهذه العزلة زادت حدتها أكثر بمقاطعة الضيوف الأجانب لمؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى ، وكذلك عندما انهار النقد الحاد على شوشيسكو من وسائل الاعلام الأجنبية بما فيها تلك التى فى البلدان الحليفة . ان وكالة الاخبار الالمانية الشرقية ADN أذاعت قرار عدد من الأحزاب الشيوعية بمقاطعة مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى مشيرة الى « الانتهاكات المستمرة لحقوق الانسان وسياسة تاليه الفرد التى تحيط بذيكو لاى شوشيسكو والانتهاكات الخطيرة للديمقراطية الاجتماعية » (٧٠) .

وفى مواجهة هذا الازدراء والعزلة ، خطط شوشيسكو لاستخدام آلة الدعاية الخاصة بنظامه ، فى خلق انطباع بأن الشيوعيين الرومانيين سيكون فى اسنطاعهم تجنب مصر نظرائهم فى دول الكتلة السوفيتية الأخرى . وفى أقل من أسبوع قبل بداية النمرد المعادى لشوشيسكو فى تيميشوارا قالت وسائل الاعلام الغربية :

« على المدى القصير ، فان تعلق شوشيسكو بالسلطة يبدو مؤكدا ولكن لن يعاد انتخابه ثانية سى مؤتمر الحزب الشيوعى القريب ، لأنه يمثل الطاغية التى انكرت بتعننت امكانية الإصلاح . وبارسال تهديده الى المجر الاصلاحية يكون شوشيسكو بذلك قد أحكم اغلاق الحدود مع جارتة فى حلف وارسو . وفى اطار تمسكه بالحكم بأن شوشيسكو كان سنياسيا داهية ويعيد النظر . وربما كانت الأحداث فى أوروبا الشرقية قد فاجأت الغرب ، الا ان استقرار رومانيا الحالى يشير الى أن شوشيسكو كان مستهددا منذ وقت كاف » (٧١) .

والحقيقة هى أن شوشيسكو وأحلافه فى جبهة الرفض لم يتأهبوا تماما لمثل هذا الاجتياح . فقد كان رد فعلهم مرتبكا ، ولأن موسكو كفت عن لعب دور حامى كتلة السوفيتية والتى اعتادت لعبه فى الماضى ، فان الأنظمة الشيوعية بدت كالأيتام .

وفى بعض البلدان مثل المجر وبولندا ، فان الجماعات الاصلاحية داخل ائتلاف الحزب جنحت لاجراء مفاوضات قد تنقذ ما يمكن انقاذه على أمل الاحتفاظ بسلطتها . وفى رومانيا ، لم يكن هناك داخل السلطة الحاكمة

أى فصيل اصالحى التوجه ، لدرجة تمكنه من عزل شوشيسكو وعصبته والعمل على طريق الليبرالية - فكانت الظروف مواتية لانفجار شعبى تلقائى .

وبدأت الثورة الرومانية فى بيميشوارا والتي أشعلتها شجاعة رجل واحد وهو لازلو توكسس Laszlo Toxës الكاهن المبجل وراعى الكنيسة الاصلاحية (الكالفينية Calvinist) مع عدد من الاقليات المجرية العرقية . ورغم المضايقات المتكررة من جانب البوليس السياسى ، فان توكسس كان بطلا مغوارا مدافعا عن الحقوق الانسانية والدينية . وفى ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ عندما حاول عملاء البوليس السياسى طرد توكسس بالقوة من بيته فى الأبراشية ، فان آلافا من - الرومانيين وكذلك المجريين - صنعوا سياجا بشريا لمنعهم ، وقاموا بمظاهرات عارمة معادية لشوشيسكو . وفى ليلة السادس عشر من ديسمبر فان المدينة كانت قد عجت بالاحتجين المعادين لشوشيسكو وللشيوعية . ان العمل الذى بدأ من منطلق دينى أطلق العنان للسخط المدنى الثائر وادى الى تمرد جماهيرى ناضج ضد واحد من أكثر الأنظمة فى العالم سلطوية وسيطرة وتحكم .

وفى ١٧ ديسمبر وبتعليمات من شوشيسكو سحقت قوات الأمن مظاهرات تيميشوارا بالقوة وبلا هوادة . وأصبح بينا ان الديكتاتور الرومانى لا يحذو حذو النموذج الالمانى الشرقى فى ضبط النفس وأنه سوف يستخدم أية وسيلة كى يحتفظ بسلطته .

وفى نفس اليوم ، وصلت أنباء ثورة تيميشوارا وقمع شوشيسكو الدموى لها لبوخارست وبلجراد والمواصم الغربية . وبشت محطات الاذاعة الغربية القصة الى رومانيا مرة أخرى ، الا ان الديكتاتور لم يبد أنه استوعبها ، اذ أنه غادر البلاد فى ١٨ ديسمبر الى طهران ، ومنذ هذه اللحظة فصاعدا كان مصير نظام شوشيسكو قد قدر . كيف أصاب شوشيسكو مثل هذا العمى حتى انه لم ير الاشارات العديدة التى تنبئ بقيام الجماهير برد فعل عنيف ضد الحكم الدراكولى ؟ لماذا تجاهل هذا السخط الذى تفشى حتى فيما بين البيروقراطيات الحزبية العسكرية والبوليس ؟ لقد جاء اجتياح تيميشوارا فى فترة كان حلفاء شوشيسكو المقربون فى حلف وارسنو هم تيودور جيفكوف وازيك هونكر وميلوس جاك - قد ألقى بهم خارج الحكم . وبحصاره فى خندق أوهامه واحتجازه رهنا لشخصه المؤله وحاشيته النفعية ، فضل شوشيسكو ان يتجاهل الحقيقة الواقعة وظن ان الأوهام

التي دونت في وثائق الحزب بما فيها شعاراته عن الاتحاد الوحدوى بين
الأمة الرومانية وزعيمها أبدية .

وبعدئذ ليوخارست ارتكب شوشيسكو خطأ فادحا : ففي ٢٠
ديسمبر خطب في الأمة وبث الخطاب في الراديو والتليفزيون وشجب
الأحداث التي جرت في تيميشوارا وأسمى الثوار « قطاع الطرق »
و « الفاشيون » و « المحرضون » و « عملاء الغرب » . ووفقا للبيانات
المتاحة حتى الآن قال : « ان المرء يستطيع أن يقول باقتناع تام بأن هذه
الممارسات ذات الطوعية الإرهابية قد نظمت وأطلقت من قبل الدوائر
الرجعية والامبريالية والعرقية والشوفينية ومن قبل دوائر التجسس في
دول متعددة » (٧٢) .

وامتدح السكرتير العام الجيش والبوليس السرى بسبب
« صمودهم الذى لم يتزعزع » في مواجهة هذه الأعمال وإذا جاز التعبير
فقد تحمل مسئولية شخصية — كقائد أعلى للقوات المسلحة الرومانية —
عن المذبحة البشعة ، واعتبر تحذيره الحاد من المظاهرات التي قد تندلع
في أماكن أخرى نوعا من التأكيد على الأنباء المرعبة الخاصة بنهر الدم
الذى يجرى في تيميشوارا والتحدى المهيئ للجماهير الساخطة المحبطة .
لقد كانت هذه هي اللحظة التاريخية التي قفزت لوعى العديد من الرومانيين
الرغبة في عبور عتبة الخوف الى الثورة ، والأخلاق ، والغضب ،
والسخط ، وأصبحوا جميعا فجأة — أقوى من الخوف (٧٣) . وتولدت
ثورة رومانيا من الاحباط المطلق . ورغم أن الشباب الذين خرجوا للشوارع
أدركوا أن مصيرهم هو الموت ، إلا أنهم رفضوا قبول أى استمرار للمقمع .

ومرة أخرى ارتكب شوشيسكو خطأ قاتلا وهو قراره الغريب
بتنظيم مظاهرة شعبية ضخمة تأييدا لحكمه ، مشابهة لتلك التي جرت
من شهر فانت . ويعد المهرجانات المزركشة التي أقامها إبان
مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى الخامس عشر ، حيث ساق البوليس
السرى عشرات الآلاف من الناس كالماشية وتم حشد رؤساء الحزب ،
داخل ميدان القصر Palace Sqtare ، شعرت الجماهير فى صبيحة ٢١
ديسمبر بمنتهى السخط ، وأصبح التمرد وشيكا . وفجأة بدأ
التليفزيون الرومانى وبعده مباشرة التليفزيون الدولى فضح
شكوكية الطاغية وغضبه والتندر عليها واستخدامها للسخرية منه ،
وتحولت الشعارات الشعائرية مثل « شوشيسكو والشعب !
» « Seasescu si Poporul » الى « شوشيسكو الديكتاتور ! » ! dictitorial

أما تغيير أعضاء البوليس السرى لموقفهم من المديخ الزائف
لشوشيسكو الى الاحتقار الحقيقى والمزى وما اذا كان هذا التعبير —

كما ادعى البعض بناء على تعليمات رؤسائهم الذين قرروا - سرا - التخلص من شوشيسكو فهذا شيء غير مؤكد ، وعلى أية حال ، فقد شاهدنا ملايين المشاهدين عبر شاشة التلفزيون وهم يصرخون ضد الديكتاتور شارشيسكو . ان الصرح المنيع الذى ضرب حول السلطة قد سقط سقوطا مدويا وتحول الى انقاض تحت رزح هذا الانفجار التلقائى للسلط الجماهيرى .

لقد رأت الجماهير الزعيم وهو يلوح بذراعيه فى ذهول وعصبية ، وما زلنا نذكر صوت الينا شوشيسكو وهى تحت زوجها كى ينمساك ، ويضبط أعصابه . وعندما تم اقتراح نقل اقامته لكان آخر بدا شوشيسكو فى جزل وعود ديماجوجيه فى محاولة أخيرة لتهديئة الجموع المشتعلة غضبا . الا ان السلطة كانت قد انزلت بالفعل من شرفة مبنى اللجنة المركزية الى الشارع .

وفى أعقاب المظاهرات الطلابية التى وقعت بميدان الجامعة University Square فى ديسمبر ، ورغم القمع الدموى لها ، اندلعت مسيرات تلقائية معادية لشوشيسكو ملأت شوارع بوخارست وشارك فيها مئات الآلاف وانتابت محطة التلفزيون نوبة عارمة من الدعم للجماهير بمساعدة الجيش الذى غير موقفه فى صف الشعب . ولان المفرات الحزبية قد هوجمت من قبل المتظاهرين فان نيكولاى شوشيسكو وزوجته قد تسلا من المبنى مستخدمين طائرة مروحية الا ان الجيش سرعان ما أمسك بهما ووضعهما فى سجن انفرادى فى مكان سرى . وتكون فى نفس اليوم مجلس جبهة الخلاص القومى National Salvation Front Council ، التى أعلنت التزامها بالتعددية السياسية والتخلص من مؤسسات النظام السابق . واختفى الحزب الشيوعى الرومانى كان لم يكن . ولم تكن هناك أية مقاومة تذكر لمنع الاجتياح الا من جانب بعض وحدات البوليس السرى ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ الى ٣٠ ديسمبر حتى شنق شوشيسكو وزوجته وهو ما أسدل الستار على الحمى الجماهير وعم الارتياح والحماس ، بل واجتاحت نسائم الامل البلد بأسره ورغم العنف ، فان العيد النورى استمر على أحسن ما يكون حتى الأيام الأولى من عام ١٩٩٠ ، عندما بدأت خيبة الامل فى حكومة جبهة الخلاص القومى التى نصبت نفسها حاكمة ، تدب فى نفوس الجماهير .

وطرحت ثورة ديسمبر الجديد من الأسئلة حول الظروف الغامضة التى أحاطت محاكمة وشنق نيكولاى والينا شوشيسكو وحقيقة جبهة الخلاص القومى NSF .

وقد تساءل أحد المراقبية الذى تم ابعاده عن الأحداث ، عن نوايا جبهة الخلاص القومى وطالب بكشف ظروف وملابسات المحاكمة غير العلنية والتي استتبعها اعدام الثنائى نيكولاي والينا . ورغم أن المتحدث الرسمى عن جبهة الخلاص القومى قد وعد بمحاكمة علنية عندما القى القبض على شوشيسكو أثناء فراره فى صبيحة يوم ٢٢ ديسمبر أعلن بعد ثلاثة أيام أن هيئة عسكرية سرية قد حكمت على الثنائى شوشيسكو بالموت وتم اعدامهما فى الحال . وتدافع جبهة الخلاص القومى عن المحاكمات العاجلة والحكم بالاعدام رميا بالرصاص على نيكولاي والينا قائلة بأنها انقذت حياة الملايين بالقضاء على « الارهابيين » فى البرايس السرى الموالين لشوشيسكو ، الذين كانوا يدافعون عن قضية خاسرة وأجبرتهم على الاستسلام .

وبعد هذه الأحداث نستطيع أن نقول ان مثل هذه المقامات كانت تجزيئا وأقل كثافة مما أبرزته وسائل الاذاعة والتليفزيون ، التى ركزت على حرق مكتبة الجامعة المركزية فى يوخارست والخسائر الفادحة التى وقعت فى متحف الفنون الذى يقع فى الطابق الثانى من القصر الملكى القديم .

وعندما لم يقدم « الارهابيون » للعدالة وبالتالى لم يسمع عنهم أحد ، بدأ الشعب فى الشك فى وجودهم . وبدأ للكثيرين فى رومانيا أن نواة الشيوعيين الصلدة لجبهة الخلاص القومى قد باغت ، عندما قالت ان هناك تهديداً من الارهابيين لاحتواء الثورة المضادة للشيوعية التى اندلعت من القاعدة . ان الأنباء السعيدة عن موت الطاغية قد أحيطت بظروف ضبابية . وبدلاً من الانتقام الثورى من الطاغية فقد شهد شعب رومانيا على ما يبدو انه جريمة قتل تتم فى محاكمة صورية زائفة دافع فيها محامون بدوا مثلهم مثل الادعاء - مهاجمين ومتهمين - فى محاولة لاذلال الزعيم المخلوع وزوجته . ان تصفية شوشيسكو جسدياً وبأسرع ما يمكن ، كان شيئاً حتمياً لضمان سكوته وضمان انتقال سهل من الأوتوقراطية الستالينية الى الرؤية الرومانية للشيوعية الاصلاحية . واهتم الزعيم الجديد اهتماما كبيراً بشجب الدكتاتور السابق وحاشيته لمسئوليتهم الرئيسية عن كل الكوارث التى أصابت البلد . وبدلاً من محاكمة حقيقية للشيوعية الرومانية ، فقد قدمت الجبهة للجماهير صورة للعدل زائفة تهدف الى تصوير الزعيم كشیطان ، وفى نفس الوقت تبرئ ساحة الأجهزة الضخمة التى سهلت لحكم شوشيسكو ممارساته الفاسدة .

ان غموضا عميقا مثل الذى أحاط بمحاكمة شوشيسكو قد أحاط بأصول جبهة الخلاص القومى نفسها . واذا كان المنبر المدنى فى تشيكوسلوفاكيا قد ولد مع ميثاق ٧٧ الذى تم حظره وهوجم باستمرار، فان التشكيل الحاكم الجديد فى رومانيا لم تكن لديه أية حركة معارضة داخلية والتي يمكن أن تتحدد منها هويته فمن عين الأعضاء الأصليين للجبهة أو اختار أيون اليشيسكو السكرتير العام السابق للجنة المركزية كرئيس ، أو البروفسير الشاب فى المدرسة البوليتكنيكية بيتر رومان Peter Roman كرئيس للوزراء ؟ ما هى المعايير التى استخدمت لاختيار القيادات ؟ ومبدئيا ، فان مجلس جبهة الانقاذ القومى الذى ضم عددا من المنشقين اللاشيوعيين أعرب عن استعداده للتخلي عن برنامج الجبهة الأصلى واعدن بانتخابات حرة وبناءة ونظام ديمقراطى ، وتطوير المجتمع المدنى فى رومانيا .

ان الفجوة بين ممارسات الجبهة المنمقة والممارسات اللينينية أصبحت بينة ، وقدم المنشقون مثل دويينا كورنيا المناضلة فى سبيل حقوق الانسان والشاعرة آنا بلانديانا Ana Blandiana استقالتهن . وبدأت رومانيا تدرك أن البناء الجديد للسلطة ما هو الا امتداد لكثير من أساليب السلطة السابقة . ومن هذه اللحظة فصاعدا ، فان الجماعات المدنية والجمعيات التى تنمو بسرعة وكذلك الأحزاب الديمقراطية الصاعدة قد تم قمعها من جانب الشيوعيين ، لتورطهم فى توجيه النقد لما سمي « بلا شيوعية » جبهة الخلاص القومى . وأصبح الصراع بين السلطة والمجتمع فى رومانيا حادا نوعا ما وذلك عندما أعلنت الجبهة نيتها لترشيح ممثلين لها فى معركة الانتخابات القادمة ، وبذلك تكون قد أعلنت نفسها الحكومة الانتقالية الوحيدة . وعندما احتجت المعارضة على البعث الجديد للأساليب السلطونية عبأت الجبهة العمال للدفاع عن استيلائها على الحكم بالاكراه . الا ان الاكراه لم يجد واستمرت المعارضة فى جمع زخمها . وشكلت الأحزاب الرومانية التقليدية ومنها حزب الفلاحين القومى - حزب الليبراليين القومى وحزب الديمقراطيين الاشتراكيين - بناهم الخاصة وشاركوا فى البرلمان الاقليمى . ونمت معارضة خارج البرلمان بين جماهير الطلاب الراديكاليين أولا ثم الانتلجنسيا فيما بعد ، وقامت الأقلية المجرية والتى خضعت طويلا للتمييز العنصرى السافر ، بتشكيل حزبها السياسى وسمى الاتحاد الديمقراطى المجرى Hungarian Democratic Union . وقام القوميون الرومانيون بتنظيم حركتهم السياسية التى تدعى الموقد الرومانى ، والتى تذكرنا ببياناتها بأسوأ تطرف للجماعات الشوفينية

التي وجدت في الفترة التي توسطت الحرب (٧٤) . ورغم أن جبهة الانقاذ الوطنى استخدمت آلة الدولة الهائلة للحد من عمل المعارضة والزامها بالحياد ، إلا أنه كان هناك احساس عام بأن الزمن لا يمكن أن يتوقف أو يعود للوراء ، وأن رومانيا سوف تلحق بركب الدول الأوروبية الأخرى في انتقال صعب الى الديمقراطية ولكنه حتمى .

التمثيل الشعبى والاصلاحات في يوجوسلافيا :

فى يوجوسلافيا ، وبعد موت تيتو ، ساهمت عملية النجسزى والتفتيت المستمرين فى تزايد نمو الصراعات بين أكبر جمهوريتين من حيث التواجد المدنى وهما سلوفينيا وكرواتيا Slovenia & Croatia وبين الثقافات المهيمنة عرقيا لكل من صربيا Serbia ومونتنبورو Montenegro والبوسنة Bosnia وهدد تصاعد نجم زعيم الحزب القوى سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milosevic القومى الثابت على المبدأ فى صربيا بإمكانية الاحتفاظ بوحدة البلد ، إلا أن الكرواتيين والسلافيين حقروا موقف ميلوسوفيتش الشعبى والمعادى للاصلاح . وفى نفس الوقت ، فإن كثيرين من الصرب بما فيهم بعض المفكرين الذين عرف عنهم طويلا معارضتهم للقومية راهنوا على تحول ميلوسوفيتش الى بطل حقيقى ، وهو ما اعتقدوا أنه تهديد على لوجودهم ، إلا أن كثيرين اعتقدوا بأن « سلوبو Slob » — وقد نوذى به زعيمنا شعبيا — قد أصلح العديد من الاخطاء التى كانت نكبة على أمته منذ تشكيل يوجوسلافيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى . وقد عبر البروفسير كوستا ميهاي لوفيك Kosta Mihailovic الاقتصادى وعضو الاكاديمية الصربية للعلوم Serbian Academy of Science فى بلجراد عن المشاعر التى اسماها الكرامة القومية الصربية الجريحة :

((لقد فرضت الهيمنة على صربيا سياسيا واقتصاديا فى يوجوسلافيا . وتم اضطهاد الصرب منذ امد طويل . اننا نقبوا مكانة ذليلة فى يوجوسلافيا . وهذا قد تغير تماما بظهور سلوبودان ميلوسوفيتش)) (٧٥) .

وكان ارتقاء ميلوسوفيتش اشارة الى الخليط الصاعد من القومية والسلطوية والشعبية والمساواة والهجين الأيديولوجى ، الذى يبدو أنه يروق لشرائح اجتماعية عريضة تحمل ثقافات ما بعد الشيوعية ويميلاده فى عام ١٩٤١ ، فإن النجم الصاعد فى الحياة السياسية الصربية كان شيوعيا نشطا فى جامعة بلجراد ، حيث حصل على درجة القانون فى عام ١٩٦٤ ، وبعد أن عمل فى البيروقراطية الاقتصادية التحق — بعضوية

الحزب الصربي في عام ١٩٨٤ كرئيس لمنظمة بلجراد ، وبعد ثلاث سنوات انتخب رئيسا للمكتب السياسي الشيوعي الصربي وفي مايو ١٩٨٩ أصبح رئيسا لجمهورية صربيا . ان سر شهرته يكمن في استخدامه الماهر للشعارات الشعبية والقومية . ووعد ميلوسفتش هؤلاء الذين عبروا عن تخوفهم من التحول لاقتصاديات السوق بالحفاظ على هيمنة الحكومة على الموارد الاقتصادية ، ووعد الصربيين الذين أصابهم صعور حركة القوميات في الجمهوريات الأخرى بالارتباك بأنه سيدافع عن ما أسماه الكرامة الصربية . وباقتناعه بأنه لا بد أن ينجز مهام مماثلة لجهود تيتو الرائدة من أجل إقامة فيدرالية ، دفع ميلوسفتش بعنف في اتجاه استعادة مكتب رئاسة الجمهورية الدائم ، والذي سوف يستبدل بالنظام القائم نظاما ، يتناوب فيه زعماء الجمهوريات اليوجوسلافية الست رئاسة الجمهورية .

ان الصراع بين بلجراد والجمهوريتين الأكثر تقدما على المستوى الاقتصادي وهما كرواتيا وسلوفينيا ، قد تعمق بسبب جذوره التاريخية والثقافية . ان تحديد ميلوسفتش المؤثر للمصالح الصربية التي تتضافر مع مصالح يوجوسلافيا قد لاقى كل تحقير على يد الحركات المستقلة ، بل والانفصالية التي تتزايد في الجمهوريات الأخرى . اضافة الى ذلك فقد كان هناك مزيد من التدهور في الموقف في منطقة كوسوفو Kosovo وهو ما أُنذر بحدوث انفجار حيث عاد الصربيون لسيرتهم الأولى لسحق القوميين الألبان الراديكاليين الذين أخذوا في التزايد - وأقيمت دولة يوجوسلافيا ولم يستطع ميراث محاولة تيتو سبر اغوار العداوات القومية وتوحيد البلد على أساس الأيديولوجية الشيوعية ، أن يقاوم صعود المشاعر العرقية . وكما رأينا ، فقد سنقطت الأيديولوجية في كل دول شرق أوروبا الا أن سقوطها المدوي كان أكثر وضوحا في يوجوسلافيا ؛ لأن الماركسية اللينينية بدلا من ان تزيل الصراعات العرقية قامت بقمعها فقط على نحو مؤقت . وبمجرد أن رفع عنها الضغط السياسي ولم تعد اسطورة تيتو تفرض نفسها بالقوة ، فان انهيار يوجوسلافيا بدا وشيكا او على الأقل ممكنا . ان تكتل الشيوعيين في يوجوسلافيا الذي ضم ستة أحزاب شعبية ، والذي كان متماسكا ذات يوم بفضل وجود تيتو أصبح مجرد مظلة لا فائدة ترجى من ورائها . وبحلول نهاية عام ١٩٨٩ بقي الجيش المؤسسة القومية الوحيدة وكان العنصر الصربي هو السائد فيه (بنسبة ٧٠٪) ، فجعله ميلوسفتش أداة فاعلة لانجاز خطته الخاصة بفرض هيمنته .

ان خطر اتخاذ اجراءات عسكرية صارمة ضد الجمهوريات المركزية ،
اثارت غضبهم وعجلت بظهور التيارات الانفصالية .
رد حلف وارسو على جورباتشوف :

ان انفتاح النظام السياسى السوفيتى على يد جورباتشوف ساهم
فى استقطاب وتفكك الكتلة السوفيتية ، وبدا أن هناك تيارين مختلفين
فى موقفيهما من رياح التغيير التى تهب من موسكو ، فنجد البولنديين
والمجريين اتبعوا - متأثرين بضغط جورباتشوف عليهم - طريق
الاصلاحات ، بينما اختار زملاؤهم من أعضاء الكتلة ان يقاوموا
الاصلاح . وفى بولندا ورغم أن ياروزلسكى قد أشار فى اعلان القسانون
العسكرى فى ديسمبر ١٩٨١ ، فان الشيوعيين وجدوا ان اصلاحات
جورباتشوف فرصة من أجل تحقيق هدوء داخلى وفرصة من أجل مزيد
من التجريب فى مجال الاقتصاد . وكان الشعار الذى استخدم من قبل
ياروزلسكى وخليفته فى الحزب الشيوعى البولندى متزيسلو راكوسكى
هو « التعددية الاشتراكية » . وتورط الشيوعيون المجرىون
فى نفس الاتجاه تحت قيادة السكرتير العام المحنك جانوس كادار أولا ، ثم
تحت قيادة حليف كادار السابق كارولى جروتز . وفى كلا البلدين ، بزغت
انشقاقات قوية داخل الائتلاف الحاكم ، مما ساهم فى تفتيت الأجساد
الحاكمة التى كانت متماسكة ذات يوم ، واقتفاء لخطى التغييرات التى
تجرى فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية حيث اظهر جورباتشوف صبراً
متزايداً نحو النقد الموجه له من القاعدة بل وشجعه ، فان المجتمعات
المدنية فى بولندا والمجر أيضاً جددت من انشطتها بمزيد من الشجاعة
والابداع وأجريت الاتصالات بين المصلحين الراديكاليين فى المجر
ومناصريهم فى المعارضة الديمقراطية ، وكمثال فان وزير الدولة
Minister of State وعضو اللجنة المركزية امرى تونرجاى شارك
فى الاجتماع الذى عقد مع ممثلى القوى الديمقراطية عام ١٩٨٧ .
وخطط الاصلاحيون فى عام ١٩٨٨ لبلوغ جانوس قادر قمة الحزب
الشيوعى المجرى . وأنت المنطقة كلها لحتفها فور أن فقد هذا الرجل
بسلطته .

ان الحظر الذى فرضه كادار على أية محاولة لاعادة قراءة التاريخ
قد رفع ، كما انخرط المجتمع فى استكشاف عميق لماضيه . وبينما كانت
بولندا والمجر تجنحان نحو الليبرالية التى انبثقت وتقدمت بسرعة مع
مقاومة قليلة من البيروقراطيات الحاكمة ، فان الموجة الجديدة لمناهضة
الستالينية واجهت مقاومة لا تنضب فى بلدان رومانيا وبلغاريا وجمهورية

المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وعلى مستوى حلفا وارسو فان التقدم السريع نحو الديمقراطية في المجر وبولندا وكذلك سياسات جورباتشوف - الجلاسنوست والبروسيترويك - كانت بمثابة انذار للجماعات الستالينية في الاقطار الأخرى .

وبالنسبة لشوشيسكو جيفكوف وهونكر ، فان الضغط السوفيتي للتورط في اصلاحات شاملة بلغ درجة الدعوة لتقويض أوامر سلطتهم . وكل واحد من هؤلاء الحكام الشيوعيين قد ساس بلده بقبضة حديدية لأمد طويل ، وقد وصموا على نحو مشين الانشقاق السياسي والمعارضة بوصمة عار ، كما تخلصوا من كل منافسيهم الذين اعلاوا من شأن الخط الاصلاحى .

ان درجة المقاومة للاصلاحات السوفيتية التى تلقى كل تشجيع من القاعدة اختلفت من بلد الى آخر . فنجد أنه كان يسيرا على شوشيسكو بتجربته من أجل الاستقلال عن موسكو أن يعبى جهودا لكسب دعم الحزب من أجل خط سياسى متشدد ، وتأييد العناصر المعادية للسوفيت . وكان التحدى الواضح لموسكو أكثر المشاكل الصعبة التى تواجهها قيادة تشيكوسلوفاكيا برئاسة جوستاف هوساك والسكرتير العام ميلوس جاك ، ورأى الاثنان أن قطع الحبل السرى مع الاتحاد السوفيتى كان مستحيلا عمليا ، اذ كانت أوراق اعتمادهم لدخول حلبة السياسة والبقاء فى السلطة هى دعمهم النشط للقمع الذى تبع التدخل السوفيتى فى يوجوسلافيا فى أغسطس ١٩٦٨ . وفى بلغاريا ، كانت وظيفة جيفكوف السياسية كلها قد ارتكزت على الخضوع العبودى للأوامر التى تأتى من موسكو ، ولذلك فهو الآن لا يستطيع أن يتحدى المركز . وبالنسبة لزعماء المانيا الشرقية فقد كانوا يعلمون جيدا أن الاتحاد السوفيتى بجيشه ، الأحمر Red Army هو الذى سهل تواجدهم ووصولهم المبكر للسلطة وبمعارضتهم للاصلاحات الراديكالية كان يمكنهم فقط تأجيل العملية التاريخية الحقيقية التى سوف تؤدى الى وحدة الألمانيتين من جديد ، والتخلى عن ما اعتقد كثيرون أنه بناء هش لدولة تدعى جمهورية المانيا الديمقراطية ، هؤلاء الزعماء اللاليدريون حاولوا أن يلعبوا بالوقت ، فيقدموا الدعم والعون لجورباتشوف بينما كانوا يأملون فى قرارة انفسهم فى أن تقوم الصقور فى المكتب السياسى السوفيتى بالتخلص عاجلا من السكرتير العام المشاغب ، واستعادة التفسير الأوحى للاشتراكية والنموذج البرجنينى المبني على العسكرية ،

والتوسعية والفساد واللامبالاة الاجتماعية • وعرف جاك ربنك Jacques Rupnik اتجاهات وآراء القيادات الشيوعية الشرق أوروبية في إصلاحات جورباتشوف بأنها :

« وظيفة العلاقات التي يملكونها مع المجتمعات التي تستحق الاحترام ، ودرجة القبول أو الفتور التي ترتبط مع الأولوية التي اعطوها سواء للسيطرة الاجتماعية أو للبحث التكتيكي عن إجماع رأى في المجتمع » (٧٦) •

هوامش الفصل السادس :

- Thomas W. Simons, Jr., *The End of the Cold War ?* (New York : St. Martin's Press, 1990), pp. 150-51. (١)
- Sovetskaya Kultura*, April 9, 1988. (٢)
- Zbigniew Brezezinski, *The Grand Failure : The Birth and Death of Communism in the Twentieth Century* (New York : Charles Scribner's Sons, 1989), p. 48. (٣)
- Adam Michnik, "The Great Counter-Reformer," *Labour Focus on Eastern Europe*, 9, no. 2, (London, July-October 1987) : 23. (٤)
- Ibid.* (٥)
- Ibid.* (٦)
- Brezzezinski, *Grand Failure*, p. 64. (٧)
- Seweryn Bialer, *The Soviet Paradox و External Expansion, Internal Decline* (New York : Knopf, 1986), p. 200. (٨)
- Baruch Hazan, *Gorbachev's Gumble : The 19th All-Union Party Conference* (Boulder, Colo : Westview, 1989), p. 156. (٩)
- "Gorbachev's View of Changing World," *philadelphia* December, 11, 1988. (١٠)
- "Russia's Surly Empire", *The Economist* (London) November 26, 1988, p. 13. (١١)
- "The Soviet Perspective," *Problems of Communism*, May-August 1988, p. 62. (١٢)
- Ibid.*, p. 63. (١٣)
- Pravda*, July 7, 1989 . (١٤)
- Henry Kamm, "Gorbachev Said to Reject Soviet Right to Right to Intervene", *New York Times*. April 2, 1989. (١٥)
- Vladimir F. Kucin, "Mikhail Gorbachev's Evolving Attitude to Eastern Europe," *Radio Free Europe Research, RAD Background Report 128* (Eastern Europe), July 20, 1989, p. 4. (١٦)
- Nina Andreyeva, "I Cannot Waive Principles," *Sovetskaya ...Rossiya*, March 13, 1988, translated in FBIS — Soviet Union,March 16, 1988, p. 51. (١٧)
- New York Times*, October 24, 1989. (١٨)
- Reuters, October 16, 1989. (١٩)
- Charles Gati, *The Block That Failed : Soviet-East European Retaliation in Transition* (Bloomington and Indianapolis : University Press, 1990), p. 167. (٢٠)
- Radio Free Europe, Daily Report*, May 8, 1989. (٢١)
- Gati, *The Bloc That Failed*, p. 168. (٢٢)

- Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 321-22. (22)
- Kharen Dawisha, *Eastern Europe, Gorbachev and Reform : The Great Challenge* (Cambridge and New York : Cambridge University, 1990), p. 296. (23)
- Mihaly Vajda, "The Collapse of Socialism : A Theoretical Explanation," *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 51. (24)
- Ibid. (25)
- "The Social Contract : Prerequisites for Resolving the Political Crisis" special issue of samizdat journal *Beszelo*, June 10, 1987 (English translation), p. 2, *Beszelo* was run by an editorial staff that included some of the most famous names of the Hungarian Democratic Opposition : Miklos Haraszti, Janos Kis, Ferenc Kosszeg, György Petri and Sandor Szilagyi. (26)
- Ibid., pp. 7-8. (27)
- "Pozsgay Interviewed by Radio Free Europe 24 May", *Magyar Nemzet* (Budapest) May 29, 1989, translated in FBIS — Eastern Europe, June 7, 1989, p. 26. (28)
- Dawisha, *Eastern Europe, Gorbachev and Reform*, p. 179. (29)
- "The Struggle for Political Pluralism : The First Congress of the Association of Young Democrats," *East European Reporter*, 3, no. 4 (Spring-Summer 1989) : 17-18. (30)
- "Democracy Within the Warsaw Pact : An Interview with Ferenc Kosszeg," *EER*, 3 : 12-14. (31)
- Vladimir Tismaneanu, "From Prague Spring to Moscow's 'Glasnost'," *Philadelphia Inquirer*, February 17, 1988. (32)
- Interview with Alexander Dubcek, former General Secretary of the Czechoslovak Communist Party, broadcast by Hungarian television on April 26, 1989, in FBIS — Eastern Europe, April 28 1989, p. 23, and Vladimir V. Kusin, "Hungarian Television Interviews Alexander Dubcek," *Radio Free Europe Research*, Czechoslovak SR/10, May 5, 1989, pp. 9-15. (33)
- Karel Horak, "In the Role of the 'Savior' of Socialism : Annotations on Some of A. Dubcek's Statements to Foreign Information Media," *Rude pravo*, March 29, 1989, translated in FBIS Eastern Europe, March 31, 1989, p. 21. (34)
- Patricia Clough, "Unreal Country Where Reform Depends on moves Honecker and His Protégé Takes His Place", in Bernard Gwertzman and Michael T. Kaufman, eds., *The Collapse of Communism : By the Correspondents of the New York Times* (New York : Random House, 1990), p. 159. (35)
- Patricia Clough, "Unreal Country Where Reform Depends on the Grim Reaper," *The Independent* (London), August 22, 1989 (36)
- Barbara Donovan, "Reform and the Existence of the GDR," *REER*, RAD Background Report 158 (GDR), August 25, 1989, p. 2. (37)

- Barbara Donovan, "The SED Becoming More Outspoken on Reform," REER, RAD Background Report/6 (GDR), January 12 ...1989. (39)
- Pamela Shemid, "East Germany and the Marxist Malaise," (40)
U.S. News World Report, November 14, 1988, pp. 40-41.
- "Hager Delivers Address at Historians Meetin," Neues (41)
Deutschland (East Berlin), April 8-9, 1989, translated in FBIS --
Eastern Europe, April 11, 1989, pp. 30-32.
- "Margot Honecker : 'Defend Socialism With Weapons' (42)
Neues Deutschland, June 14, 1989, translated in FBIS -- Eastern
Europe, June 20, 1989, pp. 41-42.
- Josef Joffe, "Who's Egon Krenz ? He's No Gorbachev", (43)
New York Times, October 19, 1989 (op-ed page).
- 'Serge' Schmemmann, "The Border Is Open -- Joyous East (44)
Germans Pour Through Wall -- Party Pledges Freedoms and City
Exults," in Gwertzman and Kaufman, *Collapse of Communism*,
pp. 175-80.
- Barbara Donovan, "The Tenth SED CC Plenum : Moving (45)
.....Toward Reform," REER, RAD Background Report (GDR), Novem-
ber 20, 1989, pp. 6-8.
- David Binder, "Reports of Corruption in East Berlin Shock (46)
Even the Party Rank and File", New York Times, November 25,
1989.
- Craig R. Whitney, "East German Communists Confound (47)
Party's Collapse," New York Times, December 17, 1989.
- Barbara Donovan, "The Extraordinary SED Congress : A (48)
New Bginning or the Begining of the End ?" REF, Report on
Eastern Europe, January 19, 1990, pp. 5-8.
- R. W. Apple, "Prague Opposition Mounts Huge Protest, (49)
Denouncing New Leadership as 'a Trick,'" in Gwertzman and
Kaufman, *Collapse of Communism*, p. 238.
- "What We Want : The Programme Principles Issued by (50)
the Czechoslovak Civic Forum," East European Reporter, 4, no. 1
(Winter 1989-90) : 50-51.
- "Czechoslovak President Vaclav Havel' New Year's Day (51)
Address," East European Reporter, 4, no. (Winter 1989-90) : 56.
- Ibid., p. 57. (52)
- Czesław Miłosz, *The Captive Mind* (New York : Vintage, (53)
1981), p. 45.
- "Havel's New Year's Day Address," p. 58. (54)
- Stephen Ashley, "Can Todor Zhivkov Survive as Bulgaria's (55)
Leader " RFER, Bulgarian SR/6, July 14, 1988, p. 4.

- Clyde Haberman, "Bulgarian Change Barley Plods Along," (01)
New York Times, October 7, 1989.
- Clyde Haberman, "Bulgarian Chief Quit After 35 Years of (07)
 Rigid Rule," *New York Times*, November 11, 1989.
- Clyde Haberman, "Communists in Bulgarian Expel (08)
 Zhivkov," *New York Times*, December 14, 1989.
- "Report on 'Deformations' of the Zhivkov Era," *Rabotni-* (09)
chesko Delo (Sofia), January 16, 1990, translated in FBIS —
 Eastern Europe, January 1990, pp. 11-13.
- For biographical sketches on Bulgaria's new (and not so (10)
 new) political personalities, see Pavlina Poppisakova, "Who's
 Who in Bulgarian Politic." *East European Reporter* 4, no. 3 (Au-
 tumn — Winter 1990) : 32-33.
- Chuck Sudetic, "Bulgaria's Ex-Dictator Refuses to Face (11)
 Parliament," *New York Times*, July 31, 1990..
- For an analysis of political decay in Romanian during the (12)
 1980s, see Vladimir Tismaneanu, "Personal Power and Political
 Crisis in Romania," *Government and Opposition* (London), 24, no.
 2 (Spring 1989) : 179-98.
- J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Dur- (13)
 ham, N.C. : Duke University Press, 1988), p. 276.
- Michael Shafir, "Xenophobic Communism : The Case of (14)
 Bulgaria and Romania". REER, RAD Background Report/112
 (Eastern Europe), June 27, 1989, p. 3.
- "Letter to President Nicolae Ceausescu" and Vladimir Tism- (15)
 maneanu, "The Rebellion of the Old Guard", both in *East European
 Reporter*, 3, no. (Spring-Summer 1989) : 23-24.
- Mircea Dinescu, "Where Policemen Outnumber the Pigeons." (16)
Uncaptive Minds (New York), II, no. 3 (May-July 1989) : 34.
- Michael Shafir, "Eastern Europe's 'Rejectionists'," REER, (17)
 RAD Background Report/121 (Eastern Europe), July 3, 1989, p. 2.
- "Building a New Social System with the People and For the (18)
 People," *Scinteia*, October 18, 1989, translated in FBIS, Eastern
 Europe, October 27, 1989, p. 69.
- Alan Riding, "In Romania, the Old Order Won't Budge," (19)
New York Time, November 25, 1989.
- Kevin Devlin, "Ceausescu's Isolated Internationalism", (20)
 REER, RAD Background Report/212 (Romania), December 1,
 1, 1989.
- Thomas P. Barnett, "Romania Domino Stays Upright," (21)
Christian Science Monitor, December 11, 1989.

"Speech by President Nicolae Ceausescu on Romanian
Radio and Television Stations in Bucharest on 20 December," FBIS
Daily Report : East Europe (FBIS-EEU), December 21, 1989,
p. 66.

For a detailed analysis of the collapse of Romanian com- (VY)
munism, see Matei Calinescu and Vladimir Tismaneanu, "The
1989 Revolution and Romania's Future," *Problems of Communism*,
January-April 1991, pp. 42-59.

Trond Gilberg, "Romania : Will History Repeat Itself ?" (VZ)
Current History (Philadelphia), December 1990, p. 432.

Henry Kamm, "Yugoslavs Astir over Serbian Rise," *New* (V6)
York Times, August 6, 1989, For Milosevic's career and ideological
preferences, see Paul Yankovitch, "Slobodan Milosevic : l'homme
fort de la Serbie," *Le Monde* (Paris), October 18, 1988.

Jacques Rupnik, "Perestroika and the Empire", *European* (V1)
Journal of International Affairs, 1, no 1 (1988) : 117.

الفصل السابع

محاضرات الديمقراطية :

« اننا يمكن أن نتحول الى حيوانات واذا أردنا أن نظل
آدميين فهناك اذن طريق واحد ، طريق المجتمع
المفتوح » .

كارل ر . بوبر .

Karl R. Popper

- « اننى ادعو الله كى لا نتحول من مساجين الى سجانين » .
- آدم متشكك .

ان ثورات عام ١٩٨٩ وانهيار الأحزاب الشيوعية هو ما يكشف
مدى ضعف المؤسسات الحاكمة فى أوربا الشرقية . وحقيقة ،
فان انهيار هذه الأنظمة البيروقراطية المؤسساتية بدا بينا قبل وتو
هذه الثورات بزمن . ان الاطالة فى عمر الانظمة الشيوعية يعتمد على
استخدام القوة وتوقع التهديد الأجنبى الذى سيقضى على أية محاولة
للتخلص من النظام القائم . ان ذكرى عام ١٩٥٩ ببودابست وعام
١٩٦٨ ببراغ استخدمت كأداة فعالة فى يد هؤلاء الذين يرون أن الحاجة
أصبحت ملحة لاجراء الاصلاحات . وفيما بعد ولأن الضغط السوفيتى
قد خفف من وطأته ولأن الأحلاف المحلية وجدت نفسها محرومة من الدعم
الأجنبى ، فان الموجة الجديدة من التجريب الثورى أمكنها أن تلم شمل
القوى المعارضة .

وفى عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ بدا أن المستحيل يتحقق . وبسرعة
مذهلة تم التخلص من كل المحاذير السابقة ، وبدأت المعارضة ولأول
مرة فى الاجتياز الراديكالى لبننة السلطة التى وجدت منذ وجود مبدأ
التبعية فى أوربا الشرقية فى الفترة التى توسطت الحرب العالمية الثانية .
ولم يبلغ أى حاجز درجة من الصلابة تمكنه من مقاومة الاضطراب
الثورى المساعد . وارتبك السلطويون وأصبحوا عاجزين عن اتخاذ
الاجراءات فى مواجهة التحديات الجديدة . وقد انتاب الجميع من هونكر
حتى شتاريسكو ومن جيفكوف حتى جاك حالة من الذعر شديدة

وكانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يلجأوا إليها لقمع الاجتياح الشعبى والقبض على زعمائه هى العنف . الا أن ذاك التكتيك كان نقيضا لما أرادته موسكو . أن الوجه الباسم للاشتراكية التى حاول جورباتشوف وفريقه أن يظهره فى العلاقات الدولية ، كان يعنى شجب أية طرق قمعية تقليدية . وأصبح شعار اليوم الاقناع وليس الاجبار .

ومبدئيا ، فإن المشاعر التى عمت أرجاء البلدان الشيوعية السابقة والتى كانت معادية للتوتاليتارية - وتهدف للتخلص من المؤسسات والبنى الشيوعية - حدثت بسرعة مذهلة لم تكن فى الحسبان . أن المناخ كان حمى من النشاط خاصة ؛ لأن التغيرات الثورية التى وقعت فى هذه البلدان - باستثناء رومانيا - كانت بيضاء بعيدة عن العنف . ولقد بلغت الآمال عنان السماء وبدأ أن ميلاد المؤسسات الديمقراطية بما فى ذلك البرلمانات والاحزاب السياسية سوف يتم دون معوقات ، وغالبا بتلقائية الا أن ذلك كان وهما شجعه سرعة أحداث ١٩٨٩ ، وأحد الأخيلة الرئيسية التى شاعت هو أن الشيوعية سوف يتبعها بالضرورة أشكال ديمقراطية من الأنظمة السياسية والاجتماعية .

وبسبب الوله المتفشى بالأيديولوجية اللينينية وممارساتها التى أخذ بها السياسيون فى المنطقة ، وكذلك العديد من المحللين الأجانب كمسلمة ، وبسبب ما تعرضت له هذه البلدان من مأس تحت النظام الديكتاتورى ، حاصرت هذه الأمم الاغراءات السلطوية الجديدة . ولكن ، وكما رأت كينث جويت ، فإن هذا الاعتقاد كان يكمن وراءه أمل كبير . وقد تركت اللينينية بصمتها على النفسية الجماعية ، تاركة وراءها شكلا من أشكال السلوكيات ستظل تؤثر على المناخ الشعبى . أن ما خلفه « النظام القديم » ، كان العقبة الوحيدة التى جابهتها المجتمعات التى جاءت بعد الحكم الشيوعى . أن الفصل بين المصالح العامة والخاصة ، وهو ما يميز الديمقراطية الاجرائية ، كان شيئا يفتقر اليه « أن ارث اللينينية قد فهم على أنه تأثير التنظيمات الحزبية والممارسة اما روح الشعب فهى المعارضة التى تم حظرها . ومن مصلحة اللينينية أن تسود طريقة للحياة أقرب إلى السلطوية منها للراسمالية الليبرالية ، ومن مصلحتها أن تضع العقبات التى تعرقل التحول لاقتصاد السوق وتعرقل اجراء حملات انتخابية وتهدف لتحويل القوى الجماهيرية لقوى مؤسسية » (١) .

أن الشيوعية لم تحكم تلك البلدان بطريقة منهجية معتدلة . ووضع البوليس السرى فى تلك البلدان جميعا الجماهير تحت رقابة

محكمة وكم أفواه المفكرين ، وتلقن الطلاب مبادئ الشيوعية واستغل العمال وجعلهم يعملون ساعات إضافية دون مقابل . ان هذه المجتمعات جميعا قد رضخت للفساد والاحباط الثقافى ، والفساد السياسى والأهم من ذلك كله أنها افتقرت بشدة للاحساس بالتضامن الاجتماعى . ان الشك والمنهج القسرى من أجل التكتل والدمج ، جعل الشيوعية تسرف فى تحطيم كل المؤسسات الوسيطة والجمعيات التى كانت يمكن أن تصبح دعائم للمجتمع المدنى . وبذلك تكون رؤية تومثى كارتون شيئا يلفت الانتباه :

« بداية ، يجب ان ندرك ان ما خلفته الشيوعية هو الحطام والتجزئ والتضارب المصالح وتناثر الاتجاهات ووجهات النظر والأفكار والعادات » (٢) .

خذ مثال تشيكوسلوفاكيا ، حيث تم الكشف عن تورط عشرة من أعضاء البرلمان فى علاقات مع البوليس السرى وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٥١ ، ولم تكن القضية هى جريمتهم الشخصية ولكن القضية هى غياب الاطار الاجرائى للتعامل مع تلك التهم بطريقة موضوعية . وفى كل تلك البلدان أدى التجريم وتصفية الحسابات الى التشويش على التحليل العميق للأسباب الحقيقية التى أدت الى الكارثة الشيوعية . ان الممارسات السياسية المجنونة غالبا ما تتصارع مع البحث المستمر عن اعادة البناء الديمقراطى . ان الخاسر الاول فى انهيار ١٩٨٩ هم الشيوعيون الذين وجدوا متعتهم الخاصة فى تسميم المناخ العام والتورط فى ديماجوجية اجتماعية .

ان زوال الأنظمة الشيوعية لا يعنى انهيارا فوريا للثقافات السياسية الشيوعية — أى كل العادات وكل العقليات ، وكل الاتجاهات ، وكل الرموز ، وكل القيم وكل المبادئ التى هيمنت على الحياة الاجتماعية لعقود طويلة .

ان المشاكل الأساسية التى تواجه التحالف الجديدة فى أوروبا الشرقية ، يمكن أن توضع فى شكل سلسلة لا تنتهى من الأسئلة التى تبدأ بكلمة « كيف » . كيف تقيم دولة ديمقراطية فى غياب ثقافة متسامحة تسودها التمايزات ؟ وكيف تستطيع توحيد الاتجاهات المتصارعة دون العودة الى الطرق السلطوية فى الهيمنة والاجبار ؟ كيف ترسخ شعورا عاما بالمسئولية وتتجاوز الأنانية دون إثارة التعصب نحو مصالح معينة تضر بالمصالح العام ؟ كيف تستبدل احتكار الدولة الشامل للقدرة الشعبى بشكل مختلف من التنظيم والذى يمكن فيه

استبدال المنطق الشمولى للينينية ببحث عام عن التسوية ؟ كيف يمكن تحويل المبادئ المدنية التى طال سباتها ، بل والتى لم توجد أصلا الى طاقات اجتماعية قادرة على الإسهام فى الحد من الاستبدادية ولكن دون أن تصبح مصدرا دائما للقلق والهيمنة والاذلال ؟ وبمعنى آخر ، كيف تحمى حقوق الاقليات التى تهددها الاتجاهات العرقية السائدة داخل الأغلبية فى تلك البلدان ؟

ان المأساة الشرق أوروبية فجسرتها الآمال الخيالية الخاصة باتباع القيم الغربية . والاعتقاد بأن نهاية احتكار الأحزاب الشيوعية للسلطة ستؤدى حتما الى نهاية الشيوعية وميلاد الديمقراطية أسهم فى وجود هوة متزايدة وعلى نحو مستمر بين الآمال الصاعدة للجماهير وقيود النظام القائم . وفى الحقيقة ، أن ما حدث فى ذلك البلد أشار الى أن بناء الأنظمة الديمقراطية الحقيقية ، كان مستحيلا على المستوى الاجتماعى بعد هذه السنوات الطويلة من الدكتاتورية ، ولكنه يشير أكثر الى إعادة البناء التدريجى للساحة السياسية . وبعد عقود طويلة حيث كانت السياسات تعتبر نوعا من الديماجوجية والازدواجية ووكرا يشغله الانتهازيون ، تحولت النظرة فأصبحت تعد مجالا يمارس فيه ومن خلاله الفرد حقوقه المدنية .

وصعدت حركات سياسية جديدة بالاضافة الى جماعات المعارضة السابقة التى تحدث فيما مضى الحكومات الشيوعية . وبعد سبات واحباط السنوات السابقة وعندما بدا ان التاريخ قد اتى لنهايته فى هذا الجزء من العالم ، عم احساس عارم من الجذل والفرحة والأمل . وفى الشهور الاولى من عام ١٩٩٠ كانت تسيطر على الجماهير الحماسة والأحلام الرومانسية بتضامن قومى . وصعدت السياسات الجديدة كمحاولة لاستعادة التقاليد التاريخية ، الا ان النظام السياسى الوليد كان لابد أن يكون تكاثرا للأنظمة السابقة على الشيوعية . وفى كل هذه البلدان كان الاتجاه العام هو الحمى التى أصابت الجميع لاتباع النماذج الغربية من أجل انتقال عاجل وسريع للديمقراطية .

وبالنسبة للعديد من الناس بدا أن الانتقال الفطرى للديمقراطية مع اقتصاد سوق ، سيكون دواء لكل داء ولكل علة سببها التخطيط المركزى . لقد كان هناك نوع من الوله لانتهاج سياسة السوق الحرة . ولأن الخصخصة انبثقت من البطالة تفشت بين الملايين مما ينبىء بظهور الحركات الديماجوجية مرة أخرى تجزل وعودها ، بأن يحصل كل فرد على فرصة عمل بأمل كسب السلطة السياسية . ومن ثم فانه

لشيء ملح وضرورى بالنسبة لهذه البلدان أن تحدد الضمانات الدستورية والثقافية التى ستزيل خطر السقوط فى مستنقع من السلطوية يختلف عن ذلك اللينينى ، وذلك لمجرد أنه لا يتوحد مع الأسطورة الأيديولوجية الماركسية • وبمعنى آخر ، فإن هذه الأمم يجب أن تبني مجتمعاتها المدنية من أجل اجتناب أى انزلاق مفاجع يسببه الانتقال من طغيان الفرد الى طغيان الجماعة . وفى كلمات رالف دارندوف يقول :

ان شعار « نحن الشعب » شعار جميل ولكنه كمبدأ دستورى يعد صورة تعكس بدقة الوضع الذى تم التخلص منه أخيرا • وإذا استبدلت احتكار الحزب تماما بانتصار مطلق للجماهير ، فالجميع سوف يخسر قريبا ، إذ أن الجماهير ليس لديها بنية ولا استمرارية • والسؤال الأساسى هو كيف تصلا الهوية بين الدولة والشعب بالأنشطة التى تخلق - باستقلاليتها - مصادر اجتماعية للسلطة • وقبل أن يتم ذلك ، فإن دستور الحرية وقوانين اقتصاد السوق والدستور الاجتماعى أو ما شابه سوف تظل مجرد شعارات » (٣) •

ان بلدانا ليس لها تجارب ديمقراطية طويلة وعميقة ، يكثر فيها احتمال التلاعب بالجماهير السذج وبهؤلاء الذين أصابتهم الحيرة ؛ بسبب المغامرات الشائكة والانتهازيين الذين يستغلون لهفة الجماهير واحباطاتهم للاستيلاء على السلطة . ان الشيوعية تموت فى أوربا الشرقية ولكن ما خلفته من رغبة فى الحصول على المكافأة الفورية والتعويض جعل المناخ مواتيا لنمو حركات سياسية غامضة تستغل مشاعر الأمان ، ومثال على ذلك الأغلبية الساحقة التى فازت بها جبهة الخلاص الخلاص القومى برومانيا فى انتخابات مايو ١٩٩٠ • لقد فازت جبهة الخلاص بعد أن وعدت الجماهير بتجنب الصدمة المؤلمة التى سببها الانتقال لاقتصاد السوق ، وفازت لقدرة رجلها الأول أون اليشيسكو • ومثال آخر على ذلك هو النغمة التوفيقية الشعبية التى استخدمها سلوبودان ميلوسفتش فى يوجوسلافيا فى ممارسته السياسية والتى فاقت ممارسات أحد أكثر معارضيه القوميين وهو فيوك دراسكوفيتش Vuk Draskovic زعيم حركة البعث الصيربى Movement for Serbian Renewal الراديكالية • وقد استخدم دراسكوفيتش مثل هذه القوالب والعبارات التالية مشيراً الى الكروات :

« ان معظم الكرواتيين يكونون كرها لا معقولا للصربيين • ان الشعور الوحيد الذى يكتنه الكروات هو الكره » (٤) •

ويمكن لمثل هذه الحركات أن تكسب غالبية مؤقتة في البرلمانات الجديدة ويمكن أن تفرض وجهات نظرها المتعصبة على أقلية الدولة المتوقعة . ولفهم طبيعة هذه الرؤى المتعصبة التي سببتها القفزة المفاجئة للتعددية دون وجود أساس دستوري من أجل عملية ديمقراطية منظمة ، فلا بد للمرء أن يعود لتحليل الكسبس دي توكفيل Alexis de Tocqueville عن استبداد الأغلبية وحق الفرد في مقاومته :

« عندما أرفض أن أطيع قانونا غير عادل ، فأننى لا أعترض على حق الأغلبية في القيادة ولكننى ببساطة لأحبذ أن تسبق سيادة الشعب، سيادة الإنسانية » (٥) .

والخطورة في أن التكوينات السياسية الجديدة التي قامت على انقراض الشيوعية ، لن تكون قادرة على استخدام السلطة بطريقة معقولة وحكيمة كما لا يجب المغالاة أو التقليل من أهميتها . وعلى أية حال ، سيظل الخطر الحقيقي هو أنه لكي تضمن النجاح الانتخابي فإن العديد من الجماعات الجديدة بأدائها الأيديولوجي سوف ترضى الجماهير وتصبح جزءا من الفائتازيا الشعبية .

أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يضمن إزالة البيروقراطيات الشيوعية وإقامة مجتمع يتوقف فيه الأفراد عن الشك في بعضهم البعض . أن تجديد السياسات واكتشاف ساحة شعبية كمكان لتناقش فيه القيم السياسية الجديدة وتثبت فيه جماعات مختلفة نشطة ، هما إشارتان على انفتاح الساحة الشعبية . أن الديمقراطية - على أية حال - بثقافتها اللاذاتية الاجرائية كان من الطبيعي أن تقام على أساس مازال مشا تطاردها أشباح الماضي .

وكما كتب كارل ماركس في كتابه الثامن عشر من برومر - لويس بونابرت :

« أن عادات الأجيال الفائتة جميعها تزن وزن الكايوس على عقول الأحياء » (٦) .

ولأن الماضي كان قد أرجىء مؤقتا ، فإنه الآن يعود بكل عقده وأفكاره المتضاربة التي خلقت دراما التاريخ الشرق أوسطى ، التي استمرت لقرون قبل وصول الشيوعية .

ورغم الهرطقة الدائمة في أوربا الشرقية والتي تضمنت الآن أسسا أيديولوجية ، فإن الأحزاب الجديدة قامت على أساس العلاقات

الشخصية وشاركت في التجربة . ان الأحلاف السياسية الجديدة تكونت من جماعات مختلفة ، شاركت في أنشطة مشابهة وتربطهم داخليا علاقات شخصية قوية قديمة . انها مسائل أيديولوجية الا أنها ترتكن الى مشاعر شخصية . ان فهم الاتهامات والتجريم اللذين تما في المجر وبولندا الحاليين يتطلب أن يكون المرء ملما بتاريخ المعارضة الديمقراطية ولجنة الدفاع عن حقوق العمال . وان كثيرين من ممثلي الشعب والوزراء الحاليين كانوا متورطين يوما ما في الأعمال السرية لحقية الانشقاق البطولي . وآخرون كانوا شهوداً على ما جرى ورغم أنهم لم يتخلوا عن السلطة الشيوعية الا أنهم شاركوا بشكل غير مباشر في الفعالية السياسية المضادة للشيوعية . وبالنظر الى الموقف السياسي المجرى والبولندي فقد سجل تيموثي كارتون مشاهداته قائلا :

« في السياسات القائمة توجد طبقة من الساسة تشكلت في عام ٤٨ وأخرى ٥٦ ، وأخرى ٦٨ ، وطبقة عام ٨٠ وأخيرا عام ٨٩ (وهي أكبرها جميعا) وفيما بينها ، وبداخل كل واحدة منها يوجد تاريخ شخصي معقد من الصداقات والعداوات . ولا يمكن أن فهم الروابط والترتيبات الشخصية التي تحدث اليوم ، ان لم تعرف ماذا فعل كل واحد منهم خلال الأربعين عاما الماضية . ان [ال] طريق الجدي الوحيد للفهم الحقيقي هو البحث عن سيرة ذاتية تاريخية مفصلة لكل هؤلاء الذين يحكمون » .

ان طبيعة الانتقال الأيديولوجي لتلك العلاقات والروابط لشيء مذهل اذا اعتبرنا المحافظ الثقافي والسياسي مثل جاسبار ميكلوس تامس Gaspard Miklos Tamas أحد زعماء ائتلاف الديمقراطيين الأحرار في المجر وهو تشكيل له مبادئ ليبرالية تماما .

وقد كان تامس ، على أية حال ، مصدر قوة للمعارضة العلنية وصديقا مقربا لدائرة بتزيلو Beszelö التي يرأسها الرئيس الحالي للديمقراطيين الأحرار وهو يانوس كس . وفي نفس الوقت فان جيورجي بنس György Bence الفيلسوف الذي وقف في الماضي مع كسي وكان عضوا شابا في مدرسة لوكاسس Lukaces للنقد الماركسي هو الآن مستشار غير رسمي ولكنه مقرب لاتحاد الديمقراطيين الشباب Fidesz . ويمكن أن نرى دورا مشابها للعلاقات الشخصية في الحياة السياسية البولندية حيث أخذ حلف مفكرى وارسو وكراكاو Krakow جانب تاديوتس ميزوفيسكى ، ضد ليخ فاونسا خلال الانتخابات الرئاسية التي تمت في ديسمبر ١٠٩٠ . واذا لم يلتفت المرء

الى « ما وراء » تلك العلاقات فلن يستطيع فهم - الا بصعوبة جملة -
مرارا التهم ومدى عمق ما يبدو أحيانا على أنه يشبه صراعا
ضاريا (٨) .

وفى معظم هذه البلدان كانت أهم القضايا التي تشغل الرأي العام هو
مصير الأحزاب الشيوعية السابقة . وفى رومانيا - على سبيل المثال - فإن
الحزب الشيوعى الذى ذكر بدا وكأنه تلاشى دون أن يترك أثرا بعد الصعود
التلقائى المعادى للشيوعية فى ديسمبر ١٩٨٩ . ولكن هل كان ذلك
تلاشيا أم تصحيحا لوجهات النظر ؟ هل يمكن للمرء أن يصدق حقا أن
الحركة السياسية التى ضمت أربعة ملايين عضو قبل ثورة ديسمبر
١٩٨٩ ، قد تركت الساحة التاريخية كأن لم تكن ؟ وبالنسبة لكثيرين ،
فإن جهد الانقاذ الوطنى وهو التشكيل الذى وصل الى السلطنة بعد
الفراغ الذى تركه فرار شوشيسكو الى بوخارست كان ببساطة مجرد
اعادة تجميل لصورة الحزب الشيوعى القديم . وفيما بعد وفى ديسمبر
١٩٩٠ أعلنت مجموعة من الزعماء السابقين للحزب الشيوعى الذى
تلاشى ، عودة الحزب تحت اسم حزب العمال الاشتراكي Socialist
Labor Party (٩) . وبمعنى آخر ، فإن المعتقدات والأفكار التى
حملها النظام الجديد لن تموت - حتى فى المؤسسات المجتمعية المعادية
للشيوعية بين عشية وضحاها .

وفى خضم الشعارات المتضاربة القادمة من أوروبا الشرقية
يستطيع المرء أن يميز عددا من السمات الشائعة التى لها دلالة ،
والتي تفسر التصاعد العجيب للأحداث الذى أتى على الأنظمة الشيوعية
الفاسدة ومنها أن تعطش ثورة ١٩٨٩ كان مضادا للشيوعية ومضادا
للسلطوية ومضادا للأيدىولوجية . لقد كان ذلك تحديدا بسبب تلك الثورات
التي رفضت التسييس الشيوعى للمناخ الشعبى ، حيث ظل معظم الزعماء
الجدد لديهم اتجاه ادعائى نحو تشكيل الأحزاب السياسية فى الفترة التى
توسطت انتصارهم . أن التوتر بين المفاوضين المؤسستين والفهم
الأخلاقي يفسر التردد الذى انتاب ليس فيلاتسلاف هافيل والمنير المدنى
فقط ، ولكن أيضا المناضلين المجريين أيضا فيما يتعلق بتعزيز جهودهم
الرامية لتشكيل أحزاب سياسية .

وحقيقة ، لقد استغرق الأمر سنوات كى يكون الأعضاء السابقون
للمعارضة المجرية المنشورة شبكة من المبادرات الحرة Network of Free
Initiatives ، ثم اتحاد الديمقراطيين الأحرار وهو الحزب السياسى
الأصيل برموزه وتنظيماته ومنظماته بما فى ذلك التنظيم الشبابى . وفى

الماضى بررت المعارضة انشتطها على انها تستند للرؤية العالمية للحقوق الانسانية والمدنية . ولقد كان معظم زعمائها مفكرين بارزين قرروا ان يعيشوا الحقيقة غير مباليين بالثمن الذى كان لا بد ان يدفعوه من اجل هذا الشكل الشرق أوروبى من العصيان المدنى . . ومنذ أن تجاوزت حقوق الانسان الحواجز القومية والاجتماعية ، اكتشف هؤلاء المناضلون أن تحت سطح البنيان التوتاليتارى المتجمد تكمن مشاعر قديمة (وقبيحة) وعداوات تتفاعل معا واوشكت على الانفجار بمجرد أن يخف الضغط السياسى عليها . ان الشيوعية لم تحل أبدا أيا من مشاكل المنطقة التى تتعلق بالمظالم الاجتماعية والقومية ، بل على العكس فانها لم توليها الا كل تجاهل ، وازدادت سوءا بسبب التلاعب بها ، كما فى حالة التمثيل الشعبى الشوفينى الذى مارسه الزعماء الشيوعيون البلغاريون والصربيون والرومانيون .

ان الانفصام عن الماضى كان يتم باستخدام برامج ومقولات وشعارات الحركات الجديدة التى تؤكد على الحاجة الملحة لاستعادة اخلاقيات الحياة العامة - لقد كان من المهم أن يشار الى الخيال الأيديولوجى الذى استخدمه الشيوعيون لتبرير استخدام قبضتهم الحديدية على المجتمع ، كما كان ضروريا خلق بيئة اجتماعية يتخلص فيها الفرد من الاحساس بأنه مهدد ومذلول من جانب الأجهزة القمعية المتسلطة . ان مراقبة ومساءلة الموظفين لابد أن تتخلى عنها المؤسسات الجديدة التى سوف تضمن التدفق السريع للتغيرات . ان طبيعة وآليات الانتقال الى سياسات حقيقية قد كرسها نضج جماعات المعارضة المحلية وقدرتها على طرح استراتيجيات بديلة ، يمكن العمل بها من اجل شفاء اقتصادى واجتماعى . وفى كل تلك البلدان ، فان القضايا التى تتعلق بالعدل السياسى وارهاب الناس والتى تسببت فى كوارث الماضى ومحنه ، كانت لها الصدارة لتحقيق الشفاء القومى وتطهير الحياة العامة ، لقد وجب التخلص من أشباح الماضى كما وجب على السلطات الجديدة أن تستجيب للمطالب الشعبية الخاصة بالعدل السياسى ، دون استسلام للدعوى التى تطالب بالانتقام الدموى والقصاص الذى قد يفجر الغضب الشعبى ، مما يؤدى الى نصب المشانق لهؤلاء الحزبيين وكوادر البوليس السياسى والمصلحين . ان المعاملة التى لاقاها الزعماء السابقون وأدواتهم التى ساعدت فى بقاء أكثر النظم اللانسانية ، كانت واحدة من أكثر المشكلات المعقدة التى تسببت فى احداث القلاقل للأنظمة الثورية . وكان من المستحيل تقريبا أن نجد معيارا لفصل هؤلاء الذين كانوا ذوى

مخالب ضعيفة عن هؤلاء الذين وجدوا متعة خاصة في اضطهاد المفكرين.
النقاد والمناضلين المستقلين المنتمين لطبقة العمال .

ماذا يجب أن يحدث لهؤلاء القضاة الذين أصدروا أحكاما بالسجن
ولمدد طويلة على أناس هم الآن أعضاء في الحكومة . وأشار تيموثي
كارتون الى أزمة سلطة ما بعد الشيوعية ، عندما وصف المصادر الجديدة
للغضب في أوروبا قائلا :

« المراقبون السابقون ، وحراس الحدود السابقون وموظفو
الحزب السابقون ، والبوليس السرى السابق : ما الذى تفعله معهم ؟
أو بالأحرى ما الذى تفعله معهم ... Oni — كممثلين للسلطة الشيوعية
الكبير منهم والصغير ، والمعروفون على المستوى العالمى . انه سؤال
عن العدل . انه سؤال اتى — فى حده الأقصى — من مدينة فيرمبرج
Nuremburg الغربية . ايجب أن يحاكم رجال السلطة السابقون لما
قاموا به من أخطاء ، أو لما جرى وهم يحكمون ؟ اذا كان الأمر كذلك فبأية
تهم وبأى قوانين ؟

ويصبح السؤال — فى الحد الأدنى — سؤالا عن العدل الاجتماعى .
أمن العدل ، الناس تسأل ، ان هؤلاء الذين تمتعوا بوظائف مكتبية
مريحة تحت حكم الشيوعيين يظلون فيها اليوم بينما الناس العاديون
ما زالوا يشهدون على بطونهم الحزام حتى الآن ؟ أمن العدل أن أعضاء
تنظيم الحزب الشيوعى الذين يستغلون الوضع القانونى المبهم والخاص
بالخصخصة لفرض سيطرتهم — باعتبارهم رأسماليين — على المشاريع
التي كانوا يديرونها سابقا كشيوعيين ؟ » (١٠) .

ان السخط على بطء عملية التطهير القومى والمشاعر المتفشية ،
التي شجعت البيروقراطيات على الاستمرار فى الحفاظ على مراكز
التأثير ، خاصة فى الأجهزة الاقتصادية ، أثار مجددا الغضب
الشعبى .

ان بناء المجتمع المدنى واستعادة روابط التضامن الداخلى أصبحا
أطول العمليات وأكثرها صعوبة . لقد كان ثمة شئ وحيد يستحق النضال
للتخلص منه ، وهو عدو يسهل تحديده والتصويب عليه — أى الشيوعية —
يليه النضال من أجل ثقافة من الثقة والحوار والتسامح . وأصبحت
الخطط المؤسسية والدستورية هى أهم ما أثير من قضايا . وفى
رومانيا وبلغاريا خلق الاستياء العام على الحل التدريجى للمؤسسات
القديمة كوارث جديدة . ولذا ، كانت الفجوة تتزايد بين نموذج نول

قلب شرق أوروبا فيما يتعلق بالتطوير السياسى والذى تضمن انفصاما واضحا ولا بديل عنه عن الماضى الشيوعى والالتزام المحكم من جانب للممثلين السياسيين الجدد لمراقبة قواعد التعددية ، وبين نموذج البلدان الشمالية الشرقية حيث أصبح ارث التوتاليتارية أكثر مقاومة وأكثر عنادا وأعاق الانفتاح السريع خاصة فى بلغاريا ورومانيا وصربيا ، حيث استتاعت الحركات القومية التى تضرب بجذورها فى الأساطير الشعبية والفوبيا أن تشعل النار فى المشاعير الجماعية ، أن العرقية وليست الديمقراطية تنذر بأن تكون هى مستقبل هذه المجتمعات .

ان الحركات الرومانية المتطرفة بدأت فى مهاجمة الأقليات المجرية من أجل الآمال «الجريئة» والمزدهرة التى تتعلق بترانسيلفانيا Transylvania ان المواطنين السابقين مع نظام شوشيسكو والذين تملقوه فأصدروا مجلة بغیضة أطلقوا عليها اسم رومانيا مير Romania Mare أو رومانيا العظمى . ان الفضائح ، والقذف وغيرها من البذاءات كانت هى العنساوين الرئيسية على صفحات هذه الجرائد التى كانت تزداد ابتذالا . وبذلت جهودا لرد اعتبار الديكتاتور العسكرية أون أنتونشيسكو الذى ساس رومانيا أثناء الحرب العالمية الثانية وإبرازه كمدافع عن المصالح القومية . وانخرطت وسائل الاعلام الموالية للحكومة فى حملات شعواء ضد الملك ميخائيل King Michael الذى قبض على أنتونشيسكو فى أغسطس عام ١٩٤٤ ، والذى طبق ديمقراطية قصيرة الأجل قبل أن يستولى الشيوعيون على الحكم . وفى صربيا كما فى كرواتيا وبلغاريا أيضا ، فان شبح القومية لاح على نحو يندى بالسوء . ان بوادر العرقية لاحت أيضا فى سلوفاكيا Slovakia حيث بزغت الجماعات العرقية المسيحية ، والتى حاولت رد اعتبار الحكومة القومية الموالية للنازية والتى رأسها أثناء الحرب العالمية الثانية مونسينور تسو ، وانشقاقا على التقاليد القومية السلطوية طالبت أقلية صغيرة ولكنها ذات صوت مسموع بدولة سلافية مستقلة . وفى بلغاريا كانت القومية المعادية للأتراك عنيفة .

وعبر بلدان أوروبا الشرقية كان هناك مطلب عام بضرورة كشف النقاب على أعمال بوليس الدولة ، وأن يعلن على الملأ هويات المواطنين السابقين مع البوليس السياسى ، وتحولت هذه الفضائح لأعمال مأساوية فى جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا . وأصدر الرئيس هافيل قرارا بعرض كل ما يهم الشعب على شاشات التلفزيون . وقد اكتشف أن الشيوعيين وزعماء الأحزاب التى أعيد بناؤها والمعادية للشيوعية قد تعاونوا مع البوليس السياسى وان هذه الأحزاب

كانت فاسدة (١١) . وكان عقاب هؤلاء الذين كانوا أدوات فى يد التوتاليتارية جزءا مهما كى تتواصل هذه المجتمعات مع ماضيها . لقد كان جزء من الأحياء لثقافة سياسية على استعداد للاعتراف بجوانب فشلها ونجاحها ، وكان تعلم ممارسة الديمقراطية يجب أن يتزامن مع شجب طرق التفكير ونماذج السلوك التى كرسى على مدى أكثر من أربعين عاما فى ظل الأنظمة اللينينية .

كما لزم على الناس التخلص من استعدادهم لقبول كل القرارات التى تتخذها السلطة الخارجية وإدراك أنه لا يوجد أى زعيم مغوار يمكن أن يسحرهم فينقلهم من الفقر واللامان . وكانت الحاجة الملحة للائتلاف الجديد التى تستطيع أن تحقق ثقافة تبنى على التنافس بمثابة حاجز يمنع الانزلاق نحو التجارب السلطوية الجديدة .

ومن ثم ، فإن المهمة الرئيسية ، فى كل تلك البلدان هى بناء ثقافة سياسية متينة لديها ثقة بنفسها للحد الذى يمكن معه تحدى أى صعود للحركات الأصولية الجديدة ، وكما قال كارول موتزلسكى المؤرخ المعروف والمناضل المعارض والذى أصبح سيناتور بعد عام ١٩٨٩ :

« ان الديكتاتوريين لا يصبحون دكتاتوريين من تلقاء أنفسهم ، ولا يسيطرون على البلدان لمجرد أن لديهم اتجاهات دكتاتورية . الناس هم الذين يصنعون الديكتاتور - الناس هم الذين ينصحونه والذين يأخذون منه الأوامر الخاصة وهم الذين يؤيدونه تأييدا مطلقا . وبمعنى آخر ، ان وجود ديكتاتور من عدمه يعتمد على الثقافة السياسية للبلد » (١٢) .

ان تدعيم الاطار الدستورى الذى سيمنع صعود نجم الحركات التى تدعى « الرجال الأقوياء » الديماغوجيين لابد أن تصاحبه جهود مستمرة فى مجال الممارسة السياسية اليومية والصراع « التنويرى » مع الظالمين والمؤمنين بالخرافات والتعصب والعصوية والتى ورثتها تلك المجتمعات ليس فقط من جانب الشيوعية ، ولكن أيضا من جانب الثقافات اللاديمقراطية أو نصف اللديمقراطية التى سادت فى الفترة التى توسطت الحرب . ومن بين الأشياء الأخرى التى تتضمن إدراك وحماية حقوق الأقليات هو إثارة هؤلاء الذين يؤيدون أن يؤكدوا على أولوية وجود المجتمع « الحيوى » العرقى على الفرد .

ولأن صدمة التحديث كانت حتمية فى كل تلك البلدان ، فإن المخاطرة الحقيقية كانت فى ضمان وحدة « الحركات المتحررة من الوهم » الذى قد يمنعه الخوف والاحباط . ان الشيوعية قد انقرضت فى تلك البلدان ، ولكن

ليس بالضرورة أن تكون الديمقراطية وريثا لها . وهناك خطر الجمع الزائف بين نقيضين هما الحنين الى الاحتماء خلف دروع واقية من الدولة البوليسية ، والاستعداد لقبول وعود الدجماطقيين الاجتماعيين القادرين على التلاعب برموز الخلاص القومي . وفي هذا الاطار أكد رالف دارندورف بوعى على فخاخ المرحلة الأولى المؤلة من الانتقال الى المجتمع المفتوح : « اننى أكره أن أفكر فى توليفة الزعماء العسكريين والمخططين الاقتصاديين والأيديولوجيين الملقين الذين يمكن أن يصلوا للسلطة عن طريق جماعات غير مستقرة ومتحيرة من الوهم . اختبر من البدايات ! ان الأصوليين ينتظرون فى الجذور ، لاستجماع قوتهم وقوامها هؤلاء الذين فقدوا أعصابهم على طريق الحرية » (١٢) .

وحقيقة ان تخليق سياسات جديدة يتم رغم أنف التوقعات اللاوسطية واللامعقولة ، ومنها كثير . ولأن نشوة الانتصار الأولى أخذت تتلاشى فإن الشعب أدرك أن المرحلة التالية سوف تميزها قيادة جديدة بشرط تحقيق الشفاء الاقتصادى . ان ذلك يتطلب من الحلف الجديد الشجاعة والخيال والالتزام التام بمبادئ التعددية السياسية للدفاع عن المؤسسات الديمقراطية ضد الهجمات السلطوية . ان البشائر التى ظهرت فى بلدان أسبانيا والبرتغال التى حكمها دكتاتوران لعقود طويلة ، تدل على أن مثل هذا الانتقال يمكن تحقيقه . وبالإشارة الى المخاطر العديدة بما فيها خطر الفاشية ، فنحن لا نتشكك — رغم ذلك — فى فرصة بناء الديمقراطية لنفسها فى أوروبا الشرقية .

بين الصحوة والفضب :

وبعد السقوط المدوى للبنى الشيوعية المهيمنة على كل بلدان أوروبا الشرقية ، انخرطت جميعا فى البحث عن صيغ سياسية جديدة تيسر إقامة مؤسسات ديمقراطية ، وتسهل الانتقال الى اقتصاد السوق . وأجريت فى كل تلك البلدان انتخابات أكدت على الفشل التاريخى للأحزاب الشيوعية . ولم تظهر تشكيلات سياسية تطرح أطرا أصلية من أجل إعادة تخليق الحياة الاجتماعية والسياسية .

نهاية الاشتراكية البروسية :

فى ألمانيا الديمقراطية تزامنت الديمقراطية السياسية مع الانهيار الدراماتيكي لبنية السلطة السابقة ، وتزايد الضغط من القاعدة من أجل إعادة فورية للوحدة مع الجمهورية الفيدرالية . وبعد سنوات عديدة

حيث كانت الوحدة تعد من المحظورات ، بدأت الأحزاب التابعة وفي مقدمتها حزب الديمقراطيين المسيحيين Christian Democrats تعلى من شأن الوحدة . أما الشيوعيون السابقون بقيادة جريجور جيسى المحامى الاصلاحى ، فقد حاولوا اظهار حزبهم المتوسع ذا التوجه الغربى ، كما حاولوا ايجاد مخرج من هذا الوضع المعقد ، ونادى جيسى بتوحيد الدولتين الالمانييتين . ان الأحزاب الالمانية الغربية تهيمن على الساحة السياسية الالمانية الشرقية وتؤثر تأثيرا مباشرا على الحملة الانتخابية فى ذلك البلد . ان أكثر الأحزاب تواجدا على الساحة فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، بعد انتخابات مارس ١٩٩٠ ، هما حزبا الديمقراطيين المسيحيين والديمقراطيين الاجتماعيين وقد طالبا بوحدة مبكرة . وبعد الانتخابات شكل الديمقراطيون المسيحيون حكومة ائتلافية شملت ممثلى جماعات عديدة ذات توجه محافظ وكان من بينهم الصحوة الديمقراطية Democratic Awakening التى يرأسها رينير ايلمان وهو الكاهن البروتستانتي الذى كان احد الموقعين على « عريضة برلين » السلمية فى مارس ١٩٨٢ . وبعد سنوات عديدة من الاضطهاد بسبب موقفه الصلب المعادى للعسكرية ودفاعه المضى عن حقوق الانسان تم تعيينه وزيرا للدفاع ونزع السلاح Minister of Defence and Disarmament فى الحكومة اللا شيوعية بالمانيا الشرقية — وكان لزاما على رئيس الوزراء الجديد لوثر دو ميزير Lothar de Maiziere الديمقراطى المسيحى البارز الا يواجه الكوارث فى بلده فقط ، حيث تصاعد الغضب الشعبى ضد الحكومة السابقة وادواتها القمعية ، وتحدى الرفض السوفيتى لقبول الوحدة الالمانية . وهذا شىء كان يمكن فهمه اذا ما اخذنا فى الحسبان اهمية المانيا الشرقية بالنسبة للمصالح الاستراتيجية والاقتصادية لروسيا ، وكذلك لأن الوحدة ترمز الى خضوع الاتحاد السوفيتى لما مارسه الغرب من ضغوط ليتخلى عن أهم انتصارات الحرب العالمية الثانية . الا أن الكرملين لا يمكن أن يتجاهل مدى اصرار الغرب على اعادة الوحدة بين الالمانييتين .

وبحلول يناير ١٩٩٠ أدرك جورباتشوف حتمية اعادة الوحدة الالمانية وحاول أن يبطئ من العملية بمطالبة المانيا الموحدة بتقوية علاقاتها مع حلف شمال الاطلسي NATO . وكان الخوض فى هذا الأمر معقدا تماما وبدأت المفاوضات الدولية الحساسة فى يوليو ١٩٩٠ اثناء الاجتماع بين ميخائيل جورباتشوف والمستشار الالماني الغربى هيلموت كول . وفى تلك المناسبة قبل الزعيم السوفيتى أن يسمح لالمانيا

الموحدة ان تبقى في الفاتو ، أما عدد قواتها المسلحة فسوف يقل دفعة واحدة الى ٣٧٠.٠٠٠ (كان جيش المانيا الغربية وحده يبلغ ٤٨٠.٠٠٠) كما سوف تنتشر في الجزء الشرقي من البلد فقط بعد ان غادره آخر جندي عسكري سوفيتي في عام ١٩٩٤ . وحتى ذلك الحين ، سوف تغطي المانيا النفقات الخاصة بالكيان العسكري السوفيتي وسوف يبلغ دعمها المالي (٨٨ بليون دولار) كتكاليف لاعادة القوات السوفيتية .

وليزيد من الاسترضاء للسوفيت قدم كول ٣ بلايين دولار لمساعدة السوفيت في دفع ديونهم لألمانيا . ولان بولندا قد اعربت عن قلقها المتعلق بالمخاطر التي يمكن ان تتسرب على الوحدة السياسية والاقتصادية بين الالمانيتين في قلب اوريا . واقيم اجتماع في باريس بمشاركة ممثلي الدول الأربع العظمى Big Four والدولتين الالمانيتين . ووعد الالمان بأن يعقدوا كل الاتفاقيات الشرعية لتحديد تخومها مع بولندا في منطقة الأودر - نيسي Oder-Neisse . وفي ١٢ ديسمبر بدأ وزراء الخارجية للدول الست مفاوضات دبلوماسية والتي وقع بناء عليها اتفاقية « اثنان زائد أربعة » Two-plus-four في موسكو . وكان ذلك هو النهاية الحقيقية للحرب الباردة وبداية عهد جديد في تاريخ اوريا . وعشية ان خرجت المانيا الديمقراطية رسميا من حلف وارسو وفي ٣ أكتوبر ١٩٩٠ أي بعد عام واحد من بداية الاجتياح المعادي للشيوعية في برلين الشرقية ، فإن « هدية » ستالين للامة الألمانية لم يعد لها وجود .

ولان الانتقال لاقتصاد السوق حدث في جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة داخل بيئة اقتصادية غنية ، ومع منح حكومية سخية من حكومة المانيا ، ومن البنوك الكبرى والشركات الضخمة ، فان الاضطرابات التي تزامنت مع تلك العملية ، كانت اقل وضوحا عنها في البلدان الشيوعية السابقة الأخرى . وكان هناك ، على اية حال ، شبح حقيقي من البطالة نتيجة لغلاق « الأفيال البيضاء » التي لم تحقق نتائجها المرجوة والتي اقيمت اثناء التصنيع الستاليني ، ونتيجة لاستنزاف العمالة المدربة من المنطقة الألمانية الشرقية السابقة وانتقالها للمنطقة الألمانية الغربية والتوتر الذي تفشى بين شباب المانيا الشرقية والتي يزداد سخطها . وعلى عكس الالمان الغربيين الذين لطخت سمعتهم لما ارتكبه النازيون من جرائم وحشية في الحرب العالمية الثانية فقد كانت الحكومة الألمانية الشرقية تدعى دائما بأنها لم تقترف أي شيء تنعدم عليه ، وذلك لان جمهورية

ألمانيا الديمقراطية دولة اشتراكية ويمثل شعبها جزءاً « تقديمياً » من الأمة الألمانية .

والآن ، فإن هذه الأسطورة قد تم دحضها ، والهوة بين الثقافتين السياسيتين للألمانيتين قد تم ردمها ، فالغرب بكل مؤسساته الديمقراطية رفض البكاء على أطلال « الماضي المهيض » (١٤) وعلى الشرق حيث حافظت دولة البوليس البروقراطية السلطوية على مشاعر الطاعة والتوافق وكذلك الاحساس بالمقيم العسكرية البروسية . ومعنى آخر ، فإن مشكلة الألمان الشرقيين كانت أنهم لم يمارسوا أبداً معارضة أصيلة لا للنازية ولا للستالينية . وبالتأكيد ، فإن توحدهم في نظام تعددي دستوري للجمهورية الفيدرالية قد قلل من مخاطر الانفجارات الجماهيرية المتعلقة بالتعصب والتطرف . ان ظهور نوعين من الأنشطة النازية الجديدة Neo-Nazi التي أثارت استجابة فورية من القوى الديمقراطية كان ، على أية حال ، بينا واختفت الموجة التي بدت على أنها قمع سياسي ليظهر بدلاً منها مرض معاداة الأجانب ، والعصبيات الشرهة التي بدأت في نشر معاداة السامية وأفكارها العنصرية ، بل ونظمت اعتداءات على العمال الأجانب بدءاً بالفيتناميين Vietnamese . وأثناء مظاهرات وقعت في برلين الشرقية ولبيتزج ومدن أخرى كبرى ، ترددت شعارات معادية للبولنديين ومعادية للسلافيين . بشكل عام ، وظهر في ألمانيا الشرقية تياران من التطرف أولهما هو : تيار النازية الجديدة ، وقد اختلقها شباب مريض اتسمت أنشطته في أغلب الأحيان بالعنف ومن أهدافهم التخلص من العناصر الغربية التي تهدد « نقاء الجنس الألماني » ومنها : اليهود والبولنديون والأسويون (١٥) . والتيار الثاني ظهر تحت ما يسمى بالحق الألماني الغربي الأسمى . خاصة ذلك الذي يتبناه حزب الجمهوريين Republican Party برئاسة فرانز شونهوبر Franz Schonhuber ، وكان دعم الجماعات السياسية التي جنحت للاشادة بالارهابيات الخاصة بحق التطرف في تزايد .

ولأن حزب الجمهوريين والتكوينات المتبنية للحق الأسمى قد ركزت حملاتها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فإن الشيوعيين السابقين ، الذين تجمعوا تحت مظلة حزب الوحدة الاشتراكي - حزب الاشتراكية الديمقراطية - جعلت الصراع ضد الفاشية قضية بارزة في دعايتها الانتخابية .

« اننا لا نحارب ضد الستالينيين لنفسح الطريق للفاشييين الجدد » .

هكذا أعلن جريجور جيسى . الا ان الشيوعيين كانوا قد فقدوا كسب

مصادقية لهم وفشلت كل جهودهم التي بذلوها لحفظ ماء وجههم كحزب أوربي اشتراكي Euro-Socialistic فى الحصول على أى دعم شعبي .
 حقا يلتفون حول الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذى تكون لدينا والذي حصل فى انتخابات مارس على ٨٨ مقعدا فى البرلمان الذى يبلغ أعضاؤه أربعمائة . وقام زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين ابراهيم بوهم Ibrahim Bohme ، وكان هو نفسه شيوعيا سابقا ، بتحدى الشيوعيين ، عندما طالب باعادة وحدة الألمانيتين على وجه السرعة (١٦) . وبالنسبة للمنبر الجديد وهى الجماعة المعادية للسلطوية والتي كانت فى مقدمة المظاهرات التى وقعت فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ ، فقد فقدت كل قبول لدى الجماهير بسبب اصرار زعمائها على تحويلها الى حزب سياسى حقيقى ، وبسبب ما أبدوه من رفض عنيف تجاه الوحدة الألمانية وبالنسبة لكثيرين فى المنبر الجديد ، فان اندفاع الألمان الشرقيين لتدعيم الوحدة بدا خيانة لمبادئ اجتياح أكتوبر . وكمثال على ذلك أعلن سابستيان فلوجبيل Sabastian Pflugbeil عالم النفس المنشق وواحد من زعماء المنبر الجديد :

« لقد أصبحنا ثوريين ، لأن الكيل قد فاض بنا من الدكتاتورية الحزبية ، ولم يكن لدينا فرص للتأثير فى مجريات الأمور - اننا كنا نريد دولة ديمقراطية حقة » (١٧) .

ان واحداً من الآثار المذهلة التى خافتها العقود الأربعة من الحكم الشيوعى فى ألمانيا الشرقية كان تحديداً هو التوجه المحافظ بشكل عام نحو العملية الانتخابية وغياب التشكيلات السياسية التى تحظى بقبول جماهيرى حقيقى . وبمجرد أن توحدت الألمانيتان فان جمهورية ألمانيا الديمقراطية انخرطت فى نموذج مختلف عن ذلك الذى اتبعته الدول الأخرى بعد التخلص من الشيوعيين . ان حاولت أن تتصرف حسبما تريد فى محاولة لاعادة تشكيل الاقتصاد واستعادة المناخ المدنى . ان باقى أوروبا الشرقية لم يعد لديها « أخ اكبر » يقوم باستغلالها ، ولم تعد هناك أحزاب سياسية تستعرض براعتها السياسية ومن ثم فالطريق ممهّد من أجل ثقافة الديمقراطية . أما بالنسبة للارث السياسى والمعنوى الذى خلفته عقود أربعة من الاشتراكية على الطراز السوفيتى فسوق أرض المانية ، فيستطيع المرء ان يلخصها فى ثلاث كلمات : أكاذيب ، فساد ، ارهاب . وكما سجل أحد المحررين فى مجلة ألمانية غربية مؤثرة قائلاً :

« اننا نعرف الآن ان هناك الكثير فى جمهورية ألمانيا الشرقية الذى تحول الى أسوأ مما كان عليه تحت الحكم الديكتاتورى ، وقد احسست

الجماهير بما لم يستشعره نقاد النظام أو تخيلوه . ان القيم المزعومة التي فرضت على المجتمع الشيوعي في جمهورية المانيا الديمقراطية قد تحالت الى لا شيء ويبدو الان كما لو كانت مجرد خيال . . . وما ينشئ من سياسات السلام وعدم التسليح بدا ملحا للغاية بالنسبة لادعاء هوتكر الشرعية . ما الذي بقي الآن من التصريحات الشيوعية ضد استخدام القوة والارهاب والتي اماطت اللثام عن العلاقات التي اقيمت مع الارهابيين الألمان الغربيين ، والموت في معسكرات التهذيب ، والرقابة المشددة التي فرضت على المواطنين ؟ ما الذي يمكن ان يبقى من هذا الارث لهؤلاء الذين تم تدريبهم على كيفية النفاذ عن الطرق الجبرية والديكتاتورية للحزب وعن هؤلاء الذين تجاهلوا حقائق الاشتراكية كما كانت تمارس وتعلقوا بفكرة الاشتراكية الأكثر نقاء « (١٨) » .

بلغاريا : التزاوج الممنعيل :

وفي بلغاريا يبدو للوهلة الاولى أن الحزب الشيوعي السابق الذي اعاد تسمية نفسه بالحزب الاشتراكي سوف يستمر في حكم البلد . في محاولة للحفاظ على سيطرته ولاجتناب الانتقال الراديكالي لمجتمع مفتوح . ورغم المعارضة الداخلية استمر الحزب الاشتراكي في السيطرة على هذا البلد معظم عام ١٩٩٠ ، بل ان الشيوعيين المصلحين كانوا مهددين بالانشقاقية لأن الحاجة كانت ملحة لكلا الاتجاهين الليبرالي والمحافظ . واتهم التيار الاصلاحى زعيم الحزب الكسندر ليلوف بأنه م زال يعضد المعتقدات اللينينية ، بينما وجه له اللينينيون النقد لتخليه عن احتكار الحزب للسلطة ولما أظهره من توان مع القوى المعادية للاشتراكية . وبسبب ضغط الجماهير أجبر الحزب على غلق مقراته ، وبدأ وكأنه علة مستوطنة وتقلصت عضوية الحزب الاشتراكي من حوالى مليون في فبراير ١٩٩٠ الى ٢٥٠.٠٠٠ في منتصف مارس (١٩) . وفى يناير وفبراير نظمت محادثات المائدة المستديرة بين ممثلى الحزب الاشتراكي البلغارى BSP والمعارضة . واسفرت المفاوضات بين الطرفين عن توقيع عدة اتفاقيات مشتركة تتعلق بالانتقال الى النظام الديمقراطى وطبيعة ومستقبل هذا النظام . ان اتفاقيات الموائد المستديرة توجت بتوقيع اتفاقية في مارس عن مشروع قانون خاص بالتغيرات الدستورية ، والنظام الانتخابى ، والأحزاب السياسية . وفى نفس الوقت تخلى الشيوعيون عن طريقهم لتحسين صورتهم واقتنعوا الجماهير بأنهم قد انفضوا — وبلا رجعة — عن الماضى التوتاليتارى . وأرغى الحزب قبضته عن المنظمات المساعدة بما فى ذلك النقابات العمالية .

والتفت المعارضة حول اتحاد القوى الديمقراطية Union of Democratic Forces (UDF) وهو المظلة التي جمعت حركات وجمعيات أعلنت التزامها بالتعددية والديمقراطية . وبعد أن انتخب زعيمها جيليو جنيليف الفيلسوف والمناضل في مجال حقوق الانسان كرئيس للبلاد في أغسطس ، واستبدل بالزعيم بيتر بيرون Beter Beron الذي كان عليه تقديم استقالته بعد أن اكتشف أنه كان في الماضي متعاوناً مع البوليس السري . وظلت أحزاب المعارضة في اتحاد القوى الديمقراطية التي ضمت حزب « المصلحين الزراعيين - نيكولا بيتكوف Nikola Petkov » خليفة الحزب الذي قام الشيوعيون بقمعه في ١٩٤٧ والذي رفض الاندماج مع اتحاد الاصلاح الزراعي Agrarian Union الأكبر ، ذيلاً للنظام الشيوعي ، والحزب الاجتماعي الديمقراطي البلغاري Bulgarian Social Democratic Party والحزب الديمقراطي الراديكالي Radical Democratic Party . ان اتحاد بودكريبيا Pod Krepa المستقل والعضو المؤسس لاتحاد القوى الديمقراطية انفصل عن الائتلاف ؛ كي ما يؤكد على استقلالية الذاتيّة ولكنه احتفظ بوضعه كمراقب للأحداث . وفي نفس الوقت ، غان الأغلبية التركية التي تعرضت فيما سبق للاضطهاد - والتي يبلغ تعدادها نحو ٥ مليون وجدت في حركة الحقوق والحريات Movement for Rights & Freedoms صوتاً يعبر عن آلامها وأشجانها . وأعلن زعيم الحركة أحمد دوجان Ahmed Dogan عن نيته في الدفاع عن حقوق الانسان بصرف النظر عن القومية . وفازت الحركة بثلاثة وعشرين مقعداً في البرلمان الجديد لتصبح ثالث قوة سياسية في هذا البلد (٢٠) .

وأكثر الأحداث دلالة في بلغاريا كانت الانتخابات التي أجريت في يونيو ١٩٩٠ والتي استقطبت المنتخبين بشكل لم يسبق له مثيل . ورغم أن الحزب الاشتراكي البلغاري BSP حصل على الأغلبية المطلقة من المقاعد البرلمانية فقد فاز بأقل من ٥٠٪ من الأصوات وهزم على نحو مروع في صوفيا وفي مدن كبرى أخرى . وما تبع ذلك كان انهياراً مستمراً للنظام السياسي حيث اتهمت المعارضة الحكومة التي يسيطر عليها الشيوعيون بعرقلة عملية الديمقراطية وأجبر الاشتراكيون في منتهى الأمر على قبول إعادة التفاوض الخاص بتوزيع السلطة وفي يوليو ، أجبر بيتر ميلادينوف - الزعيم الشيوعي الذي خطط لازاحة جيفكوف في نوفمبر ١٩٨٩ - على الاستقالة بعد اتهامه باستخدام وسائل تتسم بالعنف والدموية في قمع إحدى مظاهرات الاحتجاج ، وفي

١ أغسطس وبعد اقتراع بلغ عدده ست جولات اختار البرلمان جيليو جيليف كرئيس جديد . وفى تلك اللحظات كان الشيوعيون ما زالوا يتمسكون بالسلطة وأصبح أحد زعمائهم وهو أندريه لوكانوف Andrei Lukanov رئيسا للوزراء .

وفى ٢٦ أغسطس أضرمت النار فى مقرات الحزب الشيوعى البلغارى فى قلب مدينة صوفيا ، وقد أدانت أحزاب المعارضة هذا العمل باعتباره شغباً وتحريضاً دبرته القوى الشيوعية انحلوته والتي تهدف الى زعزعة النظام الديمقراطى وتهديد استقراره . وبينما كان الزعيم الاشتراكى الكسندر ليلوف يدعى بأن المعارضة يجب أن تتحمل مسئولية الحادثة ، جاء رد اتحاد القوى الديمقراطية مؤكداً على أن جناح ليلوف يعد من أكثر أجنحة الحزب الاشتراكى رجعية وأن البوايس السياسى له مصلحة فى مراوغة المعارضة وفى عرقلة الانتقال الى الديمقراطية (٢١) . ولأن الموقف السياسى والاقتصادى كان ينتقل من السيئ الى الأسوأ ، فقد كان هناك العديد من الاحتجاجات الشعبية خاصة بسبب رفض الحزب الاشتراكى التخلي عن هيمنته . وبسبب عجز حكومة لوكانوف عن الحصول على تأييد البرلمان وازدياد الاضطراب الاجتماعى قوة وعبر عنه الاضراب الذى قام به طلاب منظمين نقابيين عماليتين ، مما أجبر لوكانوف الاشتراكى على الاستقالة . وأجبرت استقالته بدورها الاشتراكيين على فهم أنه لا أمل لهم فى الاستمرار فى حكومة يسيطر عليها حزب واحد ، وأن دور الحزب الاشتراكى البلغارى الاستبدادى فى السياسات البلغارية قد بلغ نهايته . وفى ديسمبر تشكلت حكومة ائتلافية تحت قيادة ديميتار بوبوف Dimitar Popov المحلف المبجل والمعروف بنزاهته السياسية والحزبية . وانقسمت الوزارات الرئيسية بالتساوى بين الحزب الاشتراكى البلغارى واتحاد القوى الديمقراطية . وورثت الحكومة الجديدة موقفاً اقتصادياً يندرج بوقوع الكارثة، مع نضوب فى الموارد غير مسبوق وانخفاض سريع فى الانتاج الصناعى ومن ثم كان التوجه نحو تبنى خصخصة سريعة شئ ملحاً . ان التعاون بين الحكومة ومؤسسة الرئاسة وكذلك تعيين المناضلين المدنيين المحترمين فى مراكز حيوية ، تشير الى أن بلغاريا كانت لديها الفرصة لتجاوز المازق السياسى (٢٢) .

تشيكوسلوفاكيا ، اجماع رأى متلعم :

وفى تشيكوسلوفاكيا كان وجود رمز مشهود له بالنزاهة ويتمتع بجمهورية شاملة تقريبا ، مثل الرئيس فيلاتسلاف هافيل ، عاملاً مساعداً

في الاحتفاظ باجماع رأى قومي لا ينفصم واطلقت البلاد العنان لبرنامج اصلاحى طموح وادى سيكون محصلة لاتفعال الاقتصاد الى اقتصاد السوق . ولاحظ المراقبون ، على آية حال ، ان حمى النشاط الذى اسبغت الشعب تحولت فى الشهور الأخيرة لعام ١٩٨٩ وعلى نحو متصاعد الى شك وفتور . استشعر كثيرين بصيص أمل لحل المشكلات العويصة التى نراكمت خلال عامى ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، مع انتقاد السلافيين للتشيكيين لنزعاتهم المتسلطة . وفى نفس الوقت فان ثمة محاولات ذمست تجرى فى تشيكوسلوفاكيا ؛ لرد اعتبار المتواطئين السابقين مع النازية فى الدولة السلافية القومية فى الفترة التى توسطت الحرب والتى لم تدم طويلا وهذه الجهود ، هكذا يجب ان يقال ، لم تنبع بالضرورة من الحنين الى العودة للقيم الفاشية . انه لموضع محزن ان الوقت الوحيد فى التاريخ الذى حصل فيه السلافيون على جمهورية قومية ، مزامن مع صعود الحكم النازى وعودته تحت قيادة متسينور جوزيف تيسو Minsignor Josef Teso .

وعلى الصعيد السياسى كانت الأحداث البارزة هى الانتخابات التى أجريت فى يونية عام ١٩٩٠ . وفاز كل من المنبر المدنى وجماعة الشعب ضد العنف Public Against Violence وهما المظلتان اللتان بزغتا كقوى قومية أثناء اجتياح عام ١٩٨٩ بأغلبية تبشر بأخير وئى ١٧٠ مقعدا فى المجلس الفيدرالى Fedral Assembly من أصل ٣٠٠ مقعد . ورغم ما عرف عنه من تعاون طويل مع المحتل السوفيتى ، فان الثيوريين بقيادة البيروقراطى الشاب فاسيل موريتا Vasil Mohorita استطاع الفوز بسبعة وخمسين مقعدا وأصبح القوة الثانية على الساحة السياسية . وهناك أحزاب أخرى قد برزت أيضا وهى الديمقراطيون المسيحيون وهو ائتلاف يجمع الحركة الديمقراطية المسيحية السلافية Slovak Christian Democratic Movement وحزب الشعب والحزب الديمقراطى المسيحى ، بالإضافة لجماعات تمثل المصالح العرقية والقومية ومصالح مناطق بعينها وقد حصلت جميعا على أربعين مقعدا .

وقد انتخب هافيل مرة أخرى كرئيس للدولة لدورة ثانية فى يناير وظل مارين كالفا Marian Calfa والذى ترك الحزب الشيوعى فى يناير رئيسا للحكومة . ولقد كان التقدم للأمام أكثر يسرا ، مما هو عليه فى بلدان أخرى ، ولكن حتى فى تشيكوسلوفاكيا رغم خبرتها الديمقراطية التى تتفوق على أى من البلدان الأخرى ، فان غياب الفهم الواضح لدور وآليات نظام الحزب كان واضحا فى الصراع الضارى الذى أثر على

كل من المنبر المدني والشعب ضد العنف . لقد كانت هناك اتجاهات كثيرة معادية للتوتاليتارية والتي رفضت مجرد فكرة تحويل الحركات الاجتماعية الكبرى الى أحزاب سياسية حقيقية . وفي أكتوبر عقد المنبر المدني مؤتمره وانتخب وزير المالية فيلاتسلاف كلاوس Vlastislav Klaus الاقتصادي الذي ينتمي لوجهات النظر المعادية للقومية التي نادى بها فون هايك Friedrich Von Hayek رئيسا للمؤتمر ونادى كلاوس بتحويل المنبر المدني الى حزب ديناميكي محكم التنظيم . وبما أصابهم من إحباط بسبب ما اعتبره نزوا بمينيا للمنبر ولتشكيل المجموعة البرلمانية للحقوق الديمقراطية Interparliamentary Group of Democratic Rights ، شكل الجناح اليساري في البرلمان عصبة تدعى الجمعية المدنية Civic Association وقد بدا أن التمايز بين الاتجاهات السياسية داخل المنبر المدني كان البداية لقرار دستور جديد ينظم الحياة السياسية القومية التي سوف تضم أحزابا تتجادل حول مهامات أيديولوجية أكثر مما تلتزم بالدفاع عن مبادئ عليا . وفي فبراير ١٩٩١ وصل التوتر بين اليسار واليمين داخل المنبر المدني الى ذروته ، وانقسمت الحركة الى جناحين ، أحدهما يمين عليه كلاوس وأيد فكرة تشكيل « حزب تكون نواته يمينية » ، كي يدخل المنافسة في انتخابات ١٩٩٢ البرلمانية ، وقد بزغ ، مثل هذا الحزب في الواقع في ربيع ١٩٩١ أما الجناح الآخر ، وهو الأكثر منانة ، فقد تواجد على الساحة السياسية تحت اسم النادي الليبرالي Liberal Club وكان أفضل شخصياته المعروفة هو نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والمشارك المتمرس في ميثاق ٧٧ جيرى دينستبير Jiri Dienstbier . ورأى كلاوس أن التناحر بين الفصيلين سببه اختلاف فلسفاتهم السياسية والاقتصادية . وقد انتقد نادي الليبراليين لالتزامه بالمبادئ الديمقراطية الاجتماعية وللدور الذي لعبه الشيوعيون المنشقون السابقون داخل صفوفه ، ولتجنب النزاع حول من له الحق في استخدام اسم « المنبر المدني » شرعيا ، وافق الفريقان على تحويله الى لجنة ائتلافية يمثل فيها الفريقان على قدم المساواة (٢٤) .

وفي نفس الوقت طالب وزير المالية كلاوس بأن تتم الموافقة على عدد من القوانين المتعلقة باعادة الممتلكات التي صودرت لأصحابها كما حث الدولة على تشجيع الأعمال الحرة ولكن في نطاق ضيق . وفي نوفمبر ١٩٩٠ دعم البرلمان الخصخصة على نطاق واسع وأقر نظاما جديدا للضرائب والأسواق الرأسمالية يمنع أي تضخم وأي تشنجات اجتماعية .

وأثناء هذه الفترة الثورية التي تطورت فيها الأحزاب الشيوعية واقتصاد السوق ، استمرت دعوات القومية السلافية لاستجماع قواها الدافعة . وقام مجلس النواب بعمل له دلالة ، إذ قام في أبريل بتغيير الاسم السابق للدولة وهو «جمهورية تشيكوسلوفاكيا الفيدرالية» The Czechoslovak Federal Republic إلى الجمهورية التشيكية والسلافية الفيدرالية The Czech and Slovak Federal Republic . وخطت اللامركزية مع الحكومة الفيدرالية التي قصرت العديد من امتيازاتها على الجمهوريتين خطى واسعة . وكان البلد على شفا أزمة دستورية في ديسمبر ١٩٩٠ عندما هدد النواب السلافيون البرلمانين بإعلان سيادة القوانين السلافية على القوانين الفيدرالية ، احتجاجا على المحاولات البرلمانية لتغيير مشروع قانون الإصلاح الدستوري . وفي هذه المناسبة عبر فيلاتسلاف هافيل عن أسفه لمتزايد المشاعر القومية وطالب مجلس النواب بالموافقة فورا على قانون ، يقر إقامة محكمة دستورية وتوسيع السلطات الرئاسية في حالة الطوارئ القومية . ولسخرية الأقدار اكتشف هافيل الذي عارض دائما أي تركيز للسلطة في يد شخص واحد أن هناك أوقاتا تصل فيها الأخلاقيات والسياسات إلى نقطة الصدام واكتشف أن العداوات العرقية ومشاعر العداوة ، بما فيها اضطهاد الأجانب ظلت تسمم المناخ العام . أن الاضطرابات العرقية التي طال تجاهلها كانت هي بداية المشكلات السياسية الجديدة . وبالتخلص من الإرث التوتاليتاري ومن الخوف والقهر ، شب بناء سياسي جديد . وكان ذلك يعني كما أشار هافيل في حديثه في الاحتفال بالذكرى غزو حلف وارسو عام ١٩٦٨ أن أحياء الروح المدنية هي التي جعلت اجتياح عام ١٩٨٩ العظيم ممكنا . إذ قال :

« لكي نغير موقفنا إلى الأفضل يجب أن نتصرف بهمة ودون تبسط . يجب أن نستلهم على الأقل روح أيام نوفمبر الأخيرة لكي نعيد خلق مشاعر التضامن ووحدة الهدف والأمل في التغيير ، أن الدفع المدني والخيال المدني اثبتا الآن أنهما أقوى من أية بنى توتاليتارية . . ويجب علينا ثانية أن نضع المصالح العام فوق المصالح الفردية والحزبية السياسية . ويجب علينا مرة أخرى أن نتصرف دون عنف وبتسامح ولكن بثقة وبسرعة وبنفس الطريقة التي تصرفنا بها في نهاية العام الأخير ، عندما خضع الحزب الشيوعي المهيمن على السلطة لرغبة الشعب وخلال أيام قليلة اضطر للتخلي عن « دوره القيادي » (٢٥) .

✳ المجر : التحرر من الوهم ، وتجرع الآلام :

في ربيع عام ١٩٩٠ ، انتخب المجرىون برلماناً جديداً وعانى الحزب الشيوعى السابق من هزيمة ساحقة . وفازت الجبهة الديمقراطية المجرية بنسبة ٤٢٩٪ من المقاعد ، يليها ائتلاف الديمقراطيين الأحرار بنسبة ٢٣٨٣٪ تليه تشكيلات أقل فاعلية . وعلى أية حال ، ناشأ الانتخابات المحلية التى وقعت في سبتمبر وأكتوبر فان العديد من الموظفين الشيوعيين السابقين قد أعيد انتخابهم ، وعلى الرغم من أن الحزب قد خسر المعركة فما زال هناك احتمال فى بقائه مؤثراً على المستوى المحلى . وفى نفس الوقت فان حلف الديمقراطيين الأحرار خطط ليفوز فى عدد من المدن الكبرى بما فيها بودابست حيث أصبح المناضل المعارض جابور ديمسكى Gabor Demszky عمدة . وكان النجاح الانتخابى مثيراً للغاية اثناء انتخابات ائتلاف الديمقراطيين الشباب المحليين وهو حزب جمع الموظفين والطلاب معا ، وبدأ أنه يرمز لالهامات العديد من المجرىين الذين يتوقون لرؤية سياسية جديدة .

وعلى عكس شيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا حيث أحكمت رئاسة الجمهورية قبضتها على السلطة السياسية ، فان النظام الجديد فى المجر سعى لإقرار دور حاسم للحكومة ورئيس الوزراء . لقد كان نظاماً برلمانياً أكثر منه رئاسياً . وبعد الاتفاق الذى تم بين أكثر حزبين أهمية على الساحة تم انتخاب كاتب ديمقراطى حر وسجين سياسى سابق هو ارباد جونز Arpad Gönez رئيساً جديداً للجمهورية . وأسندت مهمة تشكيل الحكومة الجديدة لجوسيف انتال رئيس المنبر الديمقراطى المجرى الذى كون ائتلافاً مع اثنين من الأحزاب الصغيرة وهم حزب الديمقراطيين المسيحيين وصغار القادة Small holders ونستطيع أن نستنتج بناء على ذلك أنه بعد انتخابات مارس وأبريل ١٩٩٠ « أصبحت المجر البلد الديمقراطى الوحيد فى أوروبا الشرقية الذى يحكمه نظام متعدد الأحزاب » (٢٦) .

وفى نفس الوقت لم تظهر الحكومة أى اصرار لانجاز اصلاح اقتصادى جاد ، وتحويل اقتصاد البلد المتردى الى اقتصاد السوق ، وحتى بعد تطبيق الخصخصة ، فان ذلك أسفر عن انتقال مفاجئ للمدراء السابقين الى رأسماليين كبار . ولد هذا الانتقال سخطاً بين الجماعات الاجتماعية والتى استعانت من النظام الطبقي الاجتماعى السابق وكانت تأمل فى نظام سياسى يسمح بأكثر من العدل الاجتماعى . وكان هناك ، كمثال ، الكثيرون ممن شاركوا فى وجهات النظر الناقمة التى عبر عنها لاسلو ميكلوس المهندس فى شركة منتجة للطعام حيث قال :

« حتى الآن مازال يحركنا الصديق بالي Ballay الذي يجلس في مكتبه تحيط به تماثيل لينين وصور الرفيق قادر بينما تقدم سكرتيته الزميلة كولتسناي Kolosznay شراب الكورفووايزر Courvoisier المعتاد للترحيب بالرفاق الذين أتوا لِقابَلته . والآن يملك مستر بالي شركة كبيرة ويجلس في مكتبه محاطا بصورة مستر بوش Bush يلوح له بيده . بينما سكرتيته الآنسة كولتسناي تقدم الكورفووايزر للملاء المكتب . وظل الانتاج على ما هو عليه ، الاسماء فقط هي التي تغيرت » (٢٧) .

واستمرت البيروقراطية التكنوقراطية الجديدة في ادارة المصانع الفلسفة التي ورثتها من النظام الشيوعي ولسوء الحظ ، فان البيروقراطية التكنوقراطية استمرت في العمل ، وأخذت الصراعات بين المنبر الديمقراطي وحلف الديمقراطيين الأحرار في التعمق ، إذ أن الموقف الاجتماعي كان يتدهور ومناخ السخط أصبح معبأ تماما . وأحرز المنبر المدني مكسبا كبيرا عندما أعلى من شأن المجريين في المجر . بل ومن شأن ١٥ مليون مجري بما فيهم الأقليات المجرية التي تعيش في بلدان أخرى بدءا برومانيا وتشيكوسلوفاكيا . وفي نفس الوقت وأثناء الحملة الانتخابية فقد اتحد بعض المفكرين مع المنبر وقاموا بهجمات على الديمقراطيين الأحرار والتي كانت غالبا تذكرنا بالانفجارات المعادية للسامية التي تميزت بها الفترة التي توسطت الحزب . ورغم أن رئيس الوزراء جوزيف انتال ووزير الخارجية جيزا جتسينسكي Geza Jeszensky اهتمما كثيرا بالتأكيد على التوجه الأوربي لحزبهم إلا أنهما لم يتنسلا تماما من مثل هذه الشعارات الواضحة عن العرقية الريفية . ان الصراع التقليدي بين الريفيين والحضر سببه جنوح كل منهما لظهور نفسه من خلال الرؤى الميثولوجية والمضادة للانتاج والتي اتبعوها قبل الحكم الشيوعي ، حيث مثالية المبادئ المسيحية والقوانين المجرية ونظامها من ناحية ومقت الأممية ، والتوجه نحو الغرب ، والتدهور ، والاطروحات الجامدة للانتاجنسيا الليبرالية من ناحية أخرى . إلا أن هذه صورة مبالغ فيها إذ تؤكد على أكثر التغيرات راديكالية في منهجهم . وسجل أحد المراقبين للمسرح السياسي المجرى في عام ١٩٩٠ ملاحظته بأن الاستقطاب الأيديولوجي للأحزاب هو انحراف الى الأسوأ :

« ان المهارات الفارغة عن تعليم الدين بالمدارس ، والاجهاض ، والخصخصة ، ومعاداة السامية والسيطرة على وسائل الاعلام والتثقيم المضارب للنظام هورثي قبل الحرب ، قد مزقت أواصر اجماع الرباي المشي للأحزاب حول الأولويات القومية » (٢٨) .

ومن ثم ، فإن المناظرات الأيديولوجية فى الثلاثينيات لا يمكن أن يدفع ثمنها ثانية فى التسعينيات ، إذ يعد ذلك ضرباً من الهرطقة .
إن الصراع بين الديمقراطيين الأحرار والمنبر الديمقراطى يكمن وراءه الشك المتبادل بين بودابست والمناطق الريفية ، ومحاولة كل حزب أن يوسع من قاعدته الانتخابية على قدر المستطاع (٢٩) . ولأن المنبر الديمقراطى يبعث القيم الخاصة بالحقوق التى كانت موجودة قبل الحرب من قبورها ، فإن حزب الديمقراطيين الأحرار بدا أنه حزب التحديث حيث نجدوا فى ورقة عملهم الشخصية السريعة وانتقدوا المنبر الديمقراطى لفئله فى مواجهة أكثر المشاكل الملحة للوطن . وفى أكتوبر ١٩٩٠ أصيبت بودابست بالمشلل التام من جراء أضراب سائتى العربات الأجرة والجرارات . ورغم النتائج الايجابية الملموسة لهذه الحقبة الانتقالية ، فإن الروح التى عمت هى روح التشاؤم . وجاء توضيح رئيس الوزراء مثراً للسخط حيث قال :

« إن كل شخص يعتقد بأن نتائجنا لا تتناسب مع جهدنا مخطيء ، إن أنها فاقته . وسيظل المجرى دائماً لا يرى إلا أسوأ شيء ، ومباشرة تلك طبيعة عقلية الفلاح الذى لا يتنبأ أبداً بمحصول جيد » (٣٠) .

ووعده انتال بعد أن عبر الشعب عن سخطه وغبته ، بعزل الحكومة وتعيين قيادات أكثر كفاءة . إن الاقتصاد المتدهور ومشاعر السخط ، كانت تدل على أن الفريق الحاكم لم يكن على استعداد لتغيير أى علاج ناجح . وبينما بدت بودابست بالتسريح مثل عاصمة غربية مزدهرة ، فقد ظل الريف يعاني من الفقر المدقع . ولأن الاقتصاد تدهور واستمر التجزئ السياسى ، فإن مستقبل المجر كان ينذر بتفاقم توترات ونزاعات جديدة . إلا أن ذلك يمكن أن يحدث فى ظل نظام ديمقراطى . ويبدأ أن الأحزاب السياسية تجمع على أن العودة الى الديكتاتورية شيء غير مرغوب فيه .

نحو نظام جمهورى فى بولندا :

إن صراعاً مزيراً قد طفا على السطح فى بولندا فى صيف عام ١٩٩٠ عندما قرر ليخ فاونسنا أن يتحدى الحكومة التى كان قد ساعدتها فى الوصول الى السلطة من شهور عديدة فائتسة . وبكلمات حادة ودأب ، أخذ فى ادانة الحكومة لما أبدته من تسويف توجهه توجيه ضربة قاصمة لأعضاء الحزب الشيوعى . ومنطق فاونسنا الذى يكمن وراء انفجاره المعادى لمازويسكى أن زعم الاتحاد لم يكن راغباً فى اقتسام

السلطة مع الشيوعيين وهو ما كان مبداً دستورياً قامت على أساسه حكومة مازويسكى . وبالنسبة لفاونسا وأحلافه ، لم يعد هناك أى سبب يجعل بولندا تلهث وراء القيادات الشيوعية السابقة . ورأى فاونسا أن وجود الجنرال ياروزليسكى كرئيس للبلد - حتى ولو كان ذلك مجرد وظيفة شرقية شئ شاذ فى وقت يطرد فيه المجريون والتشييكوسلوفاكيون بالفعل الشيوعيين من كل مواقع السلطة . وقد نظر فاونسا ومؤيدوه الى الاستراتيجية التى اقترتها الجلسة البرلمانية لتضامن برئاسة المؤرخ بروتسلو جيرميك على انها استراتيجية قاصرة ولا مبرر لها ، ولم يكن هناك سبب كى تحظى بالقبول فى اتفاق المائدة المستديرة ، إذ أن كل المعادلات الداخلية والحسابات الدولية قد تميرت جذريا .

ان الوقت كان مناسباً تماماً لخوض قتال ضار ضد المتمسكين بالشيوعية . أما هؤلاء الذين لا يشاركون فاونسا وجهة نظره هذه فكانوا محلاً للشك ، إذ أن ما أبدوه من تعاطف لا يحمله الا عضو سرى فى حزب يسارى . وكثيراً ما يقوم فاونسا - كما لو كان محلاً لفساداً - بالإشارة الى أية زلة لسان تبدر من أى أحد على أنها بولندية « مشوهة » - وكثيراً ما استخدم هذه الطريقة الشاذة ليلذكر المنتخبين بأن بعض أصدقاء مازوفسكى السياسيين كانوا يهوداً أو منحدرين من أصل يهودى . ان التواترات بين زعيم تضامن المتمرد ورئيس الوزراء مازويسكى وعصبته ، لا يمكن فهمها الا فى ضوء ظروفه الشخصية والنفسية . ولا نستطيع كذلك أن نتجاهل مشاعر فاونسا ازاء تهميش دوره على يد المفكرين النوابغ فى مدينتى وارسو وكركوا .

ويبدو أن فاونسا لم يكن سعيداً بتحول أحلامه السابقين لبيروقراطيين وكسره ما أظهره من تميع وليونة ، وكى يعجل بالانتقال الى الديمقراطية استخدم مجلسه الاستشارى ويدعى لجنة المواطنين Citizens' Committee وهو الكيان الذى تأسس عام ١٩٨٧ . وفى عام ١٩٨٩ اختارت اللجنة عدداً من المرشحين عن منظمة تضامن للحصول على مقاعد فى البرلمان ومجلس الشيوخ فى كل دائرة انتخابية . وفى عام ١٩٩٠ أكد فاونسا سيطرته على هذا الكيان بتعيينه تزسلو ناجدير Zdzislaw Najder المؤرخ الأدبى والرئيس السابق للمحطة البولندية لاذاعة أوروبا الحرة Radio Free Europe's Polish Service كرئيس جديد للجنة .

وعين عدداً من الأعضاء وأعاد - بقرار معلن - هنريك فيجيك Henryk Wujec زميله السابق المقرب كسكرتير للجنة ، كما حاول

اقصاء آدم متشنك من جريدة جازيتا ويورتسا Gazeta Wyborcza اليومية . وبإصراره على التمسك بجذوره الشعبية باعتباره معارضا لتفسير مفكرى وارسو عن الطبقة العاملة - ودعا فاونسا رئيس الوزراء ماتزوفيسكى Matzowiecki لاجتماع يحضره العمال في ساحة لينين Lenin Shipyard في جدانسك .

ولما قام به من ضربات وحشية ومستمرة فان احلاف مقربة من رئيس الوزراء قد عبرت جهرا عن عدم موافقتها على ممارسات فاونسا السلطوية ، وتطور مناظرة حادة بين صحيفة جازيتا ويورتسا اليومية والذي كان يحررها آدم متشنك المؤرخ التاريخى المعروف وجريدة تيجودنك سوليدرانسك Tygodnik Solidarnosc الجريدة التى يسيطر عليها مناصرو فاونسا . ولأن المجابهة ازدادت حدة بين الجريدتين وبالتالي العصبيتين ، فان الاتهامات كنت قد تصاعدت فوصلت تضامنا الى مفترق طرق فانقسمت على نفسها في مايو ١٩٩٠ وانشقت لجموعتين رئيسيتين حيث مثل حلف فاونسا حلف المركز Center Alliance وفى يوليو شكل المناضلون الموالون لماتزوفسكى فصيلهم الذى يدعى حركة المواطنين - العمل الديمقراطى Citizens' Movement-Demooratic Action (او الائتلاف البولندى : رودا Polish Acronym : RODA) (٣١) .

وفى بياناتهم الاولى وجه مناضلو حلف رودا اتهاماتهم لحلف المركز . مستخدمين طرقا ثورية وقالوا ان شعار « التعجيل » الذى يفضلها فاونسا ومؤيدوه يمكن ان يهز البلد هذا ويعادى الغرب . وغالبا ما كان فاونسا يصور على انه ديماجوجى لا معقول ، ومغامر يخلو من أى حنس بالتسويات السياسية . واختارت رود تاديوتس مازولسكى مرشحا لها لمنصب رئيس الجمهورية ، ومن بين أشهر مؤيدى رودا كان جيرتسى تورفيتس Jerzy Tourowicz المحرر الذى يكتب مقالا ثابتا فى احدى الجرائد الأسبوعية وهى تيجودنك بوتزشنى Tygodnik Pogszechny وكذلك المناضلان المتمرسان واللذان اشتهرا فى مرحلة النضال السرى لمنظمة تضامنا وهما زيجنيو بوجاك وفيلاتسلاف فرازنيوك Wladyslag Fransyniuk واخيرا آدم متشنك .

واعتبر « حلف المركز » ما أبداه يازويسكى وفريقه من تردد سببا فيما أصاب بولندا من عجز عن التقدم للأمام ، فى هذه المرحلة الانتقالية من الشيوعية الى الديمقراطية . ورفض الحلف ادعاءات « رودا » بأنها تجسد « روح التضامن » وأوضح أنها ترى فى نفسها وريثا لأفضل تقاليد الاتحاد المستقل . وكتب جاك مازيارسكى Jack Maziarski

محرر تجدونيك سوليداريتك وأحد البارزين في هذا الائتلاف عن برنامج وأنشطة هذا الحزب قائلا :

« وباتباع التقاليد الأساسية لتضامن ، والتي لا تماثل تقاليد اليسار البولندي (الذي يضع حدودا على الديمقراطية الاجتماعية وتجند مناصريها من بين العلماء والصحفيين والكتاب الى آخره) . ولا تقاليد اليمين البولندي ، فإن حلف المركز يحاول أن يمنع التصادم العنيف بين التيارات اليسارية واليمينية باقرار أغلبية سياسية ثابتة . تشغل المساحة بين الطرفين » (٣٢) .

ورفض المتحدث الرسمي لرودا ، بدوره ، أن يضيف كلمة « اليساري » لاسم حزبهم من قبل المتحدثين الرسميين المواليين لفاونسا . وادعت الطريق أنها تستلهم روحها من الحركات المدنية الديمقراطية الشرق أوروبية ، التي تمت في السبعينيات والثمانينيات وقد أضاف رودا لرصيده بمبادرته التي أتمت الشفاء ولكن بطريقة الصدمة وذلك بطرحه الاستراتيجية الاقتصادية التي لا تعتبر بأية حال من الأحوال يسارية . وفي مناسبات عدة أكد ممثلو رودا على أن حزبهم يتمتع بوحدة ، تضمن انضمام بولندا الى العائلة الديمقراطية للأمم الأوروبية قائلا ان جماعتهم كانت « غرب المركز » وبسؤاله عن معنى هذا الشعار ، فإن زبجنيو بوجيك الرمز الأسطوري الذي قاد تضامنا في المرحلة السرية الأولى بعد القانون العسكري اجاب :

« اننا نعمل من أجل حكم القانون والبرلمان ، من أجل استقلال الهيئة القضائية ، وغيره ، ونحن ضد أية طريقة يمكن أن تهدد المنجزات الديمقراطية . ولا يستطيع المرء أن يقلت من قيود التوتاليتارية بتطبيق طرق غير ديمقراطية » (٣٣) .

ان الصراع بين التيارين له أصل أعمق وهو بالتحديد الاختلاف حول طبيعة الخطر الرئيسي الذي يهدد ديمقراطية بولندا الهشة . ويرى خلف المركز أن استعادة الشيوعية هي تهديد حقيقي ودفعوا في اتجاه فوري ولا يقبل التسوية لابعاد النومنكلاتورا عن كل المكاتب الحكومية ، بينما اشار « رودا » الى التعددية العرقية والديماجوجية ، باعتبارها أكثر الكوارث خطورة . وآدم متشنك كمثال اعتبر فاونسا « خطرا على الأمة » وقال ان زعيم تضامن بكل مهاراته كمناضل شعبي ليس لديه ما يؤهله ليكون رئيسا لدولة ديمقراطية . ويرى متشنك ان ما يملكه فاونسا من « مثالية هي وظيفة يمسك من خلالها بكل حبال السلطة » .
١ « تحمل أية مسئولية » (٣٤) .

ورد بوجاك على رؤى فاونسا عندما قال بأن « التعددية الفارغة »
لحلف المركز قد استقطبت مشاعر القوميين ، « وبسبب وجهة النظر
القومية لن يكون في مقدور [حلف المركز] أن يبنى حركة سياسية تربط
بولندا بالغرب » . ان حزب « رودا » هو الحزب الذى سيأخذ بيد بولندا
الى أوروبا « (٣٥) » .

وتورط رئيس الوزراء مازويسكى الرجل الذى كان بالتأكيد أكثر
شعبية من وزارته فى معركته مع فاونسا الدعوى والمشهور اثناء الاستجابات
التي أجريت فى ديسمبر ١٩٩٠ حيث حصل فاونسا على ٤٠٪ فقط فى
الجولة الأولى و ٧٠٪ فى الجولة الثانية . وبعد الجولة الأولى انسحب
مارويسكى باركا فاونسا يتحدى ستانسلو تيمنسكى Stanislaw
Tyminski رجل الأعمال غير المعروف والذى كان مهاجراً الى كندا
وبيرو والذى تعهد بتحسين الوضع الاقتصادى لبولندا فى خلال شهر ،
وقد حصل نيمنسكى على أصوات تفوق ما حصل عليه هذا الذى يسعى
منصب رئيس الوزراء ، وهو ما أثار رعب المراقبين البولنديين وذعر
كل الأحزاب الديمقراطية ، إذ أن الوافد الجديد غير المؤهل ليصبح
رئيساً للجمهورية ، استطاع أن يفوز بخمسة وعشرين فى المائة من
الأصوات فى الدورة الحاسمة فى الانتخابات . وقد كان واضحاً أن
الصراع بين فصلي تضامن مع الاتهامات الكلامية التى تبادلوا رشقها ،
قد ساهم فى ارتباك عام واحباط واسع النطاق بين المنتخبين . وبعد
أيام قليلة من الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية فى بولندا كتب
صحفى ايطالى تخصص فى الشؤون الشرق أوروبية يقول عن وارسو :

« ان المناخ الآن فى وارسو أصبح مسمماً بهستيريا من الرعب حتى
ان الوافد الدخيل ربما ظن أن المدينة كانت قد أعلنت مؤخرًا منطقة
كوارث طبيعية أو انها حقيقة مصحة عقلية واسعة حيث يتهم فيها كل
نزير جاره بأنه يحاول ان يظهر نفسه عاقلاً ، وبالمناسبة ان مصطلح
(السيكيوباتى) غالباً ما يتردد فى عبارات المفكرين والسياسيين
هنا » (٣٦) .

ان هذه اشارة تنذر بالسوء لحزبى رودا حلف المركز ، اللذين
أدركا أن السخط الشعبى يكمن خلفه انفجار مدو ، وأنه ان لم يتم
تحسين الأداء الاقتصادى فى القريب العاجل ، فستكون هناك على وجه
التأكيد انفجارات للاضطراب الاجتماعى ، ولأنجاز مثل هذه التحسينات،
عمل فاونسا على التقدم بالحواز والمصالحة القومية واعاد تعيين
ليزيك بالبروفتس Szesek Balcerowicz وزيراً للاقتصاد والمسئول عن

الشفاء بطريقة الصدمة في الحكومة الجديدة التي يرأسها الآن كريستوف بيلسكى Krzysztof Bielecki البالغ من العمر ٣٩ عاما وعضو البرلمان في جدانسك والاقتصادي الذي تحول الى رجل أعمال وسياسي .

أن تكوين الحكومة الجديدة وكذلك إعادة تثبيت موقف فاونسا أكد على أن مناضل منظمة تضامن المتميز كان قادرا حقا على فهم القواعد والقوانين السياسية الواقعية . وفي أحد تشخيصاته الواعية لفاونسا فان بيوتر فيرزبسكى Piotr Wierzbicki ، وهو واحد من أكثر الصحفيين المؤثرين في بولندا ، حل الأساطير العديدة التي ضربت حول المرشح السابق لجدانسك وأوضح زيفها . واستنتج بيوتر فيرزبسكى الآتي :

« ربما يبدو فاونسا حرياء لأنه برجماتى متطرف . وبعيدا عن رفضه لهذا العنف فان مودته للكنيسة الكاثوليكية البولندية وعندما تشككه في معاداة السامية ، وتجاهله لشعارات تضامن (« روح الشعب » ، « الخضوع » وغيرها) فان فاونسا لم يتبن أى مذهب من أى نوع . وعندما قال ان تضامن لا هى بجناح يمينى ولا يسارى ، فانه كان يتحدث عن نفسه أولا . انه لا يهتم بالصياغات أو المفاهيم . انه يهتم بما يجب ان ياكله الناس وبما يقوله عن تضامن . انه يهتم بمزاج المجتمع ان يعقبه مؤشرا لا يخطئ . انه يعلم انه اذا فشل في الابقاء على روابط تجمع بين اتجاهات ومشاعر الناس العادية ، فانه سيكون لا شيئا . وكلمة وضع في اعتباره أن تحديد أى طريق سلمى سوف يؤدي بأسرع ما يمكن الى بولندا حرة حقيقية ، فانه سيكون على الطريق الصحيح » (٣٧) .

ان انقسام تضامن وتشكيل حزبين رئيسيين جديدين ساهم في جعل التمايز السياسى تمايزا صحيحا . وفي المجتمعات الديمقراطية لا توجد حاجة لأية روح عصبوية بين هؤلاء الذين يشكلون الطبقة السياسية . وطالما أن الأحزاب السياسية تقاسم الحكومة في المثل العليا ، فان تنافسهم هو اشارة على الدينامية الاجتماعية ، ويساهم في المزيد من التطور للثقافة المدنية التى يمكن أن تمنع الانتقال من رئاسة قوية الى تجربة ديكتاتورية .

✽ الخوف والاحباط في رومانيا :

وفي برنامجها الاصلى ادعت جبهة الخلاص الوطنى برومانيا أنها تمثل روح ثورة ديسمبر المعادية للشوعدة . ولكن رومانيا استغرقت

أقل من شهر لتدرك أن الحكومة الجديدة كانت عازفة عن التورط في حل شامل للمؤسسات القديمة .

وفي يناير ١٩٩٠ نظمت جبهة الخلاص الوطني مظاهرة العمال الجماهيرية ضد أحزاب المعارضة واتهموها بخدمة مصالح أجنبية . والشعارات الجماهيرية التي رفعها مؤيدو الجبهة نادى بالنيستجو رئيس جبهة الخلاص الوطني كرجل بعثته العناية الإلهية . وفي فبراير رفضت جبهة الخلاص القومي قبول وجودها الهامشي ، وأعلنت عن نواياها في تقديم مرشحين من أجل الانتخابات القادمة . ومنذ هذه اللحظة بدأت تفقد مصداقيتها بين الشباب والمفكرين - وتحديدا الجماعات التي كانت أكثر فاعلية في الاجتياح المضاد للشيوعية . وكتب أوكنيفان بولر Octavian Poler في أحد الأعمدة المؤثرة في جريدة رومانيا ليبرا أو (رومانيا الحرة) Romania Libera وهي إحدى أهم الصحف اليومية القومية المستقلة أن طموح جبهة الخلاص القومي هو أن تحتفظ بصورتها الثورية ، لجعل المعارضة معارضة محايدة ، ولتؤكد على انتصارها في الانتخابات البرلمانية والرئاسية المزمع إجراؤها في الربيع .

وقبل ربيع ١٩٩٠ وفي هسهل ثورة ١٩٨٩ الرومانية ، انتاب الكثير من الجماهير الشك في أن الزعماء الجدد يعرفون بعضهم البعض قبل انهيار نظام شوشيسكو ، وأنهم قد تأمروا ليأخذوا السلطة في اللحظة التي يزاح فيها الديكتاتور أمام المد الشعبي . وبمعنى آخر ، فإن جبهة الخلاص القومي وبعيدا عن كونها دفقا تلقائيا قادما من القاعدة كانت تعبيرا عن المؤامرة التي قام بها هؤلاء الذين كانوا في القمة .

ولأن الحركة المنشقة كانت ضعيفة في رومانيا الشيوعية وراثتها السياسي كان محدودا ، فإن الاجتياح الثوري فشل في أن يسفر عن تشكيل حكومة ثورية . وما حدث بعد ذلك كان حقا اقضاء للثورة عن بؤرة الاهتمام على يد جماعة متلونة من الشيوعيين ، وقد نظمت جيدا في قصر المؤامرات مستخدمة أساليب التنكر . وكان يبدو أيضا أن أعمالهم نالت استحسان القيادة السوفيتية التي كان لديها كل الأسباب التي ترجع استبدال شوشيسكو « بأتوقراط مستنيرين » ، بدلا من تلك القوة المضادة للشيوعية والتي ظهرت بالفعل في بولندا والمجسز وتشيكوسلوفاكيا .

وقد بدت جبهة الخلاص القومي مقتنعة تمام الاقتناع عندما عذرت عن رغبتها في الانفصام عن الماضي . إلا أن هذه النية كانت مجرد كلام طنان!

صحيح أن البوليس السرى السياسى كان قد ألغى رسميا ولكن فى ١ مارس ١٩٩٠ برز ثانية على السطح تحت اسم مصلحة رومانيا للمعلومات Romania Service For Information ولم يحاكم أى فرد من هؤلاء الذين خططوا للمذبحة البشعة فى بوخارست بعد فرار شوشيسكو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ .

وأطلقت وسائل الاعلام الموالية للحكومة حملات شعواء لتحقيق المعارضة وكل هؤلاء الذين جرؤوا على المساءلة عن مدى شرعية جبهته الخلاص القومى . وحقيقة ، فان السبب الرئيسى لعدم استقرار رومانيا فيما بعد الثورة كان محاولة الشيوعيين الاصلاحيين الاحتفاظ بالسلطة السياسية والاقتصادية فى ايدى طبقة النomenklatura نفسها والتي حولت البلد بعد أكثر من أربعة عقود لحطام . وادركت الجماعات المدنية المستقلة ووسائل الاعلام الشرك الكبير الذى نصب لجبهة الخلاص القومى باعتبارها « دفقا » للثورة . فمن ناحية كانت هناك جبهة الخلاص القومى برئاسة أيون اليشيسكو الشخصية التى اشتهرت بقناعاتها الشيوعية على الصعيد العالمى ، ومن الأخرى كانت الأحزاب المعارضة التى يسيطر عليها ثلاثة « أحزاب قديمة جديدة » (الليبرالى القومى والفلاحون القومى والديمقراطيون الاجتماعيون) . وفى نفس الوقت برزت جبهة الخلاص القومى عددا كبيرا من الأحزاب الصغيرة التابعة التى كانت مستعدة أن تصدق على سياسات الجبهة . بأمل المشاركة فى السلطة . وأثناء انتخابات مايو ١٩٩٠ قدم أكثر من ثمانين حزبا سياسيا مرشحين وكان منهم اربعون حزبا يبدون تعاطفهم مع جبهة الخلاص الوطنى . وكان لدى المعارضة قليل من الوقت لتنظيم نفسها وتحديد مسارها السياسى الذى يكسر الحواجز التى وضعتها حكومة الجبهة بينها وبين الجماهير .

ولم يكن هناك أى تقارير تثبت أن رئيس الوزراء بيتر رومان Peter Roman ابن أحد قمم الأيديولوجيين الشيوعيين والذى قضى سنوات الحرب فى موسكو كموظف تابع للكمترن ، كان منشقا وذلك خلال نظام شاوشيسكو . وعين سكرتير الخلاص القومى دان مارتيان Dan Martian فى السبعينيات كسكرتير عام لاتحاد الشباب الشيوعى . وزير للشباب Minister For Youth Affairs .

أما التشيسكو فانه لم يتنكر لماضيه الشيوعى بما فى ذلك دوره كأيدىولوجى رئيس وكان ذلك فى أواخر الستينيات . ورغم أن جبهة الخلاص الوطنى لم تكن حزبا سياسيا حقيقيا ، فان بلشفيتها الجديدة

التي تم التنديد بها كانت استراتيجيه حياة أو موت استخدمتها النوميكلاتورا المحاصرة كمحاولة لاحتواء مد الموجه المضادة للشيعوية القادمة من القاعدة . ولأنها كانت مظلة أكثر من كونها حزبا شيوعيا دستوريا أيديولوجيا ، تلاعبت جبهة الخلاص الوطني بالمخاوف الثارة عن اللا استقرار والضياح . كان يجب على الجبهة أن تعترف بوضعها السياسي في فبراير عندما دعت الأحزاب الأخرى للانضمام لبرلمان مصغر يسمى المجلس الاقليمي للوحدة الوطنية Provisional Council of National Unity . وبالتعاون مع ممثلي المعارضة داخل الجسد الهش ، فان جبهة الخلاص الوطني هدفت لوضع حد للاضطراب العام .

الا ان السخط في رومانيا قد ضرب بجذوره ولم يكن من السهل وقفه . ان انغماس جبهة الخلاص الوطني في أنصاف الحقائق والحذبرات العدوانية أسفر عن مزيد من التوترات داخل القوى الثورية والمدنية . وربما كان اليتشيسكو واهما عندما ظن أن الرؤية الرومانية للبرسترويكا سوف ترضى الجماهير ، ولخية أمل زعيم جبهة الخلاص الوطني فان الراديكالية بدلا من الحد من دفعها ، زاد مدها واستجمعت قواها .

ان الشعور المتفشى بأن جدول أعمال جبهة الخلاص الوطني الخفي كان يهدف للاحتفاظ بالنظام السلطوي كان له أساس من الصحة . وكان الرومانيون يعلمون ان البوليس السري المرعب ما زال موجوداً رغم انكار السلطة ذلك رسميا . وتم تقديم بعض أتباع ثونيسكو للمحاكمة بتهمة المشاركة في مذبة (١٦ — ٢٢) ديسمبر فقط وليس بسبب دورهم الذي قد لعبوه في اقرار واحد من أكثر الأنظمة الاستبدادية البذيئة منذ رحيل ستالين . وبدلا من استبعاد الأجهزة الادارية التي خدمت النظام السابق ، عينتهم جبهة الخلاص الوطني في مواقع قيادية مهمة . ولم تستطع المعارضة في كل البلدان الشيوعية السابقة الأخرى . أن تصل للسلطة أو أن تخطط للقيام بتصد حقيقى لمحاولة اعادة بناء الأحلاف اللينينية . ففي رومانيا اخترق الموالون السابقون الساتر الثوري وأطلقوا حملات عشوائية ضد الديمقراطيين ، وبدلا من اللجوء لطريقة التفاوض على أساس امكانية الحوار بين الشيوعيين الاصلاحيين والمعارضة فان « الأوضاع المتردية في بوخارست Bucharest Syndrome » بلغت حد أن بيروقراطى النظام السابق وماجوريه السيكيوياتيين حاصروا الثورة المضادة للشيعوية الأصلية، كما بلغت حد التنكر المستمر لهؤلاء الذين التزموا حقيقة بالتغيير السياسي والاقتصادى (٣٨) . وتحدث اليتشيسكو والرومانيون عن

التعددية واقتصاد السوق ولكنهم لم يبادروا بأى اصلاح حقيقى يمكن من خلاله التخلص من السلطة البيروقراطية للدولة . واستمر كبت وقمع المبادرات الفردية من قبل قرارات حكومية لا تعد ولا تحصى ، ولم يلق الاستثمار الأجنبى أى تشجيع ، اذ رفعت الجبهة شعار « اننا لا نبيع بلدنا لمتعدى الجنسيات الغربيين » . لقد ازداد التضخم ، ولم يستند من اطلاق الأسعار وتحريرها سوى تجار السوق السوداء والبيروقراطيين .

وكما توقع اللينينيون غير آسفين ، فان اسنراينجية جبهة الخلاص الوطنى قد نسفت من أساسها وحدث ذلك لأنها تجاهلت ديناميات التنظيم الذاتى للمجتمع وتدفق المشاعر الجماعية وتوق الجماهير للحرية والآثار التى أسفر عنها التقدم نحو الديمقراطية فى البلدان الشرق أوروبية الأخرى . وفى مارس ١٩٩٠ تم نحدى جبهة الخلاص القومى «بميثاق تيميشوارا Timisoara Proclamation» البيان السياسى الذى كتبه العديد من المفكرين الشبان فى تيميشوارا وهى من مدينة تفيق من سباتها وتتحدى حكم شوشيسكو اثناء عام ١٩٨٩ الثورى . وفى البند السابع من الميثاق استجوب الثوار المخلصون هؤلاء الذين قد ركبوا موجة الاجتياح :

« وبدأت تيميشوارا الثورة ضد النظام الشيوعى كله وضد النومنكلاتورا باكملها ولم يكن ذلك بالتأكيد لاعطاء الفرصة لجماعة من المنشقين المعادين لشوشيسكو داخل الحزب الشيوعى الرومانى RCP للصعود على انقاض السلطة السياسية ، ان وجودهم على راس السلطة السياسية يجعل تضحية ابطالنا بانفسهم لا معنى لها » (٣٩) .

وما كان له المغزى الأكبر فى الميثاق هو البند الثامن الذى نادى بتعديل قانون الانتخاب ، لمنع المناضلين الشيوعيين السابقين وموظفى البوليس السياسى من التشبث بالوظائف الحكومية والجري وراء المقاعد البرلمانية ، كما عارضت الوثيقة بشكل مؤكد حق هؤلاء الذبن خدموا النظام الشيوعى أن يرشحوا انفسهم لمكتب رئيس الجمهورية . وحقق الاعلان بغيته فقد كان رد فعل النومنكلاتورا مشينا ، اذ استخدموا أسلحتهم التقليدية بما فى ذلك القذف والغمز واللمز والتخويف .

ولاقت أهداف الميثاق كل قبول من قبل مؤسسات من الجماعات والجمعيات المستقلة ، بما فى ذلك جماعة الحوار الاجتماعى Group of Social Dialogue وهى كمدينة من المفكرين البارزين المعروفين

برفضهم السابق للتعاون مع نظام شوشيسكو . ومع حلول نهاية شهر أبريل تجمع العديد من الطلاب والعمال والمفكرين بميدان الجامعة في بوخارست ، حيث نظموا اعتصاما للاحتجاج على رفض الحكومة تلبية مطالب الميثاق . ورغم أن حكومة جبهة الخلاص الوطني أرسلت قوات البوليس لتفرقة المظاهرات التي عسكرت في الميدان ، فإن المظاهرات تواصلت ليل نهار . وبهذا التحدى فقد اليتشيسكو عقله وأمر بمذبحة للمتظاهرين وقد كان ذلك خطأ كلفه الكثير ، إذ تذكرت الجماهير ممارسات شوشيسكو الاجرامية ضد « المشاغين » في تيميشوارا أول أيام الثورة .

وفي مايو ١٩٩٠ فازت جبهة الخلاص الوطني بأغلبية المقاعد البرلمانية برومانيا ، وفاز اليتشيسكو مرشح جبهة الخلاص الوطني بمنصب رئيس الجمهورية بأكثر من ٨٥٪ من الأصوات . وبالمقارنه بالدول الشيوعية السابقة الأخرى ، كانت رومانيا استثناء . وكان سر الانتصار الساحق لجبهة الخلاص الوطني يكمن في الغموض الذي لف توجهاتها الحقيقية نحو الاشتراكية ، ويكمن أيضا في تفكك المعارضة وافتقارها للتنظيم الجيد . ورغم حنينها الى ذكرى أمجادها السابقة ، فإن « الأحزاب التاريخية » فشلت في إثارة أى رد فعل ايجابى بين العديد من الرومانيين خاصة من هم فى منتصف العمر . وهناك عنصر آخر يرجع اليه انتصار جبهة الخلاص الوطني الساحق هو ارهابها وممارساتها العنيفة والمستمرة للمعارضة ، ورأى الرومانيون أن التصويت من أجل جبهة الخلاص الوطني بدا هو البديل الوحيد للانزلاق فى هوة الاستبدادية (٤٠) .

وبادراكهم لهزيمة ما بعد انتخابات مايو ، فإن المنظمين لاعتصام ميدان الجامعة قرروا الانسحاب . وبحلول منتصف يونيو لم يطالب المحتجون . بما فيهم العديد من المضربين عن الطعام ، سوى بتأسيس واحدة من المحطات التليفزيونية المستقلة . وقد انتظر اليتشيسكو قليلا حتى يمكن للنار التي أضرمت فى قلب بوخارست أن تخمد دون تدخل منه .

ولكن فى ١٣ يونيو حاصر البوليس الميدان وفك خيام المضربين عن الطعام وحطموا المنصات التي اقامها المتظاهرون لالقاء خطبهم ، كما أصيب المتظاهرون بعد تفريقهم بالقوة ، وكان ذلك هو المرحلة الأولى من عملية القمع النهائى والحاسم للمعارضة .

وواصل البوليس السرى أعماله القمعية بعد سلسلة من الأعمال الاستفزازية بما فى ذلك الهجوم على مبنى وزارة الداخلية ومبنى التليفزيون المركزى . وكان هذا الانفجار هو ما يحتاجه اليتشيسكو تماما ؛ ليحصل على تأييد عمال المناجم فمنحهم مباركتهم ليطلق ليده العنان للقيام بممارسات ارهابية فى بوخارست فى ١٤ ، ١٥ يونيو . واجتاحت عمال المناجم مقرات الجمعيات المستقلة التى عرفت بنشاطها السياسى وهاجموا مقرات احزاب المعارضة والمئات من الجامعات والمدارس العليا . لقد كان رد فعل عنيف ودموى على احتجاج الجماهير ، بل كان عريضة ستالينية فاشية من الكره والعنف (٤١) . وقد انارت هذه الأعمال التى قام بها عمال المناجم حنقا دوليا شديداً وهو ما أجبر اليتشيسكو ومعاونيه للتخلى عن خططهم المبدئية والتى استهدفت اذلال المجتمع المدنى الصاعد برومانيا اذلالا تاما ، وبالنسبة للمعارضة ، ورغم الأثر السيئ الذى خلفه انهيار يونيو واصلت تنظيم نفسها ، وفى سبتمبر شارك ممثلون عن اكثر الجماعات الديناميكية المستقلة فى اجتماع المقاومة الرومانية (٤٢) Romanian Resistance . وفى نوفمبر وكتعبير عن الحاجة الى جمع شمل التشكيلات المتفرقة من المعارضة داخل البرلمان تشكل التحالف المدنى Civic Alliance ، وتحت قيادة رموز ثقافية وسياسية معروفة ، أعلن التحالف التزامه باقامة ثقافة سياسية ديمقراطية فى رومانيا مستخدما الوسائل التربوية والحوار . ورغم انها لم تقدم نفسها على انها تشكيل سياسى ، وجد التحالف ، نفسه مصدرا لالهام المنبر المدنى التشيكوسلوفاكى . وفى يوليو ١٩٩١ أقام التحالف المدنى مؤتمره الوطنى ، وقررت نخبة من المناضلين البارزين تشكيل حزب التحالف المدنى كقناة تمسدهم بالمرشحين فى الانتخابات القادمة . ومن بين هؤلاء الذين ظهروا كرموز مهمة فى الحزب السياسى الجديد ، كان هؤلاء المفكرون ذوو المكانة البارزة من أمثال الناقد الأدبى نيكولا مانوليتشيكو Nicolae Manolescu وكاتب المقال السياسى ستالين تانيس Stelian Tanase المناضل المدنى بتيميشوارا وفاسيلى بوبفتشى Vasile Popovici وجورج نوفان George Novan زعيم النقابة العمالية فى كونستانتا Constanta .

ولعجزهم وعدم رغبتهم فى المبادرة بمزيد من الاصلاحات الداخلية فان نظام جبهة الخلاص الوطنى استعاد الحملات السوفيتية واستنفر مشاعر الرومانيين القومية ضد السيناريو الدولى المزعوم الذى يهدف الى زعزعة استقرار البلد . وفى تلك العملية عبأ النظام المناضلين الشيوعيين السابقين ، وموظفى البوليس السياسى ، والمفكرين

المعادين للأجانب واستخدموا كرأس حربة للدعاية الحكومية المتزايدة ضد المجرمين . وتولت المنظمة المتطرفة فاترا رومانسيكا هذه الحملة الشعواء والتي فاقت جهود شوتيسكو المعادية للأجانب . ولأن الموقف الاقتصادي في رومانيا اسنمر في التدهور ، فقد فقدت السلطة قاعدتها الجماهيرية فأصبحت الشيوفينية في أسوأ أشكالها هي آخر ملجأ ديماجوجي يلجأ اليه الحكام . وفشلت ثورة رومانيا في إقامة دولة القانون أما الشيوعيون السابقون والذين خاطبواهم على أنهم ديمقراطيون ، فبعتوا من جديد وأقاموا نظاما سياسيا يمكن أن يوصف بأنه « ديمقراطية نوتاليتارية » أو « ديكتاتورية تركز على حماس شعبي » (٤٣) .

ولكن الجماهير عندما ندرك كم الأكاذيب الرسمية فان هذه الحماسة تذبل وتتوارى ، وبناء عليه فانه من المتوقع أن سلسلة من العنف ستجرى في هذا البلد ، وستتخطم قبضة جبهة الانقاذ الوطني على السلطة في آخر الأمر ، وعندئذ ، يمكن أن يكون أحد بدائل هذا التشوش هو العودة الى الصيغة السياسية التي سبقت الشيوعية وتتمثل في الاستبدادية الدستورية . وأحست جبهة الخلاص الوطني بالفعل بهذا الخطر ، وفي ديسمبر ١٩٩٠ قامت بطرد ملك رومانيا السابق الملك ميخائيل King Michael الذي جاء من منفاه في زيارة قصيرة لبلده ، وكان قد تنازل اجباريا عن العرش في ديسمبر ١٩٤٧ (٤٤) . ومرة أخرى ، فان تجربة اسبانيا تستحق التأمل . ويستطيع المرء أن يرى سمات الاستبدادية الدستورية في أنها تستعيد التقاليد التي انقطعت وتقدم تراثا سياسيا قادرا على قيادة المصالحة الوطنية ، وحقيقة وفي ديسمبر ١٩٩٠ فان التحالف المدني نشر بيانا طالب فيه باجراء استفتاء شامل ، ليقرر الشعب اذا كان يجب على رومانيا أن تعود للاستبدادية الدستورية مرة أخرى . وبالنسبة لكثيرين في رومانيا ، كان الملك هو رمزا للتجربة الديمقراطية القصيرة الأجل عقب الحرب العالمية الثانية . وكذلك يعتبر الملك الضمان الممكن والوحيد لعودة الوضع السوي الذي طال انكاره على الحياة العامة . ان الدستور الديمقراطي الذي اتبع في عام ١٩٢٣ اعتبر - بناء على ذلك - كاساس شرعي لبناء نظام تعددي في ذلك البلد .

✳ يوجوسلافيا : نزاعات عرقية ، انفصالية ، تفكك :

أثناء عام ١٩٩٠ تخلت العصابة الشيوعية اليوجوسلافية League of Communists عن احتكارها السلطة وتفككت على نحو شبه تام . واثناء عقد مؤتمره الرابع عشر اعترف الحزب بأنه لن يستجدي

امتيازاته الدستورية وأدرك انه لا يمكن لأى أحد فى المجتمع الديمقراطى أن يمتلك الحقيقة التاريخية المطلقة . ولم تكن هذه التنازلات كافية لتهدئة المصلحين الراديكاليين من سلوفينيا الذين طالبوا باعادة بناء تامة للحزب ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، ومن ثم تفتتت أوصال الأحزاب الفيدرالية المتناسكة . وفى مايو تم استئناف المؤتمر فى جو من التوتر العام . وأطلقت النداءات من أجل تحول الحزب الى منظمة يجتمع تحت مظلتها كل الفرق اليسارية فى تشيكوسلوفاكيا ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، وفى نفس الوقت كان الحزبان الكرواتى والسلافى الشيوعيان قد منيا بهزيمة منكرة فى الانتخابات التى شارك فيها كل الأحزاب ، لذا فان الشيوعيين فقدوا رصيدهم الجماهيرى فى ثانى أكثر جمهوريات يوجوسلافيا تقدما . وبعجزهم عن مواكبة التغيرات التى اجتاحت كل شىء ، حاول الشيوعيون أن ينظموا أنفسهم كحركة ملتزمة بالابقاء على يوجوسلافيا الفيدرالية . وفى جمهوريات أخرى توالى هزيمة الشيوعيين . وفى نوفمبر منيت عصبة الشيوعيين فى البوسنة Bosnia والهرسك Herzegovina بهزيمة مدوية من قبل الحزب الاسلامى للعمل الديمقراطى Moslem Party For Democratic Action ، وبعد شهر واحد فان شيوعى مقدونيا Macedonia خسروا الجولة الثالثة من الانتخابات (٤٥) .

وحاول رئيس الوزراء الفيدرالى أنتى ماركوفيتش Ante Markovic أن يعارض الاتجاه نحو اصلاحات تدريجية ومركزية ، راعى من شأن الاصلاحات الجريئة والفورية . وقد أعلن فوراً عن نية لتنظيم ائتلاف يشمل كل قوى الاصلاح فى يوجوسلافيا Alliance of Reformist Forces وتمتع بشعبية كبيرة بين العديد من المواطنين الذين صدقوا على فكرة الانفصال التام عن الفيدرالية (٤٦) . الا أن الصراع السياسى واللاتمازج بين جدولى الأعمال الاجتماعى والاقتصادى شى الحكومات الجمهوريات ازداد عمقا . وكنتيجه لانتخابات سلوفينيا وكرواتيا فان الجمهوريتين قد ساسهما ائتلاف يمينى ، بينما خطط الشيوعيون فى انتخابات ديسمبر للبقاء فى السلطة فى صربيا ، أكبر جمهوريات يوجوسلافيا وأكثرها قوة . وباعتباره المؤسسة الأولى فى يوجوسلافيا استمر الجيش فى معارضة الاتجاهات الانفصالية ، الا أن كثيرين فى سلوفينيا وكرواتيا نظروا للجيش على أنه أداة لتحقيق رغبات رجل صربيا القوى وهو سلوبيان ميلوسفيتش . وفى نفس الوقت وفى

سلوفينيا انتخب شيوعي سابق رئيسا للجمهورية ، الا ان الانتخابات البرلمانية فاز بها ائتلاف يميني مكون من أكثر من خمسة أحزاب تسمى ديموس Demos . وفى ديسمبر ١٩٩١ صوت معظم السلافيين فى استفتاء عام لصالح استقلال بلدهم عن يوجوسلافيا ، ومن ثم دشّن نموذج يعد قال شؤم على مستقبل الفيدرالية . ولم يكن ذلك - بالضرورة - يعنى انفصالا أو انعزالا ، بل هو مشروع تدريجى سوف يسمح للجمهورية السلافية بأن تسيطر على الجيش والسياسات الخارجية والمالية والتي كانت حقا مقصورة على الحكومة الفيدرالية فى بلجراد . وطالب بعض الرسميين السلافيين بصيغة كونفدرالية مشابهة للمجموعة الأوروبية European Community ، الا أن آخرين قد توقعوا احتمالية الانفصال الكامل . وكمثال ، فان المناضل المنسحق السابق ديميتري روبل Dimitrij Rupel الذى أصبح بعد الانتخابات وزيرا للشئون الخارجية بسلوفينيا ، أعلن :

« ان هذا البلد يتفكك . ويعانى من عدم استقرار عظيم وخاصة من وجهة نظر النظام الشرعى اذا ، فاننا مجبرون على البحث عن صيغة جديدة للتعايش » (٤٧) .

وأصبح نودجمان أول رئيس جمهورية غير تسيوى فى تاريخ يوجوسلافيا . وقد حكم كمرشح للاتحاد الكرواتى الديمقراطى القومى Croatian Democratic Union ولم تكن مقولة ديمتري أقل إثارة من مقولة ميلوسفيتش الاستفزازية فيما يخص التساؤلات الموجهة لصربيا عن الحدود الموجودة بين الولايات ، وعمّا اذا كان اليوجوسلاف على وشك أن يصبحوا كونفدرالية . ان المرارة والشك الموجودين مسبقا بين الصرب والكروات ، كانا قد تفاقما بسبب نضال ميلوسفيتش من أجل قومية صليبية . وحقيقة ، فان رئيس الجمهورية بدأ للكثيرين فى هذا البلد وللمراقبين الأجانب مثل ممارس للسلطوية الشعبية .

« ان رد الفعل الشيوعى القومى الأخير الذى حاول أن يعيد عقارب الساعة الوراء لم يسفر سوى عن الاسراع ببلقنة Balkanization يوجوسلافيا المضادة للشيوعية » (٤٨) .

وفى يونيو ١٩٩١ طالب البرلمان السلافى والكرواتى باستقلال تلك الجمهوريات . ووجهت الحكومة المركزية فى بلجراد انذارا الى الزعماء السلافيين المتمردين ، الا أنهم رفضوا بشم أن يخضعوا له . وتدخل الجيش وهاجم المؤسسات العامة والوحدات الخاصة فى

سلوفينيا . وبدأ الجيش لكثيرين كأداة تفرض الهيمنة الصربية . ووسعت يوجوسلافيا فريسة للاضطرابات والمعارك المكثفة من جراء تصدى القوات العسكرية لقوات الدفاع السلافية ، مما أسفر عن قتل وجرح كثيرين . لقد بدأت التسوية عندما قبل الصرب سياسيا كرواتيا كرئيس للجمهورية الا أن القضايا التي اثارَت الأزمة ظلت موجودة . وبدون إعادة النظر في دستور البلد لجعله أكثر مرونة من أجل سيادة حقيقية ومشاركة للجمهوريات ، فان يوجوسلافيا لن يكتب لها البقاء . فى نفس الوقت ، فان تدخل الجيش فى الشئون السياسية - وهى ضربة غير معلنة حقاً - كرس نموذجاً غير محدد المعالم سيطبق فى أوروبا الشرقية بعد أن تخلصت من الشيوعية .

ان انهيار الشيوعية اليوجوسلافية ، واللامركزية السياسية الاقتصادية ونمو الحركات القومية ، بما فى ذلك الجماعات الشوفينية المتطرفة ، أدى الى موقف يندر بالانفجار حيث أصبح تدخل الجيش أمراً محتملاً ، واضطهد الصرب فى كوسوفو Kosovo الالبان وهددت الأصولية الكرواتية الصرب فى كرواتيا ، وانجذب السلافيون الى حكم الفيدرالية الأوروبية المركزية Central European Federation ولأن المسلمين يبدون كرههم للمسيحيين ، والمسيحيون يهاجمون المسلمين ، وطبقة العمال يسودها الاضطرابات المزمنة ، ويواجه نحو ٢ مليون عامل شبح البطالة كنتيجة للاصلاحات الاقتصادية الكبيرة ، فان يوجوسلافيا التسعينيات أصبحت قنبلة موقوتة من المحتمل انفجارها فى أى وقت . وحتى ذلك الحين كيف يمكن لمثل هذا الحدث أن يمنع تردى البلاد لمزيد من الفوضوية بل كيف يمنع انزلاقها لحرب أهلية ؟ . لم يبق من يوتوبيا المارشال تيتو عن الجمهوريات المتسقة التى تجمعها الأيديولوجية والأمل وفى بناء اشتراكية مستقلة سوى الأطماع والسخط .

البانيا : وداعا ستالين :

ولأن القوى المحركة للاقطار التابعة سابقا للسوفيت كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى سنة ١٩٩٠ الثورية ، بدت ألبانيا وكأنها حصن لا يمكن اقتحامه ، وتتمسك تماماً برفضها للبرالية ودفاعها العنيد عن الأرثوذكسية اللبينية . وقال زعيم الحرب الشيوعى رامز عاليا Ramiz Alia فى نوفمبر ١٩٩١ ، ان بلاده متمسكة برفضها للتغييرات التى يادر بها جورباتشوف ، وحذر من هؤلاء الذين ينشدون

تقليدها ، ولأنه بدا وكأنه يتسبب كثيرا أعداء الإصلاح المحافظين مثل نيكولاى شاوشيسكو وفيديل كاسترو قال عاليا :

« اننا نؤكد خاصة على ذلك عندما نفكر ما يحدث الآن في البلدان في الشرق ، هناك التحق البرجوازيون والافتهازيون بنوى أخرى ووجدت تكتيكاتها واستراتيجياتها لازالة الاشتراكية كنظام اجتماعي . ومع سمات ديماجوجيه عن الحرية والحقوق الديمقراطية التي تتجلى في الجماهير الكادحة لخدمة أفراد مدانين للشعب والشرائح الاجتماعية وبحجة اصلاح الاخطاء التي ارتكبوها هم أنفسهم قاموا بالتأكيد مرة أخرى على قوازين المجتمع على الطراز الرأسمالي » (٤٩) .

ولمنع انتشار عدوى الأفكار « التعديلية » فقد اتخذت اجراءات أمن مشددة في البانيا في بداية التسعينيات ولكن دون جدوى فان اند التغيرات في البلدان الأخرى كان أكثر قوة من آلة الدعاية الشيوعية ، وفي يونيو ١٩٩٠ لجأ آلاف من الألبان الى السفارات الغربية في تيرانا ، وفي يوليو ولأن الحكومة الشيوعية أدركت مدى ضعفها ، فقد سمحت لهم بترك البلد (٥٠) . وفي أكتوبر ١٩٩٠ عانى النظام من هزيمة أخرى فقد قال أكثر الكتاب البارزين في البلد ورمز الشباب الألباني اسماعيل قدار Ismail Kadare الفكر المحنفي به الذي كان في الماضي مؤيدا لانقسام خرجة عن جورباتشوف ، والذي ساهم في رسم صورة البطل القومي للزعيم جورباتشوف :

« حتى الآن كنت أحاول أن أجعل النظام ناعما الى الحد الذي يجعله مقبولا في البانيا » وفي سياق مقابلاتي وتبادلي الخطابات مع الرئيس في الربيع الفائت ، عبرت بوضوح عن أهمية تحقيق ديمقراطية سريعة وأصلية وكاملة في البلد . ولأنه ليس هناك أية امكانية لقيام معارضة شرعية في البانيا فقد اخترت هذا المسار الذي لم أمل أبدا أن أخذه والذي لا أحبذه للآخرين » (٥١) .

وبعد عدة شهور وبعد أن لاحظ بداية تطبيق سياسة الانفتاح في بلده ، قال قدار انه في حالة التحول الديمقراطية في البانيا ، فإن سرعة التغير تكون مسألة حياة أو موت » (٥٢) .

وكما لو كان يقرأ الواقع البولندي ، فقد اندلعت موجة من المظاهرات الطلابية من أجل الديمقراطية أدت الى مرحلة سياسية دراماتيكية .

ولأن الاضطراب الجماهيري تطور ، فقد بدا انه تعلم من الدروس المستفادة من نهاية شاوشيسكو الوضيعة . ان نظام الحزب الواحد

قد أزيل ، وسمح للمعارضة أن تتكون ، وبدأ تأثير أرملة أنور خوجة .
 نكسمجي كزعيم لـجبهة الشعب الديمقراطية People's Democratic Front يخفت ، ولأول مرة منذ عشرين عاما أعلنت ألبانيا نفسها دولة ملحدة ، فان الجماهير احتفلوا في الكنائس الأرثوذكسية البونانية Greak Orthodox Churches أنها نهاية رمزية لمرحلة من التطرف والعصب وكان ذلك في ٢١ ديسمبر ١٩٩٠ والمناسبة هي العيد ١١١ ميلاد ستالين ، وبدلا من تناول الأنخاب الأرثوذكسية التقليدية ، فان تـساحنة تحركت الى شارع ستالين بـتـيرانا Tirana's Stalin Boulevard في منتصف الليل وحملت التمثال البرونزي الأسود للطاغية السوفيتي ، وعُلق من رأسه على ظهر الشاحنة (٥٣) . وسرعان ما تشكلت الأحزاب السياسية ونسابت الجماهير لدعم الديمقراطية .
 وبسبب الحكومة بإجراء انتخابات متعددة الأحزاب تجرى في شهر مارس ، ولكن بعض زعماء المعارضة كشفوا الحيلة التي سبق استخدامها جبهة الانتاـذ الوطني الرومانية في اندفاعها لاستغلال نقص المعلومات والارتباك بين الجماهير ، وقال جينسي بولو ، المتحدث الرسمي عن الحزب الديمقراطي المعارض :

« لقد كان هناك العديد من القلقين والرعب السياسيين ، ان الآثار التي خلفها ستالين كانت قوية جدا ، حتى اننا لا نعتقد ان الوقت كان كافيا قبل الانتخابات كي نطرح اطارا بديلا للطريقة التي يفكر بها أغلبية الناخبين ، ونحن لهذا السبب نتجنب الإفراط في التفاؤل بإمكانية الفوز » (٥٤) .

وبعد كل هذه التحليلات والاستنتاجات المميزة ، فانه من الواضح ان الحزب الحاكم أدرك أن الطرق القديمة للقمع الارهابي لا بد ان يتم التخلي عنها وانه يجب على زعماء ألبانيا أن يتحركوا بعيدا عن النموذج الستاليني الجامد والذي حرصوا عليه - في الماضي - ووضعه تحت حراستهم . وحقيقة ان المعارضة خطت في انتخابات مارس ليفوز بأغلبية الأصوات في المناطق الحضرية ، بنما نجح الشيوعيون في الريف . وهذا يشير الى أن الانتقال الى التعددية سوف يتضمن مشروعا عريضا من أجل الصحوة المدنية ، خاصة في المناطق التي تعاني من نقص المعلومات . ولوحظ عامل آخر أثناء انتخابات ألبانيا وهو أن محاولات الحكومة النظامية لارهاب المعارضة ، واستخدامها لوسائل الاعلام التابعة للنظام لتصفية المعارضة . وفي هذا الاطار ، كان هناك تشابه بين ألبانيا ورومانيا .

الفصل السابع

- Kenneth Jowitt, "The Leninist Legacy", in Ivo Banac, ed., (١)
Eastern Europe in the 1990's (Ithaca, N.Y. : Cornell University
 Press, 1991).
- Timothy Gaston Ash, "Eastern Europe : Après le Déluge, (٢)
 Nous, "New York Review of Books, August 16, 1990, p. 52.
- Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (٣)
 (New York : Random House, 1990), p. 105.
- Celestine Bohlen, "Double-Headed Eagle Cries to Serbs for (٤)
 Revenge." *New York Times*, September 12, 1990.
- Alexis de Tocqueville, *On Democracy, Revolution, and (٥)
 Society*, ed. John Stone and Stephen McNell (Chicago and London
 University of Chicago Press, 1980), p. 98.
- Robert C. Tucker, ed. *The Marx-Engels Reader* (New (٦)
 York : Norton, 1978), p. 595.
- Ash, "Eastern Europe," pp. 53, 54. (٧)
- See Stephen Engelberg, "Walcsa's Victory Now Complicates (٨)
 Poland's Unease," *New York Times*, December 30, 1990.
- Dan Ionescu, "The Communist Party Re-Emerges Under a (٩)
 New Name", *Report on Eastern Europe*, 1, no. 51 (December 21,
 1990) : 22-27.
- Ash, "Eastern Europe," p. 51. (١٠)
- See "Reorienting the Security Services," an interview with (١١)
 Peteruska Sustrova, Deputy Minister of Internal Affairs and a
 longtime opposition activist, in *Uncaptive Minds*, November-
 December 1990, pp. 38-40.
- Karol Modzelewski, "Who and What Makes a Leader," (١٢)
Uncaptive Minds, November-December 1990, p. 32.
- Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe*, (١٣)
 pp. 115-16.
- See Charles S. Maier(*The Unmasterable Past : History, (١٤)
 Holocaust and the German National Identity* (Cambridge, Mass.,
 and London : Harvard University Press, 1988).
- Christopher Husbands, 'Haunted by the Ghost of Nazism', (١٥)
The Independent (London), January 10, 1990.
- Henry Kamm, "East German Social Democrats Back a (١٦)
 Candidate and a Unification Plan," *New York Times*, February
 26, 1990.
- Serge Schmemmann, "East Germany's Ballot : Voting Away (١٧)
 a Nation," *New York Times*, March 18, 1990.

- Frankfurter Allgemeine Zeitung*, June 27, 1990, quoted in (18)
- Roland D. Asmus, "An Obituary Without Tears", *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 18.
- Rada Nikolaev, "Between Hope and Hunger," *Report on Eastern* 2, no. 1 (January 4, 1991), : 5 - 10. (19)
- Zlatko Anguelov, "The Leader and His Movement", *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 27-28. (20)
- "Bulgaria' Reichstagsbrand ?" *EER*, 4, no. 3 : 29. (21)
- For a survey of the Bulgarian changes during 1990, see (22)
- John D. Bell, "'Post-Communist' Bulgaria", *Current History* (Philadelphia), December 1990, pp. 417-20, 427-29.
- Jiri Pehe, "The Instability of Transition," *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 12. (23)
- Henry Kamm, "Civic Forum, Prague's Leading Party, Splits in Two," *New York Times*, February 12, 1991. (24)
- "President Havel's Speech on the Anniversary of the 1968 Invasion," *EER*, Autumn-Winter 1990, p. 93. (25)
- Ivan Volgyes, "For Want of Another Horse - Hungary in 1990," *Current History*, December 1990, p. 423. (26)
- Ibid.*, p. 424. (27)
- Rudolf L. Tokes, "Hungary's New Political Elites : Adaptation and Change, 1989-90." *Problems of Communism*, November-December 1990, p. 64. (28)
- See the interview with the Hungarian social philosopher Mihaly Vajda in *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 43. (29)
- Celestine Bohlén, "Hungarians Are Thriving, Gloomily," *New York Times*, June 24, 1991. (30)
- For an informative and dispassionate analysis of the spilt, (31)
- see Jakub Karpinski, "The Difficult Return to Normality, *Uncaptive Minds* (New York), November-December 1990, pp. 24-26.
- Jacek Maziarski, "The Goals of the Center Alliance," *East European Reporter*, Autumn-Winter 1990, p. 7. (32)
- Interview with Zbigniew Bujak, *East European Reporter*. Autumn-winter 1990, pp. 10-11. (33)
- Mary Battiata, "The Two Lech Walesas : Solidarity Hero Accused of Demagoguery", *Washington Post*, November 22, 1990. (34)
- Victoria Pope, "Lech-Luster : Walea's Personal Transformation," *The New Republic*, December 3, 1990 p. 25. (35)
- Barbara Spinelli, "The Day After", *La Stampa* (Milan), November 30, 1990, English translation in *Uncaptive Minds*, November-December 1990, p. 35. (36)

- See Piotr Wierzbivki's masterful essay "Lech Walesa : The Sphinx from Gdansk" *Uncaptive Minds*, November-December 1990, pp. 27-31. (27)
- Vladimir Tismaneanu, "Sindromul Bucuresti," *Romania Literara* (Bucharest), August 9, 1990. (28)
- "Proclamatia de la Timisoara," *Romania Libera* (Bucharest) March 20, 1990. English translation in *East European Reporter* Spring-Summer 1990, pp. 32-35. (29)
- For the difficulties of Rmania's transition to democracy, see Vladimir Tismaneanu, "The Revival of Politics in Romania", in Nils H. Wessell, ed., *The New Europe n Revolution in East-West Relations* (New York : Proceedings of the Academy of Political Science, 1991), 85-99. (30)
- See Vladimir Tismaneanu, "Homage to Golan," *The New Republic*, July 30 -- August 6, 1990, pp. 16-18 ; William McPherson, "In Romania," *Granta*, no. 33, pp. 9-59 ; Mihnea Berindei Ariadna Combes, and Anne Planche, *Roumanie, le livre blanc : La réalité d'un pouvoir néo-communist* (Paris : La Decouverte, 1990). (31)
- "Romanian Resistance". *East Reporter*, Autumn-Winter 1990, pp. 89-91. (32)
- J. L. Talmon, *The Origins of Totalitarian Democracy* (New York : Praeger, 1960), p. 6. (33)
- David Binder, "Exiled Romanian King Has Hopes of Return," *New-York Times*, February 17, 1991. (34)
- Milan Anrejevich, "The End of an Era, New Beginnings ?" *Report on Eastern Europe*, January 4, 1991, p. 39. (35)
- Robin Alison Remington, "The Federal Dilemma in Yugoslavia," *Current History*, December 1990, p. 408. (36)
- Brenda Fowler, "Slovenes Vote Decisively for Independence from Yugoslavia", *New York Times*, December 24, 1990. (37)
- Sabrina P. Ramet "Serbia's slobodan Miloosevic : A Profile", *Orbis* (Philadelphia) Winter 1991, p. 105. (38)
- "Alia Epeaks on Ideology, Changes in Bloc," *FIBS — Eastern Europe*, November 29, 1989 p. 6. (39)
- See Simon Jones, "Albanians Cheer for Their New Freedom," *The Indepent* (London), July 14, 1990. (40)
- "Top Albania Writer Seeks Asylum in France a Blow to His President", *New York Times*, October 26, 1990. (41)
- David Binder, "Albanian Exile Writer Sees Reform", *New York Times*, December 6 ,1990 (42)
- "Albania Removes Statues of Stalin," *New York Times*, December 22, 1990. (43)
- Paul Anastasi, "New Albania Barely Conceals a Stalinist Bedrock," *New York Times*, January 20, 1991. (44)

الخاتمة

مخاوف ، وفوبيا ، واحباطات .
أوروبا الشرقية بين العرقية والديمقراطية
« ان تصبح هدفا للازدراء أو الترحيب من جيرائك - حسب
هواهم - يعد واحدا من أكثر التجارب المؤسفة التي يمكن
أن يمر بها الأفراد والمجتمعات ويعانون من جرائها .
فتكون نتيجتها غالبا أن تتحول الخصال الحقيقية أو
الخيالية للفرد لنوع مرضى إذ تتحول نظيرته للكرامة
والسعادة لنظرة احتقار وعداوة » .

آسيا برلين

Isaiah Berlin

من وارسو الى نيرانا ومن براتسلاف الى صوفيا تجاوزت أوروبا
الشرقية الماضي الشيوعي ودخلت مرحلة جديدة . أما الحاضر والمستقبل
فهما الآن في يد الممثلين الوطنيين ، وعليهم يتوقف بناء السياسات
الديمقراطية . وليس بمقدور أحد ان يحدد خطأ ارشاديا لعملية
الانتقال . وليس هناك مخطط يضمن اليسر والسهولة لهذا الانتقال
الكبير ، ومن ثم بدا واضحا أن الصراع في تلك المجتمعات أخذ يستقر
بين العصب الديمقراطي والسلطوية . وأسفر انتصار السلطويين عن
مواجهات داخلية ودولية . ومن ناحية أخرى ، لا يستطيع المرء أن
يتجاهل تواجد مجموعات وأحزاب مؤثرة داخل كل هذه البلدان تدشن
مبادئ التعددية ومستعدة للقتال من أجلها .

ويرى كثيرون من أبناء جيلي أن الشيوعية قد أوشكت على الفناء .
لقد ترعرعنا في أوروبا الشرقية (التي تضم أيضا الاتحاد السوفيتي)
معتقدين بأن نظام الأشياء كما أملت علينا هذه السلطة القائمة هو نظام
أبدى لا يمكن التخلص منه . ويفضل الملحمة التي صنعت أحداث ١٩٨٩
فان هذه القناعة لم يعد لها أي تبرير إذ أزيح الستار الذي غشى على
أعيننا . لقد كانت معجزة السقوط المفاجيء تجسد آمال العصر الأنفي
السعيد للعق . وعجزت الراديكالية المهترئة أن تجد طريقة تخفي
بها - أو تنكر - سقوطها . وكان هذا الانهيار يعني نهاية الحلم
اليوتوبى عن الخلاص العالى واعادة اكتشاف مبادئ الحرية الفردية

التي نظر اليها طويلا نظرة احتقار . وانهار المجتمع المغلق الذي مجده العديد من « المفاضلين من أجل الروح الانسانية » ، تحت ضغط القوى التي بهرها المجتمع المفتوح باحترامه للتمايزات والأقليات بل وباحترامه لأقل الفروق الفردية .

وربما بدأت عملية الانهيار مع شجب جورباتشوف لشخص ستالين (الخطاب السري) في الجلسة التاريخية لمؤتمر الحزب الشيوعي السوفيني العشرين . وفي هذه الليلة من فبراير ١٩٥٦ تلتقت أسطورة الاتحاد الوجودي للشيوعية العالمية ضربة قاتلة . وما تبع ذلك كانت فترات طويلة من التعنت ، والاهمال ، والتميزات العرقية المؤثرة والمناظرات المشبوبة . وفي كل المجتمعات الشرق أوروبية فان الأسطورة التي قدست الحزب كمؤسسة تعليمية جماعية لاقت كل ازدراء من جانب الحركات الاجتماعية الجديدة والتي لم تحدد توجهها سواء باليمين التقليدي أو اليسار . ونظر للشيوعية على أنها هيوقراطيات عتيقة ، وبأنها محاولات منظمة للسيطرة على العقل الانساني والاحتياجات الانسانية باسم الأيديولوجية الميتة التي ابتكرها الفيلسوف الألماني الشاب في أواسط القرن العشرين . وبسرعة مذهلة أدرك الناس انه كان في مقدورهم التخلص من السترات الأيديولوجية الحديدية التي كبلتهم ، بل وتمزيقها وخلق روابط انسانية تجمع الشعوب . وفي هذا القرن ، ولأن المعلومات أصبحت هي أكثر الأسلحة العصرية فاعلية لكشف الحقائق والمصارحة والتواصل ، فقد تفجر ينبوع من الأكاذيب والخرافات التي تؤكد على استمرار الطغاة الشيوعيين .

ومنذ أربع سنوات اشتركت في مؤتمر مدينة نيويورك وكان موضوعه « هل ستبعث الدول الشيوعية من جديد ؟ نظرة من الداخل » . وفي أكتوبر ١٩٨٧ خلقت اصلاحات جورباتشوف حالة من الهوس الذي تفشى . ان بزوغ نجم الزعيم التعديلي على قدس أقداس الأمبراطورية بدا محركا للأمال العليا من أجل التغير السريع . وبدأ واضحا أن هامش التسامح — أو قل الحدود التي سمح بها الكرملين لتجريب الاصلاحات — قد اتسع على نحو دراماتيكي . وما كان بدعة تحت قيادة برجنيف دشن كخط حزبي جديد ثعت قيادة جورباتشوف . وكمثال على ذلك فان شعار الاشتراكية ذات الوجه الانساني قد تبناه السكرتير العام الشيوعي واعتبره واحدا من الأهداف الرئيسية للبروسترويكا ولكن كان هناك من يتشكك في ذلك ، وانكر منها أن الكاتب وعالم المنطق السوفيتي المنشق المعروف الكسندر زينوفيف Alexander Zinoviev كتب مقالا أسماه « التماسيح لا تطير » . وأرسل

ميكولوس هرانسي المعكر المشق والمناضل في سبيل حقوق الانسان ورقة بعنوان « عديدة الاحثيب » ، شيرا الى ان تمسك سساليين في بودابست ومؤكدا على أن الأحدية النوتاليتارية قد نوت للمحد الذي جعل الامل في الليبرالية مجرد وهم . وقال ايفان سفيناك الفيلسوف التشيكي بأن اصلاحات جورباتشوف لم تكن سوى ذر للرماد في العيون ، بل انها نوع آخر من الدعاية التي تمارس من أجل انقاذ النظام وليس ازالته . وقال المنشق الروماني ميهاي بونسي بأن صعود الدولة الشيوعية القومية — كأكثر التطورات المحملة — شيء يمكن أن نتوقعه تحت قيادة جورباتشوف .

ان التمرد العظيم لعام ١٩٨٩ اخترق العديد من المعتقدات الراسخة وأجبرنا على التساؤل عن الحكمة من قيام مثل هذه الأنظمة ومدى فاعليتها — وعندما نشر الى قضايا عام ١٩٨٩ الشائكة لا بد أن تذكر العوامل التالية : أولا : أن الاجتياح قد ارتبط بفقدان الأحلاف الحاكمة التام لشرعيتها الكاملة في المنطقة . والحقيقة أن هذه الظاهرة قد بدأت في أواسط الخمسينيات ولكنها بلغت ذروتها أثناء العهود المشقومة للبرجينيكية وما ساد فيها من احباطات ، وبدت الاشتراكية التي على الطراز السوفيتي والتي لا أمل فيها ولا رجاء هي آخر ما في جراب السلطويين . وفقدت احزاب الشيوعية ثقتها بنفسها وعانت من الفساد السياسي الذي لا يمكن اصلاحه . وكل المحاولات التي بذلت لبعث العقائد البالية وكذلك المناورات التي دبرت للانخراط في استراتيجية التحديث aggiornamento التي تبناها الكاثوليك كتب لها الفشل في أوربا الشرقية ، وفقد هؤلاء الذين داعبهم الأمل في الخلاص على يد السلطات القائمة ما تبقى من ايمان . وبمعنى آخر ، فإن الأسطورة الماركسية قد استنفدت طاقتها المستقطبة ولم تعد هناك جماعات اجتماعية تعنى باستمرار الهيمنة التي تم توظيفها لعقود طويلة . ثانيا : ولأن حماقة ورعونة الاحلاف الشيوعية قد تدت للعيان فإن القوى الاجتماعية الجديدة تصدرت المقبلة وطرححت حلولاً بديلة . وبمعنى أشمل ، فإن هذه القوى كانت وقود المجتمعات المدنية الصاعدة بمعنى أنها بذلت الجهد الجماعي من أجل اقامة مؤسسات متوازية تناطح المؤسسات الحكومية ، وتحصد ادعاء الحكومة باليهمنة على الحياة الانسانية . ثالثا : ان أفول الأسطورة الماركسية وصعود نجم المجتمع المدني قد ارتبطا بالكوارث الشاملة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التي بليت بها كل تلك البلدان . ان أكثر الأسباب التي أدت للانهيال المدوي كان افلاس الاشتراكية الاقتصادية

والوعى بأن اقتصاد السوق فقط هو الذى يمكن أن يضمن الشفاء الاقتصادى . لقد فشل الاقتصاد الموجه فى اثبات فاعليته التى يمكن أن تبرر التضحيات التى فرضت دون توقف على الجماهير . رابعا : لا يجب أن نقتل من أهمية المؤثرات الخارجية ، فنبون التغيرات التى اجتاحت الكرملين وبدون ما قام به فريق جورباتشوف (ياكوفليف - وشيفرنادزه) من إعادة صياغة الاستراتيجية الدولية السوفيتية بما فى ذلك عقيدة اللا ايدولوجية فى العلاقات الدولية ، فان التغيرات فى أوروبا الشرقية كانت ستظل أكثر بطئا وبالنأيد أكثر تفتتا وعصبوية وعنفا . ولم يعد الاتحاد السوفيتى يلوح بالتدخل العسكرى خاصة بعد انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان . وبدل واضحاً بالنسبة للمناضلين المدينين فى أوروبا الشرقية أن الاتحاد السوفيتى لن يقوم بمغامرة جديدة يمكن أن نسيء الى صورته الجديدة وعلاقاته الدولية التى أقامها جورباتشوف مع الغرب .

ان طبيعة هذه الثورة تحتاج لتحليل خاص ، لأنها تفسر أيضا الصعوبات التى واجهتها تلك البلدان أثناء فترة الانتقال . أولا لابد للمرء أن يلاحظ أن ثورات ١٩٨٩ قد تحدث المبدأ المزائف للسلطة والذى بنى على الأكاذيب الخاصة بالشرعية المزعومة .

لقد كانت التغيرات ، حقيقة ، تغيرات ثورية لأنها استبدلت شكلا من الحكم بآخر اذ أن كل هذه الأنظمة كانت ديكتاتوريات تم تحويلها لأساطير وكان سببها الوحيد للبقاء فى السلطة هو السبب الذى عرف - ايدولوجية - بالدور التاريخى لطبقة العمال وحزبها المحروس وبمجرد أن اعتبر هذا الوهم الأيدولوجى هو المعقول الوحيد والذى استغلته البيروقراطيات الفاسدة لاغتصاب السلطة ، لم يبق لديها الا التخويف والارهاب والجمود رصيذا تستخدمه لاستمرارها فى هذه السلطة . ان هذه الفورة كنت مركبا مؤلفا من تيارين : الموجة المعادية للشيوعية من ناحية والبحث عن حلول مؤسساتية وأخلاقية بديلة من ناحية أخرى .

ان ما حدث فى أوروبا الشرقية منذ عام ١٩٨٩ كان تدميرا ذاتيا تلقائيا للثقافة الشيوعية السياسية (بتقاليدها وعاداتها واتجاهاتها وعقائدها وقيمها وسلوكياتها) ، والجانب « الايجابى » فى ذلك هو ما تم من بعث للمجتمعات المدنية [التى اما تفتت أو دمرتها الشيوعية] وبناء صيغ سياسية أصيلة .

ان النظام الشيوعى كان متسقاً مع طنطنة اليسار ، وكانت الأنظمة كلها مجرد دكتاتوريات سلطوية حاكمة أسلوبها هو المناورة والنلاعب سواء أكان بالقومية الدولية . ان قادر المجر كان - الى حد ما - متميزاً بلا ميالاته الحمقاء بالرموز القومية التى لعبت دورها فى بناء المعارضة الصاعدة . وباستثناء ألبانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، فان باقى بلدان دول أوروبا الشرقية التزموا بالسوفيائية ، ومن ثم كان منطقياً ان تتحول السلطات الحاكمة فى تلك البلدان لمعاداة التوتاليتارية (أو معاداة الشيوعية باللغة السياسية الشرق أوروبية) . وحال ان حول السوفيت الأيديولوجية الى دين دولة وحال ان بدت الأيديولوجية الليبينية للشعب مرادفة للمقمع فان الانتفاضات كانت معادية للأيديولوجية أيضاً . ان معظم التمردات اندلعت نتيجة الاحباط النفسى الذى سببه الاستبداد السياسى للأحلاف الحاكمة وبالتالي اكتسبت هذه التمردات أبعاداً معادية لتلك الممارسات . ان هذه الحالة من عدم الثقة التى تطل برأسها من وراء الكواليس وهذه الاستعدادات الميكافيلية تفسر حماس الشعب لاكتساب فعالية سياسية . وقد نظر للأنظمة السياسية على أنها ساحة يرتفع فيها المتسلقون السياسيون والانتهازيون والدجالون بل والمحتالون . وفى كل تلك البلدان كان هناك احساس عام بأن الحكومات ترفض الحياة الخاصة بل واى شكل من أشكال الخصوصية . وهذا يفسر ما اتسم به الاجتياح من معاداة للاستاتيكية والنومفكلاتورا وكذلك يفسر الصعوبات المستمرة التى واجهتها محاولة صياغة مبادئ جديدة للسلطة .

ورغم أن هذه المبادئ لم يتم - فى الغالب - تحديدها الا ان هناك افتتاناً « فوضوياً » جارياً فى أوروبا الشرقية يسير متوازياً مع المحاولات التى تبذل للابقاء على النظام يمكن تسميته بالافتتان الأبوى .

وفى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا فان الجماعات والحركات التى ظلت سرية لآمد طويل تسببت فى اندلاع انفجارات تلقائية من السخط والذى تسبب فى انهيار - ولكن بدون عنف - للأوتوقراطيات الشيوعية . ان مفاوضات المائدة المستديرة والانتقالات السلمية لأشكال التعددية الأصيلة فى تلك البلدان قد ضمنها ما وصلت اليه هذه المجتمعات المدنية من نضج وكذلك تحلل الأحلاف الشيوعية والذى يرمز له الانشقاق الحتمى بين « الصقور » أو (المحافظين الستالينيين) والليبراليين (الجورباتشوفيين) ذوى التوجه الاصلاحى .

وفي نفس الوقت كان هناك صراع بين الفهم الأخلاقي (أى وجهة النظر اللاسياسية) والالتزامات المؤسسية التي تفسر التردد المحدود وتحفظات الجماعات المعارضة السابقة .

ولأن المجتمع المدني كان ينمو أو يتفرخ في رومانيا وبلغاريا ، ولأن الأحلاف الشيوعية كانت عاجزة عن تقديم أية بدائل لمارساتهم السياسية المتردية فإن المرحلة الانتقالية كانت مختلفة في تلك البلدان على نحو له دلالة .

ففي رومانيا نبع الرعب الذي أصاب الجماهير بسبب طبيعة المرحلة التي جاءت بعد حكم شوشيسكو ادراك مرير لطبيعة جبهة الخلاص الوطني ، وبدلاً من تحديد هويتها بتبني المبادئ المعادية للثوتاليتارية ، قامت بانتحال هذه المبادئ على نحو برجماتي يخدم مصالحها . وفي خطابه في مؤتمر تيمشورا عن « السلطة والمعارضة في مجتمعات ما بعد نهاية الشيوعية » (أقيم في ٢٥ — ٢٧ مارس ١٩٩١) قدم نيكولاي مانونتشيسكو ، أحد المفكرين الرومانيين البارزين ورئيس حزب الحلف المدني The Civic Alliance Party وهو التشكيل السياسي المشابه للمنبر المدني Civic Forum في تشيكوسلوفاكيا تحليلاً للموقف الجارى في بلده وكذلك قدم فكره عن المسار الذي يمكن اتباعه .

« كانت لنا ثورة أطاحت بالدكتاتورية ، ولكنها فشلت في تحطيم الشيوعية . لقد تم استعادة البنى القديمة بأسماء جديدة . وأحياناً بنفس الأشخاص الذين كنت تراهم هناك وعندما تعد المجتمعات الشرق اوروبية نفسها للسير في طريق الإصلاح ، فانهم لا بد أن يعرفوا انهم يطاردون وهماً . ولا يمكن اصلاح الشيوعية ولكن الممكن الوحيد هو تدميرها . ولن يعم السلام في مجتمعنا ولن تكون هناك أية فرصة للديمقراطية قبل ان تقضى على آخر جرائم الشيوعية » (١) .

ويرى ستليان تناسى Stelian Tanase وهو المناضل المدني الروماني المؤثر ، والمحرر بصحيفة آكيوم Acum (الآن) الأسبوعية ، ان التناقض الأساسي في رومانيا بعد شوشيسكو هو الصراع بين المجتمع المدني الجنين (ومعظمه من المعارضة النيابية) والدولة بما ورثته من بنى شمولية (٢) . وفي بلغاريا عملت قوى المعارضة على تجاوز النزاع الدائر داخل صفوفها والقبول عليه . وعلى أية حال ، فإن المناضل المدني والفيلسوف السياسي ديمترينا بترونا Dimitrina Petrova عبر عن رأيه قائلاً :

« ان الأمل فى تعددية حزبية حقيقية قد ضرب بجذوره على وعى الجماهير : ان العملية كلها قد بدأت توا . والمعارضة الحقيقية لم تتبدل للعيان بعد ، وعلى المدى البعيد ستنظم علاقات الملكية وستحدد صيغ تنظم آليات السوق التى ستتبع فى المستقبل . والآن فأننا نعيش فى ظروف لم تستقر بعد ولا تنتمى لآى نظام سياسى بعد . اننا نمر بتجربة تحمل المسئولية ومحاولة الفهم بمشاركة فى خلق صيغ سياسية لفدنا ومستقبلنا » (٣) .

والآن فان المفكرين من كل البلدان قد انغمسوا - بعد نهاية التوتاليتارية - فى رحلة بحث عن الذات وتقصى طبيعة المجتمع الذى لم تتحدد معالمه بعد وتكشف الحقائق التاريخية .

ان الشيوعيين - رغم الهرطقة الدولية - قد شجعوا دائما سياسة الاكتفاء الذاتى وهذا بالطبع مهم على نحو حيوى بالنسبة للمناضلين المدنيين والمفكرين النقاد فى كل الدول الشيوعية السابقة ، كما يجب عليهم فتح باب الحوار ومناقشة قضايا لم تطرق من قبل . واذا كان حقيقيا ان جمهورية صربيا ورومانيا قد توارتا خلف التشيك والسلافيين بلغة التطور التعددى ، أو كما يجادل البعض بأن السلافيين تواروا خلف بوهيميا والصرب وخلف سلوفينيا ، فانه من الواضح تماما ان هذه المجتمعات جميعا قد مرت بتجربة عذابات متشابهة فى شكلها ومسبباتها ان كانت جميعا ضحايا للغائية العالمية التى تزعم ان اليوتوبيا اللاتبقية تستطيع بل - ولابد لها - ان تبني دون أخذ ارادة الشعب فى الاعتبار ، انهم جميعا يواجهون الآن تحديات لا حصر لها لخلق اطار شرعى يمكن ان يضمن تعبيرا اجرائيا عن أكثر دعائم الديمقراطية أهمية وهى السيادة الشعبية . ان المقولة النيرة التى قالها اجنس هيلر ردا على رأى توموشى كارتون آش بأنه ليس هناك جديد [لا فكرة جديدة ، ولا مؤسسة جديدة أو ظاهرة جديدة] يمكن ان تنجم عن الاجتياح المعادى للتوتاليتارية فى أوروبا الشرقية .

« ان الثورات السياسية وقعت او قامت من أجل تغير السلطة ، ومن هذا المنطلق ، فان الثورة السياسية عام ١٩٨٩ وقعت فى كل الدول التى كانت تتبع - فى السابق - روسيا من أجل استبدال سيادة الحزب بالسيادة الشعبية - أو على الأقل - سيادة العضو الحزبى ان لم يكن سيادة الشفيلة أيضا » (٤) .

كل هذه المجتمعات تفاوتت — قليلا أو كثيرا — في حرمانها من الثقافة المدنية ، وفيها جميعا كان الفرد يقمع ، ويكبل ، وتتلاعب به يد السلطة كبيدق . وتمر هذه البلدان اليوم بتجربة بعث لسياسات حرة تتبنى الفردية الآدمية التي أخذت فرصة التعبير التلقائي عن نفسها . ونضيف هنا أن هذه البلدان جميعا أعادت اكتشاف قيم التجربة الثورية باعتبارها نتاجا طبيعيا وأخلاقيا ومصدرا أساسيا لممارسة السياسة . ونرد على هؤلاء الذين ادعوا بأن الأفكار الجديدة لم تكن نتاجا للفـورات المعادية للتوتاليتارية في أوروبا الشرقية انه حدث تحديدا أثناء الفورات (الثورة — التمرد ، الصحة والانتفاضة — وأفضل تعبير ما زال البحث عنه جاريا) أن أعيد صياغة مفاهيم مثل السيادة الشعبية ، والوعي الأوربي ، وحقوق الانسان ومفاهيم عديدة أخرى ، ومن ثم اكتسبت معانى جديدة . وأثناء هذه الأوقات العصيبة كانت لدى الناس فرصة ليكونوا جزءا من السلطة في جمهورية عظمى Great Republic ولرد اعتبار « التقاليد الثورية وكنزها المفقود » وهو التعبير الذى استخدمته هانا أرينديت .

لا يمكن أن نعتبر أن الشيوعية قد انتهت تماما ، ولكن يمكن القول بأن الشيوعية بمدلولها التقليدى كحركة تبشيرية وعسكرية وعنصرية انتهت بالمعنى التاريخي . وباستثناء هؤلاء السلطويين فلا يوجد هناك أحد يأخذ الأيديولوجية الشيوعية مأخذ الجد .

ومن ناحية أخرى فإن الأحداث الأخيرة فى سلوفاكيا ويوجوسلافيا وكذلك تنامي الحركات السلطوية الشعبية فى معظم بلدان أوروبا الشرقية ، أظهر أن الديمقراطية ليست الوريث الشرعى أو الحتمى للشيوعية . ومن بين الأوهام الشائعة أثناء حقبة الرعب التى تلت الشيوعية كانت تلك الشيزوفرينيا وتفشى الروح القبلية وروح الجماعة المزعومة ، والرومانسية الخيالية وهو ما سيطر ظاهرة هامشية على نحو صرف . ولأن الموقف الاقتصادى استمر فى التدهور فإن الأحلاف الجديدة فشلت فى طرح نماذج مقنعة من أجل انتقال سريع ، وهذه الحركات قد اكتسبت قوة دافعة اذ دعمت أولا بين الجماعات الاجتماعية الحانقة والمتحررة من الأوهام ، ذلك باستثناء رد فعل هؤلاء العاجزين عن تجاوز الآثار المأسوبة للانفصام المفاجئ عن الماضى . وفى البلدان التى توجد فيها أقليات قومية عريضة ، فإن الحركات الديماجوجية قد استغلت وناورت بما تفشى من غضب وفوبيا عرقية .

وكان لا بد أن يصيبنا شعور بالارتباك بسبب العبثية التاريخية
أى الخلط الهستيرى فيما يتعلق باندلاع التعصب والتطرف . حقيقة ،
فإن الخط الفاصل يبدو الآن فاصلا فعلا بين الأحزاب الموالية لأوروبا
والتي تحمل مبادئ ليبرالية وبين منافسيها الذين ينشدون الهاما مبالغا
فيه من الأسماء الكلية مثل الأخوة والأرض الأم وكرم المحتن أو حتى
الشيوعية الدموية . وكان الصراع - إذ جاز للمرء أن يسميه كذلك -
أمدا بين الشيوعيين واللاشيوعيين عنه بين الجماعية والليبرالية
فالأخيرة موالية للغرب ، متسامحة وتهتم بالحوار ومؤيدة للانتقال
السريع لاقتصاد السوق ، أما الأولى فهي رجعية ، مشينة ، عنصرية ،
وعسكرية ومطلقة . ولم يكن رالف دارندور الوحيد الذى ذكر ما قد
ينطوى عليه الخروج عن الخط السياسى لأشكال جديدة من الديكتاتورية
بما فيها الفاشية من مخاطر . وكتب آدم مثنك يقول :

« إن القومية تولد من جديد تصحبها الصراعات القومية ،
والعنصرية وكابوس المعاداة للسامية . إن نظرية قاتم التاريخ قد
وجدت طريقا للعودة . إن ذلك البلد ذو تقاليد ديمقراطية ضعيفة ،
إلا أنه وصل لمنتصف الطريق من أجل استعادة الكيان القومى مرة
أخرى وكى يرد لتاريخه القومى كرامته وهيبته . لقد ردوا الاعتبار
- لما تم التخلص منه - فى الفترة الشيوعية ، لكل الأشياء التى كان من
المفروض شطبها من صفحات التاريخ القومى ومن ذاكرة الأمة . واليوم
فإن رد الاعتبار لكل شئ يستحق ما زال مستمرا فيما يعد تكفيرا عن
أكثر الجرائم الانسانية بشاعة ، بما فى ذلك التعاون مع النازية - وإذا
وضعنا الصراع على مستقبل هذه الدول فى الاعتبار ، فإن هذا الصراع
والذى يستخدم فيه المرء نفس المصطلحات التى تعد مألوفة بالشمس -
الينا إذ تتردد فى المناظرات التى تجرى فى الغرب ، هو فى الحقيقة
مختلف تماما . إن جذوره لا تكمن فى الصراع بين اليمين واليسار حتى
ولو كانت هناك قوى على الساحة السياسية تستخدم هذه المصطلحات
كى تشير لتوجهاتهم . إنه ليس صراعا بين المحافظة والليبرالية ولم يعد
صراعا بين الراديكالية والتحديث . إن الصراع القائم هو صراع على
الشكل الجديد المطروح للأمة أى أنه الصراع على ما إذا كانت الأمة
ستقلد النماذج الأوروبية أم ستتبع طريقها الخاص من خلال تطوير نوع
راديكالى مختلف من النماذج » (٦) .

إن التطرف الذى تبناه الأصوليون الرومانيون ، غالبا ما ارتبط
بالتشكيل الحاكم فى هذا البلد (جبهة الخلاص الوطنى) كما ارتبط بوجود

ظاهرة « حزب X » تحت قيادة ستانسلو تيمنسكى المهاجر الكندى -
البيروفى الغربى الاطوار والمعروف فى بولندا . وكان التفسير الوحيد
للأزمة التاريخية هو رفض نتائج التحديث والاحتفاء بقيم الحياة
الزراعية الأصلية السابقة على الحياة الصناعية . وكل هؤلاء الذين
يطالبون بوحدة أوروبا الديمقراطية كانوا هدفا لحملات القذف وصموا
بأنهم عملاء للمؤامرة الماسونية الصهيونية البلوتوقراطية .

ولا يجب أن نتابع - على أية حال ، فإن الصورة ليست قاتمة ،
فصعوبات الارتقاء المستمر من التوتاليتارية الى نظام سياسى مختلف
هى امر طبيعى ومتوقع . وبالمقارنة بعام ١٩٧٦ ، نستطيع الآن أن
نقول تحديداً بأن الدول الشيوعية - على الأقل فى بلدان الامبراطورية
السوفيتية « الخارجية » السابقة لن تصمد أمام هذا التغير . وكان من
المتعذر أن تسقط الأنظمة اللينينية ، الا أن ما خلفه النظام الستالينى من
عوامل ثقافية وأخلاقية كان شيئاً شديداً التعقيد يصعب على الانسان
التنبؤ بتوابعه . وكى يحدث الانتقال بنجاح ونعبر عن مدى الحاجة
لفتح هذه المجتمعات المغلقة ، فإن هناك بعض العوامل التى يجب
أخذها فى الاعتبار :

أولا : الحاجة الملحة لمناخ سياسى تعددى بأحزاب سياسية
أصلية .

ثانيا : اعادة صياغة العلاقة بين السلطة والمعارضة وذلك
بالاقتناع بأن وجود معارضة فعالة وديناميكية هو شئ لازم من أجل
ديمقراطية صحية وصحيحة .

ثالثا : تشكيل حلف (طبقة) سياسية يكون قادرا - رغم التمايزات
الطبيعية المتباينة على التواءم مع القيم العليا التى تميز مجتمعا مفتوحا
بما فى ذلك دور السوق وحماية الفرد والضمانات التى لا مفر منها
للأقليات .

ان التوجه الديمقراطى للمسار السياسى الرئيسى كان - فى العديد
من البلدان - شيئاً لا يمكن التفكير فيه ، وهنا لا بد أن نشير لما هو
متفش فى تلك المجتمعات من مخاوف حتمية وقوبيا ، واحباطات ،
وعصبوية وهو ما يفسر استعداد العديد من الأفراد للالتحاق بركب
الحركة العرقية التى سبق التنبؤ بها . ولأن العالم يذكر بأسى من
تجربة المانيا/ وفيمار (V) Weimar ان الديمقراطية ليست درعا للهجمات

التي تشنها مثل هذه الحركات . ومن ناحية أخرى فإن السياسات الديمقراطية يمكن أن تدرأ الخطر عن نفسها إذا تخلصت من الأوهام وحددت دوافع اجتماعية وسيكولوجية لمواجهة التطرف العام . ان انكار مثل هذه العوامل والاكتفاء بهرطقة من الفخر الذاتي ليس طريقا لتدعيم أو تقوية الانتصارات التي تحققت في العامين الأخيرين . ولأن بسلك المجتمعات قد خرجت من مستنقع الشيوعية فإن بدائلهم المطروحة قد تباينت من الديمقراطية الحقة الى العرقية الأصولية .

ان المعوقات التي يواجهها الجديد الاقتصادي ترجع الى ما ورثته هذه المجتمعات عن الشيوعية من أزمات سياسية واجتماعية ثقافية . ولاجتناب انفجار هذه التوترات على يد الحركات التي يحركها الحنق والكراهة ، ولاجتناب الحاجة الملحة للتوليف بين اليمين المتطرف والراديكالية « الفقرة » اليسارية ، تحتاج المؤسسات الديمقراطية التي تكونت حديثا الى خلق توازن مضاد على مستوى السيكولوجية الاجتماعية .

ان السياسات الديمقراطية لا تقام على الأوهام والعواطف ولكن على البحث الدعوب عن الخطوات المجهولة التي تعزز ما أرادت الشيوعية أن تهدد ، منها محاسبة السلطة السياسية ، ووجود هيئة قضائية مستقلة مع مؤسسات أخرى تهدف الى حماية - وليس اذلال - الفرد . ان بناء هذه المنظمات ينبع من رغبة الحزب السياسي في أن يحقق تكامل شخصية الفرد ، لأن الحرية السياسية تكمن في الوعي بأن الانسان ولد حراً وان الحكومة ليس لها الحق في تنصيب نفسها مراقبا عليه للحد من حريته .

• الفصل الثامن •

Nicolae Manolescu, "How We Have to Destroy CoMMunism". (١)

(٢)
East European Reporter, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 79-80.
Stelian Tanase's speech "Romanian Civil Society and Violence" delivered at the Timisoara Conference, March 25-27, 1991.

Dimitrina Petrova, "Political Pluralism in Bulgaria," *East European Reporter*, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 35. (٣)

Agnes Heller, "Is There Anything New Under the Sun in East-Central Europe ?" paper presented at the Timisoara Conference ; French translation : Est-Quest (Paris), June 1991, pp. 8-11. (٤)

Hannah Arendt, *On Revolution* (Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books 1985), pp. 215-81. (٥)

Adam Michnik, "The Presence of Liberal Values," *East European Reporter*, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 71, and Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (New York : Random House 1990). (٦)

(٧) ويمار : مدينة تقع في الجنوب الغربي من جمهورية ألمانيا الشرقية ، وكان يطلق على جمهورية ألمانيا اسم جمهورية ويمار Wiemar Republic ، وذلك في الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٠ - (المترجمة) •

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت . و . قريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د . قدرى حفى وأخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وأدبنييت	القوة النفسية للأهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

رسائل وأحاديث من الملفى	فيكتور مـوجـى
الجزء والكل (مصاورات فى مضمـار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الثامض ماركس والماركسيون	سـدنى هـوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	دنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	د . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د . غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د . محيى الدين أحمد حسين

ج . دادلى اندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د . جوهان دورشز	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريکيين	حرب الفضاء
د . السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٣ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م بورا	التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د . سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
د . انور عبيد الملك	الشارع المصرى والفكر
والث وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
الآن كاسبىار	التذوق السينمائى
سامى عبيد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرا ويكراما ماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)
روى روبرتسون	الهيرويين والايدز
هاشم النحاس	نجيب محفوظ على الشاشة
دوركاس ماكليتوك	صور افريقية

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر • بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	وميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلى	أرنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د • صالح رضا
بداية بلا نهاية	م • ه • كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د • السيد طه أبو سديرة
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا • هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
الشاهنامه (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبرلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
قرايم زرادشت	اختيار / د • فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براخ وآخرون

نادين جورديمر وآخرون	دليل تنظيم المحاف
آدامز فيليب	سقوط المطر وقصص اخرى
زيجمونت هينر	جماليات فن الاخراج
ستيفن اوزمنت	التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
جوناثان ريلى سميث	الحملة الصليبية الاولى
توني بار	التمثيل للسينما والتلفزيون
بول كولنر	العثمانيون في اوربا
موريس بير براير	صناع الخلود
الفريد ج . بتلر	الكنايس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رودريجو فارتيماس	رحلات فارتيماس
فانس بكارد	انهم يصنعون البشر (٢ ج)
اختيار / د . رفيق الصبان	في النقد السينمائي الفرنسى
بيتر نيكوللز	السينما الخيالية
برتراند راسل	السلطة والفرد
بينارد دودج	الأزهر فى ألف عام
ريتشارد شاخ	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر تامة
نفتالى لويس	مصر الرومانية
عشر جاك كرابس جونيور	كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع
هربرت شيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / صبرى الفضل	مختارات من الآداب الآسيوية
أحمد محمد الشنوائى	كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة
اعداد / سوريال عبد الملك	حديث النهر
د . أبرار كريم الله	من هم القتسار
اعداد / جابر محمد الجزار	ماسستريخت
ه . ج . ولسز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
ستيفن رانسيمان	الحملة الصليبية
جوستاف جرونيباوم	حضارة الاسلام

رحلة بيسرتون (٣ ج)	رېتشاردف بېرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز مئز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	قيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريف - د
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج - برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج - كارفيل
فن المايم والبيانتومايم	توماس ليههارت
تحول السلطة ٢ ج	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف - م - بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستوفسكى (٢ ج)	جورج سسايز
ما هى الجيولوجيا	ويليام ه - ماثيوز
الحمى والبيض والسود	جارى ب - ناش
انواع الفيلم الأمريكى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير ردولف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السي	روبرت لافو

الكيمياء في خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجلد تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوش-يندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت. ج. ه. جيمز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
بحثاً عن القيم أفضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	أسحق عظيموف
كوننا المتمدن	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم	ثورمان كلارك
والتكنولوجيا	



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٦/٩٤٢٨

ISBN — 977 — 01 — 4943 — 8



فى أعقاب الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨، رفض الكاتب المسرحى فينسلاف هافيل الهجرة واستمر فى النضال دفاعاً عن الحقوق المدنية. وقدم مقاله «قوة المقهورين» الذى نشر عام ١٩٧٩ استراتيجية لعتق الأفراد الذين يعيشون فى مجتمعاتهم، تحت آلة القمع الغادرة والخفية وهو يظهر فى الصورة يعمل فى مصنع خلال السبعينات.

يحاول هذا الكتاب أن يشرح أصول واليات أحد أهم أحداث هذا القرن وهو سقوط الأنظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية، ولا يقتصر عرض هذا الحدث على مجرد التوصيف التاريخى، بل يتطرق إلى تحليله مركزاً على خمس أطروحات رئيسية حول تاريخ الشيوعية فى أوروبا الشرقية والمجتمع المدنى الصاعد واليات الثورة فى أوروبا الشرقية على النظم الشيوعية والتحول الديمقراطى، وقضية الصراعات العرقية التى بدأت تطل فى المنطقة بوجهها القبيح.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب